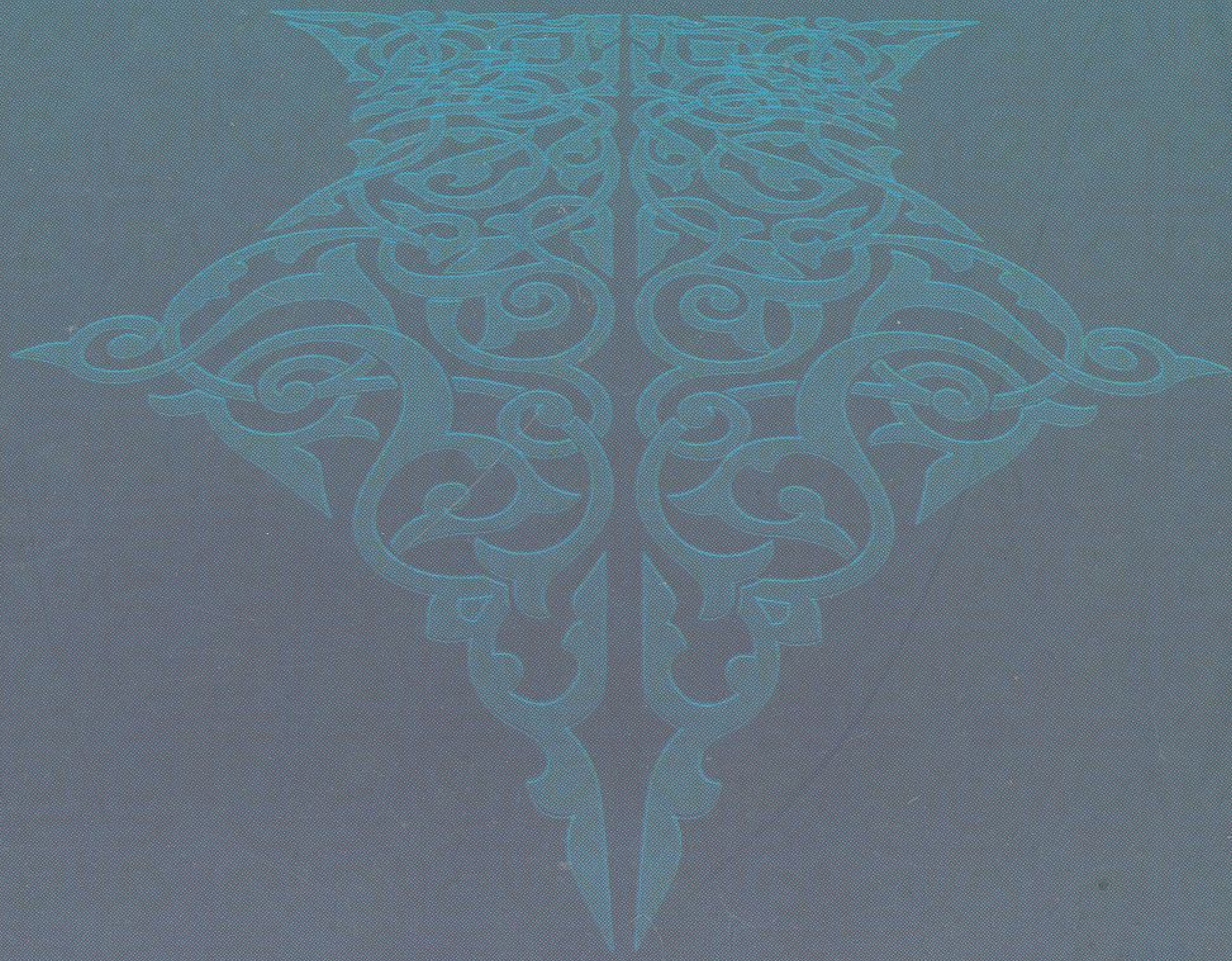
الجزء الأول

آثار الإمام
عبد الحميد بن باديس

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

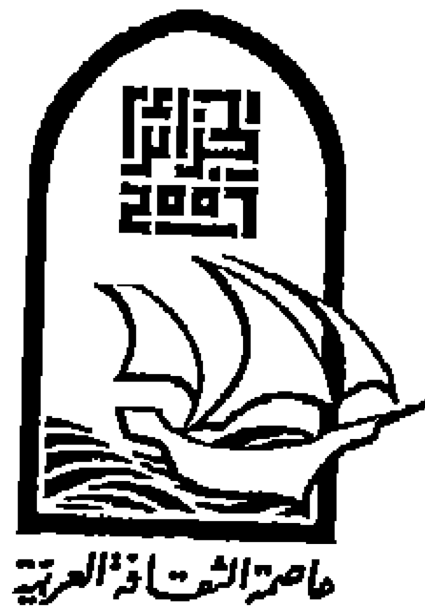




آثار الإمام
عبد الحميد بن باديس
رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

مجالس التذكير
من كلام الحكيم الخبير

الجزء الأول



صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- أيتها الإنسانية..!

أيها القارئ الكريم:

إليك مجموعة "آثار الإمام عبد الحميد بن باديس" -رحمة الله عليه- التي جمعت في أجزائها الستة تفسيره لآيات قرآنية كريمة وشرحه لأحاديث نبوية شريفة في موضوعات وأغراض شتى، الذي أسماه "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير وحديث البشير النذير". بالإضافة إلى ما كتبه في الدين، والسياسة، والفكر، والتاريخ، وتراجم الرجال والنساء من السلف الصالح، إلى غير ذلك من الموضوعات الهامة.

مجموعة "الآثار" التي بين يديك، تعتبر، بحق، من أهم المصادر الموثوقة التي يعول عليها، في معرفة الإسلام الصحيح، وأحكامه، وحِكمه، ومبادئه، وآدابه، وصفحات من تاريخ حياة الجزائر الحاسمة، وكان ظهور الجزء الأول من مجموعة الآثار هذه، يمثل حدثا جليلا في حياة الجزائر المستقلة، ففي سنة 1982م، قررت الحكومة أن تحتفل احتفالا عظيما، بالذكرى العشرين للاستقلال الوطني، فاقترحتُ على مجلس الحكومة -بصفتي وزيرا للشؤون الدينية- أن تتولى طبع الجزء

الأول من هذه الآثار على نفقتها، لكنها تعللت بنفاد الباب المخصص للجانب الأدبي من برنامج الاحتفال بالمناسبة، فما ثنى ذلك عزمي، بل زادني إصرارا على طبعه مهما كلف الأمر، فقمت بالبحث عمن يستطيع مساعدتي في ذلك، فاتصلت بصديقنا المرحوم الأستاذ **عبد الحميد عياط** صاحب دار البعث للطبع والنشر بقسنطينة، واقترحتُ عليه تولي طبع الكتاب، وإرجاء تقاضي أجره على ذلك، إلى أن يتوفر المال للوزارة، فوافق مأجورا من اللّه، فاتصلت على الفور بأسرة الإمام عبد الحميد بن باديس، للحصول على الموافقة* على نشر آثاره، فوافاني بها أخوه وتلميذه صديقنا الأستاذ **عبد الحق بن باديس**، حفظه اللّه، وفور حصولي عليها، شكلت لجنة برئاسة الأستاذ **محمد الصالح الصديق**، لتتولى جمع آثار الإمام من مجموعة "البصائر"، ومن مجموعة "الشهاب"، التي وضعها تحت تصرفنا المرحوم الأستاذ **علي شنتير** عضو المجلس الإسلامي الأعلى، وأحد تلامذة الإمام عبد الحميد بن باديس، وغير ذلك من المصادر الأخرى، كما قدم لنا الصديق الوفي الحاج الحبيبُ اللمسي صاحب دار الغرب الإسلامي مساعدة قيمة في هذا الصدد، فظهر الجزء الأول من هذه الآثار، في غرة جويلية 1982م، في موعد الاحتفال بالعيد العشرين لاستقلال الجزائر، الذي لم يتمّ لأحداث وقعت بلبنان، يحمل عنوان "**مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**" مُصدّرا بمقدمة تحدثتُ فيها عن أهمية الكتاب، ومنهاج الإمام ابن باديس في تفسير القرآن الكريم، ثم توَالى ظهور الأجزاء الأخرى من آثار الإمام الستة.

ثم طُبع مرة ثانية، مع مجموعة آثار المرحوم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، بمبادرة كريمة من وزارة المجاهدين، بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخمسين لاندلاع ثورة التحرير المظفرة.

وها هي آثار الإمام بن باديس -عليه رحمه اللّه- تُنشر مرة ثالثة على نفقة وزارة الثقافة، بمناسبة سنة «الجزائر عاصمة الثقافة العربية»، والتي نشكرها على التفاتتها الكريمة لهذه الآثار القيمة وطنيا وعالميا، وقد جاءت الطبعة في وقت يواكب حاجة المجتمع الجزائري إلى ما فيها من فوائد في العقيدة والعبادة، والأخلاق، والسلوك من ناحية، ويواكبُ -من ناحية أخرى- إقبالَ الدارسين الجامعيين على هذه الآثار للتّعرُف على المنهج الإصلاحي لهذا الإمام المجاهد المصلح، وهي دراسات مفيدة، ومباركة، نرجو أن تسهم حاضرا ومستقبلا في تعريف الجزائريين خاصة، والمسلمين عامة بهذا الرجل الذي فَهِمَ الدين فهمًا سديدا جعله يحمل همّ أمته، وهم الإنسانية جمعاء، كما يتضح ذلك في نداء وجهه إلى الإنسانية قاطبة داعيا إياها إلى السير في سبيل النبي محمد -صلى اللّه عليه وسلم- لتهتدي به وتسعد، كما يظهر ذلك من مقال كتبه بمناسبة المولد النبوي الشريف في البصائر في عددها 164 الصادر في 13 ربيع الأول 1358، الموافق 05 ماي 1939 الذي جاء فيه: "أيها البشر! في مثل هذا اليوم، وُلدَ محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب، فولدت الإنسانية ولادة جديدة، وأشرق على الكون نورٌ لم يَلُحْ من قَبل، أضاء لبني آدم طريق العلم، والعمل، والحرية، والسلام، في حظيرة الإخاء العام، فعودوا بالذكرى لحياة هذا الرجل الإنساني.. (الذي) أسقط اعتبار الأجناس والألوان في الأفضلية، وأعلن أن لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى اللّه، فعودوا إلى الأصول التي جاء بها هذا الرجل، إنها جُرِّبت، فصَحّت تجربتُها، فقد بُنيَت عليها مدنيَّة، ما في مدنيَّة اليوم من خير هو من أثرها".

«ولن تسعد الإنسانية إلا بالاحترام والتسامح، والتعاون، وبالوفاء في التعاقد».

«وتلك أمهات مما جاء به، فاتبعوه تعيشوا في رغد آمنين».

وختاما؛ نوجه شكرنا الجزيل لوزارة الثقافة وعلى رأسها معالي الوزيرة السيدة خليدة تومي، لإنجازها هذا المشروع العظيم، وإننّا لنرجو أن تمتد عنايتُها إلى آثار الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والإمام الشهيد العربي التبسي، وغيرهما من أعلام جمعية العلماء، ومجموعة "الشهاب" ومجموعة "البصائر"، فتتولى إعادة نشرها، وتوزيعها على المؤسسات والمعاهد العلمية، والمؤسسات التربوية والتعليمية، والتكوينية، والكشفية، والمكتبات: الوطنية، والولائية، والبلدية، والمراكز الثقافية لتنتفع بمضمونها القيِّم المُفيد أجيالُنا الحاضرة، والآتية، وتستلهمها في خدمة الجزائر خاصة، والأمة العربية والإسلامية عامة، والإنسانية كافة، إذ يصعب على الناشرين الخواص نشرها لكلفتها الباهظة.

واللّه نسأل أن يحقق الرجاء، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، وإنه نعم المولى، ونعم النصير.

عبد الرحمن شيبان

– رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

– ووزير الشؤون الدينية سابقا.

---

* أنظر نص الوثيقة: الصفحة484.

سورة الفاتحة مكية

بسم الله الرحمن الرحيم ①
الحمد لله رب العالمين ② الرحمن
الرحيم ③ ملك يوم الدين ④ إياك
نعبد وإياك نستعين ⑤ اهدنا
الصراط المستقيم ⑥ صراط الذين
أنعمت عليهم غير المغضوب
عليهم ولا الضالين ⑦

وءاياتها سبع

المقدمة

عبد الرحمن شيبان
وزير الشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم ،

وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين .

يحمل ظهور كتاب «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» في الوقت الذى يحتفل فيه الشعب الجزائرى العربى المسلم ، بالذكرى العشرين للاستقلال الوطني ، أكثر من معنى ..

ففي هذه المناسبة التاريخية العظيمة ، تقف فيها الجزائر لحظة لتنظر ما حققته مسيرتها الانمائية الشاملة من انتصارات في شتى ميادين الحياة المتكاملة ، من أجل بناء مجتمع الكفاية والعدل ، على أساس أن الحياة الكريمة لا تستقيم للفرد أو الجماعة ، الا اذا حققت التوازن اللازم بين متطلبات الحياة المادية ومتطلبات الحياة الروحية ..

وقد شهد القطاع الديني ، في السنوات الاخيرة ، في بلادنا ، نهضة اسلامية مباركة شاملة ، تتمثل في مئات المساجد التى ينجزها الشعب والدولة ؛ وبناء المجمع الاسلامى الكبير : الامير عبد القادر بقسنطينة ، واقامة مجموعة من المعاهد لتكوين الاطارات الدينية ؛ وبناء عشرات من المدارس القرآنية في مختلف ولايات الوطن ، وتوظيف خمسة آلاف معلم للقرآن الكريم .

ان الجزائر التى تسعى بحزم وثبات ، الى تعميق أسس شخصيتها العربية الاسلامية ، بوعى اسلامى صحيح ، يربط

ماضيها بحاضرها ، ويحمي مسيرتها من التعثر ، ويقي بناءها من التفكك ، تعلم علم اليقين ، أن ذلك لا يكتمل الا اذا جددت صلتها بالقرآن والاهتمام بحفظه ودراسته وتدبر معانيه ، والتأدب بآدابه . وأن خير ما يجسم إيمانها بهذه الحقيقة ، هو تكريمها للقرآن ومن خدموا القرآن .

فالجزائر ، شعبا وقيادة ، ما فتئت تردد في كل مناسبة ، حقيقة تاريخية كبيرة ، هي أنها بالاسلام خرجت من ظلمات الشرك الى نور الحق المبين ؛ وبه قاومت عوامل الفناء والاضمحلال في عهود الانحطاط والاحتلال ؛ وعلى ندائه استيقظت ؛ وبصدق الجهاد كسرت القيود وانتصرت . فلا عجب أن تشتمل الحكومة الجزائرية في هيكلها منذ الاستقلال ، على وزارتين : وزارة للمجاهدين ، ووزارة للشؤون الدينية ، تكريما للجهاد والمجاهدين ، وخدمة للاسلام الذى أذكى جذوة الجهاد ونصر المجاهدين ، ويحفظ لوطننا ولشعبنا الوحدة والمناعة في الدنيا والدين !

وليست هذه العناية بالقرآن وليدة مناسبات عارضة ، فالجزائر المسلمة ، طبعت منذ القديم على حب القرآن والتعلق به ، حفظا وفهما واقتداء ..

فاذا كان هذا اهتمامها بالقرآن ، في عهود الظلام والاستعمار ، فليس غريبا أن يزداد الاهتمام به ويعظم في عهد الحرية والاستقلال ؛ فتنظم له مسابقات رسمية ، ترصد لها الدولة جوائز تشجيعية معتبرة للفائزين من حفاظه والفائزات ، من مختلف الاعمار ، يتولى تقديمها السيد رئيس الجمهورية بنفسه ، بأحد بيوت الله ، في ليلة القدر من كل سنة .

وقد ساهمت وزارة الشؤون الدينية ، بمناسبة الذكرى العشرين للاستقلال ، بتنظيم مسابقة لاختيار أحسن مجود للقرآن الكريم ، وانتقاء أحسن مؤذن للصلاة ، من بين آلاف القراء والمجودين والمؤذنين المنتشرين عبر التراب الوطنى ؛ ورأت أن خير ما تكرم به القرآن ومن خدموا القرآن ، فى الجزائر بهذه المناسبة ذاتها هو تقديم هذا الاثر الجليل الذى تركه لنا امام النهضة الاصلاحية الجزائرية ، الشيخ عبد الحميد ابن باديس ... هذا الكتاب الذى طالما هفت اليه النفوس الظمأى الى معرفة أصل دينها الذى هو القرآن ، مفسرا بقلم أحد علماء بلدها المصلحين ، ممن واكبوا العصر ، واستعانوا بمعارفه المختلفة ، على فهم كتاب الله ، وسنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ الامام بن باديس ، عند تفسيره لسورة الفلق :

« ان القرآن كتاب الدهر ، ومعجزته الخالدة ؛ فلا يستقل بتفسيره الا الزمن ، وكذلك كلام نبينا ، المبين له ؛ فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة فى معضلات الكون ، ومشكلات الاجتماع ، لم تفهم أسرارها ومغازيها الا بتعاقب الازمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله فى الكون . وكم فسرت لنا حوادث الزمن ، واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث ، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين ، وأرتنا مصداق قوله ، صلى الله عليه وسلم ، فى وصف القرآن « لا تنقضى عجائبه » . والعلماء القوامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الخامد؛والفهم الجامد ؛ وانما يترقبون من سنة الله فى الكون وتدبيره فى الاجتماع ، ما يكشف لهم عن حقائقها ، ويكلون الى الزمن وأطواره ما عجزت عنه أفهامهم .. وقد أثر عن جماعة من

فقهــاء الصحابة بالقرآن قــولهم فى بعض هــذه الآيــات : « **لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد** » يعنون أنه آت ، وأن الآتى حوادث الزمان ووقائع الاكوان ؛ وكــل عالــم بعدهم ، انما يعطى صورة زمانه ، بعد أن يكيف بها نفسه » .

ان هذه الحقيقة العظمى ، التى عبر عنها امامنا الجليل ، المتمثلــة فى ارتباط التفســير ببيئــة المفــسر ، وأحوالها الاجتماعية ، وظروفها المعاشية ، وأبعادها السياسية والثقافية، هى التى زادتنا إيمانا بضرورة تعميم هذا التفسير واعتماده؛ فهــو أقرب الى مجتمعنا وبيئتنا ، وأكثــر درايــة بأدوائها وأدويتها . .

وقد اعتمدنا ، فى اعداد هذا التفسير ، مجموعة « مجلة الشهاب » ، بعد أن حصلنا على اذن مــن أسرة الأستاذ الامام المفــــسر .

منهاج الشيخ ابن باديس فى التفسير :

هو المنهاج الاسلامى المتكامل الذى ظهر على يد الشيــخ الامام محمد عبده رائد النهضة الاصلاحية التى قامت عــلى دعوة الامة الاسلامية الى العودة من جديد الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ البشير الابراهيمى ، فى مقال عــن الاحتفال بختم ابن باديس تفسير القرآن الكريم ، **نشر فى مجلة الشهاب وأثبت فى « التصدير » من هذا الكتاب .**

ثم جاء امام النهضة بلا منازع ، وفارس الحلبة بلا مدافع ، الاستاذ محمد عبده ، فجلا بدروسه فى تفسير كتاب اللــه عن حقائقه التى حام حولها من سبقه ولم يقع عليها ؛ وكانت تلك

الدروس آيــة على أن القرآن لا يفسر الا بلسانين : لســان العـــرب ولسان الزمـــان ! وبه ، وبشيخـــه جمـــال الـــدين ، استحكمت هذه النهضة واستمر مريرها (1) ..

ثم جاء الشيخ رشيد رضا ، جاريا عــلى ذلك النهج الذى نهجه محمد عبده فى تفسير القرآن ، كما جاء شارحا لآرائه وحكمته وفلسفته ، فى الدين والاخلاق والاجتماع .

ثم جـــاء أخـــونا وصديقنا الاستاذ الشيخ عبد الحميـــد ابن باديس ، قائد تلك النهضة في الجزائر ، بتفسيره لكلام الله على تلك الطريقة ، وهو ممن لا يقصر على من ذكرناهم ، في استكمال وسائلها ، من ملكة بيانية راسخة ؛ وسعة اطلاع على السنة وتفقه فيها ؛ وغوص على أسرارها ؛ واحاطة وباع مديد فى علم الاجتماع البشرى وعوارضه ؛ والمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع ؛ ومستجدات العمران ، يمد ذلك كله ، قوة خطابية قليلة النظير ، وقلم كاتب لا تفل لـــه شبـــاة (2) !!

أمـــا الخطوات التى اتبعها الشيخ ابن باديس فى تفسيره للقرآن ، فتتمثل فيما يلي :

أ ــ تمهيد يضع القارىء فى جـــو النص القرآنى المراد تفسيره ؛ معتمدا فى ذلك عـــلى سبب نزول الآيـــة أو الآيات المفسرة ، أو ربطها بما سبقهـــا ، أو بذكر ما يثـــير انتبـــاه القارئ الى القضية التى تعالجها الآية الكريمة ...

---

(1) المرير من الحبال : ما اشتد فتله .
(2) الشهاب : ج 4 م 14 ، ربيع الثانى جمادى الاولى 1357 هـ ـ جوان جوليت 1938 م .

ب ـ شرح لغـوى للمفردات الاساسية ، شرحـا يساعد القارىء على فهم مضمون النص ، بيسر ووضوح .

جـ ـ تحليل مركز للعبارات والتراكيب ، ليبرز خصائص الاسلوب العربى .

د ـ ايضاح المعنى العام للنص ، ايضاحا لا يشوبه ايجاز مخل ، ولا اسهاب ممل ..

هـ ـ استخراج ما فى النص القرآنى مـن حقائق وقيـم مختلفة : كـونية ، واجتماعيـة ، وأخـلاقية ، ونفسيـة ، وسياسية ، واقتصادية ، وتاريخية ، وتشريعية ؛ مركزا فى ذلك كله ، على البيئة الجزائرية بصفة خاصة ، وعلى الامـة الاسلامية بصفة عامة ، وعلى المجموعة الانسانية بصفة أعم ؛ مما كان له الاثر الفعال فى نفس كل مـن يسمع تفسيره أو يقـرأه ..

وتتضح للقارىء الكريم ، معالم هذه المنهجية ، مشتملة على هذه العناصر ، كليا أو جزئيا ، فيما تضمنه هذا السفر الجليل ، من تفسير آيات بينات من القرآن الكريم .



هذا ؛ والله نسأل أن ينفعنا بهذا الكتاب الجليل ، الذى يجد فيه شبابنا ، وكل داع الى اللـه ، من الائمة والمرشدين والمربين ، المادة المغذية ، والشعاع الهادى ، وأن يجزل الاجر والثواب للاخوان الذين ساعدوا على جمع هذا التفسير وطبعه ونشره ؛ وان يتغمد امامنـا الشيخ عبد الحميـد بن باديس برحمته ورضوانه ، وان يجزيه الجـزاء الاوفى على جليـل أعماله ، وانه تعـالى المستعان على حفـظ القرآن وتفسيره والعمـل بـه .

عبد الرحمن شيبان
وزير الشؤون الدينية

المدخل

نورد فيما يلي كلمات تلقي أضواء على مضمون هذا الكتاب وهي :

أ ـ تمهيد وتصدير للعلامة الاستاذ الشيخ محمد البشير الابراهيمي ، قدم بها العدد الخاص بختم تفسير القرآن الكريم ـ من مجلة الشهاب ـ سنة 1938 م .

ب ـ مقالات افتتاحية كتبها الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس بمجلة الشهاب حول « الذكر » و « التذكير » و « أفضل الاذكار » قدمها بين يدى دروس تفسيره التي سماها « مجالس التذكير » .

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على محمد وآله وسلم

تمهيد :

أتم الله نعمته على القطر الجزائرى بختم الاستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية . وكان اكماله اياه على هذه الطريقة فى خمس وعشرين سنة متواليات ، مفخرة مدخرة لهذا القطر. وبشرى عامة لدعاة الاصلاح الدينى فى العالم الاسلامى كله ، تمسح عن نفوسهم الاسى والحزن لما عاق امام المصلحين محمدا عبده عن اتمامه درسا . ولما عاق حواريه الامام رشيد رضا عن اتمامه كتابة .

ان اكمال تفسير القرآن على تلك الطريقة فى مدة تساوى ـ بعد حذف الفترات ـ المدة التى اكمل الله نزوله فيها ـ يعد فى نظر المتوسمين ايذانا من الله برجوع دولة القرآن الى الوجود ، وتمكين سلطانه فى الارض ، وطلوع شمسه من جديد ، وظهور المعجزة المحمدية كرة أخرى فى هذا الكون .

ثم كان الاحتفال بختمه بمدينة قسنطينة فى الثالث عشر من ربيع الثانى عام 1357هـ دليلا على انسياق الامة الجزائرية المسلمة الى القرآن، واستجابتها لداعى القرآن ، واجتماع قلوبها على القرآن ، وشعورها بلزوم الرجوع الى هداية القرآن ، ولا معنى لذلك كله الا ان احياء القرآن على الطريقة السلفية احياء للامة التى تدين به .

ثم جاءت حفلات التكريم للاستاذ المفسر ولوفود القرآن . وما لقيته تلك الوفود من سكان الحاضرة القسنطينية من صدق الحفاوة وكرم اللقاء وبشاشة المظهر ، وتهلل الاسرة ، واكرام المثوى ، واغداق الضيافة ـ آية بالغة على ان القرآن فعل فعله فى تلك النفوس فجمعها على التقوى،وهداها

لكـريم الخلال،وبسط شعاعه على جوانبها المظلمة فتعارفت بعـد التناكر وتآلفت بعد التخالف ويوشك ان يأتى بعد هذا التعارف الخير الكثير ٠

ولما كانت مجلة « الشهاب » هى لسان الحركة الاصلاحية التى قربت بين الامة وبين قرآنها من بعد ، وازالت ما بينهما من جفاء ٠ كانت تلـك المجلة حقيقة بان تؤرخ لهذا الموسم القرآنى العظيم وتدون وصفه وما قيل فيه ليبقى تذكرة خالدة للاجيال المقبلة ، وصفحة لامعة فى تاريخ النهضة الدينية العلمية بالجزائر ، وعلما هاديا لمؤرخيها والباحثين عن اطوارها من ابنـاء الغـــد ٠

وهل يمنع من ذلك ان صاحب المجلة هو الاستاذ المفسر ٠ وان معظم ما قيل فى الاحتفال دائر على تقريظه والثناء عليه والتنويه بأعماله ؟

وقد كان بعض ذلك،وأبت للاستاذ همته العلمية واخلاصه العمل للـه ان لا ينشر فى الشهاب الا ما هو من حقوق الدين والعلم والعربية دون ما هو من حظوظ النفس وتمجيد الشخص ٠ ولكن اخوانه من رجال العلم والادب الحريصين على تخليد هذا الاجتماع القرآنى المنقطع النظير ، رغبوا منه ان يتنازل عن حقه عن مجلة الشهاب هذه المرة ، واقنعوه بان كل كلمة قيلت فى مـدح شخصه والثناء عليه فهى مصروفة الى أعماله ، والى المبدا الذى وقف حياته عليه والى النهضة التى كان ـ بحق ـ بانيها ومشيد اركانها. الى الامة التى انفق عمره وقواه فى سبيل نفعها واحيائها ٠ وبأن تسجيل هذه الصفحة الوضاءة من صفحات الاصلاح ٠ من الواجبات على الشهاب لتتصل خطواته فى خـدمة الاصلاح الدينى وتسجيل اطواره ٠ وتتناسق صحائفه المدونة لتاريخه واخباره ـ فاقتنع ـ حفظه الله ـ واذن فى ان يكون هذا العدد من الشهاب خاصا بالاحتفال وتوابعه ٠ وطلب من رفيقه الوفى كاتب هذه السطور ان يكتب بقلمه كلمة فى تصدير العدد ٠ وكلمة فى تصوير الاحتفال وتلخيصا لما علق بذهنه من الفاظ درس الختم ومعانيه ففعل بقدر ما وسعه وقته وحاله ، وعسى ان نكون وفقنا لارضاء المتعطشين المترقبين الذين حبستهم الاعذار عن حضور الاحتفال ٠

تلمســـان   الابـراهيمى

تصدير

(محمد البشير الابراهيمى)

سئل بعض العلماء : أية آية تصلح أن تكون عنوانا على القرآن كله بحيث اذا كتبت على ظهر المصحف كانت تعريفا كاملا به ، شاملا لجميع المعانى الكلية التى يجدها المتصفح فيه كما تعرف الكتب الكبيرة بجمل قصيرة ، فكان جواب هذا العالم : الآية التي تصلح لذلك هي قوله تعالى : « هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

ولعمرى لقد وفق هذا العالم القرآنى الى الصواب فيما أجاب به . فالقرآن كتاب يحمل فى ثنيه دين الله الكامل . وكل ما سبقه من الكتب والصحف فهى ارهاصات له وبشارات به وارشادات اليه . ابتعث به نبيه الامين محمدا صلى الله عليه وسلم لهذا العالم الانسانى كله حين بلغ رشده الاجتماعى واستعد للكمال واستشرف لسائق من وراء العقل يكون سندا له اذا نزل ، وهاديا له اذا ضل . ومصححا لخطاه اذا أخطأ . ومخرجا له من ظلمات الحيرة اذا التبست عليه مناهج الحياة ومفسحا له فى آماله اذا ضيقت عليه هذه الحياة المحدودة حدود الآمال ، ومحررا له من أصناف العبودية الفكرية والبدنية التى تقلب فيها قرونا ، ومرشدا اياه الى وسائل الكمال التى كان يطلبها فلا يجدها . والآية الكريمة التى جعلها جوابا لسائله بيان الهى معجز للحكم التى اقتضت نزول القرآن والحكم التى نزل لبيانها القرآن والمثل العليا للكمال الانسانى الذى دعا اليه القرآن متدرجة فى وضعها البيانى تدرجها الطبيعى من نفس سامعها : بلاغ فانذار فعلم فتذكر .

وامثال هذا العالم من ربانيي هذه الامة ممن درسوا القرآن وتدبروه ومارسوه وراضوا أنفسهم على بيانه واستنبطوا منه الحكم التى أنزل لتحقيقها والعلوم التى جاء لتجليتها على الناس - يكون من خصائصهم هذه الملكة ملكة استعراض القرآن فى مثل ارتداد الطرف كلما تحرك لهم وجدان أرادوا أن يزنوه ، أو نجم فى آفاق نفوسهم خاطر وارادوا أن يصححوه ، أو القى عليهم سؤال وأرادوا أن يجيبوا عليه ٠

وما نظن بصاحبنا هذا أنه راعى القانون الاصطلاحى الجدلى فى انطباق الجواب على السؤال ، وانما هى هيمنة القرآن على نفوس أصحابه والهامها الاصابة فى الرأى والتسديد فى الجواب والفيح فى الخصومة ٠ فالسائل يطلب آية جامعة (لوظائف) القرآن - لا جرم أن أول ما يخطر ببال المجيب امثال قوله تعالى : « **يا أيها الرسول بلغ** » ٠ الآية وقوله تعالى : « **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ** » الآية ٠٠٠ وقوله تعالى : « **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ** » ٠ وقوله تعالى : « **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** » ٠ وغيرها من الآيات المبينة لاصول الدعوة القرآنية - ثم يلتمس راية تجمع هذه الاصول مع التنويه بهذا الكتاب الجامع لها ، فيقع على تلك الآية أو ما شاكلها ٠ والآيات الجامعة (لوظائف) القرآن كثيرة ومن السهل السريع الوقوع عليها عند هذه الطائفة التى أوتيت قوة الاستعراض ٠

وقد يسأل عالم آخر فيقع على قوله تعالى : « **هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** » أو قوله تعالى : « **هَـٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ** »٠ والكل مهيب رضى القانون الجدلى أم سخط ٠

وان كان هناك تفاوت بين الآيات فى الاحاطة والبيان فلكل جملة تزيد فى آية موقع ودلالة ٠ ولكل كلمة تزيد فى جملة معنى وحالة ٠ أما أنا - ولا أعوذ بالله من كلمة أنا - فلو القى على هذا السؤال لتمردت على قوانين الجدال وأجبت على المغافصة (1) والارتجال ، ولم أرع الا الاعتبار المناسب ومقتضى الحال ٠ وجررت السائل (عن وظائف) القرآن الى (وظائف) أهل القرآن مع القرآن ، وقلت للسائل : ضع على ظهر

(1) غافصه الامر : فاجاه على غرة منه واخذه مغافصة ٠

المصحف بالقلم العريض قوله تعالى : « وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ (فَاتَّبِعُوهُ) وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » . وقوله : « كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ (لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » ، وأجعل جملتى (فاتبعوه) و (ليدبروا آياته) بين أقواس على هذه الاقواس المحنية تصيب من قارئه شاكلة انتباه فتزعجه الى معرفة أن هاتين الآيتين هما جـواز الداخل الى أقطار القرآن وعلى هذه القلوب القاسية تستشعر حق القرآن عليها ووظيفتها التى يجب أن تقوم بها نحوه ، وهى التدبر لمعانيه واتباعه .

ان حقوق القرآن علينا من التدبر والاتباع هى التى يعروها ما يعروها من الاهمال والضياع والتفريط والغفلة . فهى التى يجب التنبيه لهـا والتذكير بها دائما والدلالة على مواقعها من آيات الكتاب العزيز وهى التى يجب على العالم القرآنى أن يختار للتذكير بها أصرح الآيات فى معناهـا وأظهر الجمل فى الدلالة عليها وأقرب الالفاظ لاذهان الناس واذا قارنا بين (لينذروا) وبين (ليدبروا آياته) وجدنا بينهما فرقا جليا لا يستهان به فى مقام التذكير والابلاغ فى التأثير فان الانذار ـ وان كان معناه الاعلام بالشىء مع التخويف من عواقبه ـ لا يستلزم التدبر الذى هو انفعال نفسانى ذاتى يفضى الى النظر فى أدبار الشىء وغاياته على وجه من التكلف والتدرج يفيده بناء تفعل ، وأثر الانذار تأثير خارجى ، وأثر التدبر تأثر ذاتى ، والانذار لا يشعر النفس ما يشعرها التدبر من العهد المسؤول والامانـــة الثقيلـــة .

أما الاتباع فهو ثمرة التدبر وهو الذى لا تتحقق الغايات التى يرمى اليها القرآن الا به ، وقد تكرر ذكره فى القرآن فى معارض شتى تـــدل مستعرضها على أنه هو سر التدين والتأله ، وانه المحقق للكمال وانه العالم من الظلال والهلاك فليتدبر التالى هذه الامثلة مـــن الآيات القرآنيــة : « اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ » . « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ » . « فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » . « وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ » . « اتَّبِعُــوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا » . « فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِــلُّ

وَلَا يَشْقَى » . « ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا » .« وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي » .

ويا للعجب من بيان القرآن وبيناته واعجازه بفنون ايجازه ـ ان الاتباع ضرب من قفوا أثر الغير وترسم خطاه والانقياد له وجعل الهوى تبعـا للهوى مع اطمئنان بالمشاركة في النتيجة خيرا كانت أو شرا ، وفي معناه من الهجنة أنه ينافي الاستقلال الفكرى في الفكريات والذاتى في الذاتيات فتجد القرآن يدفع عنك أثر هذه الهجنة العارضة فيأمرك بالتدبر واستعمال الحواس الظاهرة والباطنة في وظائفها الفطرية قبل أن يأمرك بالاتباع . حتى تطمئن الى أنك انما تتبع فيما فيه حق وخير ورحمة ثم اذا أمرك بالاتباع فانما ذاك فيما يتعالى عـن فكرك ادراكه أو يصعب عليك تمييزه أو يخاف فيه غبة الاهواء عليك وبعد الامر ينهى عن اتباع الهوى المضل عن سبيل الحق . وعن اتباع أهواء الذين لا يعلمون . وعن اتباع خطوات الشيطان وعن اتباع أولياء من دون الله ، وعن اتباع السبل المتفرقـة ـ توكيدا للمعنى الايجابى وايضاحا للحق الذى يجب أن يتبع .

الا أن المتدبرين للقرآن لا يخرجون من هذا الاستعراض البديع الا مؤمنين موقنين بان الاتباع الذى يدعو اليه القرآن هو عين الاستقلال التام للفكر والارادة والعقل والوجدان ، لانه يحميها من شرور الاهواء ويؤويها الى حمى الحق وحده والاحتماء بالحق الذى قامت به السموات والارض واستقر عليه تدبير الكون ونظامه ، استقلال ما وراءه استقلال .

« وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ » .

هذا حق القرآن علينا ، يجب أن نتخذ الآيات المنبهة عليه فواتـح في المدارسة وأن تتجاوب أصداؤها في جوانب نفوسنا حتى لا ندخل حرمه الا بعد أن نكون عرفنا حقه .

انه لم يمض عـلى المسلمين في تاريخهم الطويل عصرهم فيه أبعد عن القرآن منهم في هذا العصر ولم يمض على الدعاة الى الحـق وقت عظمت فيه العهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت ، وانه لا مخرج لهم من هذه العهدة ولا تحلل من هذا الميثاق الا بالدعوة الى القرآن ، فلا عجب ـ ونحن

نشعر بثقل هذه الامانة ـ من أن ترتفع أصواتنا بالدعوة اليه • وانما العجب الذى لا عجب بعده أن نسكت أو نقصر ، وان من أحكم الوسائل لجذب الامة الى القرآن وصف القرآن ، وتشويق الناس الى الاقبال عليه ، وتدبره وفهمـه •

فمن التسديد فى الراى والمقاربة فى العمل أن ترشد الامة الاسلامية الى معرفة ما ضيعت من خير وما خسرت من هداية ، بتضييعها للقرآن وانما تعرف ذلك ويبلغ مكامن الوجدان من نفوسها ، من وضعه والاشادة بشأنه والتنويه بجلاله وخطره والتنبيه على ما يحتوى عليه من العلوم الكثـيرة بألفاظ قليلة • وتقريب ما ينطوى عليه من المرامى المفيدة ، بالكلمـات القريبة • وشرح ما فيه من الحقائق المتفرقة بالجمل الجامعة ، فان ذلك يكون ادعى لرجوع النفوس الجامحة عنه اليه واعون على فيأتها الى حماه والاستظلال بظله والاستمساك بحبله •

وليت شعرى • أى بيان يضطلع بهذا ؟ ان وصف القرآن وأساليب التشويق الى القرآن لا توجد على أكملها فى غير القرآن فلو أن البلغـاء من كل أمة فى كل جيل اجتمعوا على أن يصفوه ببعض ما وصف بـه نفسه • وكانت قلوبهم على قلب رجل واحد وألسنتهم على لسان رجل واحد لعجزوا وقعد بهم القصور دون الغاية من ذلك •

ولقد وصفه جماعة من الباحثين فى اعجازه وأسراره ، والمتكلمين على قصصه واخباره • والمنقبين عن مثلاته وعبره والغائصين على نكتة التناسب بين آيه وسوره • فجاءوا بما يشبه قصورهم الانسانى لا بما يشبه كماله الالهى ! ووصفه قبلهم اعداؤه اللد من مضغة الشيخ والقيصوم أوصافا منصفة فما بلغ هؤلاء نبلاغتهم ولا أولئك بايمانهم وعلومهم غاية مما يريدون. وصفه الوليد بن المغيرة فقال : ان له لحلاوة • وان عليه لطلاوة وان أسفله لمغدق وان أعلاه لمثمر • فعبر بهذا الوصف عن وجدانه النفسى وعن أثـر القرآن فى ذلك الوجدان • ولاتصال الشعور بالوجدان ، جاء هذا الوصف شعريا كما ترى • وكأنه انصاف منتزع من نفس جائرة • واقرار مقتلع من سريرة حائرة • ووصفه شرف الدين البصيرى وصفا لا غاية بعده من كلام المخلوق فى الروعة الشعرية وتمكن الاقتباس وصدق التمثيل فقال :

الله أكبر ان دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
طلعت به شمس الهداية للورى وأبى لها وصف الكمال أفولا
والحق أبلج فى شريعته التى جمعت فروعا للهدى وأصولا
لا تذكر الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفىء القنديلا

ويا لله لهذا التمثيل المحكم فى الصراع الاخير وما يحدثه فى النفوس المفتونة بالمحسوسات ·

اننا نعد من اعجاز القرآن فى البلاغة ما هو شائع فى جميع آياته من الدقة المتناهية فى تحديد المعانى وتصوير الحقائق وتنزيل الالفاظ فى مراتبها وتلوين الاساليب والتزاوج بين الصفتين أو الصفات حتى كأنهما صفة واحدة كالقوى الامين · والغنى الحميد · والحفيظ العليم والعليم الحكيم · فليقصر الواصفون وليدعوا القرآن يصف نفسه بتلك الدقة العجيبة وذلك التصوير الرائع · وليسلك الدعاة سبيلهم الى نفوس الناس بهذه الاوصاف الرائعة من هذه الآيات الجامعة فان ذلك أدعى الى التأثير والتأثر وابلغ فى باب التشويق ، من كل تبويب فى الكلام وتحبير وتزويق.

أين يقع كل ما وصفه به البشر من قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » وما فى هذه الآية من جمع أصول الاصلاح التى جاء بها القرآن مرتبة فى الذكر ترتيبها فى الوجود ·

وأين يقع كل ذلك من قوله تعالى : « قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ » ؟

اللهم لا · · ·

كانت الامة العربية قبل الاسلام ـ ومثلها جميع الامم ـ فى جاهلية جهلاء فهى من الوجهة الفكرية فى أحط الدرجات · ومن الوجهة الاجتماعية فى أخس الحالات · وكانت لا تملك من أسباب النهضة الا لسانا قويا وفطرة غير معقدة · ولكن ماذا يعنى اللسان الخطيب اذا كان يصدر عن فكر

جديب ؟ فجاءها اللـه بالقرآن وفيه كل ما كان الفكر العربى يتطلبه من العقائد النقية والحقائق العلمية وكل ما كان اللسان العربى يصبو اليه من آفاق وميادين • فنهض العرب به وبلسانهم الذى نزل به وأنهضوا الامم معهم تلك النهضة التى زلزلت العالم الروحى العقلى فاذهبت مخارقه وثبتت حقائقه • وزلزلت العالم المادى فذهبت بطغيانه وشروره ورذائله وأقرته على التشريع العادل والمعاملة الرحيمة ، ثم لاءمت بين الـــروح والمادة بمعانى التوسط والاعتدال فى عقائد الاسلام وآدابه واحكامه وجاءت بالمعجزة الكونية الكبرى فى تحقيق الحلم الانسانى بتلك الملاءمة وهى أمنية عجزت عن تحقيقها كل تعاليم الارض ولم تف بها تعاليم السماء قبـــل الاسلام لحكمة وامر قد قدر • وانساح الاسلام فى الارض يزجى جيوش الاخلاق قبل جيوش الخلائق وبسط ظله على الاقطار الممتازة بخصوبـة الارض وعلى الامم الممتازة بخصوبة الفكر وزرع تعاليمه فى عقول مستعدة وأفاض عليها من روحه ، ان الغاية فى هذا الوجود سيادة فى الحق وسيادة بالحق وأن لا سبيل اليهما الا بالعلم والعمل وأن عمران الارض متوقف على عمران العقول والنفوس ، وبنى بذلك تلك الحضارة التى لا ينكرها الا مكابر يمارى فى الشمس وضحاها •

ان الآفـة الكبرى التى قضت عـلى الحضارات وجعلت عاليها سافلها ـ هى التفرق بين بناتها والمستحفظين عليها ، وقد كان للمسلمين ـ من بين الامم القديمة والحديثة ـ معتصم باذخ لو اعتصموا به لوقاهم مـــن التفرق ، فوقى حضارتهم من الانهيار ، وهو القرآن ودينه الاسلام ـ نعمة خضعوا بها دون الامم ـ •

كانت تعصف بهم من عواصف التفرق وتثور فيهم من طبائع الملك وغرائز المنافسة فيه ما اقله كاف فى تدمير الممالك وتتبـــير الحضارات فيرجعون الى القرآن ويعتصمون بالاسلام فيجدون فيهما الوزر الواقى • الى أن داخلتهم الاعراق المدسوسة ومازجتهم الجراثيم الغربية وابتلوا بلقاح سوء مما أفسد من قبلهم وكان من تأثير ذلك انهم انتقلوا من التفـــرق الذى يعصم منه الدين الى التفرق فى الدين نفسه وفى القرآن نفسه •

ثم زهدوا في الدين فلم تبق الا الصور العلمية بلا روح · وزهدوا في القرآن الا الالفاظ المتلوة بلا نذير · حتى كانت عاقبة امـــرها خسرا · وذاقت السوء بما صدت عن سبيل الله ·

ان اسلافنا قاموا بما شرط عليهم القرآن في قوله : « ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ». فتحقق معهم وعد الله في القرآن :

« وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » ، فكانوا خلفاء الارض يقيمون فيها الحق والعدل وينشرون فيها الخير والرحمة ويطهرونها من الشرك والوثنية ويحققون حكمة الله باقامة سننه الكونية والشرعية ، لا يراهم الله الا حيث يرضيه ان يراهم · لان مما أفادهم القرآن استجلاء العبر مـــن قوله تعـالى : « ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » وقوله تعالى : « هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » ، وقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » ·

وكان هؤلاء السلف يعلمون لماذا انزل القرآن ؟ ويعلمون انه كتاب الدهر ودستور الحياة · وحجة الله الباقية الى قيام الساعة وأنه واف كل الوفاء باسعاد البشر في الحياتين وأن عدم فهمه وعدم العمل به وعدم تحكيمه كل ذلك تعطيل له ·

ففهموه أولا وحكموه في اهوائهم ونزعاتهم فاستأصل باطلها ولطف من نزواتها ورجعوا اليه في فهم الحقائق الغامضة في الحياة والدقائق المشكلة في الكون والاخلاق التي يجب أن يتعايش بها الناس — فرجعوا الى معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ·

وقد انضوت تحت لوائه أمم مختلفة الاهواء والمنازع والفهوم فوحد أهواء وقارب بين منازعها وفهومها ووفق بين مصالحها · وهذه النقطـــة التي عجزت عنها التربية التعليمية والقوانين الوضعية الى يومنا هذا ·

يعتقد المسلمون كلهم ان سلفهم كانوا اكمل ايمانا من خلفهم ، وهذا صحيح ولكنهم لا يبحثون عن علة كمال الايمان فى السلف حتى لكانهم يعتقدون ان ذلك بوضع الهى وتخصيص ربانى لا يد للكسب فيه وهـذا خطأ فاحش وجهل فاضح ٠

وما دام الكلام فى الايمان فهاته وانظر كيف فهمه السلف ومن أى معين استقوا فهمه ومن اى افق استجلوا حقائقه ، ثم انظر كيف فهمـه الخلف ومن أين سقطت عليهم هذه الفهوم السخيفة ٠ ثم ارجع كل معلول الى علته بلا اجهاد للذهن ولا انضاء للقريحة ٠

ان السلف تذرعوا لفهـم القرآن ذريعتين : الذوق العربى الصحيح والسنة النبوية الصحيحة ، وقد كانوا يؤمنون بانه كـل لا يتجزأ ، وأن بعضه يفسر بعضه ، وقد استعرضوه بعد فهمـه بتلك الذرائع ، فوجدوه يعرف الايمان بالصفات اللازمة والتى يتكون مـن مجموعها ٠ فيقـول : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا » الآية ويقول : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » ٠ ويقول : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » الى آخرها ٠ ويقول : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ » الى آخرها ، ويقول : « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » الى آخرها ٠ ويقول : غيرها من الآيات الجامعة لشعـب الايمان وخصاله وصفاته الذاتية ، ثـم وجدوه لا يـذكر الايمان فى المعارض المختلفة الا مقرونا بالعمل الصالح ففهموا من القرآن ما هو الايمان وما هـى الاعمال الصالحة فآمنوا وعملوا الصالحات فكان ايمانهم أكمـل ايمان العمـل والكسب لا بشىء آخـر مـن الخـوارق والاختصاصات ٠ وعلى هذا النحو فهموا العبادة وتوحيد اللـه وكمالاته المطلقة والرسل ووظائفهم والملائكة الخ ٠

اما الخلف فقد عدلوا عـن هذا كلـه منذ صاروا يفهمون الايمان من القواعد التعليمية وفقدوا الذوق والاسترشاد بالسنة ٠ ان هذه القواعد

الجافة التى لا صلة بينها وبين النفس انما تنفع فى الصناعات الدنيوية ، اما فى الدين فانها لا تغنى غناء وقد افسدته منذ اصارها الناس عمدة فى فهمه حتى ضعف ايمانهم وضعفت تبعا لارادتهم واخلاقهم ، وكيف يفلح من يعدل فى تفهم الايمان عن الآيات المتقدمة الى قولهم ان الايمان هو التصديق وان النطق شرط أو شطر فيه وان النسبة بين الايمان والاسلام كذا الى آخر القائمة ؟

وكيف يكون مؤمنا (حقا) من يبنى ايمانه على هذا الجرف الهارى ؟ ان هذا موضوع واسع الجنبات وهو يتصل بباب أمراض المسلمين واسبابها ولا تتسع هذه الكلمة لبعض القول فيه فكيف باستيعابه ٠

تدبر القرآن واتباعه هما فرق ما بين أول الامة وآخرها وانه لفرق هائل فعدم التدبر أفقدنا العلم ٠ وعدم الاتباع افقدنا العمل ٠ واننا لا ننتعش من هذه الكبوة الا بالرجوع الى فهم القرآن واتباعه ، ولا نفلح حتى نؤمن ونعمل الصالحات ٠ « **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** » ٠

وان هذه النهضة المباركة المنتشرة اليوم فى الاقطار الاسلامية بشير خير بقرب رجوع المسلمين الى هذه الهداية ـ لان هذه النهضة بنيت أصولها على الدعوة الى كتاب الله وتفهمه والعمل به ٠ وقد كان من بواكير ثمار هذه النهضة فى باب التاليف تفسير الامام النقاد محمود الالوسى على ما فيه من تشدد فى المذهبية ٠ وتفسير الامير صديق حسن خان ٠ ثم جاء امام النهضة بلا منازع وفارس الحلبة بلا مدافع الاستاذ الامام محمد عبده فجلا بدروسه فى تفسير كتاب الله عن حقائقه التى حام حولها من سبقه ولم يقع عليها ٠ وكانت تلك الدروس آية على ان القرآن لا يفسر الا بلسانين لسان العرب ولسان الزمان ٠٠٠ وبه وبشيخه جمال الدين استحكمت هذه النهضة واستمر مريرها ٠ ثم جاء الشيخ محمد رشيد رضا جاريا على ذلك النهج الذى نهجه محمد عبده فى تفسير القرآن ، كما جاء شارحا لآرائه وحكمته وفلسفته فى الدين والاخلاق والاجتماع ، ثم جاء أخونا وصديقنا الاستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قائد تلك النهضة

بالجزائر بتفسيره لكلام اللـه على تلك الطريقة ، وهو ممن لا يقصر عمن ذكرناهم فى استكمال وسائلها من ملكة بيانية راسخة وسعة اطلاع عـلى السنة وتفقه فيها وغوص عـلى اسرارها · واحاطة وباع مـديد فى علم الاجتماع البشرى وعوارضه · والمـام بمنتجات العقـول ومستحدثات الاختراع ومستجدات العمران ، يمد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير · وقلم كاتب لا تفل له شباه ·

بارك الله في عمر الاستاذ فاتم تفسير كتاب اللـه ببيانه المشرق فى خمس وعشرين عاما من غـير أن تختل أعماله العلمية الكثيرة ولا أعماله المستغرقة لدقائقه فى سبيل هذه النهضة · وعرفت الامة الجزائرية قيمة ما اتم اللـه على يد الاستاذ ، فاحتفلت بهذا الختم كاعظم ما تحتفل أمـة ناهضة باثر ناجـح من آثار جهودها ، وكان من الاحسان في هذا العمـل المظيم ، ومن الاحسان للنهضة أن تسجل من هذا الاحتفال صورة منبهة على حقيقته ، فصدر هذا العدد من الشهاب وهو لسان حال هذه النهضة خاصا بهذه المنقبة مخلدا لهذا الاثر · مسجلا لبعض أوصافه وما قيل فيه ·

ونحن بما لنا من الصلة الوثيقة بهذه النهضة ومن العمل النزر فيها نغتبط بهـذه الخطوة السديدة وهـذه المرحلة الجديدة التى تمت بختم التفسير ، ونرجو أن تكون فى المرحلة الثانية أوسع مدى فى الهـداية وأكثر حظا من التوفيق ، ونهنىء أخانا الاستاذ بما خصه اللـه به مـن التوفيق فى خدمة دينه ولغته وأمته (1) ·

(1) الشهاب : ج 4 م 14 ـ ربيع الثانى وجمادى الاولى 1357 هـ/جـوان جوليت 1938 م ·

الـــــذكـــر

تمهيـــــد :

1 ـ الذكر أصل من أصول الدين العظيمة أو هو الدين كله ، ولـــذا امتلأ القرآن العظيم بالآيات المشتملة عليه • فالمسلم اذا شديد الحاجة الى معرفته وفقهه ، وطريقة العمل به ، وقد تعرضنا لبيان ذلك فيما سياتى ، وجعلنا الكلام فى قسمين • وختمناه بالتحذير مما خرج عن سواء القصد بغلو أو تقصير ليكون الواقف عليه على بصيرة مما ياتى منه أو يدع •

القســم العلمــى

2 ـ الذكــر حضور الشىء فى القلب الحضور الثانى بعد زواله منــه المسبوق بحضور متقدم • هذه حقيقته • وقــد يطلق على الحضور الاول توسعا • وزواله بعد حضور هو النسيان • فهما ضدان • قال الله تعالى : « وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » •

وفى مثل : ذكرتنى الطعن وكنت ناسيا •

3 ـ فالمعنى الاصلى للذكر محله القلب ، اذ القلب محل ضده النسيان ، والضدان انما يتضادان فى محل واحد ، قال تعالى : « وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » ، اى جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا ، فالغفلة فى القلب والذكر فى القلب • وأخوات الذكــر ـ كالذكرى ، والتذكـير والذكر ، بضـــم الذال ، ـ كلها من اعمال القلب ، وهو مثلها . واما الصمت الذى هو من شان اللسان فليس ضدا له كما قد قيل ، وانما هو ضد فى كلام العـــرب لاعمال لسانية كالنطق فى قولهم فى المال وناطق وصامت ، وما فى الحديث « فليقل خيرا أو ليصمت » •

4 ـ ثم يطلق الذكر اطلاقا شائعا على ما يجرى على اللسان مما يخبر به عما فى القلب ويعبر عنه ، ومنه قوله تعالى : « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً » .

وسمى الله ـ تعالى ـ القرآن ذكرا كما فى قوله : « وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ » لان آياتـه متلوة بالالسنة ومعانيه حاضرة فى القلوب . ومثله فى هـذه التسمية كلمات التسبيح والحمد والتهليل والتكبير من جميع الاذكار . ويقال فى كل عمل من أعمال الطاعة ذكر ، لانها كلمة مرتبطة بذكر القلب ومن ثمراته . وسمى الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكرا فى قوله : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً » لانه مخبر عن ربه ومبلغ للذكر ، أو لانه هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذكر فى الصلاة عليه والحديث ، وفى سيره وشمائله بالالسنة والقلوب . وعبر عن ارساله بالانزال لان رسالته وحى من العلى الاعلى ، واعظم رحمة نزلت من السماء . وسمى الله الآيات الكونية المشاهدة ذكرا فى قوله تعالى : « الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً » لانها تحـدث الـذكر فى القلب كما تحدثه آياته المتلوة التى تسمى أيضا ذكرا . فالمعنى أنه كما لم يكن لهـم ذكر فى قلوبهم من الآيات المتلوة ، لانهم كانوا لا يستطيعون سمعا ، كذلك لم يكن لهم من الآيات المرئية لان أعينهم فى غطاء .

اقسـام الـذكر :

5 ـ قد كثر ورود لفظ الذكر فى آيات القرآن واحاديث السنة ، وهو منقسم الى ثلاثة أقسام ، مراده من تلك النصوص : ذكر القلب فكـرا واعتقادا واستحضارا ، وذكـر اللسان قولا ، وذكـر الجوارح عمـلا . وسنتكلم عليها واحدا واحدا .

ذكر القلب وهو على ثـلاثة ضروب :

الاول : التفكير فى عظمة الله وجلاله ، وجبروته وملكوته ، وآياته فى أرضه وسمواته وجميع مخلوقاته . والتفكير ـ أيضا ـ فى أنواع آلائـه وعظيم انعامه على خلقه عامة وعلى الانسان خاصة بما سخر له منها وما يسر له من أسباب الانتفاع بها ، بما يوجب الايمان بوحدانيته فى ربوبيته ،

فلا خالق ولا مدبر ولا مصرف ولا آمر ولا حاكم ولا منعم على الحقيقة سواه ، وبوحدانيته في الوهيته فلا يستحق العبادة سواه ٠

وهذا الضرب هو أعظم الاذكار واجلها وأفضلها ، وبه يتوصل اليها ويستحق الثواب عليها ، اذ هو أساسها الذى تبنى عليه ٠ فالاعمال مبنيه على العقائد ، والعقائد لا تثبت الا بهذا التفكر ، وبه تنجلى فى العقول ، وترسخ في النفوس ، وتحصل للناظر طمأنينة اليقين ٠ قال تعالى : « أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ » وهذا هو الذكر الذى يحصل به الاطمئنان. وهو المراد فى قوله : « إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ » ٠

قال جماعة من السلف : ذكر الله في الصلاة أكبر من الصلاة ، وهو المراد أيضا فى حديث أبى الدرداء موقوفا فى الموطا ومرفوعا فى غيره : « الا أخبركم بخير أعمالكم وأرفعها فى درجاتكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من اعطاء الذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ٠ قالوا : بلى ٠ قال : « ذكر الله » وفى حديث معاذ كذلك : « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله » وهذا كله لانه هو أساس جميع الاعمال كما قدمنا ، فاذا حصل ودام وجهه حصلت كلها ودامت على وجوهها ٠

الثانى : العقد الجازم بعقائد الاسلام فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله ، عقدا عن فهم صحيح وادراك راسخ تتحلى بـه النفس بمقتضيات تلك العقائد وتتذوق حلاوتها وتتكون لها منهـا ارادة قوية فى الفعل والترك تملك بها زمامها ، تلك الارادة التى لا تكون الا عن عقيدة راسخة فى النفس ويقين مطمئن به القلب ، ولذا كان هذا الضرب من ذكر القلب متفرعا عن الضرب الاول ومبنيا عليه ٠

الثالث : استحضار عظمة الرب وانعامه وما يستحقه من القيام بحقه عند كل فعل وترك فيفعله باذنه لوجهه ولا يدوم هذا الاستحضار الا اذا رسخت العقيدة التى هى من مقتضى الضرب الثانى ، ودامت الفكرة التى

هى من مقتضى الضرب الاول ، فهو متفرع عنهما ومتوقف عليهما ٠ وهذا الضرب هو أساس التقوى وهو المراد فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ٠

فان الذكر المناسب لمواطن الحرب هو استحضار عظيم حق الله على العبد فى القيام بذلك الفرض ، واستحضار وعده ووعيده ، مما يقوى القلب ويكسب الجراة والثبات وانتظار النصر ـ دون كثرة الذكر اللساني ـ فقد جاء عن النبي ـ صلى اللـه عليه وسلم ـ : طلب الصمت عند جلبة العدو وصخبه ٠ وهو المراد أيضا في قوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ٠ فان الابتغاء من فضل اللـه هنا هو التصرف بوجوه التجارة والكسب وليس ذلك مما يناسبه ذكر اللسان كثيرا ، فان ذكر اللسان يطلب فيه التدبر ، وأن ذلك غير متيسر للمشتغل بالبيع والشراء ، وانما يناسبه استحضار عظمة الرب وانعامه ولازم حقه ليمتثل أمره ونهيه فى وجوه الاخذ والعطاء والقضاء والاقتضاء ٠

ذكر اللسان وهو ضربان :

الاول : ذكر اللـه ـ تعالى ـ بالثناء عليه والاعتراف بنعمه واظهار الفقر اليه بأنواع الاذكار والدعوات ٠٠٠ وهذا الذكر شرط الاعتداد به حضور القلب عنده ٠ ومن أظهر الآيات الواردة فيه قوله تعالى : « فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ » فان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بلغ فى حجته المشعر استقبل القبلة ودعا وكبر وهلل ووحـد ٠

الثاني : ذكره تعالى بدعوة الخلق اليـه ، وارشادهم الى صراطه المستقيم الموصل اليه بتعليم دينـه والتنبيه على آياتـه وانعاماته وتبيين محاسن شرعـه وتفهيم أحكامه وشرح حكمتـه فى خلقه وأمره والترغيب والترهيب بوعده ووعيده ، وهى وظيفة الانبياء والمرسلين فى التبليغ عن رب العالمين واتباعهم للمؤمنين ، الى يوم الدين ، ولذا قال عطاء : مجالس

الذكر هي مجالس الحلال والحرام ، كيف تشترى وتبيع وتصلي وتصوم وتنكح وتطلق وتحج ... واشباه هذا . وما سماه قليل من كثير قصد به تقريب التبيين بالتمثيل .

ذكر الجوارح وهو ضرب واحد :

فذكرها استعمالها في الطاعات ، وكل عمل لها أو انكفاف على مقتضى الشرع ، فهو طاعة ، وكل طاعة لله فهو ذكر ، فكل عامل لله بطاعته فهو ذاكر لله - تعالى - . كما حكاه النووي عن سعيد بن جبير وغيره من العلماء ، مستدلا به على أن فضيلة الذكر ليست منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها . وبهذا يمكن للعبد الموفق أن يكون ذاكرا لربه في يقظته ونومه وصحته ومرضه وعلى جميع أحيانه .

القسم العملي

أمر الله عباده بذكره في غير ما آية من كتابه وغير ما حديث من كلام نبيه ، ووعد عليه بجزيل الثواب . ومن الآيات العامة في هذا الامر قوله تعالى : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » وهو أمر بالذكر بوجوهه الثلاث فحق علينا أن نذكره بها . وكما تلقينا هذا الامر وهذا الوعد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذلك علينا أن نتلقى عنه كيف يعمل به ، فهو المبلغ عن الله - تعالى - بقوله وفعله والمبين كذلك بهما . ولا شك أنه - صلى الله عليه وسلم - كان دائم ذكر القلب بالفكر والعقد والاستحضار ، دائم ذكر الجوارح في أنواع الطاعات . وقد جاء في شمائله الشريفة أنه كان - صلى الله عليه وسلم - : « دائم الفكرة لا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت » وأنه « كان سكوته على أربع : على العلم والحذر والتقدير والتفكير » . وأما الذكر اللساني فقد كان - صلى الله عليه وسلم - كما جاء في شمائله أيضا - : « لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر » . فلا يخلو مجلسه من ذكر الله . كما كان يسكت ويطيل السكوت كما تقدم ، وقد روى عنه الائمة من أذكار اليوم والليلة وسائر الاذكار ما فيه الكفاية والشفاء .

فالمؤمن الذى يحافظ على قلبه ويعتنى به حتى يكون صحيح العقد دائم الفكرة والاستحضار ، ويأتى مع ذلك من الاذكار المأثورة المطلقة بما تيسر منها ، وبالمرتبة فى الاحوال والاوقات التى رتبت عليها ، ولا يخلى مقامه ومقعده من شيء من ذكر الله وان قل ــ يكون متبعا للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى سنته فى الذكر ، ويكون بهذا ــ فى بيته وفى سوقه وفى مصنعه وفى مسجده ــ معدودا من الذاكرين المكثرين بالقلب واللسان والجوارح ·

التحذير : وربما شغل اللسان بالتعلم والعلم عن الاذكار المأثورة حتى يتركها الطالب جملة ويكون عنها من الغافلين ، فيحرم من خير كثير وعلم غزير ، وقد كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ معلم الخلق ، وما كان يغفل عن تلك الاذكار ·

وربما بالغ قوم فى بعض هذه الاذكار فأتوا منه بالآلاف ، واهملوا جانب التفكير الذى هو أعظم اذكار القلب ، والذكر اللسانى أحد وسائله ، فتشغلهم الوسيلة عن المقصود · وليس ذلك من هدى من كان ــ كما تقدم ــ دائم التفكير · وقد يؤديهم الذكر اللسانى بالالوف الى الانقطاع عن مجالس العلم والزهد فى التعلم فيفوتهم ما قد يكون تعلمه عليهم من فروض الاعيان · وليس من سداد الرأى وفقه الدين اهمال المفروض اشتغالا بغير المفروض ·

ويقابل هذا الغلو فى ذكر اللسان ما رآه آخرون من الاقبال على التفكير الايام والليالى ، مع ترك اللسان · وهذا زيغ عن طريق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى المحافظة على الاذكار اللسانية التى امتلأت كتب الحديث بالترغيب فيها والحث عليها ·

فليحذر المؤمن من هذا كله ومن مثله وليتمسك بما كان عليه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الاتيان بضروب الذكر الثلاثة كلها منزلا لها فى منازلها متعبدا الله ــ تعالى ــ بجميعها ، والله الموفق وبه المستعان (1) ·

---

(1) ش : ج 2 م 5 ، ص 1 ــ 7 · غرة شوال 1347/مارس 1929 م

التـذكـــير

حقيقته ، حاجة الخلق اليه ، القائمون به ، تذكير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ما كان يذكر به ، من كان يذكر ، مشروعية التذكير فى الاسلام ·

حقيقــة التذكــير :

1 ـ أن تقول لغيرك قولا يذكر به ما كان جاهلا أو عنه ناسيا أو غافلا، وقد يقوم الفعل والسمت والهدى مقام القول فيسمى تذكيرا مجازا وتوسعا، ويجمع الثلاثة قولك : عباد الله الصالحون يذكرون الخلق بالخالق بأقوالهم وأعمالهم وسمتهم ·

2 ـ وحاجة العباد الى هذا التذكير أعظم ما يحتاجون اليــه وأشرفه والزمه ، فان سعادتهم الحقيقية فى هذه الحياة بانارة عقولهم ، وزكـاة نفوسهم واستقامة سلوكهم . وفى الحياة الاخرى بنعيم الجنان وحلول الرضوان ، انما هى بايمانهم وبربهم وشكرهم له · وأن دلائل وجوده ووحدانيته وقيومته وآثار فضله واحسانه ورحمته ماثلة فى الكون بادية للعيان ، داعية الى الشكر هادية الى الايمان ، لكن العقول كثيرا ما تكون مغلولة بقيود أهوائها ، محجوبة بحجب غفلتها ، فتعمى عن تلك الدلائل والاثار ، فتكفر كفر جحود وعناد ، أو كفر عصيان وطغيان · ويكون تورطها فى كبائر الذنوب وصغائرها على مقدار تلك الحجب وتلك القيود · وليس لغير من عصم الله انفكاك أو خروج منها ، كلها ، فهم اذن باشد الحاجـة الى تذكيرهم بتلك الدلائل وتلك الآثار ليحصلوا أسباب سعادتهم بالايمان والشكـــر ·

3 ـ قد علم الله حاجة عباده الى التذكير ، فاصطفى منهم رجالا أنعم عليهم بكمال الفكرة ووقاية العصمة ، وارسلهم لتذكير العباد « رسلا مبشرين

وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» « وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ » ·

فالانبياء والمرسلون ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم أولو هذا المقام الجليل ، مقام التذكير · ثم من بعدهم ورثتهم من العلماء العاملين ·

4 ـ قد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سنة اخوانه من الانبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في القيام بتذكير العباد متمثلا أمر ربه ـ تعالى ـ له بقوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ » ·

اذ السيطرة لا تكون على القلوب والايمان ـ وهو من أعمال القلب ـ لا يكون بالاكراه وانما يكون بذكر الحجج والادلة ، وكذلك كانت سنة المرسلين في الدعوة الى الله كما قصها علينا القرآن الكريم في كثير من السور والآيات ·

كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يذكرهم بقوله وعمله وهديه وسمته وكان ذلك كله منه على وفق هداية القرآن وحكمه ، وقد قالت عائشة الصديقة ـ رضوان الله عليها ـ لما سئلت على خلقه ـ والخلق هو الملكة النفسية التي تصدر عنها الاعمال ـ قالت : كان خلقه القرآن ، فكان تذكيره كله بآيات القرآن : يتلوها ويبينها بالبيان القولي والبيان العملي متمثلا في ذلك كله أمر ربه تعالى بقوله : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ » فالقرآن وبيانه القولي والعلمي من سنة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بهما يكون تذكير العباد ودعوتهم لله رب العالمين ، ومن حاد في التذكير عنها ضل وأضل وكان ما يضر اكثر مما ينفع ان كان هنالك من نفع ·

5 ـ كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يفتأ مذكرا للمؤمنين والكافرين ، والله يهدي من يشاء ويوفق من يريد · وقد أمر بالتذكير مطلقا في قوله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ » ·

وكانت سيرته العملية في التذكير هي العمل بهذا الاطلاق ، فما كان يخص قوما دون قوم في الدعوة والتذكير ، فكانت هاته السنة العملية دليلا

على أن ما جاء على صورة التقييد فى بعض الآيات ليس المراد منه التقييد ، ومن ذلك قوله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ ٱلذِّكْرَى » .

فالشرط الصورى هـو للاستبعاد ، أى استبعاد نفع الذكرى فيهم . ولا يزال من أساليب العربية فى لسان التخاطب الدارج بيننا قول الناس لبعضهم بعضا : « كلمة في كذا اذا نفع فيه الكلام » استبعاد لنفعه فيه ، ومن ذلك قوله تعالى : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » .

فليس ذكر المفعول للتقييد وانما هو للتنبيه على أنه هو الذى ينتفع بالتذكير نظير قوله تعالى : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » .

6 ـ ولحاجة العباد للتذكير ومنزلته من الدين شرعه الله للمسلمين شرعا مؤقتا في خطب الجمع والاعياد ، وشرعا مرسلا موكولا للمذكرين على ما يرونه من نشاط الناس وحاجتهم ، كما كان يتخول النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الناس بالموعظة وطلبه طلبا عاما من جميع المؤمنـين فى قوله تعالى : «وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» فى صفة المؤمنين العاملين.

وسيكون هذا الباب من المجلة مجالا لفنون من التذكير . جعلنا الله والمؤمنين من أهل الذكرى ونفعنا بها دنيا واخرى (*) .

(*) الشهاب : ج 1 م 5 ـ رمضان 1347 هـ/فيفرى 1929 م .

أفضـــل الاذكـــار

تمهيـــد :

للعبـد حالتـان :

(ا) حالة يعالج فيها شؤون الحياة من أمر نفسه واهله ، وما الى رعايته مـن مصالحه ، أو مصالح غـيره ، فيمارس فيها الاسباب ويبـاشر فيهـا ما تقتضيه بشريته ، وهو فى هذه الحالة متعبد ماجور ما جرى فيها عـلى حدود الله ، وقصد بها امتثال شرعه ٠

(ب) وحالة ينفرد فيها لربه ويخلص من هم ذلك كله قلبه ، ويتوجه بكليته الى خالقه ، بالفكر والاعتبار ودوام المراقبة والاقبال ٠

وهذه الحالة الثانية هى أشرف وأفضل حالتيه وهى أساس الاستقامة فى الحالة الاولى وأصل الكمال فيها ٠

كانت هاتان الحالتان للنبى صلى اللـه عليه وسلم كما كانتا لغيره ٠ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « انه ليغان (1) على قلبى فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » اشارة الى الحالة الاولى التى يكون فيها قائما بمصالح الامة ، وناهضا بأعباء الرسالة ومباشرة الشؤون العامة والخاصة ٠ ورآها دون الحالة الثانية التى يكون متفرغ القلب للـرب ٠ وما كان ذلك الغين الا الاشتغال بأمور الخلق فى الحالة الاولى الذى يحجب عن كمال مشاهدة الحق التى فى الحالة الثانية ، فاستغفر الله تعالى منه ٠ وما كان استغفاره عليه الصلاة والسلام الا لاشتغاله بكامل عن أكمل ، وتوجهه للقيام بأمر عظيم عن مقام أعظم ٠

وقد تفطن الصحابة رضوان الله عليهم لهاتين الحالتين ، وسالوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم عنهما وأفتاهم فيهما فجاء فى الصحيح أن حنظلة

---

(1) غانت نفسه : غثت ٠ وغينت السماء : طبقتها الغيم ٠

الاسيدى ـ وكان من كتاب النبى صلى الله عليه .آله وسلم ، قال : « لقينى ابو بكر ، فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قال : قلت : نافق حنظلة • قال سبحان الله ما تقول ؟ : قال : قلت : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم يذكرنا بالنار والجنة كأنها رأى عين ، فاذا خرجنا من عنـد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . عافسنا الازواج والاولاد والضيعات فنسينا كثيرا ، قال ابو بكر : فواللـه انا لنلقى مثل هذا ، فانطلقت أنا وابو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قلت : نافق حنظلة يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وما ذاك ؟ قلت : يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار كأنها رأى عين فاذا خرجنا من عندك عافسنا الازواج والاولاد والضيعات ، فنسينا كثيرا • فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى في الذكر لصافحتكم الملائكة على فرسكم وفى طرقكم ! ! ولكن يا حنظلة (ساعة وساعة) ثلاث مرات •

فقوله صلى اللـه عليه وآلـه وسلم : « ساعـة وساعة » بيان للحالتين وتقرير لهما • وقوله : « والذى نفسى بيده » الى آخره . بيان لفضلاهما •

هذه الحالة الفضلى ، الذكرى التى يحصلها للعبد على أكمل وجه هو أفضل الاذكار • وستعرف مما سيأتى بعد أنه هو القرآن ، وقد قسمنا ما سنقوله الى قسمين علمى وعملى ، وختمنا بفصل فى التحذير •

القســم العلمــى

(1) القرآن أفضل الاذكار من طريق الاثر :

قال تبارك وتعالى : « وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ » « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » ، « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ » .

فهذه البركة ، وهذا التيسير • وهذا الامـر بالتـلاة المقرون بالامـر بتوحيد العبادة وبالاسلام على طريق الحصر ـ لم ترد الا فى القرآن •

وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا اقـول : الم حرف ، ولكـن الف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وهذه مثوبة لم ترد لغير القرآن من جميع الاذكار .

وروى الترمذى عن أبى أمامة مرفوعا : « ما تقرب العباد الى الله بمثل ما خرج منه » . ومن معناه ما ذكره القرطبى عن فروة بن نوفل عن خباب ابن الارت قال : ان استطعت أن تقرب الى اللـه عز وجل فانك لا تقرب اليه بشيء أحب اليه من كلامه . ومثل هذا لا يقال بالرأى فهو فى حكم المرفـــوع .

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعا : « يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله قراءة القرآن عن مسالتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » .

وهذا الحديث والذى قبله نصان صريحان فى المقصود .

وروى البيهقى فى شعب الايمان عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا : « قراءة القرآن فى الصلاة أفضل من قراءة القرآن فى غير الصلاة ، وقراءة القرآن فى غير الصلاة أفضل من التسبيح والتكبير » .

وروى أبو نعيم عن ابن عمر رضى الله عنه : « سئل رسول الله صلى اللـه عليه وسلم : أى الاعمال افضل عند الله ؟ قال : قراءة القرآن فى الصلاة ثم قراءة القرآن فى غير الصـلاة ، فان الصلاة أفضل الاعمال عند الله ، وأحبها اليه ، ثم الدعاء والاستغفار ، فان الدعاء هو العبادة ، وان الله تعالى يحب الملح فى الدعاء . ثم الصدقة ، فانها تطفىء غضب الرب . ثم الصيام فان الله تعالى يقول : الصوم لى وأنا أجزى به ، والصيام جنة للعبد من النار » . قال القرطبى ـ بعدما خرج هذا الحديث بسنده ـ : قال علماؤنا : هذا حديث عظيم فى الـدين يبـين فيه أن أعظم العبادات قراءة القرآن فى الصلاة .

(ب) **القرآن أفضل الاذكار من طريق النظر** : ان أشرف حالتى الانسان ـ وهى حالة انفراده بربه ، وتوجهه بكليته اليه ٠ وخلوص قلبه له ، وتعلقه به ـ انما تحصل على أكملها لتالى القرآن العظيم ٠ فان أفضل ما فيه ـ وهو قلبه ـ يكون قائما بأفضل أعماله وهو التفكر والتدبر ، فى أفضل المعانى ، وهو معانى القرآن ٠ وان ترجمان ذلك القلب ـ وهو لسانه ـ يكون قائما بأفضل أعماله وهى البيان بأفضل كلام وهو القرآن وجوارحه ـ اذا لم يكن فى صلاة ـ كانت محبوسة على قيام القلب واللسان بأفضل الاعمال ، واذا كان فى صلاة كانت قائمة بأفضل عبادة وهى الصلاة ، فى أشرف موقف وهو مناجاة الرحمن بآيات القرآن ٠

فهذا الذكر الحكيم ، تنزيل الرحمن الرحيم ، الذى يحصل هذه الحال ، التى هى أشرف الاحوال ، وهى معراج الارواح لمنازل الكمال ـ هو أفضل الاذكار ٠

وأيضا فان الذكر قلبى ولسانى وعملى ، والقرآن محصل لذلك كله على أكمله كما سنبينه ٠

القرآن ، والذكر القلبى : فالتالى للقرآن المتدبر لآياته ، يكون متفكرا فى مخلوقات الله وما فيها من حكم ومن نعم ، وفى معانى أسمائه وصفاته ، وفى مظاهر رحمته واحسانه وبطشه وانتقامه ، وفى أسباب ثوابه وعقابه ، وفى مواقع رضاه وسخطه ٠

كما يكون التالى أيضا متبصرا فى عقائده خبيرا بأدلتها ، ورد الشبه عنها ٠ كما يكون أيضا مستحضرا لربه فى قلبه باستحضار حقوقه ونعمه وآلائه ؛ اذ هذا كله مما تضمنته آى القرآن، على أكمل بيان، وأوضح برهان.

القرآن والذكر اللسانى : وكذلك قد اشتمل القرآن على أفضل الاذكار اللسانية : من تهليل ، وتكبير ، وتحميد ، وتسبيح ، وتمجيد ، واستغفار ، ودعاء ، وعلى الاسماء الحسنى ، والصفات العلى للرب تبارك وتعالى ٠ فتاليه يكون ذاكرا بهذه الاذكار كلها ٠

القرآن ، والذكر العملي : ان تلاوة القرآن بالتدبر تثمر للتالي التوبة والانابة والرجاء والخوف وذلك كله مما يكون له خير داع الى الاستقامة ـ ولو بعض الشيء ـ في سلوكه العملي .

هذا شيء قليل مما للقرآن في الذكر بأنواعه الثلاثة ، الى ما فيه من علم مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وبسط اسباب الخير والشر والسعادة والشقاوة في الدنيا والاخرى ، وعلم النفوس وأحوالها ، وأصول الاخلاق والاحكام ، وكليات السياسة والتشريع ، وحقائق الحياة في العمران والاجتماع ، ونظم الكون المبنية على الرحمة والقوة ، والعدل والاحسان .. الى ما تقصر عن عده الالسنة وتعجز عن الاحاطة به الافهام . وانما ينال كل تال منها على قدر ما عنده من سلامة قصد ، وصحة علم بتقدير وتيسير من الحكيم العليم .

نتيجة الاستدلال : لهذه الادلة الاثرية والنظرية المذكورة وغيرها ذهب الائمة من السلف والخلف الى أن قراءة القرآن أفضل من الذكر - قال سفيان الثوري : « سمعنا أن قراءة القرآن أفضل من الذكر » . نقله القرطبي في الباب السابع من كتاب التذكار . وقال النووي : « واعلم أن المذهب الصحيح المختار الذي عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الاذكار ، وقد تظاهرت الادلة على ذلك » قاله في الباب الثاني من كتاب التبيان (1) .

القسم العملي

مقدار التلاوة : قد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يخلي ليله ونهاره من تلاوة القرآن وكان ـ كما قال القرطبي ـ : يختمه في سبع . وهكذا قال لعبد الله ابن عمر رضي الله عنه : « واقرأ في كل سبع ليال مرة » . وقد كان قال له أولا : « واقرأ القرآن في كل شهر . فلما قال له :

(1) الشهاب : ج 3 م 5 غرة ذي القعدة 1347 ابريل 1929 م .

انه يطيق أكثر من ذلك نقله الى العشرين ، والى الخمسة عشر ، والى العشر ، وانتهى به الى السبع فى قول الاكثر · وكان هذا فعل الاكثرين من السلف.

وعند الترمذى وغيره ، من حديث ابن عمر رضى الله عنه مرفوعا : « لا يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث » · وهذا ترخيص فيما دون السبع · وترغيب عما دون الثلاث ·

وقد فهم السلف من هذه الاحاديث بيان ما يكون وظيفة وحزبا يستمر عليه فلذا لم يمتنعوا من ختم القرآن فى أقل من ذلك فى مرات فى بعض الاحوال .

ولاشك أن أحوال حملة القرآن تختلف فى التفرغ للتلاوة والاشتغال بغيرها ، واحوال الشخص الواحد فى نفسه تختلف كذلك فيرتب حامل القرآن حزبه من الشهر الى السبع على حسب حاله · فاذا لم يكن من حملة القرآن فلا يخل ليله ولا نهاره من تلاوة شىء مما معه حسب استطاعته ، ولا يكن من الغافلين ·

ما يقصده من التلاوة : قراءة القرآن أفضل أعمال اللسان ، وتدبر معانيه أفضل أعمال القلب · هذا من حديث أبى أمامة عند الترمذى الذى قدمناه فى القسم الاول · فليقصد التالى التقرب الى الله بهما ·

والقرآن موعظة ترقق القلوب القاسية فليقصد تليين قلبه ·

والقرآن شفاء لادواء النفوس فى عقائدها واخلاقها وأعمالها فليقصد الشفاء به من ذلك كله ·

والقرآن هدى ودلالة على كل حال ما يوصل الى سعادة الدنيا والاخرى فليقصد الاهتداء بهدايته ·

والقرآن رحمة من الله للمؤمنين ، فليستنزل بتلاوته وتدبره ، الرحمة من الله تعالى بافاضة علوم القرآن على قلبه وبتوفيقه الى القيام بمقتضى هدايته ·

ولا يسلم تالى القرآن – لانه غير معصوم – من ذنوب قد يصدأ لها قلبه فليقصد بتلاوته جلاء قلبه والتوفيق للتوبة من ذنبه · وليجعل تلاوته لاجل

تحصيل التوبة من أعظم وسائله الى ربه وقد مضى لك في الحديث القدسى في القسم الاول : « من شغله قراءة القرآن عن مسالتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » ٠

التحذير : زعم قوم : أن الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم خير لعامة الناس من تلاوة القرآن قالوا : لان الصلاة ثوابها محقق ولا يلحق فاعلها اثم ، والقرآن اذا تلاه العاصى كانت تلاوته عليه اثما لمخالفته لما يتلوه ٠ واستدلوا على هذا بقول انس رضى الله عنه الذى تحسبه العامة حديثا : « رب تال للقرآن والقرآن يلعنه » فأدى هذا معتقديه الى ترك قراءة القرآن أو التقليل منها ٠ فليحذر من هذا الراى ومما أدى اليه ٠

للصلاة منزلتها وفضلها ، وللقرآن فضله ومنزلته ، فليأت الذاكر من الصلاة ومن غيرها من أبواب الذكر بما لا يؤدى الى ترك أو تقليل تلاوة القرآن الذى هو أفضل الاذكار ٠

وهذا الرأى المتقدم في تفضيل الصلاة على التلاوة مخالف تمام المخالفة لما نقلناه فى : « نتيجة الاستدلال » ، عن أئمة السلف والخلف : من أن قراءة القرآن أفضل من جميع الأذكار ، ولم يفرقوا فى ذلك بين عامة وخاصة ٠ ومخالف كذلك لمقاصد الشرع من تلاوة القرآن ؛ وذلك من وجوه ٠

وجوه المخالفة :

الوجه الاول : ان المذنبين مرضى القلوب ، فان القلب هو المضغة التى اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، فكل معصية يأتى بها الجسد هى من فساد فى القلب ، ومرض به ، وان الله تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القرآن فقال : « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » ٠ « وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » ٠ فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا به بالفاظه ومعانيه ٠ وذلك الرأى يصرف المذنبين عن تلاوته ٠

الوجه الثاني : ان القلوب تعتريها الغفلة والقسوة ، والشكوك والاوهام ، والجهالات ، وقد تتراكم عليها هذه الادران كما تتراكم الاوساخ

على المرآة فتطمسها وتبطل منفعتها ، وقد يصيبها القليل منها أو من بعضها ولا تسلم القلوب على كل حال من اصابتها فهى محتاجة دائما وأبدا الى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن ، وقد أرشد النبى صلى الله عليه وآله وسلم الى هذا ـ فيما رواه البيهقى فى الشعب والقرطبى فى التذكار : « ان القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد · قالوا : يا رسـول اللـه فما جلاؤها ؟ قال : تلاوة القرآن ، فمقصود الشارع من المذنبين إن يتلوا القرآن لجلاء قلوبهم ، وذلك الرأى يصرفهم عنه ·

الوجه الثالث : أن الوعيد والترهيب قد ثبتا فى نسيان القرآن بعد تعلمه ، وذهابه من الصدور بعد حفظه فيها : فروى أبو داود عن سعد : « ما من امرىء يقرأ القرآن ثم ينساه الا لقى الله اجذم » · وروى الشيخان عن عبد الله : « استذكروا القرآن فانه أشد تقصيا من صدور الرجال من النعم » · فمقصود الشرع دوام التلاوة لدوام الحفظ ، ودفـع النسيان ، وذلك الرأى أدى الى تقليلها أو تركها الموقع فى النسيان ·

لوازم فاسدة لهذا الزعم : والى مخالفته لمقصود الشرع بهذه الوجوه فان له لوازم فاسدة ·

منها أن صلاة النافلة مرغب فيها عـلى العموم ، وهى مشتملة على قراءة القرآن ، فماذا يقول أصحاب هذا الرأى ؟ فهل يرغبون المذنبين ـ أمثالنا ـ عن النافلة طردا لاصلهم ؟ أم ينهون عن قراءة القرآن فى النافلة ، فيقولون ما لم يقله أحد ؟ أم يقولون بالاقتصار على قراءة سور دون سور ، فيتحكمون فى الاحكام ؟

ومنها : أنه قل من يسلم من مخالفة للقرآن بعمله ، فاذا ذهبنا مع ذلك الرأى حرم خلق كثير من تلاوة القرآن ·

وكفى بقول يؤدى الى هذا كله رادا على نفسه ·

وأما قولهم : « ان تالى القرآن يأثم بقراءته مع مخالفته » · فهى دعوى لم يقيموا عليها من نص صحيح صريح من سنة أو كتاب · بل الدليل قائم على خلافها . فان المذنب يكتب عليه ذنبه مرة واحدة ، ولا يكتب عليه مرة ثانية اذا ارتكب ذنبا آخر ، وانما يكتب عليه ذلك الذنب الآخر ، فكيف

اذا باشر عبادة التلاوة ؟؟ : والاصل القطعى ــ كتابا وسنة ــ أن من جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها ، وهو يبطل أن تجدد له سيئاته اذا جاء بحسنة تــلاوة القــــرآن ٠

وأما قول أنس رضى الله عنه : « رب تال للقرآن والقرآن يلعنه » ، فليس معناه أن القرآن يلعنه لاجل تلاوته ٠ وكيف وتلاوته عبادة ؟ وانما معناه : أنه ربما تكون له مخالفة لبعض أوامر القرآن أو نواهيه من كذب أو ظلم مثلا ، فيكون داخلا فى عموم لعنه للظالمين والكاذبين ، فخرج هذا الكلام مخــرج التقبيح لمخالفة القرآن مــع تلاوته ٠ بعثا للتالى على سرعة الاتعاظ بآيات القــرآن ٠ وتعجيل المتاب ٠ لا مخرج الامر بترك التلاوة والانصراف عنها ٠ هذا هو الذى يتعين حمل كلام هذا الصحابى الجليل عليه بحكم الادلة المتقدمة ٠

وثبت فى الصحيح قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس للــه حاجة أن يدع طعامه وشرابه » ٠ وهذا فى المتعبد بالصيام الذى يوقع الزور والعمل به فى وقت صيامه ٠ فيكــــون متلبسا بالعبادة والمخالفة فى وقت واحد ٠ ومع هذا فقد قال الشراح فى معنى الحديث ــ والعبارة للقسطلانى ــ : « وليس المراد الامر بترك صيامه اذا لم يترك الزور ٠ وانما معناه التحذير من قول الزور ٠ فهو كقوله عليه الصلاة والســلام : « من باع الخمر فليشقص الخنازير » أى يذبحها ولم يامره بشقصها ٠ ولكنه على التحذير والتعظيم لاثم شارب الخمر ٠ وكذلك حذر الصائم من قول الزور والعمل به ، ليتم له أجر صيامه ، فمن باب أحرى وأولى الا يكون قول أنس رضى الله عنه ، محمولا على طلب تـــرك التلاوة من المذنب ، لانه غـير مباشر لذنبه فى حال تلاوته وانما المقصود تحذيره من الاستمرار على المخالفة ٠ وترغيبه فى المبادرة بالتوبة ليكمل له أجر تلاوته بكمال حالته ٠

هذا حظ العلم فى الاستدلال على حاجة المذنبين الى تلاوة القرآن العظيم وأما حظ التجربة فوالله الذى لا الــه الا هو ما رأيت ــ وأنا ذو النفس

الملأى بالذنوب والعيوب ـ أعظم الانة للقلب ، واستدرارا للدمع ، واحضارا للخشية ، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن ٠

عود الى تتميم الكلام على التحذير :

ليحذر القارىء من السرعة في التلاوة التى تؤدى الى تخليط كلماته ، وتذهب بحلاوته ، وتمنع من بقاء أثره في النفس ٠

وليحذر من ذهاب قلبه مسترسلا مع خواطره ٠ منصرفا عن تدبره والتذكر به ، واذا عرضت له الخواطر فليصرفها ليدفعها وليحمل فكره على تدبر آيات الكتاب ، ولا ينقطع عن التلاوة اذا كانت تلك الخواطر لا تفارقه ، فان تصميمه على دفعها مع تكاثرها من جهاده لنفسه ، الذى يثاب عليه ، وينتهى به في الاخير الى الانتصار عليها ٠

وليحذر من الاستمرار على ما عنده من مخالفة لاوامر ونواهى الكتاب ، ومن عدم الخوف والوجل عند المرور بآيات الوعيد والتقريع على ذلك الذنب اذا لم يوفق للتوبة في بعضها ، فليستحضر الخشية والخشوع عند الآيات المتعلقة بذلك الذنب ، وليكررها وليتفهمها ، وليقف عندها وقفة العاجز الذليل الفقير المتضرع لربه ، المتعرض لرحمته بتلاوة كلامه ، فان هذا من أعظم الوسائل لتيسير التوبة ٠

فرتل القرآن ، وتدبر معانيه ، والتزم حدوده ، واضرع الى الله تعالى أن يرزقك التوبة فيما عندك له من مخالفة ، تكن من الفائزين باذن رب العالمين (1) ٠

---

(1) الشهاب : ج 4 م 5 ـ ذو الحجة 1347 هـ ماى 1929 م ٠

مجالس التذكير

ننشر في هذا الباب من « مجلة الشهاب » ما فيه تبصرة للعقول ، أو تهذيب للنفوس ، من تفسير القرآن الكريم ... معتضدين بانظار أئمة السلف الذين لا يرتاب في رسوخ علمهم ، وكمال ايمانهم ، وأئمة الخلف الذين درجوا على هديهم في نمط وسط بين الاستقصاء والتقصير .

عبد الحميد بن باديس

الشهاب : ج 1 م 5 ، رمضان 1347 هـ فيفري 1929 م .

خطبـة افتتـاح دروس التفسـير

سنة 1348 هـ ـ 1929 م

للامام عبد الحميد بن باديس

الحمد لله الذى جمل الانسان بالبيان ، وجمل البيان بالقـرآن ، فالانسان دون بيان حيوان أبكم ، والبيان دون قرآن كلام أجـذم ٠ وذو البيان والقرآن هو الاكمل الاعظم ، قدرا وتقديرا ، والاحسن الاقوم ، عملا وتفكيرا ، والاسعد الاكرم ، حالا ومصيرا ٠

أحمده ، أرسل محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بشيرا ونذيرا ٠ وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وأنزل عليه القرآن تبصرة وذكرى ، ومعجـزة كبرى ، حجة وتذكيرا ، وشرع لنا من دينه الحنيف مناهل العز والسعادة ، ومهد لنا من شرعه الشريف ، سبل الحسنى والزيادة ، رحمة منه تعالى وفضلا كبيرا ٠

واشكره : هدانا واجتبانا ، فرضينا بالله ربـا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد نبيـا ، وبالقرآن اماما ، وحبب الينا ديننا ، فوالله لو بذلت لنا الدنيا بحذافيرها في تركه ما ساوت عندنا حبة رغاما ، توفيقا منه تعـالى ويقينا صادقا منا وبصرا بصيرا ٠

وأستغفره لما كان منا من نقص وتقصير في الوفاء بعهده الحق ، وشكر فضله الكبير ، انه كان عفوا غفارا شكورا ٠

وأصلي وأسلم علي سيدنا محمد أشرف خلقه وأكرم رسله ، فـرق بالقرآن بين الحق والباطل ، وهدى به الضال وعلم به الجاهل ، وجاهد به ـ في الله ـ جهادا كبيرا ٠

وعلى آله الاطهار ، وأصحابه الاخيار ، اقتفوا طريقته ، وأحيوا سنته، نوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا .

وعلى بقية أمته ، واهل ملته ، لبوا دعوته وأموا غايته ، ناشطا وحسيرا.

صلاة وسلاما دائمين متلازمين الى يوم نلقى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ونسعد بلقائه ، ونحشر بين الامم تحت لوائه ونجزى بمحبته ، ان شاء الله تعالى ـ جزاء موفورا .

أمـا بعـد :

فقد عدنا ـ والحمد لله تعالى ـ الى مجالس التذكير ، من دروس التفسير نقتطف أزهارها ، ونجتنى ثمارها ، بيسر من الله تعالى وتيسير ، عـلى عادتنا في تفسير الالفاظ بأرجح معانيها اللغوية ، وحمل التراكيب عـلى ابلغ أساليبها البيانية ، وربط الآيات ، بوجوه المناسبات - معتمدين فى ذلك على صحيح المنقول ، وسديد المعقول ، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون او غاص عليه علماء الخلف المتأخرون - رحمة الله عليهم أجمعين .

وعمدتنا فيما نرجع اليه من كتب الائمة : تفسير ابن جرير الطبرى ، الذى يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية ، وبأسلوبه الترسلى البليغ فى بيان معنى الآيات القرآنية ، وبترجيحاته لاولى الاقوال عنده بالصواب .

وتفسير الكشاف الذى يمتاز بذوقه البيانى فى الاسلوب القرآنى ، وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب والتنظير لها بكـلام العـرب ، واستعمالها فى أفانين الكلام .

وتفسير أبى حيان الاندلسى الذى يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيهه للقراءات .

وتفسير الرازى الذى يمتاز ببحوثه فى العلوم الكونية ، مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والانسان ، وفى العلوم الكلامية ومقالات الفرق والمناظرة فى ذلك والحجاج .

الى غير هذا مما لابد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والاحكام · وغيرها مما يقتضيه المقام ·

نقول هذا ليعرف الطلبة مصادر درسنا · ومآخذ ما يسمعونه منا ، ونحن نعلم أننا ـ والله ـ كما قال أخو العرب :

لعمر أبيك ما نسب المعلى الى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت وصوح نبتها رعي الهشيم

وكما نقول في مثل : « انما نكحل في موضع العينين » ، واذا نظرنا الى قصورنا وخطورة مقام الكلام على كلام الله تعالى ، احجمنا · واذا رأينا الى فضل الله وثقتنا به وحسن قصدنا ـ في خدمة كتابه ـ أقدمنا ، وهذا الجانب الكريم أرجح عندنا فنحن نقدم معتمدين على الله تعالى سائلين منه تعالى لنا ولكم أن يوفقنا الى حسن القصد ، وصحة الفهم ، وصواب القول ، وسداد العمل (1) ·

(1) الشهاب ـ ج 11 م· 5 ـ رجب 1348 هـ ـ ديسمبر 1929 م ·

من كـلام الحكيم الخبـير وحديث البشـير النـذير
وذكـر فان الذكـرى تنفـع المؤمنين
دعـــوة أهـــل الكـتاب

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

(سورة المائدة ، الآيتان 15 ـ 16)

ارسل الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لجميع الامم فكانت رسالته عامة وكانت دعوته عامة مثلها،وجاءت آيـات القرآن بالدعوة العامة فى مقامات وبالدعوة الخاصة لبعض من شملتهم الدعوة العامة فى مقامات أخرى. ولما ارسل الله محمدا (ص) كان الخلق قسمين أهل كتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ وغيرهم . وكان اشرف القسمين أهل الكتاب بما عندهم من النصيب مـن الكتاب الذى اوتـوه على نسيانهم لحظ منـه وتحريفهم لما حرفوا ❊ وكانوا اولى القسمين باتباع محـمد (ص) بما عرفوا قبله مـن الكتب والانبياء فلهذا وذاك كانت توجه اليهم الدعوة الخاصة بمثل قوله تعالى : « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا » الى آخر الآيتين .

وفى ندائهم بيا أهل الكتاب تشريف وتعظيم لهم باضافتهم للكتب ، وبعث لهم على قبول ما جاء به محـمد (ص) لانه جاء بكتاب وهـم أهـل

الكتاب • واحتجاج عليهم بان الايمان بالكتاب الذى عندهم بمقتضى الايمان بالكتاب الذى جاء به لانه من جنسه •

ادب واقتداء : هذا هو أدب الاسلام فى دعوة غير أهله ليعلمنا كيف ينبغى ان نختار عند الدعوة لاحد أحسن ما يدعى به وكيف ننتقى ما يناسب ما نريد دعوته اليه فدعاء الشخص بما يحب مما يلفته اليك ويفتح لك سمعه وقلبه، ودعاؤه بما يكره يكون أول حائل يبعد بينك وبينه ، واذا كان هذا الادب عاما في كل تداع وتخاطب فاحق الناس بمراعاته هم الدعاة الى الله والمبينون لدينه سواء دعوا المسلمين أو غير المسلمين •

بيانه لهم حجته عليهم : كانت كتبهم مقصورة على احبارهم ورهبانهم مخفية عندهم لا تصل اليها ايدى عامتهم ، فكانوا لا يظهرون الا ما يشاءون، ولا تعرف عامتهم منها الا ما أظهروا ، فجاءهم رسول الله (ص) ـ وهو أمى من أمة أمية ـ يبين لهم بما انزله الله عليه واوحى اليه من آيات الله وحججه واحكامه وكلمات رسله فيما عندهم مما هو حجة عليهم مقدارا كثيرا ، ويتجاوز عن كثير فيما عندهم من ذكر قبائح اسلافهم وذمهم ، وما لقى رسل الله عليهم الصلاة والسلام من عنتهم وشرهم وأذاهم • فكان هذا البيان العليم وهذا الخلق الكريم من هذا النبى الامى كافيا ان يعرفهم بنبوته وصدق دعوته ونهوض حجته ولهذا ذكر الله هذا البيان وهذا التجاوز فى أول صفاته لما أخبرهم بمجيئه اليهم بقوله : « يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » •

تمثيل : فى أول الإصحاح العشرين من سفر اللاويين التصريح برجم الزناة فأبطل أحبارهم هذا الحكم وعوضوه بغيره من التخفيف وكتموا النص، فبينه لهم النبى (ص)، والقصة مشهورة فى كتب السنن •

جاءت صفات النبى (ص) التى لا تنطبق على غيره فكتموها مثل قول عيسى عليه السلام وفى الفقرة الثانية عشرة وما بعدها فى الاصحاح السادس

عشر من انجيل يوحنا : « ان لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكـــن لا تستطيعون ان تحتملوا الآن وامامتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق لانه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية • ذاك يمجدنى لانه يأخذ مما لى ويخبركم » صرح عيسى عليه السلام بان الله هو الإله وحده ، وان عيسى رسوله ، فكتموها وقالوا فيه ما قالوا ، جاء فى الفقرة الثانية من الاصحاح السابع عشر من انجيل يوحنا قول عيسى عليه السلام : « وهذه هى الحياة الابدية ان يعرفوك انت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذى ارسلته »،وامثال هذا فيما عندهم كثـير •

ادب واقتداء : على الداعى الى الله والمناظر فى العلم أن يقصد احقاق الحق وابطال الباطل واقناع الخصم بالحق وجلبه اليه ، فيقتصر من كـل حديثه على ما يحصل له ذلك ، ويتجنب ذكر العيوب والمثالب ــ ولو كانت هنالك عيوب ومثالب ــ اقتداء بهذا الادب القرآنى النبوى فى التجاوز مما فى القوم عن كثير • وفى ذكر العيوب والمثالب خروج عن القصد ، وبعد عن الادب ، وتعد عن الخصم وابعاد له وتنفير عن الاستماع والقبول وهما المقصود من الدعوة والمناظرة •

نعمـة الاظهـار والبيـان بالرسول والقـرآن : لقـد كـان النـاس اهـل الكتاب وغـيرهم قبـل بعثـة النبى صلى الله عليه وسلم فى ظـلام من الجهل باللـه وبانبيائه وبشرعه • ومن الجهل بآيات الله فى أنفسهم وفى الكون • ومن الجهل بنعم اللـه عليه فى أنفسهم بالعقـل والفـكر والاستعداد للخير والكمال وفى العالم المسخر لهم بما أودع فيه من مرافق العيش والعمران والحياة ، ومن الجهل بقيمة انفسهم الانسانية وكرامتها وحريتها • فلما بعث الله محمدا ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كان بقوله وبفعله وبسيرته معرفا للخلق بما كانوا يجهلون ، فكان نورا سطع فى ذلك الظلام الحالك فبدده عن البصائر • وكما أن النور الكونى يجلو الموجودات الكونية للابصار ، فكذلك كان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك النور

الروحي الرباني يجلو تلك الحقائق للبصائر ، وكما ان النور الكوني يظهر الموجودات الكونية فلا يحرم منها الا معدوم البصر ٠

فكذلك كان محمد (ص) ذلك النور الرباني مجليا للحقائق للبشرية كلها ولا يحرم من ادراكها الا مطموسو البصائر الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم ٠

وكما كان محمد (ص) نورا تنبعث من أقواله وأفعاله وسيرته الاشعة الكاشفة للحقائق ـ كذلك كان الكتاب الكريم الذى أنزله الله عليه يبين بسوره وآياته وكلماته تلك الحقائق اجلى بيان فبمحمد (ص) وكتابه تمت نعمة الله تعالى عن البشرية كلها باظهار وبيان كل ما تحتاج الى اظهاره وبيانه ، ولذا دعا الله الى تصديق رسوله بالحجة العلمية الخلقية من بيانه وتجاوزه ذكر بهذه النعمة العظمى فى قوله تعالى : « **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ** » ٠

محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والقرآن ، نور وبيان : فى هذه الآية وصف محمد صلى الله عليه وسلم بانه نور، ووصف القرآن بانه مبين٠ وفى آيات أخرى وصف القرآن بانه نور بقوله : « **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا** » ٠ ووصف الرسول بانه مبين بقوله : « **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** » ، وهذا ليبين لنا الله تعالى ان اظهار النبى (صلى الله عليه وسلم) وبيانه واظهار القرآن وبيانه واحد ، ولقد صدقت عائشة ـ رضى الله عنها ـ لما سئلت عن خلق النبى (ص) فقالت : « كان خلقه القرآن » ٠

استفادة : نستفيد من هذا : أولا ـ ان السنة النبوية والقرآن لا يتعارضان ولهذا يرد خبر الواحد اذا خالف القطعى من القرآن٠ وثانيا ـ ان فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبى (ص) وسنته ، وفقه حياته (ص) يتوقف على فقه القرآن ، وفقه الاسلام يتوقف على فقههما ٠

اقتداء : هذا نبينا (ص) نور وبيان، وهذا كتابنا نور وبيان، فالمسلم المؤمن بهما المتبع لهما له حظه من هذا النور وهذا البيان ، فهو على ما يسر له من

العلم ــ ولو ضئيلا ــ يبينه وينشره، يعرف به الجاهل ويرشد به الضال، وهو بذلك وبعلمه الصالح كالنور يشع على مــن حــوله،وتتسع دائرة اشعاعه، وتضيق بحسب ما عنده من علم وعمل . فعلى المسلم ان يعلم هذا من نفسه، ويعمل عليه وليضرع الى اللــه دائما فى دعواته ان يمده بنوره ، وليــدع بدعاء النبى (ص) الذى كان يدعو به فى ذلك وهو : « اللهم اجعل فى قلبى نــورا ، وفى بصرى نــورا ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، وتحتى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا ، واجعل لى نورا» .

الهداية ونوعها : قد دل الله الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم ومرضاة خالقهم،وهذه هى هداية الدلالة وهى من فضل الله العام للناس أجمعين، وبها وبما يجده كل عاقل فى نفسه من التمكن والاختيار، قامت حجة الله على العباد ، ثم يسر من شاء ــ وهو الحكيم العدل ــ الى العمل بما دل عليه من أسباب السعادة والكمال ، وهذه هى دلالة التوفيق وهى من فضل الله الخاص بمن قبلوا دلالته واقبلوا على ما أتاهم من عنده فآمنوا برسوله والنور الذى أنزل معه ، كما قال تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » ، واما الذين أعرضوا عن ذكره وزاغوا عما دلهم عليه فأولئك يخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير كما قال تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » فالمقبلون على الله القايلون لما أتاهم من عنده هدوا دلالة وتوفيقا والذين أعرضوا قامت عليهم الحجة بالدلالة وحرموا من التوفيق جزاء اعراضهم .

بماذا تكون الهداية : كما انعم الله على عباده بالهداية الى ما فيه كمالهم وسعادتهم،كذلك انعم عليهم فبين لهم ما تكون به الهداية حتى يكونوا على بينة فيما به يهتدون ، اذ من طلب الهدى فى غير ما جعله الله سبب الهدى كان على ضلال مبين ، فلذا بين تعالى ان هدايته لخلقه انما تكون برسوله وكتابه فيتمسك بها من يريد الهدى ، وليحكم على من لم يهتد بها بالزيغ والضلال ، ولما كانا فى حكم شىء واحد فى الهداية يصدق كل واحد منهما الآخر ، جاء بالضمير مفردا فى قوله تعالى : « يَهْدِي بِهِ اللَّهُ » .

لمن تكون الهداية : اما هداية الدلالة والارشاد وحدها فهى ـ كما تقدم ـ عامة ، واما هداية الدلالة والارشاد مع التوفيق والتسديد فهى للذين اتبعوا ما جاءهم من عند الله من رسوله وكتابه ، وكانوا باتباعهم لهما متبعين لرضوانه المقتضى لقبوله ومثوبته وكرامته لهم ، ولم يتبعوا أهواءهم ومالوفاتهم وما ألفوا عليه آباءهم ولا اهواء الناس ورضاهم ، فكان اتباعهم لرضوان الله سببا في دوام ارشادهم وتوفيقهم ، وبقدر ما يكون ازدياد اتباعهم يكون ازدياد توفيقهم ، اذ قوة السبب تقتضى قوة المسبب ، والخير يهدى الى الخير والهدى يزداد بالاهتداء ، وهذا الربط الشرعى بين التوفيق والاتباع يقتضى الربط ما بين ضديهما : الاعراض والخذلان ، وانه بقدر ما يكون الاعراض عن الهدى يكون الخذلان والحرمان والشر يدعو بعضه الى بعض والسيئة تجر الى السيئة. وقد أفاد تخصيص التوفيق بأهل الاتباع وجعل التوفيق مسبباً عنه ـ بما فى صلة الموصول من التعليل ـ قوله تعالى : « مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ » .

الى ماذا تكون الهداية : فشؤون الشخص فى نفسه وشؤونه فيما بينه وبين أهله وفيما بينه وبين بنيه وفيما بينه وبين اقاربه وفيما بينه وبين جيرانه وفيما بينه وبين من تربطه به علاقة من علاقات الحياة ومصالحها ، وشؤون الجماعات وشؤون الامم فيما بينها ،كل هذه الشؤون سبل وطرق فى الحياة تسلك ويسار عليها للبلوغ الى الغايات المقصودة منها مما به صلاح الفرد والمجموع ، وكلها ان سلكت بعلم وحكمة وعدل واحسان كانت سبل سلامة ونجاة، والا كانت سبل هلاك،فيحتاج العبد فيها الى ارشاد وتوفيق من الله تعالى . وقد من الله بفضله على العباد بهذا النبى الكريم والكتاب العظيم،فمن آمن بهما واتبعهما ففيهما ما يهديه الى كل ما يحتاج اليه فى كل سبيل من تلك السبل فى الحياة وباتباعهما ـ واتباعهما اتباع لرضوان الله ـ يوفقه الله ويسدده فى سلوك تلك السبل ـ الفردية والجماعية والامية ـ الى ما يفضى به الى السلامة والنجاة ، وتكون تلك السبل كلها له سبل سلام أى

سلامة ونجاة لانها افضت به بارشاد الله وتوفيقه جزام لاتباعه وتصديقه اليها كما قال تعالى : « يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ » .

الاخراج من حالات الحيرة الى حالة الاطمئنان : تمر على العبد أحوال يكون فيها متحيرا مرتبكا كمن يكون في ظلام ، منها حالة الكفر والانكار ، وليس لمنكر الحق المتمسك بالهوى والمقلد للآباء من دليل يطمئن به ولا يقين بالمصير الذى ينتهى اليه . ومنها حالة الشك ومنها حالة اعتراض الشبهات ومنها حالة ثوران الشهوات , وكما ان الله يرشد ويوفق من اتبعوا رضوانه طرق السلامة والنجاة بالرسول (ص) والقرآن ، كذلك يخرجهم بهما باتباعهما والاهتداء بهما من ظلمات الكفر والشك والشبهات والشهوات وما فيها من حيرة وعماية الى الحالة التى تطمئن فيها القلوب كما تطمئن فى النور عندما يسطع فيبدد سدول الظلام ، فباتباعهما فقط تطمئن القلوب بالايمان واليقين، فتضمحل أمامها الشبهات وينكسر سلطان الشهوات فتلك الاحوال العديدة الظلمانية التى يكون فيها من أعرض عنهما أو خالفهما يخرج منها الى الحالة النورانية الوحيدة وهى حالة من آمن بهما واتبعهما كما قال تعالى : « وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ » على العبد ان يقبل ما فيه كماله وسعادته ومرضاة خالقه مما هداه الله اليه برسوله وكتابه وجعل قبوله له سببا فى توفيقه واخراجه من الظلمات الى النور، وعليه ان يعتقد انه لا ينال شيئا من التوفيق وحظا من النور الا باذن الله، أى ارادته وتيسيره، فلا يعتمد على نفسه ولا على أعماله، وانما يكون اعتماده على الله، فيحمله ذلك على الاجتهاد فى العمل وعدم العجب به ودوام التوجه الى الله وصدق الرجاء فيه والخوف من عقابه ودوام المراقبة له، ولأجل لزوم هذا الاعتماد على الله الميسر للاسباب الذى لا يكون فى ملكه الا ما أراد ــ قرن قوله : « يَهْدِي » « وَيُخْرِجُهُم » بقوله : « بِإِذْنِهِۦ » .

الاسلام ، هو السبيل الجامع العام : ما جاء به النبى صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن العظيم هو دين الله الاسلام ، فكل ما دل الله عليه

الخلق بهما وما وفق اليه من العلم والعمل باتباعهما فهو من الاسلام ، ولهذا لما ذكر تعالى ارشاده وتوفيقه للذين أتبعوا رضوانه واخراجهم من الظلمات الى النور ذكر ارشاده وتوفيقه لهم الى الطريق المستوى الموصل الى الكمال والسعادة ومرضاة الله الجامع لذلك كله بقوله تعالى : « وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » .

الرجوع الى كتاب الله وسنة رسول الله ـ لازم دائم :

ان الحاجة الى ارشاد الله وتوفيقه دائمة متجددة ، فكل عمل من أعمال الانسان،وكل حال من أحواله هو محتاج فيه الى هداية الله ودلالته ليعرف ما يرضاه الله منه مما لا يرضاه ، وهو محتاج فيه الى توفيق الله وتيسيره ليقوم بما يرضاه منه وشرعه له ودله عليه ، ولن يزال العبد ـ غير المعصومين (ص) ـ تغشاه ظلمات الشبهات والشهوات فيحتاج الى دلالة الله وتوفيقه ليخرج منها الى نور الايمان والاستقامة ، فالعبد محتاج دائما الى الرجوع الى كتاب الله وما ثبت من سنة نبيه (ص) ليهتدى الى ما يرضى الله مما شرعه له من أحواله وافعاله . والى ما يدفع عنه شبهاته وينقذه من شهواته ومحتاج الى التوسل بذلك الرجوع اليهما وذلك الاتباع لهما الى الله ليفتح له أبواب المعرفة ويمد له أسباب التوفيق وهذا هو القصد من صيغة المضارع المفيدة للتجدد فى قوله تعالى : « يَهْدِي » و « يُخْرِجُهُمْ » و « يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » جعلنا الله من المتبعين لرضوانه ، الراجعين لكتابه وسنة رسوله (ص) ، الفائزين منهما بالهداية ، لخير غاية ، باذنه وفضله ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير (1) .

---

(1) الشهاب ـ ج 3، م· 11 ـ ربيع الاول 1354 هـ/جوان 1935 م .

سبيـــل السعــادة والنجـــاة

« قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ : أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »

(سورة يوسف ـ الآية : 108)

خلق الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم اكمل الناس وجعله قدوتهم وفرض عليهم اتباعه والائتساء به · فلا نجاة لهم من المهالك والمعاطب ولا وصول لهم الى السعادة فى دنياهم وأخراهم ومغفرة خالقهـم ورضوانه ـ الا باقتفاء آثاره والسير فى سبيله ·

فلهذا أمر الله نبيه (ص) ان يبين سبيله بيانا عاما للناس لتتضـح الحجة للمهتدين ، وتقوم الحجة على الهالكين · امره أن يبينها البيان الذى يصيرها مشاهدة بالعيان ويشير اليها كما يشار الى سائر المشاهدات فقال له : « **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ** » ·

ثم بين سبيله بثلاثة اشياء : الدعوة الى الله على بصيرة،وتنزيه الله تعالى، والبراءة من المشركين · فقال : « **أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** » ·

الدعوة الى اللــه : فالنبى (ص) من يوم بعثه الله الى آخر لحظة من حياته كان يدعو الناس كلهم الى الله باقواله وتقريراته وجميع مواقفه فى سائر مشاهده ، وكانت دعوته هذه بوجوهها كلها واضحة جلية لا خفاء بها كما قال (ص) : (وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء) فكانت مشاهدة معينة كما أشير اليها فى الآية اشارة المعين المشاهد .

كان يدعو الى دين الله ويبين هو ذلك الدين ويمثله . يدعو الى عبادة الله وتوحيده وطاعته ويشاهد الناس تلك العبادة والتوحيد والطاعة ، فكان (ص) كله دعوة الى الله · فما دعا الى نفسه ، فقد مات ودرعه مرهونة في دين ، وما دعا الى قومه فقد كان يقول : (لا فضل لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلاّ بتقوى الله) ·

كان يدعو الناس كلهم اذ هو رسول الله الى الناس كلهم فكتب الكتب وارسل الرسل فبلغت دعوته الى الامم وملوك الامم · كان يدعو الكافرين كما يدعو المؤمنين ، يدعو أولائك الى الدخول في دين الله ويدعو هؤلاء الى القيام بدين الله فلم ينقطع يوما عن الانذار والتبشير ، والوعظ والتذكير ·

كان يدعو الى الله على بينة وحجة يحصل بها الادراك التام للعقل حتى يصير الامر المدرك واضحا لديه كوضوح الامر المشاهد بالبصر فهو على بينة ويقين من كل ما يقول ويفعل، وفي كل ما يدعو من وجوه الدعوة الى الله في حياته كلها وفي جميع احواله،وكانت دعوته المبنية على الحجة والبرهان مشتملة على الحق والبرهان فكان يستشهد بالعقل ويتعضد بالعلم ويستنصر بالوجدان ويحتج بأيام الله في الامم الخالية وما استفاض من اخبارها وبقي من آثارها من انباء الاولين وما يمر الناس عليه مصبحين وبالليل ·

على كل مسلم ان يكون داعيا الى الله : لقد كان في بيان ان الدعوة الى الله هي سبيل محمد (ص) ما يفيد ان على أتباعه ـ وهو قدوتهم ولهم فيه الاسوة الحسنة ـ ان تكون الدعوة الى الله سبيلهم ، ولكن لتأكيد هذا عليهم وبيان أنه من مقتضى كونهم اتباعه وان اتباعهم له لا يتم الا به ـ جاء التصريح بذلك هكذا : « **ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** » ·

فالمسلمون افرادا وجماعات عليهم ان يقوموا بالدعوة الى الله وان تكون دعوتهم على بينة وحجة وايمان ويقين · وان تكون دعوتهم وفقا لدعوته وتبعا لها ·

ماهية الدعوة : فمن الدعوة الى اللـه دروس العلوم كلها مما يفقه فى دين الله ويعرف بعظمة اللـه وآثار قدرته ويدل على رحمة اللـه وأنواع نعمته • فالفقيه الذى يبين حكم الله وحكمته داع الى الله ، والطبيب المشرح الذى يبين دقائق العضو ومنفعته داع الى اللـه ، ومثلهما كل مبين فى كل علـم وعمـل •

ومن الدعوة الى الله بيان حجج الاسلام ودفع الشبه عنه ونشر محاسنه بين الاجانب عنه ليدخلوا فيه وبين مزعزعى العقيدة من ابنائه ليثبتوا عليه•

ومن الدعوة الى الله مجالس الوعظ والتذكير لتعريف المسلمين بدينهم وتربيتهم فى عقائدهم واخلاقهم واعمالهم على ما جاء به ، وتحبيبهم فيـه ببيان ما فيه من خير وسعادة لهم وتحذيرهم مما ادخل من محدثات عليه هى سبب كل شقاوة وشر لحقهم ، وبيان انه ما من سبب مما تسعد بـه البشرية أفرادها وأممها ـ الا بينه لهم ودعاهم اليه وما من سبب مما تشقى به البشرية افرادها واممها ـ الا بينه لهم ونهاهم عنه وبيان أنه لولا عقيدته المتأصلة فيهم وبقاياه الباقية لديهم ومظاهره القائمة بهم لما بقيت لهم ـ وهم المجردون من كل قوة ـ بقية ، ولتلاشت أشلاؤهم ـ وهم الاموات ـ فى الامم الحية •

ومن الدعوة الى الله الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء وانما يتنوع الواجب بحسب رتبـة الاستطاعة فيجب باليد فان لم يستطع فباللسان فان لم يستطع فبالقلب وهو أضعف الايمان وأقل الاعمال فى هذا المقام •

ومن الدعوة الى الله ظهور المسلمين ـ أفرادا وجماعات ـ بما فى دينهم من عفة وفضيلة ، واحسان ورحمة،وعلم وعمل ، وصدق وأمانة ، فذلك أعظم مرغب للاجانب فى الاسلام كما كان ضده أعظم منفر لهم عنه ، وما انتشر الاسلام أول أمره بين الامم الا لان الداعين اليه كانوا يدعون بالاعمال كما يدعون بالقول- وما زالت الاعمال عيارا على الاقوال •

ومن الدعوة الى الله بعث البعثات الى الامم غير المسلمة،ونشر الكتب بألسنتها،وبعث المرشدين الى عوام الامم المسلمة لهدايتهم وتفقيههم ٠

كل هذا من الدعوة الى الله ثابتة أصوله فى سنة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وسنة السلف الصالح من بعده ٠فعلى كل مسلم أن يقوم بما استطاع منه فى كل وجه من وجوهه . وليعلم أن الدعوة الى الله على بصيرة هى سبيل نبيــه (ص) وسبيل اخوانه الانبياء (ص) من قبله ، فلم يكن المسلم ليدع من هذا المقام الشريف مقام خلافة النبوة شيئا من حظه واذا كان هذا المقام ثابتا لكل مسلم ومسلمة ، وحق القيام به ـ بقدر الاستطاعة ـ على كل مسلم ومسلمة ـ فاهل العلم به أولى وهو عليهم أحق ، وهــم المسؤولون عنه قبل جميع الناس ٠ وما أصاب المسلمين ما أصابهم الا يوم قعد أهل العلم عن هذا الواجب عليهم ٠ واذا عادوا الى القيام به ـ وقد عادوا والحمد لله ـ أوشك ـ ان شاء الله ـ أن ينجلى عن المسلمــين مصابهــم ٠

تفرقـــة : ليس كل من زعم أنه يدعو الى الله يكون صادقا فى دعواه فلابد من التفرقة بـين الصادقين والكاذبين والفرق بينهما مستفاد مـن الآية بوجهين :

الاول : ان الصادق لا يتحدث عن نفسه ولا يجلب لها جاها ولا مالا ولا يبغى لها من الناس مدحا ولا رفعة ٠ أما الكاذب فانه بخلافه فلا يستطيع أن ينسى نفسه فى أقــواله وأعماله ، وهــذا الفرق مـن قــوله تعــالى : « إِلَى ٱللَّهِ » ٠

الثــانى : أن الصادق يعتمد على الحجة والبرهان فلا تجد فى كلامه كذبا ولا تلبيسا ولا ادعاء مجردا ، ولا تقع من سلوكه فى دعوته على التواء ولا تناقض ولا اضطراب،وأما الكاذب فانه بخلافه،فانه يلقى دعاويــــه مجردة ويحاول تدعيمها بكل ما تصل اليه يده ولا يزال لذلك فى حنايا وتعاريج لا تزيده الا بعدا عن الصراط المستقيم، وهذا الفرق من قوله تعالى : « عَلَىٰ بَصِيرَةٍ » ٠

مباحث لفظية : «على بصيرة» : يتعلق بأدعو واختيرت على لتدل على تمام التمكن « **أنا** » : تأكيد للضمير المستتر فى ادعو · ونكتته الاعلان بنفسه فى مقام الدعوة وشان الداعى على بصيرة أن يجهر بدعوته ولا يستتر بها ، واتصال اللفظ الدال عليه باللفظ الدال على اتباعه كما تتصل دعوتهم بدعوته ، وشأن الصورة اللفظية مطابقة الصورة الخارجية،والكلام تصوير للواقع · « **مَنِ** » : تفيد العموم لكل تابع واكملهم فى الاتباع اكملهم فى الدعوة لأن الموصول يفيد التعليل بصلته فهم يدعون لأنهم متبعون ·

تنزيه الله تعالى : الاعتراف بوجود خالق الكون يكاد يكون غريـــزة مركوزة فى الفطرة ويكاد لا تكون لمنكريه ـ عتادا ـ نسبة عددية بـين البشر · ولكن أكثر المعترفين بوجوده قد نسبوا اليه ما لا يجوز عليـــه ولا يليق بجلاله من الصاحبة والولد والمادة والصورة والحلول والشريك فى التصرف فى الكون والشريك فى التوجه والضراعة اليه والسؤال منه والاتكال عليه ·

فارسل اللـه الرسل ليبينوا للخلق تنزهه عن ذلك كله · وكان من سبيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه يدعو الخلق الى الله وينزهه عن كل ما نسبه اليه المبطلون وتخيله المتخيلون وهـو معنى قـوله تعـالى : « **وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ** » ·

فهو يدعوهم الى الله الذى قد عرفوا وجوده بفطرتهم وعرفوا انه هو خالق الكون وخالقهم لا يسميه الا بما سمى به نفسه ولا يصفه الا بمـا وصف به نفسه ، ويعرفهم بآثار قدرته ومواقع رحمته ومظاهر حكمتـه وآيات ربوبيته والوهيته ووحدانيته فى جلاله وسلطانه ، وينزهه عـــن المشابهة والمماثلة لشيء من مخلوقاته لا فى ذاته ولا فى اسمائه ولا فى صفاته ولا فى افعاله ·

وهذا التنزيه ـ وان كان داخلا فى الدعوة الى اللـه ـ فانـه خصص بالذكر لعظم شأنه فانه ما عرف اللـه من شبهه بخلقه أو نسب اليـه ما

لا يليق بجلاله أو أشرك به سواه ، وان ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية فمن اعظم وجوه الدعوة والزمها تنزيه اللـه تعـالى عـن الشبيه والشريك وكل ما لا يليق ·

والمسلمون المتبعون لنبيهم (ص) فى الدعوة الى الله على بصيرة متبعون له فى هذا التنزيه عقدا وقولا وعملا واعلانا ودعوة ·

مباحث لفظية : « سبحان » : منصوب بفعل محذوف تقديره اسبح أى انزه والجملة معطوفة على جملة ادعو فهى من بيان القبيل ·

البراءة من المشركين : الامة التى بعث منها النبى (ص) وهى أول أمة دعاها الى الله هى الأمة العربية،وهى أمة كانت مشركة تعرف ان اللـه خلقها ورزقها وتعبد مع ذلك أوثانها تزعم انها تقربها الى الله وتتوسط لها لديه . فكان النبى (ص) كما يدعو الى الله وينزهه يعلن ببراءته من المشركين وانه ليس منهم براءة من عقيدتهم وأقوال واعمال شركهم فهو مباين لهم فى العقد والقول والعمل مباينة الضد للضد فكما باين التوحيد الشرك،باين هو المشركين وذلك معنى قوله تعالى : « **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** »·

وهذه البراءة والمباينة ــ وان كانت مستفادة من انه يدعو الى اللـه وينزهه فانها نص عليها بالتصريح لتأكيد أمر مباينة المشركين (والبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جليه وخفيه) فى جميع مظاهر شركهم حتى فى صورة القول كما شاء الله وشاء فلان فلا يقال هكذا ويقال : ثم شاء فلان كما جاء فى حديث بيناه فى جزء من الاجزاء الماضية أو فى صورة الفعل كأن يسوق بقرة أو شاة مثلا الى ضريح من الاضرحة ليذبحها عنده فانه ضلال كما قاله (الشيخ الدردير فى باب النذر) · فضلا عن عقائدهم كاعتقاد ان هنالك ديوانا من عباد الله يتصرف فى ملك الله،وان المذنب لا يدعو الله وانما يسأل من يعتقد فيه الخير من الاموات،وذلك الميـت يدعو له الله لتأكيد أمر المباينة للمشركين فى هذا كله نص عليها بالتصريح كما قلنا ، وللبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جليه وخفيه ·

والمباينة والتبرى لازمة من كل كفر وضلال،وذلك مستفاد من الدعوة الى الله وتنزيهه،وانما خصص المشركين لما تقدم،ولأن الشرك هو شر الكفر وأقبحه ·

ولما كانت هذه المباينة والبراءة داخلة في الدعوة الى الله وتنزيهه فالمسلمون المتبعون لنبيهم صلى الله عليه وآله وسلم كما يدعون الى الله على بصيرة وينزهونه يباينون المشركين في عقائدهم واعمالهم واقوالهم ، ويطرحون الشرك بجميع وجوهه ، ويعلنون براءتهم وانتفاءهم من المشركين.

والحمد لله رب العالمين (1) ·

---

(1) الشهاب : ج 1 م 11 ـ محرم 1354 هـ/افريل 1935 م ·

كيف تكون الدعوة الى اللـه والدفاع عنها

« ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ »

(سورة النحل ـ الآية : 125)

سبيل الرب جل جلاله : شرع الله لعباده بما انزل من كتابه وما كان من بيان رسوله ما فيه استنارة عقولهم وزكاء نفوسهم ، واستقامة اعمالهم . وسماه سبيلا ليلتزموه فى جميع مراحل سيرهم فى هذه الحياة ليفضى بهم الى الغاية المقصودة،وهى السعادة الابدية فى الحياة الاخرى واضافه الى نفسه ليعلموا انه هو وضعه . وانه لا شىء يوصل الى رضوانه سواه . وذكر من اسمائه الرب ليعلموا ان الرب الذى خلقهم وطورهم ولطف بهم فى جميع اطوار خلقهم ومراحل تكوينهم هو الذى وضع لهم هذه السبيل لطفا منه بهم واحسانا اليهم لينهجوها فى مراحل حياتهم فكما كان رحيما بهم فى خلقه كان رحيما بهم فى شرعه فيسيروا فيها عن رغبة ومحبة فيها ، ومع شكر له وشوق اليه ، وأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان يدعو الناس اجمعين ـ وحذف معمول ادع لافادة العموم ـ الى هذه السبيل فقال تعالى : « **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ** » .

اهتـــداء : أمر الله نبيه (ص) ان يدعو الى سبيل ربه وهو الامين المعصوم فما ترك شيئا من سبيل ربه الا دعا اليه فعرفنا بهذا ان ما لـم يدع اليه محمد (ص) فليس من سبيل الرب جل جلاله ، فاهتدينا بهذا ـ وامثاله كثير ـ الى الفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ودعاة الله

ودعاة الشيطان • فمن دعا الى ما دعا اليه النبى (ص) فهو من دعاة الله يدعو الى الحق والهدى ومن دعا الى ما لم يدع اليه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو من دعاة الشيطان يدعو الى الباطل والضلال •

اقتـــداء : فالمسلم المتبع للنبى (ص) لا يالو جهدا فى الدعوة الى كل ما عرف من سبيل ربه • وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع تتضح السبيل للسالكين ويعم العلم بها عند المسلمين وتخلو سبل الباطل على دعاتها من الشياطين •

أركان الدعوة : أركان الدعوة اربعة : الداعى وهو النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، والمدعو وهم جميع الناس،والمدعو اليه وهو سبيل الرب جـل جلالـه ، والدعوة الى سبيله الموصل اليه دعوة اليه فالمدعو اليه فى الحقيقة هو الله تعالى ، والبيان عن الدعوة ، وتجيء الآيات القرآنية منها ما هو حديث وبيان عن الداعى،ومنها ما هو حديث وبيان عن المدعو اليه، ومنها حديث وبيان عن بيان الدعوة،وتتضمن كل آية جاءت فى واحد الذكر أو الاشارة للثلاثة الاخرى ، وهذه الآية الكريمة جاءت فى بيان كيفيـــة الدعوة وبماذا تؤدى وكيف يدافع عنها مـع ذكر الداعى والمدعو اليه • فقال تعالى : « **بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** » •

الحكمـــة : الحكمة هى العلم الصحيح الثابت المثمر للعمل المتقن ، المبنى على ذلك العلم ، فالعقائد الحقة والحقائق العلمية الراسخـة فى النفس رسوخا تظهـر آثاره عـلى الاقـوال والاعمال حكمـة ، والاعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التى اثمرتها تلك العقائد ــ حكمة ، والاخلاق الكريمة كالحلم والاناة ــ وهى عـلم وعمل نفسى ــ حكمة ، والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع ــ حكمة • تسمية للدال باسم المدلول •

استدلال واستنتاج : فى سورة الاسراء ثمان عشرة آية ، جمعت أصول الهداية من قوله تعالى : « **لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا** » الى « **لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا** » وقد تكلمنا عليها فى الجزء 6 و 7 و 8 و 9 و 10 من المجلد السادس وقد جمعت تلك

الآيات كل ما ذكرنا من العقائد الحقة، والحقائق العلمية، والاعمال المستقيمة، والكلمات الطيبة، والاخلاق الكريمة، وسمى الله ذلك كله حكمة فقال تعالى : « ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » (1) • وقال النبى (ص) : (ان من الشعر حكمة) وذلك لان من الشعر ما فيه بيان عن عقيدة حق أو خلق كريم أو عمل صالح أو علم وتجربة • كشعر امية بن أبى الصلت الذى قال (2) فيه النبى (ص) كاد ان يسلم وككلمة لبيد (ض) : « الاكل شيء ما خلا الله باطل » التى قال (3) فيها (ص) : (اصدق كلمة قالها الشاعر) •

فالحكمة التى أمر الله نبيه (ص) ان يدعو الناس الى سبيل ربه بها البيان الجامع الواضح للعقائد بأدلتها والحقائق وبراهينها والاخلاق الكريمة بمحاسنها ومقابح اضدادها ، والاعمال الصالحة ـ من أعمال القلب وللسان والجوارح ـ بمنافعها ومضار خلافها •

وهكذا كان بيانه لهذه الاشياء كلها بما صح من أحاديثه وجوامع كلمه وهكذا هو بيان القرآن لها كلها حيثما كانت من آياته ، فآيات القرآن احاديثه (ص) فى بيان هذه الاشياء البيان المذكور ـ هما الحكمة التى ان يدعو الى سبيل ربه بها • وتلك الاشياء كلها هى أيضا حكمة وهى التى كان يعلمها كما فى قوله تعالى : « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » فصلى الله عليه وآله وسلم من داع الى الحكمة بالحكمة ومعلم للحكمة بالحكمة •

اهتداء واقتداء : هدتنا الآية الكريمة الى أسلوب الدعوة وهو الحكمة وتجلت هذه الحكمة فى الآيات القرآنية والاحاديث النبوية •

فعلينا ان نلتزمها جهدنا حيثما دعونا • ونقتدى بأساليب القرآن والسنة فى دعوتنا، فبها يحصل الفهم واليقين ، والفقه فى الدين والرغبة فى العمل والدوام عليه ، وها نحن قد بلغ الحال بنا الى ما بلغ اليه من الجهل بحقائق الدين، والجمود فى فهمه، والإعراض عن العمل به، والفتور فى العمل . فحق على أهل الدعوة الى الله ـ وخصوصا المعلمين ـ ان يقاوموا

---

(1) روى الثلاثة البخارى فى كتاب الادب باب ما يجوز من الشعر

ما بينا من جهل وجمود واغراض وفتور بالتزام البيان للحقائق العلمية بادلتها ، والعقائد ببراهينها ، والاخلاق بمحاسنها . والاعمال بمصالحها ٠

وقد وجد الاخذ بهذه الاساليب القرآنية والحمد لله ـ وأخذ أثرها ـ بفضل الله ـ يظهر في الناس بقدر الاخذ بها ويوشك ان تتجدد بذلك في المسلمين حياة ان شاء الله ٠

الموعظة الحسنة : الوعظ والموعظة الكلام الملين للقلب بما فيه من ترغيب وترهيب فيحمل السامع - اذا اتعظ وقبل الوعظ واثر فيه ـ على فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه،وقد يطلق على نفس الامر والنهي ٠

الاستدلال : ففي حديث العرباض الذي رواه الترمذي وغيره : « وعظنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظة وجلت (خافت) منها القلوب وذرفت (سالت) منها العيون » فقد خطب فيهم خطبة كان لها هذا الاثر في قلوبهم فهذه حقيقة الموعظة ٠

وقال تعالى : « **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ** » أي يؤمرون به ٠ وقد قال تعالى : « **يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً** » اي ينهاكم،فهذا من اطلاق الوعظ على الامر والنهي لان شأن الامر والنهي ان يقترن بما يحمل على امتثاله من الترغيب والترهيب ٠

بماذا تكون الموعظة ؟ : يكون الوعظ بذكر ايام الله في الامم الخالية ، وباليوم الآخر وما يتقدمه وما يكون فيه من مواقف الخلق وعواقبهم ومصيرهم الى الجنة أو النار وما في الجنة من نعيم وما في النار من عذاب أليم ٠ وبوعد الله ووعيده ٠ وهذه أكثر ما يكون بها الوعظ ، ويكون بغيرها كتذكير الانسان بأحوال نفسه ليعامل غيره بما يحب ان يعامل به، وهو من ادق فنون الوعظ وابلغها مثل قوله تعالى وقد نهى ان يقال لمن القى السلم ، لست مؤمنا « **كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ** » ، وقوله تعالى ـ وقد أمر بالعفو والصفح ـ : « **أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** » ٠

تفريق بالتمثيل : يقول تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » هذه حكمة ، ويقول تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا » هذه موعظة ، ويقول تعالى : « وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ » هذه أيضا موعظة ، « وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ » هذه حكمة « فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » هذه موعظة « اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » هذه حكمة ، « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » هذه موعظة .

وهكذا تمتزج المواعظ الحسنة بالحكم البالغة فى آيات القرآن العظيم، فتتبعها فى جميع سوره تجدها ، وتدبرها تقع منها على علوم جمة واسرار غزيرة .

حسن الموعظة : الموعظة التى تحصل المقصود منها من ترقيق للقلوب للحمل على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة ، هى الموعظة الحسنة ، وانما يحصل المقصود منها اذا حسن لفظها بوضوح دلالته على معناها . وحسن معناها بعظيم وقعه فى النفوس ، فعذبت فى الاسماع، واستقرت فى القلوب، وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية فاثارت الرغبة والرهبة،وبعثت الرجاء والخوف بلا تقنيط من رحمة الله ، ولا تامين من مكره،وانبعثت عن ايمان ويقين،وتادت بحماس وتاثر، فتلقتها النفس من النفس ، وتلقفها القلب من القلب ، الا نفسا أحاطت بها الظلمة ، وقلبا عم عليه الران . عافى الله قلوب المؤمنين .

تطبيق واستدلال : كل هذا تجده فى مواعظ القرآن ، وفيما صح من مواعظ النبى صلى الله عليه وآله وسلم . وكان (ص) كما جاء فى الصحيح اذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته واحمرت عيناه وانتفخت أوداجه . كانه منذر جيش يقول صبحكم (اغار عليكم فى الصباح) مساكم (أغار عليكم فى المساء) وكان يقصر خطبه فى بلاغة وايجاز .

اهتداء واقتداء : هذه الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها الى ان من الموعظة ما هو حسن، وهو الذى تكون به الدعوة، ومنها ما هو ليس بحسن فيجتنب ، وبينت مواعظ القرآن ومواعظ النبى (ص) ذلك الحسن • فعلينا ان نلتزمه لانه هو الذى تبلغ به الموعظة غايتها ، وتثمر باذن الله ثمرتها ، وعلينا ان نجتنب كل ما خالفه مما يعدم ثمرة الموعظة كتعقيد الفاظها ، أو يقلبها الى ضد المقصود منها كذكر الآثار الواهية التى فيها اعظم الجزاء على أقل الاعمال •

تحذيـــر : أكثر الخطباء فى الجمعات اليوم فى قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدة مسجعة طويلة من مخلفات الماضى لا يراعى فيها شىء مـن أحوال الحاضر وامراض السامعين، تلقى بترنم وتلحين أو غمغمة وتمطيط، ثم كثيرا ما تختم بالاحاديث المنكرات ، أو الموضوعات •

هذه حالة بدعية فى شعيرة من اعظم الشعائر الاسلامية سد بها أهلها بابا عظيما من الخير فتحه الاسلام وعطلوا بها الوعظ والارشاد وهو ركن عظيم من أركان الاسلام • فحذار أيها المؤمن من ان تكون مثلهم اذا وقفت خطيبا فى الناس ، وحذار من ان تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية الى ما احدثه المحدثون • ورحم الله ابا الحسن ـ كرم الله وجهه ـ فقد قال : (الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولـم يؤمنهم من مكره ولم يدع القرآن رغبة عنه الى ما سواه » •

الجدال بالتى هى احسن : لابد ان يجد داعية الحق معارضة مـــن دعاة الباطل وان يلقى منهم مشاغبة بالشبه ، واستطالة بالأذى والسفاهة • فيضطر الى رد باطلهم، وابطال شغبهم، ودحض شبههم، وهذا هو جدالهم ومدافعتهم الذى أمر به نبيه (ص) بقوله : « وَجَادِلْهُمْ » •

ولما كان أهل الباطل لا يجدون فى تأييد باطلهم الا الكلمات الباطلة يموهون بها ، والكلمات البذيئة القبيحة يتخذون سلاحا منها، ولا يسلكون فى مجادلتهم الا الطرق الملتوية المتناقضة فيتعسفون فيها ويهربون اليها

ـ لما كان هذا شانهم امر الله نبيه (ص) ان يجتنب كلماتهم الباطلة والقبيحة وطرائقهم المتناقضة والملتوية ، وان يلتزم فى جدالهم كلمة الحق والكلمات الطيبة البريئة ، وان يسلك فى مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار ، دون فحش ولا طيش ولا فظاظة ، وهذه الطريقة فى الجدال هى التى هى احسن من غيرها فى لفظها ومعناها ومظهرها وتاثيرها وافضائها للمقصود من افحام المبطل وجلبه ورد شره عن الناس واطلاعهم على نقصه وسوء قصده · وهذه هى الطريقة التى أمر الله نبيه (ص) بالجدال بها فى قوله تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ·

اهتداء واقتداء : هدتنا الآية الكريمة الى الطريقة المحمودة المشروعة فى الجدال،وفى آيات القرآن بيان لهذه الطريقة البيان التام · فانه كما لم يترك القرآن عقيدة من عقائد الاسلام الا بينها وأوضح دليلها،ولا أصلا من أصول أحكامه أو أصول آدابه الا بينه واحتج له وذكر حكمته وثمرته ، كذلك لم يترك شبهة من شبه الباطل الا ردها بالطريقة الحسنة التى امر بها ، وجاءت السنة النبوية الكريمة والسيرة المحمدية الشريفة مطبقة لذلك ومنفذة له · فالكتاب والسنة فيهما البيان الكافى الشافى للجدال بالتى هى أحسن،كما فيهما البيان الشافى الكافى للحكمة والموعظة الحسنة ·

فعلينا ان نطلب هذا كله من الكتاب والسنة،ونجهد فى تتبعه وأخذه واستنباطه منهما · ونداب على العمل بما نجده والتحلى به والالتزام له من هذه الاصول الثلاثة فى الدعوة والدفاع عنها ·

احكام وتنزيل : أمر الله بالدعوة وبالجدال على الوجه المذكور فكلاهما واجب على المسلمين ان يقوموا به،فكما يجب لسبيل الرب جل جلاله ان تعرف بالبيان بالحكمة ، وأن تحبب بالترغيب بالموعظة الحسنة،كذلك يجب أن يدافع من يصدون عنها بالتى هى أحسن ، اذ لا قيام لشىء من الحق الا بهذه الثلاث · غير ان الدعوة بوجهيها والجدال ليستا فى منزلة واحدة فى القصد والدوام فان المقصود بالذات هو الدعوة واما الجدال فانه غير مقصود بالذات وانما يجب عند وجود المعارض بالشبهة والصاد بالباطل عن سبيل

الله ، فالدعوة بوجهيها أصل قائم دائم والجدال يكون عند وجود ما يقتضيه ولهذا كانت الدعوة بوجهيها محمودة على كل حال وكان الجدال مذموما فى بعض الاحوال وذلك فيما اذا استعمل عند عدم الحاجة اليه فيكون حينئذ شاغلا عن الدعوة ومؤديا ـ فى الاكثر ـ الى الفساد والفتنة • فاذا كان جدالا لمجرد الغلبة والظهور فهو شر كله،واشد شرا منه اذا كان لمدافعة الحق بالباطل.وفى هذه الاقسام الممنوعة جاء مثل قوله : « **وَالَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ** » « **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** » وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل • ثم تلا : « **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** » •

تحذير : المدافعة والمغالبة من فطرة الانسان،ولهذا كان الانسان أكثر شيئا جدلا ، غير أن التربية الدينية هى التى تضبط خلقه وتقوم فطرته فتجعل جداله بالحق عن الحق • فلنحذر من أن يطغى علينا خلق المدافعة والمغالبة فنذهب فى الجدل شر مذاهبه وتصير الخصومة لنا خلقا ، ومن صارت الخصومة له خلقا ، أصبح يندفع معها فى كل شىء ولأدنى شىء لا يبالى بحق ولا باطل ، وانما يريد الغلب بأى وجه كان ، وهذا هو الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : « ان أبغض الرجال الى الله الألد (الشديد الخصومة) الخصم (الكثير الخصومات) » ومن ضبط نفسه وراقب ربه لا يجادل اذا جادل الا عن الحق وبالتى هى أحسن •

«علينا الدعوة والجدال والى الله الهدى والضلال والمجازاة على الاعمال» .

الدعوة بوجهيها يجب أن تكون عامة والجدال على وجهه عام مثلها ، ثم يكون حظ كل واحد من الهدى والضلال على حسب استعداده وقابليته، وما سبق عليه من أمر ربه ، وتكون مجازاته على ذلك للخالق الذى هو العالم بمن خرج عن طريقه واعرض عن هداه،وبالذين قبلوا هداه فاهتدوا وساروا فى سبيله • والعدل الحقيقى التام فى الجزاء انما يكون ممن يعلم السر والعلن،وليس ذلك الا لله فلا يكون الجزاء على الهدى والضلال من سواه •

ولهذا ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

ثمرة : ثمرة العلم بهذا ان الداعى يدعو ولا ينقطع عن الدعوة ولو لم يتبعه احد،لانه يعلم ان أمر الهدى والضلال الى الله،وانما عليه البلاغ وانه يصبر على ما يلقى من اعراض وعناد وكيد واذى دون ان يجازى بالمثل أو يفتر فى دعوة من اذاه لعلمه بان الذى يجازى انما هو الله .

جعلنا الله والمسلمين من الدعاة الى سبيله كما أمر ، الصابرين المحتسبين أمام من آمن وشكر ، ومن جحد وكفر ، غير منتظرين الا جزاءه ، ولا متكلين الا عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل (1) .

---

(1) ش : ج 2 م 11 ـ صفر 1354 هـ/مارس 1935 م .

آيـة الليـل وآيـة النهـار

« وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً »

(سورة الاسراء ، الآية 12)

للـه تعالى فى سور القرآن ، وعالم الاكوان ، آيات بينات دالـة على وجـوده ، وقدرته ، وارادته ، وعلمه ، وحكمته ، ونعـم سابغات موجبة لحمده ، وشكره ، وعبادته .

ولما ذكر تعالى آيته ، ونعمته ، بالقرآن الذى يهدى للتى هى أقـوم ، ذكر آيته ونعمته بالليل والنهار المتعاقبين على هذا الكون الاعظم ، فقال تعالى : « **وَجَعَلْنَا** » الآية .

« **وجعلنا الليـل والنهـار** » : خلقناهما ووضعناهما آيتين ، وجعل الشيء هو وضعه على حالة أو كيفية خاصة ، فهما حادثان مسيران بتدبير وتقدير و « الليل » : هو الوقت المظلم الذى يغشى جانبا من الكرة الارضية عندما تكون الشمس منـيرة لجانبها المقابل . و « النهار » : هو الوقت الذى يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيئه بنورها ولا يزالان هكذا متعاقبين على جوانب هذه الكرة وأمكنتها ، يكور الليل على النهار بأن يحل محله فى جزء من الكرة ـ وجزء الكرة مكور ـ فيكون النهار الحال مكورا بحكم تكور المحل ، وكذلك النهار يكور عليه فيحل محله من الكرة فيكون ايضا مكورا بحكم تكور المحل . وانما جعلنا تكوير احدهما عـلى

الآخر بحلوله في محلـه لانه لا يمكن تكويره عليه بحلوله عليه في نفسه لانهما ضدان لا يجتمعان ، وليس جسمـين يحـل احدهما على الآخـر ٠
والآيـة : هي العلامة الدالة ، وكان الليل والنهار « آيتين » : بتعاقبهما مقدرين بأوقات متفاوتة بالزيادة والنقص في الطول والقصر عـلى نظـام محـكم وترتيب بـديع ، بحسب الفصول الشتوية والصيفية ، وبحسب الامكنة ومناطق الارض ، المناطق الاستوائية والقطبية الشمالية والجنوبية وما بينهما . حتى يكونا في القطبين ليلة ويوما في السنة ، ليلة فيها ستة أشهر هي شتاء القطبين ، ويوم فيه ستة أشهر هو صيفهما ، فهذا الترتيب والتقدير والتسيير دليل قاطع على وجود خالق حكيم قدير ، لطيف خبير ٠

الليل في نفسه آيـة ، وفيه آيات ، واظهر آياته هو القمر، فيقال في القمر « **آية الليل** » والنهار في نفسه آية . وفيه آيات ، واظهر آياته هو الشمس . فيقال في الشمس « **آية النهار** » ٠

وبعدما ذكر تعالى الليل والنهار آيتين في أنفسهما ذكر أظهر آيات كل واحد منهما وإضافهما اليه - فقال تعالى : « **فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ** ٠٠٠ الخ » وليس محو القمر وابصار الشمس متأخرا عن الليل والنهار ، وكيف ؟ وما كان الليل والنهار الا باعتبار اضاءة الشمس لجانب وعدم اضـاءتها لمقابله ، فليست الفاء في (فمحـونا) للترتيب في الوجود ، وانما هـي للترتيب في الذكر وللترتيب في التعقل ، فان القمر والشمس بعض من آيات الليل والنهار ، والجزء متأخر في التعقل عن الكل ٠

وقد اتفق الكاتبون على الآية ممن رأينا على أن المراد من لفظ الآية في الموضعين واحد . فاما أن يـراد بها نفس الليل والنهـار . والاضافة في « **آية الليل** » و « **آية النهار** » للتبيين كاضافة العدد للمعدود - أو يراد بها الشمس والقمر فيكون « **وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ** » على تقدير مضاف في الاول مقدرا هكذا : وجعلنا الليل والنهار ، أو في الاخير مقدرا هكذا : وجعلنا الليل والنهار ذوى آيتين ، وأما عـلى تقديرنا المتقدم فان لفـظ « آيتين » صادق على الليل والنهار، ولفظ « آية الليل » و « آية النهار »

صادق على الشمس والقمر ، وعليه يكون تقدير الآية هكذا : وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا قمر الليل وجعلنا شمس النهار مبصرة ، وهو تقدير صحيح لا معارض له من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى ، وسالم من دعوى تقدير محذوف ، ومفيد لكثرة المعنى بأربع آيات : بالليل وقمره، والنهار وشمسه ، فالتقدير به أولى ولذلك فسرنا الآية عليه ·

« فمحونا » المحو هو الازالة : ازالة الكتابة من اللوح ، وازالة الآثار من الديار ، فمحو « آية الليل » ازالة الضوء منها · وهذا يقتضى انه كان فيها ضوء ثم أزيل · فتفيد الآية أن القمر كان مضيئا ثم ازيل ضوؤه فصار مظلما ، وقد تقرر فى علم الهيئة ان القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس · واتفق علماء الفلك فى العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر ـ كالارض ـ كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمو والحرارة ثم برد · فكانت اضاءته فى أزمان حموه وزالت لما برد ·

لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية ، ذلك الكتاب الذى جعله الله حجة لنبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وبرهانا لدينه على البشر مهما ترقوا فى العلم وتقدموا فى العرفان ·

فان ظلام جرم القمر لم يكن معروفا أيام نزول الآية عند الامم الا أفرادا قليلين من علماء الفلك · وأن حمو جرمه أولا وزواله بالبرود ثانيا ما عرف الا فى هذا العهد الاخير · والذى تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو أربعة عشر قرنا ـ نبى أمى من أمة أمية كانت فى ذلك العهد أبعد الامم عن العلم · فلم يكن ليعلم هذا ويقوله الا بوحى من الله الذى خلق الخلائق وعلم حقائقها ···

كفاك بالعلم فى الامى معجزة فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

« وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » ·

فقد وضعت كذلك من أول خلقها (مبصرة) يبصر بها ، والاسناد مجازى ، كما تقول : لسان متكلم ، أى متكلم به ، فيسند الشىء الى ما يكون

به من آلة وسبب · والمبصرون حقيقة هم ذوو الابصار · ولكنهم لا ينتفعون بأبصارهم الا فى ضوئها ولا ينتفعون بها فى الظلام · واذا كان الضـوء يكون من النار فأين ضوء النار من ضوء الشمس فى القوة والدوام والعموم.

وكما أفادت الآية زوال نور القمر بعد أن كان بمقتضى لفظة « فمحونا » ومدلولها لغة ، فانها تشير الى أن نوره مكتسب وتومىء الى أنه من الشمس وذلك أننا نرى فيه نورا مع علمنا أن نوره قد أزيل ، فنعلم قطعا أن ذلك النور ليس منـه ، واذا كان مذكورا مـع الشمس المبصرة فى الاستدلال والامتنان ، ومعاقبا مصاحبا لها فى الظهور فنوره جاءه منها وهى التى أبصـــرته ·

وقـدم الليل وآيته على النهار وآيتـه فى ترتيب النظم ، لانه ظلام ، والظلام عدم الضوء ، والعدم مقـدم على الوجود في هـذه المخلوقات · « لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » ·

ذكر تعـالى الليل والنهار وآيتيهما استدلالا على الخلـق ليعرفوه ، وذكر ما فيها من النعمة عليهم ليشكروه ويعبدوه ، فكانت فائدة خلقها على هذا الوجه راجعة للعباد ، ليبتغوا ويطلبوا فضلا من ربهم بالسعى لتحصيل المعاش وأسباب الحياة ووجوه المنافع ، وليضبطوا أوقاتهم بعلم عدد السنين الشمسية والقمرية وما اشتملت عليه السنون من الشهور والايام والساعات وليعلموا جنس الحساب الذى منه حساب الشمس وتنقلها فى منازلها ، وحساب القمـر وتنقله في بروجه ، وحساب أبعادهما وسعتهما ومسـير نورهما ، ثم حساب ما يرتبط بهما من أجرام سابحة فى الفضاء ·

والابتغاء : هو طلب الشىء بسعى اليه ومحبة فيه · ويسمى ــ تعالى ــ طلـب أسباب الحياة ابتغاء تنبيها على هذا السعى وهـذه المحبـة ، فهما الشرطان اللازمان للفوز بالمطلوب · كما يسمى ــ تعالى ــ المطلوب بالابتغاء فضـلا من الـرب ، وفضله مـن رحمتـه ، ورحمته واسعـة لا تضبطها حـدود ولا تحصرها الاعـداد ــ تنبيها عـلى سعـة هذا الفضل ليذهب الخلـق فى جميع نواحيه ويأخذوا بجميع أسبابه مـما أذن لهم فيـه ،

وليكونوا ـ اذا ضاق بهم مذهب ـ آخذين بمذهب آخر من مسالك هـذا الفضل الربانى الواسع غير المحصور ، وتنبيها أيضا على قوة الرجاء فى الحصول ، وتنبيها أيضا على قـوة الرجاء فى الحصول عـلى البغية ، لان طلبهم طلب لفضل رب كريم · ويقول تعالى : « من ربـكم » والرب المالك المدبر لمملوكه بالحكمة فيعطيه فى كل حال من أحواله ما يليق به ليكون الخلق بعد قيامهم بالعمل راضين بما ييسره الله من اسباب وما يقسمه لهم من رزق ثقة بعدله وحكمته ، فلا يبغى أحد على أحد بتعد أو حسد · فهذه الكلمات القليلة الكثيرة وهى : « لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » ، جمعت جميع أصول السعادة فى هذه الحياة : بالعمل مع الجد فيه والمحبة له والرجاء فى ثمرته ، الذى به قوام العمران · وبالرضاء والتسليم للمولى ، الذى به طمأنينة القلب وراحة الضمير ، وبالكف للقلب واليد عن الناس ، الذى به الامن والسلام ·

ويذكر تعالى علم عدد السنين المتضمن لعدد الشهور والايام والساعات تنبيها لخلقه على ضبط الاعمال بالاوقات · فان نظام الاعمال واطرادها وخفتها والنشاط فيها وقرب انتاجها انما هو بهذا الضبط لها على دقائق الزمان ، كما ذكر ـ تعالى ـ جنس الحساب تنبيها على لزومه لهذا الضبط ولجميع شؤون الحياة من علم وعمل · فكل العلوم الموصلة الى هذا العد وهذا الحساب هى وسائل لها حكم مقصدها فى الفضل والنفع والترغيب ·

« وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً » · فكـل ما يحتاج اليه العباد لتحصيل السعادتين مـن عقائد الحـق ، وأخلاق الصدق وأحكام العـدل ووجوه الاحسان ، كل هذا فصل فى القرآن تفصيلا · كل فصل على غاية البيان والاحكام · وهذا دعـاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كله من القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم فى العلم والعمل ، ويأخذوا منه ويهتدوا به · فهو الغاية التى ما وراءها غاية فى الهدى والبيان (1) ·

---

(1) الشهاب ، ج 12 م 5 ـ شعبان 1348 هـ/جانفى 1930 م ·

إرادة الـدنيا وإرادة الآخـرة

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَيهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً ... »

(سورة الاسراء ، الآية 18)

كـل الناس فى هذه الحياة حـارث وهمام : عامـل ومريد ، فسفيه ورشيد ، وشقى وسعيد ٠

منهم من يريد بأعماله هذه الدار العاجلة والحياة الدنيا،عليها قـصر همه ، وعلى حظوظها عقد ضميره ، جعلها وجهة قصده ، ونصبها غاية سعيه ، لا يرجو وراءها ثوابا ، ولا يخاف عقابا ، فهو مقبل عليها بقلبه وقالبه ، معرض عـن غيرها بكليته،فلا يجيب داعـى اللـه بترغيب ولا ترهيب ، ولا يتقيد فى سلوكه بشرائع العدل والاحسان ٠

فمن كان هذه ارادته ، وهذا عمله ، عجل الله له فى الدنيا ما مضى فى مشيئته تعالى أن يعجله له ، ان كان ممن أراد التعجيل لهم ، بحكم ابدال الجار والمجرور فى قوله : « **لِمَنْ نُرِيدُ** » من الجار والمجـرور فى قولـه : « **عَجَّلْنَا لَهُ** » فالتعجيل منه تعـالى لمن يريد ، لا لكل مريد ، والشىء المعجل ــ فى قدره وجنسه ومدته ــ على ما يشاء الرب المعطى لا على ما يشاء العبد المريد ٠ فكم من مريدى الدنيا من يقصد الشىء فلا ينال الا بعضه ، فيضيع عليه شطر عمله ، فلا فى هذه الدار ولا فى تلك الدار ، وكم منهم من سعى واجتهد وانتهى بالخيبة والحرمان ، فعاد ــ بعد النصب ــ ولا ثمرة حصلها عاجلا ، ولا ثوابا ادخره آجلا ، وذلك هو الخسران المبين ٠

ثم اذا قدم على الله فى الآخرة جعل له وحضر له جهنم دار العذاب ، واضطره الى دخولها فيصلاها مذموما : مذكورا بقبح فعله وسوء صنيعه فى قلة شكره لربه ، وعدم استعماله لما كان أنعم عليه به فى طاعته ، وعدم نظر لعاقبة أمره · مدحورا : مبعدا فى أقصى النار مطرودا من الرحمن · حرم نفسه من استثمار رحمة الله فى الدنيا بالشكر عليها . فكان عدلا أن يحرم منها فى الآخرة ·

ونظير هذه الآية آية (الشورى) : « **وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ** » ·

عمل للدنيا فنال نصيبه منها ، ولم يعمل للآخرة فلم يكن له نصيب فيها · والتقييد بمن فى قوله تعالى : « **منها** » على أن ما يناله ـ سواء كان كل ما أراد أو بعضه ـ ما هو الا بعض من الدنيا ، واذا كانت الدنيا كلها شيئا زهيدا بقلتها وفنائها ونقصها بالنسبة لأقل شيء من نعيم الآخرة ـ فما بالك بما هو بعض منها · فلقد خاب وخسر من استبدل بنعيم الآخرة هذا القليل الخسيس المنغص الزهيد ·

ونظيرها أيضا آية « هود » : « **مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أُوْلَئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** » ·

وتوفيتهم أعمالهم ، انالتهم ثمراتها مكملة فى الدنيا ، وهم فيها لا يبخسون : لا ينقصون من جزائهم عليها بتحصيل المسببات التى توسلوا اليها بأسبابها · ثم فى الآخرة تحبط تلك الاعمال فلا يكون عليها من جزاء ولا لها من ثمرة ، لانها كانت أعمالا باطلة لا ثبات لها ، عمل للدنيا دار الزوال فزالت بزوالها ، وبقى على عمالها أثم عدم شكرهم لربهم فيه فدخلوا به النار · وتلك عاقبة الظالمين ·

غير أن هاتين الآيتين مطلقتان فى الشيء المعطى والشخص المعطى له ، وآية « الاسراء » مقيدة بمشيئة الله تعالى وارادته فيهما · والمطلق محمول على المقيد فى البيان والاحكام ·

وقد أفادت هذه الآيات كلها أن الاسباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها ـ موصلة ـ باذن الله تعالى ـ من تمسك بها الى ما جعلت وسيلة اليه ، بمقتضى أمر الله وتقديره ، وسننه في نظام هذه الحياة والكون . ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدق المرسلين . ومن مقتضى هذا أن من أهمل تلك الاسباب الكونية التقديرية الإلهية ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين ، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم . نعم لا يضيع على المؤمن أجر ايمانه ، ولكن جزاءه عليه في غير هاته الدار ، كما أن الآخر لم يضع عليه أخذه بالاسباب ، فنال جزاءه في دار الاسباب وليس له في الآخرة الا النار .

اقســـام العبـــاد :

فالعباد ـ اذاً ـ على أربعة أقسام :

1 ـ مؤمن آخذ بالأسباب الدنيوية ، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة .

2 ـ ودهري تارك لها ، فهذا شقي فيهما .

3 ـ ومؤمن تارك للأسباب ، فهذا شقي في الدنيا وينجو ـ بعد المؤاخذة على الترك ـ في الآخرة .

4 ـ ودهري آخذ بالأسباب الدنيوية ، فهذا سعيد في الدنيا ويكون في الآخرة من الهالكين .

فلا يفتتن المسلمون بعد علم هذا ما يرونه من حالهم وحال من لا يدين دينهم . فانه لم يكن تاخرهم لإيمانهم ، بل بترك الاخذ بالاسباب الذى هو من ضعف إيمانهم . ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة . وقد علموا أنهم مضت عليهم أحقاب وهم من أهل القسم الاول بإيمانهم وأعمالهم . وما صاروا من أهل القسم الثالث الا لما ضعف إيمانهم وساءت أعمالهم وكثر إهمالهم ... فلا لوم اذاً الا عليهم في كل ما يصيبهم ، وربك يقضي بالحق وهو الفتاح العليم .

« وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » الآية (19) .

وهذا قسم آخر من الخلق ، قصد بعمله الآخرة واياها طلب ، وثوابها انتظر ، يرجو أن يزحزح فيها عن النار ويفوز بالجنة ويحل عليه الرضوان. فهذا كان سعيه مشكورا بثلاثة شروط :

الشرط الاول : أن يقصد بعمله ثواب الآخرة قصدا مخلصا . كما يفيده فعل الارادة فى « وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ » ولام الاجل فى « وَسَعَى لَهَا ».

الشرط الثانى : أن يعمل لها المعروف فى الشرع اللائق بها، الذى لا عمل يفضي الى نيل ثوابها سواه ، وهو طاعة الله تعالى وتقواه بامتثال أوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده .

الشرط الثالث : أن يكون مؤمنا موقنا بثواب الله تعالى وعظيم جزائه. فاذا توفرت هذه الشروط الثلاثة لهم « كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » متقبلا مثابا عليه بحسن الثناء وجميل الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة « وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

واذا اختل واحد منها فليس العمل بمتقبل ولا بمثاب عليه بضرورة انعدام الشروط بانعدام شرطه .

وفى هذه الشروط مباحث :

المبحث الاول :

ان قصد الثواب والجزاء على العمل لا ينافى الاخلاص فيه لله . لان الاخلاص هو أن تجعل عبادتك لله وحده ، ورجاؤك الثواب وطمعك فيه ، وحذرك العقاب وخوفك منه . هما مقامان عظيمان لك فى جملة عبادتك . يجب عليك أن تكون فيهما ايضا مخلصا . لا ترجو الا ثوابه ، ولا تخاف الا عقابه ، واذا أخلصت فى رجائك وخوفك هانت عليك نفسك فقمت فى طاعته مجاهدا لا يردك معارض ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، وصغرت

فى نظرك العوالم كلها فنطقت بقولك « الله أكبر » نطق عالم واجد مشاهد. والمقصود أن رجاء الثواب ، وخوف العقاب ، روحهما الاخلاص ، فكيف ينافيانه ؟ فالعامل الراجى للثواب،الخائف من العقاب ، المخلص فى الجميع آت بأربع عبادات : عمله ، ورجائه ، وخوفه ، واخلاصه،وهو روح الجميع .

وقد جاء فى القرآن ثناء شيخ الانبياء ابراهيم الخليل عليه وعليهم الصلاة والسلام هكذا :

« وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » .

وذكر تعالى دعاء عباد الرحمن الصالحين هكذا : « رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً » .

وفى دعاء القنوت : « نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد » .

الى غير هذا من أدلة كثيرة تؤيد ما ذكرناه .

المبحث الثاني :

أفاد هذا الشرط أن من لم يرد الآخرة لم يكن سعيه مشكورا ، وفى هذا تفصيل ، لان العامل اما أن يكون فى عبادته لم يرد بها الآخرة أصلا ، بل أراد بها شيئا دنيويا من محمدة الخلق أو استفادة شيء أو تحصيل منفعة العمل . أو أراد الآخرة وشيئا مما ذكر شركة متساوية أو متفاوتة . واما أن يكون فى عمل عادة لم يرد بها الآخرة أصلا بل أراد الغرض الدنيوى ، أو أرادهما معا ، والدنيوى وسيلة للاخرى فهنالك ــ اذا ــ اقسام :

القسم الاول :

العامل فى أمر تعبدى كالصلاة والصدقة والحج والعلم ، فهذا اذا لم يرد الآخرة أصلا فهو موزور غير مشكور . وفيه جاء حديث أبى هريرة فى الصحيح قال : (سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فاتى به فعرفه نعمه

فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لان يقال جرىء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمة فعرفها ، قال : فماذا عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه واعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمة فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا انفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار) .

وهذا الذى كان من هؤلاء ، هو الرياء ، وهو أن يفعل العبادة ليقال انه مطيع . وما دخل الرياء فى عبادة الا أحبطها ، ولو كان قليلا ، لحديث أبى هريرة فى الصحيح، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : قال الله تبارك وتعالى : « أنا أغنى الشركاء عن شرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيرى تركته وشركه » واشراك غيره معه صادق بالقليل والكثير فلا فرق بينهما فى الإحباط . والعامل المرائى موزور غير مشكور .

القسم الثانى :

العامل فى العبادة الذى يقصد بها ثواب الآخرة وشيئا آخر من اعراض الدنيا « كالرجل يبتغى الجهاد وهو يريد من عرض الدنيا » وقد سئل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن هذا فقال : لا أجر له . رواه أبو داود وابن حبان . وعلى وزانه نقول : من قصد الهجرة والتزوج بامرأة معا ، أو قصد الوضوء والتبرد ، أو قصد الصوم والحمية ــ وأن صحت عبادته. لان الصحة تتوقف على نية القصد ، والثواب يستوقف على نية الاخلاص ــ لا أجر له . هذا اذا سوى ما بينهما فى القصد كما هو ظاهر لفظ الحديث. وأما اذا كان الغالب هو قصد العبادة فالظاهر أنه له من الاجر بقدر ما غلب من قصده .

القسم الثالث :

العامل فى العبادة الذى يكون قصده الى ثواب الآخرة ، وما عداه من منافع تلك العبادة ملحوظ له على سبيل التبع لها ، من حيث إنه مصلحة شرعية معتبرة في التشريع . والاحكام الشرعية المعللة بفوائدها فى الآيات والاحاديث لا تحصى كثرة ومنها فى الحج : « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ».

ومن منافع الحج الحركة الاقتصادية لخير تلك البقاع ومصلحة أهلها وغزارة عمرانها ، ولذا قال تعالى :

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » .

والفضل هو الاتجار فى مواسم الحج . فكل منفعة تجلبها عبادة أو مضرة تدفعها فملاحظتها عند قصد العبادة لا تنافى الاخلاص ولا تنقص من أجر العامل ، وهى مثل الثواب المرتب على العمل . هى فى الدنيا وهو فى الآخرة، وكلاهما من رحمة الله التى نرجوها بأعمالنا ، ويشملها لفظ دعاء القنوت : « نرجو رحمتك » اذ هو تبارك وتعالى رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها .

القسم الرابع :

العامل لعمل عادى دنيوى من أكل وشرب ونوم وجماع ونحوها ، فهذا اذا قصد بعملها النفع الدنيوى ، ولا قصد له فى الثواب ، فهو غير مأجور ولا مأزور . وهذه هى حالة أهل الغفلة والجهل .

القسم الخامس :

عامل الاعمال العادية الذى يتناولها بنية كونها مباحا تناولها شرعا ويقصد بها التوسل الى ما يتوقف عليها من أعمال واجبة ومندوبة ، والى الانكفاف بها عن المحرمات والمكروهات . كمباضعة زوجته للقيام بواجب حقها ، وكف نفسه وكفها ، وكالنوم ليقوى على العبادة ، والرياضة ليصح للطاعة ، فهذا مثاب وسعيه مشكور . وله ما نوى . وبهذه السبيل يستطيع

العبد الموفق أن تكون حركته وسكناته كلها لله ، وفي طاعته ، دائم الذكر له يعبده كأنه يراه · لان من كان يعبد كأنه يرى مولاه ، لا يمكن أن يغفل عنه قلبه ويشتغل بسواه ، حتى اذا اشتغل بشيء كان باذنه ورضاه ، فلم يخرج فى أى عن حضرة قدس الله · ومن ادلة هذا قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى حديث أبى ذر رضى الله عنه عند مسلم : (وفي بضع أحدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله ، أياتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرايتم لو وضعها فى حرام آكان عليه وزر ؟ فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له آجر) ·

المبحث الثالث :

من الناس من يخترع أعمالا من عند نفسه ويتقرب بها الى الله ، مثل ما اخترع المشركون عبادة الاوثان بدعائها ، والذبح عليها،والخضوع لديها، وانتظار قضاء الحوائج منها ، وهم يعلمون أنها مخلوقة لله مملوكة له ، وانما يعبدونها ـ كما قالوا ـ لتقربهم الى الله زلفى · وكما اخترع طوائف من الهنود أنواع التعذيب بقتل أنفسهم واحراقها طاعة ـ زعموا ـ وتقربا، وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها، والذبح عندها، ونداء أصحابها، وتقبيل احجارها، ونصب التوابيت عليها،وحرق البخور عندها،وصب العطور عليها · فكل هذه الاختراعات فاسدة فى نفسها لانها ليست من سعى الآخرة الذى كان يسعاه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأصحابه من بعده ، فساعيها موزور غير مشكور ·

المبحث الرابع :

شكر الرب لعبده هو جزاء شكر عبده له ، وانما يكون العبد شاكرا لربه اذا كان عاملا بطاعته مؤمنا به · فاذا انعدم الايمان لم يتصور شكران، وهذا مستفاد من قوله تعالى : « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » ، وأفادت الجملة الاسمية ثبوت الايمان ورسوخه حال العمل ، وعلى قدر ثبوت الايمان ورسوخه

يكون الثبات والدوام على الاعمال · فالمؤمن بالله يعمل موقنا برضـاه ، موقنا بلقائه وعظيم جزائه ، فهو يعمل ولا يفشل · وسواء عليه أوصل الى الغاية التى يسعى اليها أم لم يصل اليها حال بينه وبينها موانع الدنيا أو مانع الموت،كانت مما تجنى ثماره في جيله أو لا تجنى ثماره الا بعـد اجيال · فافادت الجملة المذكورة شرط القبول للعمل ، وسر الدوام عليه، والمضى بغبطة وسرور فيه ·

امكان العمل بالآية لجميع المسلمين :

خاتمـــة : ان المسلمين كلهم ـ والحمد لله ـ أهل إيمان فليستشعروه عند جميع الاعمال ولا يخلون من عمل لمعاشهم أو لمعادهم ، فليقصدوا بذلك كله وجه الله وامتثال أمره وحسن جزائه وليقتصروا فى عبادتهم عـلى ما ثبت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليكونوا على يقـين من موافقة رضى الله وسلوك طريق النجاة · فاذا فعلوا هذا وصمدوا اليه وجاهدوا أنفسهم فى حملها عليه كانوا شاكرين مشكورين على تفاوتهم فى منازل العاملين عند رب العالمين ، والله يقول الحـــق وهو يهـدى السبيل (1) ·

---

(1) الشهاب ـ ج 1، م· 6 ـ رمضان 1348 هـ/فيفرى 1930 م ·

عمـوم النوال من الكبـير المتعال

« كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّـكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ... »

(سورة الاسراء ـ الآية : 20)

ان هذه الموجودات كلها ، علويها وسفليها ، مشمولة برحمة اللـه ، مغمورة بنعمته • وأول تلك النعم هو وجودها ، وذلك الوجود من مقتضى الرحمة • ثم تتنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع اجناس الموجودات وأنواعها وأصنافها وافرادها ، وتتفاوت أيضا حسب ذلك • وينال كل حظه منها بتقدير الحكيم العليم • ومن مظاهر هذه الرحمة العامة أن كل موجود قد أعطى من التكوين ما يناسب وجوده وما يتوقف عليه بقاؤه أو ارتقاؤه ، سواء أكان من عالم الجماد أو عالم النبات أو عالم الحيوان •

وقد مضى قبل هذه الآية ذكر مريدى العاجلة الذين لا يعملون الا لها، وما أعد لهم من عذاب النار • وذكر مريدى الآخرة بأعمالهم فى الدنيـا وما أعد لهم من حسن الجزاء ، فحالتهم فى الآخرة متباينة : هؤلاء فى النعيم المقيم ، وأولئك فى العذاب الاليم ، هذا فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فانهم قد أعطوا من نعم الحياة ومكنوا من أسبابها فقد تساووا فى الخلقـة البشرية ، وفي العقل المميز المفكر، وفى الارادة الحرة، وقد أظلتهم السماء، وأصابتهم نعمة الشمس والقمر والكواكب وما ينزل من السماء، وقد اقلتهم الارض، وشملتهم نعمة الهواء والماء والغذاء والدواء من النبات والحيوان والجماد وكل ما يخرج من الارض• وشاهدوا كلهم آيات الله الكونية الدالة عليه، وجاءتهم كلهم رسل الله بآياته السمعية داعية اليه • فاختار كل بعقله ـ وهو حر فى ارادته حرية لا يمكن لاحد أن يكابر فيها ـ ما اختار لنفسه •

وحجة الله بما تقدم قائمة عليه . وبقوا بعد ذلك الاختيار الذى اختلفت به منازلهم عند الله فيما أعد لهم يوم لقائه سواء ، فى تلك النعم الدنيوية والتمكن من اسباب بقائها والتقدم فيها . لا فرق فى ذلك بين بر وفاجر ، ومؤمن وكافر ، وهذا معنى قوله تعالى : « كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ » ، وليس الله تعالى مانعا كافرا لكفره أو عاصيا لعصيانه من هذه الحياة واسبابها ، وليس أحد على منع ما لم يمنعه الله بقادر . وهذا معنى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً » . والحظر المنع والمحظور الممنوع، وتركيب الآية يفيد أن عطاء الرب لا يمنع ولا يجوز أن يمنع ، لان من مقتضى ربوبيته دوام عطائه ومدده لعموم خلقه بعلمه وحكمته .

وقدم المفعول وهو (كلا) ردا على من يعتقد ان الله تعالى يمد بعضا دون بعض . وفيه ايجاز بالحذف ، والاصل كلا الفريقين ، يعنى فريق مريدى العاجلة ومريدى الآخرة ، و (نمد) من الامداد وهو المواصلة بالشىء ، وذلك الشيء يسمى مددا . وأصل المد البسط للشىء ، فيستطيل ويتسع، ومنه مد يده ومد شبكته ، ومنه مد الله لك أسباب السعادة ، أى بسطها ووسعها ، والامداد بالشىء والمواصلة به يكون به دوام فائدته وامتداد النفع به . والخلق كلهم فى حاجة دائمة وفاقة مستمرة الى مدد الله وعطائه وأنواع بره واحسانه . وهو تبارك وتعالى لا يزال يواصلهم فى كل لحظة من وجودهم بما يحتاجون اليه من فيض عطائه . وأضاف العطاء لرب لانه من مقتضى ربوبيته بتكوينه للخلق وتطويرهم واعطائهم ما يحفظهم فى تلك الاطوار ، وأضاف الرب الى ضمير المخاطب ، هو النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لتشريفه بهذه الاضافة . ولما تشرف بهذه الاضافة الربانية . والرب جل جلاله قد مضى من وصفه فى الآية أنه عام الرحمة والنعمة والنوال ــ فمن شكر نعمة هذا الشرف ان يتخلق العبد وهو محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بما هو من مقتضى وصف ربه . هذا من فوائد هذه الاضافة فى هذا المقام . وقد كان ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ رحمة للعالمين ، شديد الشفقة على الخلق اجمعين ، حريصا على

هدايتهم الى الصراط المستقيم . حتى خاطبه ربه بقوله : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » اى قاتل نفسك غما لعدم ايمانهم . وكان أساس شرعه على العدل ، والاحسان العدل مع كل واحد ، والاحسان الى كل شيء فقال تعالى : « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا » اى لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل فيهم وقال صلى الله عليه وآله وسلم — : (ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلتم فاحسنوا القتلة واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة) ولما كان هو عليه الصلاة والسلام قدوتنا فنحن مخاطبون بأن نكون مثله في عموم رحمته وشفقته وعدله وبره واحسانه . نفعل الخير عاما ، كما تعم خيرات الله تعالى العباد ، نفعله لأنه خير نستطعم لذته ، غير منتظرين جزاء ، الا من الله . لان من انتظر الجزاء من الناس وفى هذه الحياة لابد أن يميل بخيره عن جهة الى جهة ، وربما يكون في ميله قد اخطأ وجه الصواب ، ولابد أيضا ان ييأس فيفتر في العمل أو ينقطع عنه عند ما يرى عدم المكافأة من الناس وعدم ظهور أثر خيره فى الحياة وأبناء الحياة .

وقد أفادت الآية — حسبما تقدم — ان أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء ، وان من تمسك بسبب بلغ — باذن الله — الى مسببه ، سواء أكان برا أو فاجرا مؤمنا أو كافرا . وهذا الذى افادته الآية الكريمة مشاهد فى تاريخ المسلمين قديما وحديثا ، فقد تقدموا حتى سادوا العالم ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع ، لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم . وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الامم كلها باهمال تلك الاسباب فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط ، ولن يعود اليهم ما كان لهم الا اذا عادوا الى امتثال أمر ربهم فى الاخذ بتلك الاسباب .

فهذه الآية من انجع الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره ، المتقدم لما فيها من بيان ان ذلك المسلم ما تاخر بسبب اسلامه، وأن غيره ما تقدم بعدم اسلامه . وأن السبب فى التقدم والتأخر هو التمسك والترك للاسباب . ولو أن المسلم تمسك بها كما يامره الاسلام ، لكان — مثل سالف ايامه — سيد الانـــام .

النظــر فى تفاضل البشر

« انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِـرَةُ أَكْبَـرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً » .

(سورة الاسراء ـ الآية : 21)

ان من أعظم العبر ما نشاهده فى أحوال الخلق أمما وجماعات وافرادا من الاختلاف الشديد · فقد اختلفت بواطنهم النفسية ، كما اختلفت ظواهرهم الجسدية ، وانك كما تجد أبناء الامة الواحدة يتشابهون فى تركيب أجسامهم ، ثم لابد من فروق تتمايز بها شخصياتهم ، ويتبع هذا الاختلاف اختلافهم فى ادراكهم وتمييزهم وأخلاقهم وعاداتهم فى ضلالهم وهداهم ، وفى درجات الهدى ودركات الضلال · كل هذا دال على بديع صنع الخالق القدير ، وعجيب وضع العليم الحكيم · فمكنهم تعالى كلهم من الاسباب وادراك العقل وحرية الارادة ، ثم فضل بينهم هذا التفضيل · فكان منهم المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والشقى والسعيد ، الى تقسيم كثيرة · وفقه أسباب هذا التفضيل هو فقه الحياة والعمران والاجتماع ، فلذا أمر تعالى بالنظر فى أحوال هذا التفضيل بقوله : « **انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** » وكيف سؤال عن الاحوال ، والنظر المأمور به هو نظر القلب بالفكرة والاعتبار ، والجملة فى محل نصب على العامل عن لفظها بكلمة الاستفهام ·

وكما فضل بعض خلقه على بعض فى دار الابتلاء ، كذلك فضل بعضهم على بعض فى دار الجزاء ، لكن التفضيل هنالك أكبر ، والتفاوت بـين العباد أظهر · فى مواقف القيامة ، وفى دارى الاقامة ، ويا بعد ما بـين من فى الجنة ومن فى النار · وأهل النار متفاوتون فى دركاتها ، وأهل الجنة متفاوتون فى درجاتها ·

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : (ان فى الجنة مائة درجة أعدهـا اللـه للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض) ·

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : (ان اهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر في الافق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم • قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم • قال : بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) •

وقال تعالى : « إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ » ، وهذا التفضيل الاخروى هو المراد بقوله تعالى : « وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » • وفي هذا ترغيب للخلق في تحصيل الفضل في درجات الآخرة • فانهم انما يتهالكون في الدنيا على أن يفضل بعضهم بعضا في شيء منها ، وهي الدار الفانية ، فلم لا يتسابقون فيما ينالون به الفضل في الدار الباقية مع أن من عمل لنيل الفضل في الآخرة ـ وما عملها الا الخير والمعروف ـ حاز الفضل والسعادة فيهما على أفضل وجه وأكمل حال • فللآخرة ونيل درجاتها فليعمل العاملون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (1) •

(1) الشهاب ـ ج 2، م• 6 ـ شوال 1348 هـ/مارس 1930 م •

أصـــول الهداية في ثمان عشرة آيــة

« لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً — الى — وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً »

(سورة الاسراء — الآية : 22)

تمهيد : قد أوتى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارا . فالآية من كتاب الله والاثر من حديث رسول الله تجد فيه من أصول الهداية ودقيق العلم ولطيف الاشارة فى لفظ قليل وكلام بين ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لمن أوتى العلم ومنح التوفيق ·

فهذه ثمان عشرة آية من سورة الاسراء قد أتت فى ايجاز ووضوح على أصول الهداية الاسلامية كلها · وأحاطت بأسباب السعادة فى الدارين من جميع وجوهها · وهى — فوق بلاغتها التى عرف العرب اعجازهـــا بسليقتهم وأدركه علماء البيان بعلمهم ومرانهم — قد جاءت معجزة للخلق من أى جنس كانوا وبأى لغة نطقوا بما جمعت من أصول الهداية التى تدركها الفطر وتسلمها العقول · وانك لست واجدا مثلها فى مقدارها واضعاف مقدارها من كلام الخلق بجمع ما جمعت من هــدى وبيان · وهذا أحد وجوه اعجاز القرآن العامة التى تقوم بها حجته على الناس أجمعين ·

ارتباط الآيات بما قبلها : موقع هذه الآيات موقع البيان والتفصيــل للسعى المشكور فى قوله تعالى : « فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً » ووقوعها بلصق قوله تعالى : « وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً » ، اشارة الى

ان التفاضل فى تلك الدرجات مرتبط بالتفاضل فى السلوك والسعى المشكور المستفاد من هذه الآيات ·

التوحيد : «لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً» ، هذا هو أساس الدين كله، وهوالاصل الذى لا تكون النجاة ولا تتقبل الاعمال الا به. وما أرسل الله رسولا الا داعيا اليه ومذكرا بحججه ، وقد كانت افضل كلمة قالها الانبياء عليهم الصلاة والسلام هى كلمة : « لا اله الا الله » وهى كلمته الصريحة فيه · ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من ذكره والامر به والنهى عن ضده · وأنت ترى ان هذه الآيات الجامعة قد جعلت بين آيتين صريحتين فيه · « لاَ تَجْعَلْ » الجعل يكون عمليا ، كجعلت الماء مع اللبن فى اناء واحد ، ويكون اعتقاديا ، كجعلت مع صديقى صديقا آخر · والجعل فى الآية من هذا الثانى · « مَعَ اللَّهِ » المعية هنا أيضا هى معية اعتقادية · « إِلَهاً آخَرَ » الاله هو المعبود والعبادة نهاية الذل والخضوع مع الشعور بالضعف والافتقار واظهار الانقياد والامتثال ودوام التضرع والسؤال · « فَتَقْعُدَ » القعود ضد القيام والعرب تكنى بالقيام عن الجد فى الامر والعمل فيه سواء أكان العامل قائما أو جالسا ، فتقول : قام بحاجتى ، اذا جد وعمل فيها ، ولو كان لم يمش فيها خطوة ، وانما قضاها بكلمة قالها أو خطاب أرسله · وتكنى كذلك بالقعود عن الترك للعمل وانحلال العزيمة وبطلان الهمة سواء كان الشخص واقفا أو جالسا فتقول : قعد زيد عن نصرة قومه ، اذا لم يعمل فى ذلك عملا ، ولم تكن له فيه همة ولا عزيمة ، ولو كان قائما يمشى على رجليه ، فالقعود فى الآية بمعنى المكث كناية عن بطلان العمل وخيبة السعى وخور القلب وفراغ اليد من كل خير · « مَذْمُوماً » مذكورا بالقبيح موصوفا به · « مَخْذُولاً » متروكا بلا نصير مع حاجتك اليه ·

فنهى الله الخلق كلهم عن أن يعتقدوا معه شريكا فى الوهيته فيعبدوه معه ، ليعتقدوا أنه الاله وحده فيعبدوه وحده · وبين لهم أنهم ان اعتقدوا

معه شريكا وعبدوه معه فان عبادتهم تكون باطلة وعملهم يكون مردودا عليهم وأنهم يكونون مذمومين من خالقهم ومن كل ذى عقل سليم من الخلق ، ويكونون مخذولين لا ناصر لهم · فأما الله فانه يتركهم وما عبدوا معه . وأما معبوداتهم فانها لا تنفعهم لانها عاجزة مملوكة مثلهم ، فما لهم ـ قطعا من نصير ·

والخطاب وان كان موجها للنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فانه عام للمكلفين ، وسر مثل هذا الخطاب تنبيه الخلق الى أن شرائع الله وتكاليفه عامة للرسول والمرسل اليهم ، وان كان هو قد عصم من المخالفة فلا يبقى بعد ذلك وجه لدعوى مدع خروج فرد من أفراد الامة المكلفين عن دائرة التكليف ·

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ » القضاء يكون بمعنى الارادة ، وهذا هو القضاء الكونى التقديرى الذى لا يتخلف متعلقه ، فما قضاه الله لابد من كونه · ويكون القضاء بمعنى الامر والحكم ، وهذا هو القضاء الشرعى الذى يمتثله الموفقون ويخالفه المخذولون والذى فى الآية من هذا الثانى · « ربك » الرب هو الخالق المدبر المنعم المتفضل · « أن » مصدرية والتقدير بألا تعبدوا الا اياه ، أى بعدم عبادتكم سواه بأن تكون عبادتكم مقصورة عليه · فالعبادة بجميع أنواعها لا تكون الا له · فذل القلب وخضوعه والشعور بالضعف والافتقار والطاعة والانقياد والتضرع والسؤال هذه كلها لا تكون الا لله · فمن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضره أو نفعه فقد عبده · ومن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على أنه يملك اعطاءه أو منعه فقد عبده ، ومن ألقى قيادهُ بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه غير ملتفت الى أنه من عنده أو من عند الله فقد عبده · ومن توجه لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السوء أو يدفع عنه الضر فقد عبده · فالله تعالى يعلم الخلق كلهم فى هذه الآية بانه أمر أمرا عاما وحكم حكما جازما بأن العبادة لا تكون الا له ·

وجيء باسم الرب فى مقام الامر بقصر العبادة عليه تنبيها على أن الذى يستحق العبادة هو من لـه الربوبية بالخلق والتدبير والملك والانعام ، وليس ذلك الا لـه ، فلا يستحق العبادة بأنواعها سـواه · فهـو تنبيه بوحدانية الربوبية التى من مقتضاها انفراده بالخلق ، والامر الكـونى والشرعى على وحدانية الالوهية التى من مقتضاها استحقاقه وحده عبادة جميع مخلوقاته · وكما انتظمت هذه الجملـة تـوحيد الربوبية وتوحيد الالوهية كذلك انتظمت مع الآية السابقة التوحيد العلمى والتوحيد العملى. فالاولى نهى عـن أن تعتقد الالوهية لسواه وهـو يتضمن النهى عن اعتقاد ربوبية سواه ، وهذا من باب العـلم · والثانية : أمر بأن تكـون عبادتك مقصورة عليه ، لانه هو ربك وحده وهذا من باب العمل · فمن وحد اللـه جل جلاله فى ربوبيته وألوهيته علما وعملا فقد استكمل حظـه من مقام هذا الاساس العظيم ، ومن أخل بشيء من ذلك كان ذلك نقصا فى دينه بقدر ما أخل ، حتى ينتهى الامر الى خلص المشركين - نعوذ باللـه من الشرك جليه وخفيه انه سميع عليم ·

بيان واستدلال : يكون الذل بمعنى ضعف الحال،وهذا قد يكون لاهل التوحيد والايمان كما فى قوله تعالى : «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» ويكون بمعنى اللين المشوب بالعطف ، وهذا من صفات المؤمنين الممدوحة اذا وقعت فى محلها كما فى قوله تعالى : « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » · ويكون الـذل بمعنى خنـوع القلب وخضوعه وانكساره للضعف والافتقار ، وهذا هـو الذى لا يكون من المؤمن الموحد الا لربه كما فى حديث دعاء القنوت « ونخنع لك » أى نذل ونخضع لك ، وهذا الخنوع هو أساس العبادة القلبية ، فلذلك لا يكون الا لله ، وان من أسرار كلمة « الله أكبر » التى يأتى بها المؤمن مرات كثيرة فى صلواته وغيرها من أحواله حفظ القلب من الخضوع للخلق باستشعار عظمة الخالق التى يصغر عندها كل مخلوق ·

فلا يزال المؤمن لهذا قوى القلب عزيز النفس بالله لا ينتظر قوة ضعفه الا به ولا سد مفاقره الا منه ، ولقلب المؤمن الموحد أمام من يحب في الله ويعظم بتعظيم اللـه خضوع أيضا ، ولكنه خضوع هيبة وتوفير واجلال ، لا خضوع ذل وخنوع وضعف وافتقار ، اذ هذا ــ كما قدمنا ــ لا يكـون الا للغنى القوى العزيز القهار ٠

من مظاهر هذا الخنوع الذى لا يكون الا للـه الطاعة والانقياد ، وهى أيضا لا تكون الا له وقد قال تعالى : « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ » أى أطاعه واتبعه كما قال تعالى : « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » فمن تبع مخلوقا وأطاعه فيما يأمره وينهاه دون أن يكون فى طاعته مراعيا طاعة اللـه فقد عبـده واتخذه ربا فيما أطاعه فيه ٠ وفى حديث عدى بن حاتم الذى رواه الترمذى وغيره لما جاء للنبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وسمعه يتلو قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » ٠

فقال عدى : يا رسول اللـه انهم لـم يكونوا يعبدونهم ؟ قال : أليس كانوا اذا حرموا عليهم شيئا حرموه ، واذا أحلوا لهم شيئا أحلوه ٠ قال :

قلت نـعم ٠ قال رسول اللـه ــ صلى اللـه عليه وآله وسلم ــ فتلك عبادتهم اياهم ، فالمؤمن الموحد لا تكون طاعته الا للـه أو لمن طاعته طاعة لله) ٠ ومن مظاهر ذلك الخنوع : الدعاء والسؤال والتضرع والجـؤار « رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة اليه » قال تعالى : « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ » « أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ » « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ » فى آيات كثيرة ٠ وقال صلى الله عليه وآله وسلم : ــ من حديث ابن عباس رضى اللـه عنهما عن الترمذى ــ : (اذا سالـت فسل الله) فى أحاديث كثيرة ٠ فلا يدعو المؤمن الموحد غير الله ولا أحدا مع الله اذ الدعاء عبادة ، كما فى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه يرفعه « الدعاء هو العبادة » رواه أحمد وأصحاب السنن الاربعة ٠ وكما فى حديث أنس رضى الله عنه يرفعه « الدعاء مخ العبادة » رواه الترمذى

وكل عبادة لا تكون الا لله فالدعاء لا يكون الا لله . وانما كان من العبادة هاتـه المنزلة لان حقيقة العبادة هى التذلل والخضوع ، وهـو حاصل فى الدعاء غاية الحصول ، وظاهر فيه اشد الظهور ٠

الهمنا الله رشدنا وأعاذنا من شرور أنفسنا انه سميع قريب مجيب ٠

---

(1) الشهاب ـ ج 3، م٠ 6 ـ ذو القعدة 1348 هـ/أفريل 1930 م ٠

بـــر الــوالــديــن

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. »

(سورة الاسراء ، الآية 23)

والله : هو الخالق ، والوالدان ـ بوضع الله ـ هما السبب المباشر في التخليق • والله هو المبتدىء بالنعم عن غير عمل سابق ، وهما يبتدئان بالاحسان عن غير احسان تقدم ، والله يرحم ويلطف وهو الغني عن مخلوقاته وهم الفقراء اليه ، وهما يكنفان بالرحمة واللطف الولد ، وهما في غنى عنه ، وهو في افتقار اليهما ، والله يوالى احسانه ، ولا يطلب الجزاء ، وهما يبالغان في الاحسان دون تحصيل الجزاء • فلهذه الحالة التى خصهما الله بها ، وأعانهما بالفطرة عليها ، قرن ذكرهما بذكره ، فلما أمر بعبادته أمر بالاحسان اليهما فى هذه الآية ، وفى قوله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » ولما أمر بشكره أمر بشكرهما فقال تعالى : « أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ » وفى هذا الجمع فى القضاء والحكم بالاحسان،والامر بالشكر لهما مع الله تعالى ، أبلغ التأكيد وأعظم الترغيب ، ثم زاد هذا الحكم ، وهذا الامر ، تقريرا بلفظ التوصية بهما فى قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » ليحفظ حكم الله وأمره فيهما ولا يضيع شيء من حقوقهما ، فكان حقهما بهذه الوصاية أمانة خاصة ووديعة من الله عظيمة عند ولدهما • وكفى بهذا داعيا الى العناية بهذه الامانة وحفظها وصيانتها • وكما جاء هذا الجمع فى باب الامر فى القرآن،كذلك جاء الجمع بينهما فى باب النهي وكبر المعصية فى السنة • ففى الصحيح عن أبي بكر رضى الله عنه قال رسول الله

ـ صلى اللـه عليه وآله وسلم ـ « الا اخبركم باكبر الكبائر : قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين » ٠

وتقدير نظـم الآية هكذا : وقضى ربـك ألا تعبـدوا الا ايـاه وبأن تحسنوا للوالدين احسانا ٠ فحذف أن تحسنوا لوجود ما يدل عليه وهو احسانا ٠ وفى تنكيره افادة للتعظيم،فهو احسان عظيم فى القول والفعل والحال ٠ وتقول : أحسنت اليه وأحسنت به ، وأحسنت به أبلغ لتضمن احسنت معنى لطفت ، ولما في الباء من معنى اللصوق ٠ ولهذا عدى فى الآية بالباء ليفيد الامر باللطف في الاحسان والمبالغة فى تمام اتصاله بهما ، فلا يريان ويسمعان ولا يجدان من ولدهما الا احسانا ، ولا يشعـران فى قلوبهما منه الا بالاحسان ٠ ومن الاحسان ما يكون ابتداء وفضلا ، ومنـه ما يكون جزاء وشكرا ، فعليه أن يعلم أن كل احسانه هو شكر لهما على سابق احسانهما الذى لا يمكنه أن يكافئه بمثله ، لثبوت فضيلة سبقه ، وفى تعليق الحكم ـ وهـو الامر بالاحسان ـ بلفظ الوالدين المشتق مـن الولادة ايذان بعليتهما فى الحكم ، فيستحقان الاحسان بالوالدية سـواء اكانا مؤمنين أم كافرين ، بارين أو فاجرين ، محسنين اليه او مسيئين ، وقد جاء هذا صريحا فى قوله تعـالى : « **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِـي مَا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِـلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** » فامـر بمصاحبتهما بالمعروف على كفرهما ٠ وفى الصحيح عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : قدمت على أمي وهى مشركة فى عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، فاستفتيت رسول اللـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلـت : قدمت على أمى وهى راغبـة (أى فى العطاء والاحسان) افأصل أمى ؟ قال : نعم ، صلي أمك ٠ وهذا الاحسان الواجب لهما جانب الام أوكد فيه من جانب الأب ، وحظها فيه اوفر من حظه ، ويشير الى هـذا تخصيصها بذكر أتعابها فى قوله تعالى : « **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ** (ضعفا على ضعف) **وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** » وفى الاخرى : « **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّـهُ كُـرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًـا**

وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً » . فذكر ما تعانيه من الم الحمل ومشقة الوضع ومقاساة الرضاع والتربية ، وجاء التصريح بهذا فى الحديث الصحيح : فقد جاء رجل الى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فقال : من أحق الناس بحسن صحابتى (أى صحبتى من حسن العشرة والبر والتكرمة) قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك . فذكر الاب فى الثالث . وفى طريق آخر للحديث ذكره فى الرابعة . ولقد كان لها هذا من مزيد أتعابها وضعف جانبها ورقة عاطفتها وشدة حاجتها ، فكان هذا الترجيح لجانبها من عدل الحكيم العليم ، ومحاسن الشرع الكريم . ومن الاحسان اليهما طاعتهما فى الامر والنهى ، ومن عقوقهما مخالفتهما فيهما . وانما تحل له مخالفتهما اذا منعاه من واجب عينى أو أمراه بمعصية ، لما فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم ــ : (لا طاعة لأحد فى معصية الله انما الطاعة فى المعروف) وعند الحاكم وأحمد : (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) . ومن الدليل على رجحان جانبهما على الواجب الكفائى ما ثبت فى الصحيح من حديث الرجل الذى أتى النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يستأذنه فى الجهاد فقال : « أحيٌّ والداك ؟ » قال : نعم . قال : « ففيهما فجاهد » وفى الطريق الثانى قال عبد الله بن عمر رضى الله عنه : أقبل رجل الى النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ابتغاء الأجر من الله ، قال : (فهل من والديك أحد حيٌّ ؟) قال : نعم ، بل كلاهما قال : (فتبغى الاجر من الله ؟) قال : نعم . قال : (فارجع الى والديك فأحسن صحبتهما) . هذا لان القيام عليهما فرض عينى ، والجهاد كان عليه فرض كفاية ، ولو تعين عليه ، ولم يكونا فى كفاية قدم القيام عليهما وكفايتهما عليه . ومن حقوقهما عليه أن لا يخرج الى ما فيه خوف ومخاطرة بالنفس الا باذنهما بدليل ما جاء فى سنن ابى داود : (أن رجلا من أهل اليمن هاجر الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : (هل لك أحد باليمن ؟) قال : أبواى . قال : (أذنا لك ؟) قال : لا . قال : (فارجع اليهما فاستأذنهما فان أذنا لك فجاهد ، والا فبرهما) . أما اذا أراد تعاطى

ما لا خطر فيه ولا فجيعة من شؤون الحياة ووجوه التصرفات فليس عليه أن يستأذنهما وليس لهما منعه ، ولكن اذا منعاه من شيء امتنع لوجوب برهما ، وطاعتهما · ـ في غير المعصية ـ من برهما ·

تفضيل الإحسان اليهما في القول والعمل وتأكيده في حالة الكبر

« إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (23) ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً » (24).

الامر بالاحسان اليهما عام في جميع الاحوال ، وخصصت حالة بلوغ أحدهما أو كليهما الكبر بالذكر لانها حالة الضعف ، وشدة الحاجة ، ومظنة الملل والضجر منهما ، وضيق الصدر من تصرفاتهما ، فهما في هذه الحالة قد عادا في نهايتهما الى ما كان ولدهما عليه في بدايته · وليس عنده من فطرة المحبة مثل ما عندهما ، فكان بأشد الحاجة الى التذكير بما عليه من تمام العناية بهما ، ومزيد الرعاية لهما ، وشد التوقي والتحفظ من كل ما يمس بسوء جانبهما في هاته الحال على الخصوص ، وان كان ذلك واجبا عليه في كل حال على العموم · وطول بقائهما عنده في كنفه وثقل مؤنتهما عليه ، وما يكون من ضروريات الكبر والمرض مما يستقذره في بيته ، كل هذا قد يؤديه الى الضجر والتبرم فيقول ما يدل على ضجره وتبرمه · فنهى عن التفوه بأقل كلمة تدل على ذلك ، وهي كلمة أف بقوله تعالى : « **فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ** » فاحرى واولى ما فوقها ، وهذا أمر يتحمل كل ذلك منهما ونهى عن التضجر منهما · ومن ضرورة مباينتهما لولدهما في السن وفي النشأة أنهما كثيرا ما يخالفانه في آرائه وأفكاره ، وقد يتناولان

ما لا يحب أن تصل يدهما اليه ، وقد يسألانه للمعرفة أو للحاجة ، وكل هذا قد يؤديه الى نهرهما ، أى زجرهما بصياح واغلاظ أو اظهار للغضب فى الصوت واللفظ ، فنهى عن هذا بقوله تعالى : **وَلَا تَنْهَرْهُمَا** • وفى هذا أمر بالتلفظ معهما فى الطلب والعرض والدلالة على وجه الصواب فى الامر وأبواب الفعل والترك ، وبحسن التلقي لكل ما يسألان ويطلبـــان ، ونهى عن أى إغلاظ فى اللفظ والصوت وحالة الكلام • ولما نهاه عن القول القبيح المؤذى أمره بالقول اللين السهل الحسن فى لفظه وفى معنـــاه وفى قصده وفى منشاه السالم من كل عيب ومكروه بقوله تعالى : « **وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** » • وفى هذا امر بأن يخاطبهما بجميل القول ويؤنسهما بطيب الحديث ، ونهى عن أن يؤذيهما فى قوله أو يوحشهما بطول السكوت فليس له أن يتركهما وشأنهما ، بل عليه مجالستهما،ومحادثتهما،وجلب الانس اليهما،وادخال السرور عليهما • ثم إن القول انما هو عنوان ما فى الضمير، ولا يكون كريما شريفا الا اذا كان عنوانا صادقا حسن مظهره ومخبره وعذب جناه وطاب مفرسه ، وما ثماره الا معانيه ، وما مغرسه الا القلب الذى صدر عنه • فيفيد هذا أن على الولد أن يكون معهما باللطف والعطف من صميم قلبه كما هو يعرب لهما عنهما بلسانه فيكون محسنا لهما حينئذ فى ظاهره وباطنه وذلك هو تمام البر الذى أمر به •

« **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** » • مضى فيما تقدم أدب القول، وهذا أدب الفعل وبيان الحال التى يكون عليهما • فالوالدان عند ولدهما فى كنفه كالفراخ الضعيفة المحتاجة للقوت والدفء والراحة ، وولدهما يقوم لهما بالسعى كما يسعى الطائر لفراخه ويحيطهما بحنوه وعطفه،كما يحيط الطائر فراخه ، فشبه الولد فى سعيه وحنوه وعطفه على والديه بالطائر فى ذلك كله على فراخه ، وحذف المشبه به وأشير اليه بلازمه وهو خفض الجناح ، لان الطائر هو ذو الجناح ، وانما يخفض جناحه حنوا وعطفا وحياطة لفراخه ، فيكون فى الكلام استعارة بالكناية • واضيف الجناح الى الذل ــ وهو الهون واللين ــ اضافة موصوف الى صفة • أخفض

لهما جناحك الذليل . وهذا ليفيد هونه وانكساره عند حياطتهما حتى يشعر بأنهما مخدومان للاستحقاق لا متفضل عليهما بالاحسان، وفى ذكر هذه الصورة التى تشاهد من الطير تذكير بليغ مرقق للقلب موجب للرحمة وتنبيه للولد على حالته التى كان عليها معهما فى صغره ، ليكون ذلك ابعث له على العمل وعدم رؤية عمله امام ما قدما اليه . ومن فى قولـــه تعالى : « مِنَ ٱلرَّحْمَةِ » للتعليل متعلقة بأخفض ، فتفيد مع متعلقها الامر بأن يكون ذلك الخفض ناشئا على الرحمة الثابتة فى النفس لا عن مجرد استعمال ظاهر كما كان يكنفانه ويعطفان عليه عن رحمة قلبية صادقة ، فيكون هذا مفيدا ومؤكدا لما قدمناه من لزوم أن يتطابق على الاحسان اليهما، الظاهر والباطن ، ليتم البرور .

« وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً » . مهما اجتهد الولـــد فى الاحسان الى أبويه فانه لا يجازى سابق احسانهما ، فأمر بأن يتوجه بسؤال الرحمة لهما من الله تعالى ، وهى النعمة الشاملة لخير الدنيا والآخـــرة اظهارا لشدة رحمته، ورغبة فى وصول الخير العظيم من المولى الكريم اليهما، واعترافا بعجزه عن مجازاتهما . يدعو لهما هكذا فى حياتهما وبعد مماتهما، أما فى حياتهما فيدعو لهما بالرحمة سواء كانا مسلمين أم كافرين ، ورحمة الكافرين بهدايتهما الى الاسلام ، واما بعد الموت فلا يسأل الرحمة لهما الا اذا ماتا مسلمين لقوله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ». والكاف فى قوله تعالى : « كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً » . للتعليـــل ، أى : رب ارحمهما لتربيتهما لى، وجزاء على احسانهما التى فى حالة الصغر ، حالـــة الضعف والافتقار . وفى هذا اعتراف بالجميل، واعلان لسابق احسانهما العظيم، وتوسل الى الله تعالى فى قبول دعائه لهما بما قدما من عمل لانه وعد أنه يجزى العاملين ، وقد كانت تربيتهما لولدهما من أجل مظاهر الرحمة ، وهو قد أخبر تعالى على لسان رسوله أنه يرحـــم الراحمين . ولا أرحم ـ بعده تعالى ـ من الوالدين .

خاتمة : من بر الوالدين أن نتحفظ من كل ما يجلب لهما سوءا من غيرنا فان فاعل السبب فاعل للمسبب ، ومن هذا ان لا نسب الناس حتى لا يسبوا والدينا ، لانا اذا سببنا الناس فسبوهما كنا قد سببناهما ، وسبهما من أكبر الكبائر • ففي الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ان من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه) . قيل : يا رسول الله ، وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : (يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه) •

ومن برهما، حفظهما بعد موتهما بالدعاء والاستغفار، وانفاذ عهدهما واكرام صديقهما وصلة رحمهما . فقد روى ابن ماجه وابو داود وابن حبان في صحيحه عن ابى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى البدرى رضى الله عنهم أجمعين ـ قال : (بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ اذ جاء رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم ، الصلاة (أى الدعاء) عليهما والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لا توصل الا بهما واكرام صديقهما) • وفى اكرام صديقهما جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أن رجلا من الاعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه واعطاه عمامة كانت على راسه • قال ابن دينار فقلنا له : اصلحك الله انهم الاعراب وانهم يرضون باليسير ، فقال عبد الله : ان أبا هذا كان ودا لعمر ابن الخطاب ، وانى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول : (ان ابر البر صلة الولد أهل ود أبيه) •

هذا وان من راض نفسه على هذه الاخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة والاقوال الطيبة التى أمر بها مع والديه حصل له من الارتياض عليها كمال أخلاقي مع الناس أجمعين ، وكان ذلك من ثمرات امتثال أمر الله وطاعة الوالدين •

والله يوفقنا ويهدينا سواء السبيل • انه المولى الكريم رب العالمين (1)•

---

(1) الشهاب ـ ج 4 ، م• 6 ـ ذو الحجة 1348 هـ/1930 م •

صلاح النفوس وإصلاحها

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً »

(سورة الاسراء ـ الآية : 25)

صلاح الشيء : هو كونه على حالة اعتدال في ذاته وصفاته ، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال · وفساده : هو كونه على حالة اختلال في ذاته أو في صفاته بحيث تصدر عنه أو به تلك الاعمال على وجه النقصان · اعتبر هذا في البدن ، فان له حالتين : حالة صحة · وحالة مرض · والاولى : هي حالة صحته باعتدال مزاجه ، فتقوم أعضاؤه بوظائفها وينهض هو بأعماله · والثانية : هي حالة فساده باختلال مزاجه فتتعطل أعضاؤه أو تضعف كلها أو بعضها عن القيام بوظائفه ، ويقعد هو أو يثقل عن أعماله · هذا الذي تجده في البدن هو نفسه تجده في النفس ، فلها صحة ولها مرض ، حالة صلاح وحالة فساد ·

والاصلاح : هو ارجاع الشيء الى حالة اعتداله بازالة ما طرأ عليه من فساد · **والافساد** : هو اخراج الشيء عن حالة اعتداله باحداث اختلال فيه · فاصلاح البدن بمعالجته بالحمية والدواء ، واصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة · وافساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر ، وافساد النفس بمقارفة المعاصي والذنوب ، هكذا تعتبر النفوس بالأبدان في باب الصلاح والفساد · في كثير من الاحوال · غير أن الاعتناء بالنفوس أهم والزم لان خطرها أكبر وأعظم ·

أن المكلف المخاطب من الانسان هو نفسه ، وما البدن الا آلة لها ، ومظهر تصرفاتها · وان صلاح الانسان وفساده انما يقاسان بصلاح نفسه

وفسادها ، وانما رقيه وانحطاطه باعتبار رقى نفسه وانحطاطها ، وما فلاحه الا بزكائها وما خيبته الا بخبثها • فقد قال تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » •

وفى الصحيح : « ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » وليس المقصود من القلب مادته وصورته ، وانما المقصود النفس الانسانية المرتبطة به • وللنفس ارتباط بالبدن كله ، ولكن القلب عضو رئيسى فى البدن ومبعث دورته الدموية على قيامه بوظيفته تتوقف صلوحية البدن لارتباط النفس به ، فكان حقيقيا لان يعبر به عن النفس على طريق المجاز • وصلاح القلب بمعنى النفس بالعقائد الحقة والاخلاق الفاضلة وانما يكونان بصحة العلم وصحة الارادة ، فاذا صلحت النفس هذا الصلاح صلح البدن كله بجريان الاعضاء كلها فى الاعمال المستقيمة ، واذا فسدت النفس من ناحية العقد أو ناحية الخلق او ناحية العلم أو ناحية الارادة فسد البدن وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد • فصلاح النفس هو صلاح الفرد ، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع ، والعناية الشرعية متوجهة كلها الى اصلاح النفوس ، اما مباشرة واما بواسطة ، فما من شىء مما شرعه الله تعالى لعباده من الحق ، والخير ، والعدل ، والاحسان ، الا وهو راجع عليها بالصلاح ، وما من شىء نهى الله تعالى عنه من الباطل والشر والظلم والسوء ، الا وهو عائد عليها بالفساد ، فتكميل النفس الانسانية هو أعظم المقصود من انزال الكتب وارسال الرسل ، وشرع الشرائع ، وهذه الآيات الثمان عشرة قد جمعت من أصول الهداية ما تبلغ به النفوس اذا تمسكت به غاية الكمال •

قد أمر تعالى فى الآيات المتقدمة بعبادته ، وتوحيده ، والاخلاص له ، وأمر ببر الوالدين والاحسان اليهما فى الظاهر والباطن ، كما أمر بغير ذلك فى الآيات اللاحقة ، ووضع هذه الآية أثناء ذلك ، وهى متعلقة بالنفس وصلاحها ، لينبه الخلق على أصل الصلاح، الذى منه يكون، ومنشأه الذى

منه يبتدىء ، فاذا صلحت النفس قامت بالتكاليف التى تضمنتها هــذه الآيات الجامعة ، لاصول الهداية ، وهذا هو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها وما بعدها ، الذى قد يكون قبل التدبر خفيا • ونظير هذه الآيـة فى موقعها ودلالتها على ما به يسهل القيام باعباء التكاليف • ـ قوله تعالى : « حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » فقد جاءت أثناء آيات احكام الزوجية آمرة بالمحافظة على الصلوات تنبيها للعباد على أن المحافظة عليها على وجهها تسهل القيام بأعباء تكاليف تلك الآيات لانها تزكى النفس بما فيها من ذكر وخشوع وحضور وانقطاع الى الله تعالى وتوجه اليه ومناجاة له ، وهذا كله تعرج به النفس فى درجات الكمال والنفوس الزكية الكاملة تجد فى طاعة خالقها لذة وأنسا تهون معهما أعباء التكليف • ثم ان العباد بنقص الخلقة وغلبة الطبع معرضون للتقصير فى ظاهرهم وباطنهم ، فى صور أعمالهم ودخائل أنفسهم ـ وخصوصا فى باب الاخلاص ـ فذكروا بعلم ربهم فى نفوسهم فى قوله تعالى : « رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ » ليبالغوا فى المراقبة فيتقنوا أعمالهم فى صورها ويخلصوا بها له • وهذه المراقبة هى الاحسان الذى هو عبادتك الله كأنك تراه ، وذكر اسم الرب لانه المناسب لاثبات صفة العلم ، فهو الرب الذى خلق النفوس وصورها ودبرها • ولا يكون ذلك الا بعلمــه بها فى جميـع تفاصيلها • وكيف يخفى عليه شىء منها وهو خلقها • « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ » • والصالحون : فى قوله تعالى : «إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ» هم الذين صلحت أنفسهم فصلحت أقوالهم وافعالهم وأحوالهم ، وصلاح النفس وهو صفة لها خفى كخفائها • وكما أننا نستدل على وجود النفس وارتباطها بالبدن بظهور أعمالها فى البدن كذلك نستدل على اتصافهـا بالصلاح وضده بما نشاهده من أعمالها • فمن شاهدنا منه الاعمـــال الصالحة ـ وهى الجارية على سنن الشرع وآثار النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حكمنا بصلاح نفسه وانه من الصالحين • ومن شاهدنا منه خلاف ذلك حكمنا بفساد نفسه وأنه ليس منهم • ولا طريق لنا فى معرفة

صلاح النفوس وفسادها الا هذا الطريق · وقد دلنا الله تعالى عليه فى قوله تعالى :

« مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ ٱللَّهِ آنَاءَ ٱللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ » · فذكر الاعمال ثم حكم لأهلها بأنهم من الصالحين ·

فأفادنا أن الاعمال هى دلائل الصلاح ، وأن الصلاح لا يكون الا بها ولا يستحقه الا أهلها · ثم ان العباد يتفاوتون فى درجات الصلاح على حسب تفاوتهم فى الاعمال · ويكون لنا أن نقضى بتفاوتهم فى الظاهر بحسب ما نشاهد ، ولكن ليس لنا أن نقضى بين أهل الاعمال الصالحة فى فى تفاوتهم عند الله فى الباطن فندعى أن هذا أعلى درجة فى صلاحة عند الله تعالى من هذا . لان الاعمال قسمان : أعمال الجوارح وأعمال القلوب، وهذه أصل لاعمال الجوارح ، وقد قال النبى – صلى الله عليه وآله وسلم – التقوى ها هنا ، ويشير الى صدره ثلاث مرات · فمنازل الصالحين عند ربهم لا يعلمها الا الله ، والاوابون فى قوله تعالى : « فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا » هم الكثيرو الرجوع الى الله تعالى · والاوبة فى كلام العرب هى الرجوع · قال عبيد :

وكـل ذى غيبـة يـؤوب وغائـب المـوت لا يـؤوب

والتوبـة : هى الرجوع عن الذنب ، ولا يكون الا بالاقلاع عنه · واعتبر فيها الشرع الندم على ما فات والعزم على عدم العود وتدارك ما يمكن تداركه ، فيظهر أن الاوبة أعم من التوبة ، فتشمل من رجع الى ربه تائبا من ذنبه ، ومن رجع اليه يسأله ويتضرع اليه أن يرزقه التوبة من الذنب· فنستفيد من الآية الكريمة سعة باب الرجوع الى الله تعالى · فاذا تاب العبد فذاك هو الواجب عليه والمخلص له – بفضل الله – من ذنبه · وان لم يتب فليدم الرجوع الى الله تعالى بالسؤال والتضرع والتعرض لمظـان

الاجابة ، وخصوصا فى سجود الصلاة فقمن ـ ان شاء الله تعالى ـ أن يستجاب له • وشر العصاة هو الذى ينهمك فى المعصية مصرا عليها غير مشمئز منها ولا سائل من ربه بصدق وعزم التوبة منها ويبقى معرضا عنه ربه كما أعرض هو عنه ، ويصر على الذنب حتى يموت قلبه • ونعوذ بالله من موت القلب ، فهو الداء العضال الذى لا دواء له • وجاء لفظ الاوابين جمعا لاواب وهو فعال من أمثلة المبالغة ، فدل على كثرة رجوعهم الى الله ، وأفاد هذا طريقة اصلاح النفوس بدوام علاجها بالرجوع الى الله • ذلك أن النفوس ـ بما ركب فيها من شهوة ، وبما فطرت عليه من غفلة ، وبما عرضت له من شؤون الحياة وبما سلط عليها من قرناء السوء من شياطين الانس والجن ـ لا تزال ـ الا من عصم الله ـ فى مقارفة ذنب ومواقعة معصية صغيرة أو كبيرة من حيث تدرى ومن حيث لا تدرى ، وكل ذلك فساد يطرأ عليهما فيجب اصلاحها بازالة نقصه ، وابعاد ضرره عنها ، وهذا الاصلاح لا يكون الا بالتوبة وبالرجوع الى الله تعالى • ولما كان طروء الفساد متكررا، فالاصلاح بما ذكر يكون دائما متكررا ، والمداومة على المبادرة الى اصلاح النفس من فسادها والقيام فى ذلك والجد فيه والتصمم عليه هو من جهاد النفس الذى هو أعظم الجهاد • ومن معنى هذه الآية قوله تعالى : « **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ** » وهم الذين كلما أذنبوا تابوا ، والتوبة طهارة للنفس من درن المعاصى • **وَالْغَفُورُ** : فى قوله تعالى : « **فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا** » هو الكثير المغفرة ، لانه على وزن فعول ، وهو من أمثلة المبالغة الدالة على الكثرة • **والمغفرة** : سترة للذنب وعدم مؤاخذته به ، ولما ذكر من وصفت الصالحين كثرة رجوعهم اليه ، ذكر من اسمائه الحسنى ما يدل على كثرة مغفرته ، ليقع التناسب فى الكثرة من الجانبين • ومغفرته أكثر • وليعلم أن كثرة الرجوع اليه يقابلها كثرة المغفرة منه فلا يفتأ العبد راجعا راجيا للمغفرة لا تقعده كثرة ما يذنب عن تجديد الرجوع ولا يضعف رجاؤه فى نيل مغفرة الغفور، كثرة الرجوع. وقد أكد الكلام بـ أن لتقوية الرجاء فى المغفرة ، وجىء بلفظة (كان) لتفيد

أن ذلك هو شأنه مع خلقه من سابق ، وهنا مما يقوى الرجاء فيه في اللاحق فقد كان عباده يذنبون ويتوبون اليه ويغفر لهم ، ولا يزالون كذلك ، ولا يزال تبارك وتعالى لهم غفورا ، وانما احتيج الى هذا التأكيد كله فى تقوية رجاء المذنب فى المغفرة ليبادر بالرجوع على كل حال ، لأن العبد ماخوذ بأمرين يضعفان رجاءه فى المغفرة أحدهما كثرة ذنوبه التى يشاهدها فتحجبها كثرتها عند رؤية مغفرة الله تعالى التى هى أكبر واكبر · والآخر رؤيته لطبعه البشرى وطبع بنى آدم من المنع عند كثرة السؤال كما قال شاعرهم – أى البشر – لان الشاعر العربى عبر عن طبع بشرى :

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم   ومن أكثر التسآل يوما سيحرم

فيقوده القياس – وهو من طباع البشر أيضا – القياس الفاسد الى ترك الرجوع والسؤال من الرب الكريم العظيم النوال · فهذان الامران يقعدانه عن الرجوع والتوبة فيستمر فى حمأة المعصية وذلك هو الهلاك المبين · فكان حاله مقتضيا لان يؤكد له حصول المغفرة عند رجوعه بتلك المؤكدات ·

وقد كان مقتضى الظاهر فى تركيب الآية أن يقال : ان تكونوا صالحين فانه كان لكم غفورا ، لان المقام للاضمار ، لكنه عدل عن الضمير الى الظاهر فقيل فانه كان للاوابين غفورا لينص على شرط المغفرة وهو الاوبة والرجوع · وعلم من ذلك ان الصالح عند ما تقع منه الذنوب مطالب – كغيره – بالاوبة لتحصيل المغفرة ، لان فرض الاوبة الى الله من المعاصى عام على الجميع · وقد اشتملت الآية من فعلى الشرط وهو ان تكونوا صالحين ، وجوابه وهو فانه كان للاوابين غفورا ··· على الحالتين اللازمتين للانسان لتكميل نفسه وهما الصلاح المستفاد من الاول والاصلاح بالاوبة المستفاد من الثانى · وما دام الانسان يجاهد فى تزكية نفسه بهذين الاصلين فانه بالغ – باذن الله – درجة الكمال · ثبتنا الله والمسلمين عليهما وحشرنا فى زمرة الكاملين المكملين انه المولى الغفور الكريم (1) ·

(1) الشهاب – ج 5 ، م· 6 – غرة محرم 1349 هـ – جوان 1930 م ·

إيتـاء الحقـوق لأربـابها

« وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ... »
(سورة الاسراء ـ الآية : 26)

الناس كلهم فى حاجة مشتركة الى بعضهم · وما من أحد الا وله حقوق على غيره ، ولغيره حقوق عليه · ولهذه الحاجة المشتركة والحقوق الممتزجة كان الاجتماع والتعاون ضروريين لحياة المجتمع البشرى واطراد نظامه ، وقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذى يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس · وعند ما يؤدى كل واحد حق غـيره فليست خدمته له وحده ، بل هى خدمة للمجتمع كله · وبالاحرى هى خدمة له هو فى نفسه لانه جزء من المجتمع وما يصيب الكل يعود على جزئه · فاذا تواردت أفراد المجتمع على هذه التأدية سعدت وسعد مجتمعنا بنيله حاجيات الحياة ولوازم البقاء والتقدم فى العمران · أما اذا توانى الافراد فى القيام بالحقوق وقصروا فى تأديتها الى بعضهم فان الحاجة المشتركة من العلم والثقافة وحفظ الصحة والاخلاق وأنواع الصناعة ـ تتعطل ، وبتعطلها يختل نظام الاجتماع ويعود الى الانحلال والتقهقر ، وينحط بأفراده الى أسفل الدركات ، فلهذا بعد ما أمر الله تعالى بايتاء حقه ـ وهو توحيده فى عبادته ـ أمر بايتاء حقوق العباد ، القريب منهم والبعيد ·

حقوق القريب : « وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ » ·

ابتدأ بحق القريب لوجوه : **الاول :** أنه هو مقتضى طبيعة الترتيب · **الثانى :** تأكيد حق القريب · **الثالث :** ان من حكمة التربية أن يبدأ مـن

الاوامر بما تعين فطرة النفوس الانسانية على قبوله ببداهة الفكرة أو بشعور العاطفة . وكلتا هاتين يحبب للنفس ايتاء حق القريب فابتدئ به في الامر ليكون تقبلها له أسهل ومبادرتها للامتثال أسرع ، فاذا سخت النفوس بايتاء حق القريب ومرنت عليه اعتادت الايتاء وصار من ملكاتها فسهل عليها ايتاء كل حق ولو كان لابعد الناس . وشيء آخر ، وهو أن الاقارب قد تكون بينهم المنافسات والمنازعات لقرب المنازل ، أو تصادم المنافع أو التشاح على المواريث ما لا يكون بين الاباعد ، فيقطعوا حق القرابة ويهدموا بناء الاسرة ، ويعود ذلك عليهم أولا بالوبال ، ويرجع ثانيا على مجتمعهم ـ والمجتمع مؤلف من الاسر ـ بالتضعضع ، فكان هذا من جملة ما يقتضي الابتداء بحقهم الى المقتضيات المتقدمة الاخرى .

وقوله تعالى : « ذَا ٱلْقُرْبَىٰ » عام يشمل الاصل ـ وهو الابوان ـ وما يتصل بالمرء من ناحيتهما من أصولهما وفصولهما ، ويشمل الفصل ـ وهو الابناء والبنات ـ وما يتصل به منهما من فصول ، غير أن الوالدين لمزيد العناية بهما خصصا بالذكر في الآيات المتقدمة وان كانا داخلين في هذا العموم .

والحق في قوله تعالى : « حَقَّهُ » هو الثابت له شرعا المبين في آيات من الكتاب من صلة رحم ونصيب ارث ونفقة فرض وندب واحسان بالقول والفعل ومواساة عن محبة وعطف .

حق المسكين : « وَٱلْمِسْكِينَ » .

قد ذكر في آية الزكاة الفقير والمسكين . والحق انهما متغايران ، والراجح أن الفقير من له بلغة لا تكفيه ، والمسكين من لا شيء له ، فهو أشد حالا من الفقير ، ولذا لما أريد هنا ذكر أحدهما اقتصر عليه تنبيها بالاعلى في الفقر على الادنى ، فالمراد أهل الفقر والحاجة كلهم .

وحق المساكين ما ثبت لهم من الزكاة ، وكذلك ما تدعو اليه الحاجة من تعليمهم وايوائهم وطبهم وتجهيز موتاهم ، مما تقوم به الجمعيات

الخيرية فى هذا العصر ، فكل هذا مما تصرف اليه الزكاة ويجب القيام به عند عدم الزكاة أو فنائها أو قصورها عنه . ويجب القيام به واجبا موزعا على كل واحد ما استطاع ، فاذا لم يقم به المجتمع عاد الاثم على جميع الافراد كل بقدر ما قصر فيما استطاع . ثم ما الى هذا من عموم الصدقة والاحسان.

حق ابن السبيل : « وَابْنَ السَّبِيلِ » .

السبيل هى الطريق ، وابنها هو المسافر ، لأنه منها اتى كما اتى الابن من أمه . وحقه هو الثابت له فى الزكاة ، فياخذ منها اذا قطع به ولم يكن معه ما يبلغه ولو كان غنيا فى بلده ، وعلى جماعة المسلمين تبليغه اذا لم تكن ثم زكاة . ومن حقه ضيافته حسب السنة ، وارشاده ودلالته على ما يريد معرفته من طريقه أو مرافقها .

وبذكر ابن السبيل والمسكين مع ذى القربى جمعت الآية القريب والبعيد من ذوى الحقوق . وبذكر ابن السبيل والمسكين جمعت ذا الحاجة الثابتة وهو المسكين ، والحاجة العارضة وهو ابن السبيل ، وقدم الاول لأصالة حاجته . وفى ذكرهما أيضا جمع ما بين القريب الدار والبعيد الدار والمسافر . كل هذا ليعلم أن ذا الحق يعطى حقه على كل حال ، وبقطع النظر عن أى اعتبار . وسمى هؤلاء الثلاثة بأسمائهم المذكورة لانها ترقق عليهم القلوب من القرابة والمسكنة وغربة الطريق . وسمى ما ينالونه حقا ليشعر المكلف بتاكده . ويحذر المعطى من المن به ولا ينكس قلب آخذه .

الإنفاق فى غير وجه شرعي

« وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً » .

المال قوام الاعمال ، واداة الاحسان ، وبه يمكن القيام بالحقوق ، فصاحبه هو مالكه ، ولكن الحقوق فيه تشاركه ولا يقوم له بوجوه الحق الا اذا امسكه عن وجوه الباطل ، ثم لا يقوم له بجميع تلك الوجوه الا اذا أحسن التدبير فى التفريق وأصاب الحكمة فى التوزيع . فلذا بعدما أمر

الله تعالى باعطاء الحقوق لاربابها نهى عن تبذير المال الذى هو أصلها وبه يمكن اعطاؤها ٠

والتبذير هو التفريق للمال فى غير وجه شرعى أو فى وجه شرعى دون تقدير فيضر بوجه آخر ٠ فالانفاق فى المنهيات تبذير وان كان قليلا ٠ والانفاق فى المطلوبات ليس بتبذير ولو كان كثيرا ٠ الا اذا أنفق فى مطلوب دون تقدير فاضر بمطلوب آخر كمن أعطى قريبا وأضاع قريبا آخر أو أنفق فى وجوه البر وترك أهله يتضورون بالجوع وقد نبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم على هذا بقوله : « وابدأ بمن تعول » ٠ والانفاق فى المباحات اذا لم يضيع مطلوبا ولم يؤد الى ضياع رأس المال بحيث كان ينفق فى المباح من فائدته ليس بتبذير ، فاذا توسع فى المباحات وقعد عن المطلوبات أو أداه الى إفناء ماله فهو تبذير مذموم ٠ وافادت النكرة وهى قوله « تبذير » بوقوعه بعد النهى ـ العموم فهو نهى عن كل نوع من أنواع التبذير القليل منه والكثير حتى لا يستخف بالقليل ، لان من تساهل فى القليل وصلت به العادة الى الكثير ٠

إخوان الشياطين

« إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا » .

(سورة الاسراء ، الآية 27)

ان الشيطان يعمل وأعماله كلها فى الضلال والاضلال ٠ فقد ضيع أعماله فى الباطل ، وقد كان يمكنه أن يجعلها فى الخير ٠ وهو جاد فى ذلك ضار عليه لرسوخه فى نفسه ٠ والمبذر يضيع أمواله فى الباطل وقد كان يمكنه أن يجعلها فى الخير ٠ وقد اخذت عادة التبذير بخناقه واستولت عليه ٠ فهو أخو الشيطان لمشاركته له فى وصفه كمشاركة الاخ لاخيه ٠

وهو أخوه بامتثاله لامره وصحبته له في الحال وفي المآل وفي سوء العاقبة في العاجل والآجل ·

المال كما هو أداة لكل خير ، كذلك هو أداة لكل شر ، فالمبذر المفرق لماله في وجوه الباطل بالغ ـ لا محالة ـ بماله الى شر كثير وفساد كبير ، ولذلك وصف بانه أخ الشيطان الذى هو أصل الشر والفساد . ووصف تعالى الشيطان بقوله : « وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا » ، لانه انعم عليه بنعمته فبدلا من أن يستعملها في طاعته في الخير قصرها على المعصية والشر · وذكر هذا من وصف الشيطان بعدما تقدم يفيد أنه من وصف المبذر أيضا · فالمبذر أخو الشيطان ، والشيطان كان لربه كفورا · فالمبذر كان لربه كفورا · ذلك لان الله تعالى انعم عليه بالمال الذى هو أداة لكل خير وعون عظيم على الطاعة فجعله أداة في الشر واستعان به على المعصية · ومكنه بالمال من نعمة القدرة على القيام بالحقوق فضيعها وقام بالشرور والمفاسد · وهذا من أقبح الكفر لنعمة ربه الذى كان به مضارعا للشيطان أخيه · والعياذ بالله ·

حسن المقال، عند العجز عن النوال

« وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا » (28) ·

للمؤمنين حالتان حالة وجد وحالة عوز · فلما علمنا الله تعالى ما نصنع في حالة الوجد من إيتاء لذوى القربى واليتامى والمساكين ـ علمنا ما نصنع في حالة العوز من الرد الجميل والقول اللين الحسن ·

وقوله تعالى : « تُعْرِضَنَّ » من الاعراض وهو الانصراف عن الشيء ، وهو هنا كناية عن عدم العطاء ، لان من يابى أن يعطي يعرض بوجهه ولو اعراضا قليلا · ولما كان الاعراض كناية عن عدم العطاء فانه يشمل عدم

العطاء عند السؤال الذى قد يكون معه الاعراض بالفعل ولو قليلا ، ويشمل عدم العطاء لمن هو أهل لان يعطى مع عدم وجود السؤال ٠

وقوله تعالى : « **أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا** » ٠ الابتغاء هو الطلب باجتهاد ، وذلك بالاخذ في الاسباب والاعتماد على مسببها وهو اللـــه تعـالى ٠ ورحمة الرب هنا رزقــه ٠ ورجاؤها هو انتظارها مع الاخذ فى أسبابها بالقلب والعمل ٠ وابتغاء رحمة الــرب ورجاؤها كناية عن حالة العوز والاعسار لان شأن المعوز المؤمن أن يكون كذلك ٠

وقوله تعالى : « **فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً** » ٠ تقول : يسرت له القول اذا لينته له ٠ فالقول الميسور هــو القول اللين.**وحاصل المعنى** : ان اعرضت عنهم فلم تعطهم لانك لم تجد ما تعطيهم ـ وهى الحالة التى تكون فيها تطلب رحمة من ربك راجيا رزقه ـ فقل لهم قولا لينا سهلا فتواسيهم بالقول عند عدم السؤال ، ولا تتركهم فى ساحة الاهمال ، وردهم الرد الجميل عند السؤال فتقول لهم يرزق الله ونحوه من لين الكلام ٠

وفى الآية تعليم وتربية للمعسر من ناحيتين ، الاولى : معاملته لـذوى القربى واليتامى والمساكين عند السؤال وعدمه ٠ وعرف من الآية أنـه مطالب بحسن المقال بدلا مما عجز عنه من النوال ٠ والثانية : ادبه ، هو فى نفسه والحالة التى ينبغى له أن يكون عليها ٠ فان حالة العسر حالة شدة وبلاء يحتاج المكلف أشد الحاجة أن يعرف دواءه فيها لسيرته العملية ، وحالته النفسية ٠ فاعطته هذه الآية الكريمة الدواء لهما ٠ فاما فى سيرته العملية فعليه أن يكون ساعيا فى الاسباب حسب جهده وذلك هو ما يفيده قوله : « **أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ** » ٠ وأن يكون مطمئن القلب بالله معتمدا عليه قوى الثقة فيه ٠ وذلك هو ما يفيده قوله : « **تَرْجُوهَا** » ٠ وقد ذكر برحمة الرب ـ جـل جـلاله ـ لوجوه ، **الاول** : تقوية رجائه ، فانه يعلم سعة رحمة اللــه وغمره بها فى كل حين ٠ ومن ذا الذى لم يجـد نفحات الرحمات فى أكثر الاوقات فى أحرج الساعات ٠ **الثانى** : بعثه على الصبر والتسليم وعدم الضجر والسأم من الطلب والانتظار ، فانها رحمة الرب ،

ومن مقتضى ربوبيته تدبيره للخلق بحكمته فما جاء منه كيف جاء وفى أى وقت جاء أبطأ أم تأخر ـ هو مقبول منه محمود منا عليه • **الثالث :** بعث عاطفة الرحمة على غيره فان من كان يرجو رحمة ربه جدير بأن يكون رحيما بعباده • ورحمته بعباد الله تعينه على القيام بما أمر به من حسن المقال عند العسر وجميل النوال عند اليسر • وتكون سببا له فى رحمة الله اياه والراحمون يرحمهم الرحمن وانما يرحم الله من عباده الرحماء •

العـدل فى الإنفـاق

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا » (29) .

لما أمرنا تعالى بالانفاق علمنا كيف ننفق ، وبين لنا أدب الانفاق فى هذه الكلمات • شبهت حالة وهيئة البخيل المسيك الذى لا يكاد يرشح بشىء ولا يقدر لبخله على اخراج شىء من ماله بحالة وهيئة الذى جعل يده مغلولة مجموعة بغل الى عنقه • فذاك لا تتوجه نفسه للبذل ولا تمتد يده للعطاء وهذا لا تمتد يده للتصرف • ونقل الكلام المركب الدال على المشبه به فاستعمل فى المشبه على طريق الاستعارة التمثيلية لتقبيح حالة البخيل •

والمعنى : لا تبخل بالنفقة فى حقوق الله ولا تمسك امساك المغلولة يده الذى لا يقدر على الاخذ بها والاعطاء •

وشبهت حالة المسرف الذى لا يبقى على شىء بحالة الشخص الباسط لكفيه ، فلا يمسكان عليه من شىء ، فذلك يملك المال ولكنه يسرفه لا يبقى له منه شىء ، وهذا قد يمر الشىء على يده ، ولكنه لا يبقى فيها شىء ونقل المركب الدال على المشبه به الى المشبه استعارة تمثيلية أيضا •

والمعنى : ولا تخرج جميع ما تملك مع حاجتك اليه ولا تنفق جميع مالك • وبهذا يعلم أن كل البسط المنهى عنه هنا غير التبذير المنهى عنه

فی الآیـة ـ المتقدمة ، ذاك تـوزيع المال وتبديده فی غير وجوهه ، وهـذا التجاوز فی الانفاق المطلوب والتوسع فی الانفاق المأذون حتی يبـــقی بـلا شیء ٠

نهی تعـالی بهذه الآیـة عن طرفی الافراط والتفريط وهما الاسراف والتقتير ٠ فالمامور به هو العدل الوسط ، فعلی ذی المال أن يأخذ فی انفاقه بهذا الميزان ليكون انفاقه محمودا ٠ فلا يمسك عما يستطيع ولا يتجاوزه الی ما لا يستطيع أو الی ما يوقعه فی عسر وضرر ٠

وكان النهی عن كل البسط لانه هو الذی فيه اسراف ، وأما أصـــل البسط الذی هو توسعه بحكمة فغير منهی عنه لانه لا ضرر فيه ٠

وحذر تعالی من سوء عاقبة الاسراف والتقتير بقوله : « فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُوراً » ٠ البخيل الممسك ملوم من الله تعالی ومن العباد اذا لم تلمه نفسه الخبيثة لموت قلبه ٠ علی أنه سيلوم هو نفسه بعد الموت ٠ والمسرف ملوم من الجميع ومـن نفسه بعـد ضياع ما فی يده ٠ والمحسور المتعب المضنی الذی انكشفت عنه القوة ولم تبق به قدرة علی شیء ٠ تقول العرب : حسرت البعير ، أی انضيته واتعبته بالسير حتی لم يبق به قدرة عليه ٠ والجمل لا يقطع الطريق ويصل الی الغاية الا اذا حافظ صاحبه علی ما فيه من قوة فسار به سيرا وسطا ٠ أما اذا أجهده واستنزف قوته فانه يسقط كليلا محسورا ، فلا قطع طريقه ولا وصل منزله ولا أبقی جمله ٠ فكذلك الانسان فی طريق هذه الحياة محتاج الی قوة المال ، فاذا انفقه بحكمة نفع به وانتفع ، وبلغ غاية حياته هادئا رضيا ، واذا بسط يده فيه كل البسط أتی عليه فانقطع النفع والانتفاع ولم يبلغ غاية حياته الا باتعاب ومشاق ٠

وعلم من هذا أن قوله «مَلُومًا» يرجع للمقتر والمسرف، وقوله : «مَحْسُوراً» يرجع للمسرف فقط ٠ ولكن لما كان المحسور هو الذی ذهبت قوته فلا قدرة له علی شیء ، فقد نقول أن البخيل أيضا مبغوض من الناس مخذول منهم ، فلا يجد فی ملماته معينا ولا فی نوائبه معزيا ، فهو أيضا ضعيف الجانب

لا قوة له · فالمسرف ضيع المال · والبخيل ضيع الاخوان ، فكلاهما مكسور الظهر عديم الظهير · والمخاطب بهذا الخطاب اما مفرد غير معين ، فيشمل جميع المكلفين غير النبى صلى الله عليه وآله وسلم لانه كان يأخذ لعياله قوت سنتهم حين أفاء الله عليه النضير وفدك وخيبر ، ثم يصرف ما بقى فى الحاجات حتى ياتى أثناء الحول وليس عنده شيء ، وما كان ملوما ولا محسورا ، بل كان على ذلك صبارا شكورا مشكورا ــ واما هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، والمراد أمته ، وعادة العرب أن تخاطب سيد القوم ، تريد القوم ، وتعبر بالمتبوع عن اتباعه ، ونظير هذه الآية فى ذلك : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » فالنبى صلى الله عليه وآله وسلم غير داخل فى هذا الخطاب باجماع ، وقد تقدم قوله تعالى : « إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ » ، يعنى الوالدين ، وكان والداه عليهما الرحمة توفيا ، فلم يدخل فى الخطاب قطعا ، فكذلك هنا ·

قال الامام ابن العربى ــ رضى الله عنه ــ فى تعليل عدم دخوله فى هذا الخطاب : لما هو عليه من الخلال والجلال ، وشرف المنزلة ، وقوة النفس على الوظائف وعظيم العزم على المقاصد · فاما سائر الناس فالخطاب عليهم وارد والامر والنهى ــ كما تقدم ــ اليهم متوجه · الا أفرادا خرجوا من ذلك بكمال صفاتهم وعظيم انفسهم ، منهم أبو بكر الصديق خرج عن جميع ماله للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فقبله منه الله سبحانه ، وأشار على أبى لبابة وكعب بالثلث من جميع مالهم لنقصهم عن هذه المرتبة فى أحوالهم · واعيان من الصحابة كانوا على هذا ، فأجزاهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم عليه ، وائتمروا بأمر الله واصطبروا على بلائه ، ولم تتعلق قلوبهم بدنيا ، ولا ارتبطت أبدانهم بمال منها ، وذلك لثقتهم بموعود الله فى الرزق وعزوب انفسهم عن التعلق بنضارة الدنيا · وقد كان اشياخى من ارتقى الى هذه المنزلة فما ادخر قط شيئا لغد ولا نظر بمؤخر عينه الى احد ، ولا ربط على الدنيا بيد ·

فههنا ثلاثة اصناف من الخلق : الاعم الاكثر ، وهم أهـل الحظوظ البشرية ، والقليل وهم الذين ضعفت فيهم حظوظهم ، والاقل الاندر وهم الذين زالت منهم تلك الحظوظ · وقد أفادتنا السنة العملية المتقدمة فى كلام الامام ابن العربى أن لاهل الصنف الثانى أن يخرجوا عن كثير مـن أموالهم عـلى مقدار ما بقى من حظوظهم ، وأن لاهـل الصنف الثالث أن يخرجوا منها كلها ، وأما أهل الصنف الاول فلا يخرجون مـن الوسط الذى بينته الآية ·

وقد جاءت الآية الكريمة على مقتضى حال الاعم الاكثر لانها قاعدة عامة فى سياسة الانفاق ، وشأن القواعد العامـة أن يعتبر فيها جانـب الاعم الغالب ولا يلتفت للنادر · وقد وكل للنبى صلى الله عليه وآله وسلم بيانه فجاء مبينا فيما تقدم من سنته · وتقررت القاعدة واستثناؤها من الكتاب والسنة وهما مصدر التشريع ·

تفاوت الأرزاق من حكمة الخلاق

« إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً » (30) .

لما أرشدنا تعالى الى السلوك الاقوم فى العمل فى باب الانفاق أرشدنا الى العقد الصحيح فى مسألة تفاوت الارزاق وفى ذلك تمام الهداية الى الاستقامة فى الظاهر والباطـن · وان احـوال العباد فى الغنى والفقر والسعة والضيق وتعاقبها عليهم بسرعة وبمهل ، وتفاوتهم فيها لما يخفى ولما يظهر من العلل ـ لامر عجب عجاب يحير الالباب · فعلمنا الله تعالى فى هذه الآية أن الرب هو الذى يربى المربوب فى أحواله وأطواره بمقتضى الاصلاح والصواب هو الذى يبسط ويوسع على من يشاء ـ ولا يشاء الا ما هو حق وعدل وصواب وان خفى علينا وجهه ـ ويقدر ، أى يضيق على من

يشاء ، وكل أحد هو حقيق بالحال الذى هو فيه • وانه كان بعباده خبيرا مطلعا على دواخل امورهم وبواطن أسرارهم من أنفسهم ، ومما يرتبط بهم ومن سوابقهم ومصائرهم بصيرا منكشفة له جميع امورهم •

وكما أنـه بالعمل بآية الانفاق ينتظم أمـر العباد فى معاشهم ، كذلك بالايمان بهذه العقيدة تزول حيرتهم وتطمئن قلوبهم فيما يرونه من أحوال الرزق فى أنفسهم وفى غيرهم • والله يبصر القلوب ويقوم الاعمال انه سميع مجيب •

ش ج 6 م 6 ، صفر 1349 هـ جليت 1930 م •

حفـظ النفـوس
بحفظ النسل وحفظ الفرج وعـدم العدوان

« وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ، وَلاَ تَقْرَبُوا ٱلزِّنَى إِنَّـهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ، وَلاَ تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّـهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً » .

(سورة الاسراء ، الآية : 31 ـ 33)

ان الارواح الانسانية كريمة الجوهر لانها من عالم النور ، فقد خلقت من نفـخ الملـك ، كما فى حديث ابن مسعود رضى اللـه عنه الثابت فى الصحيح : « ان أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثـم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكـون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملـك فينفخ فيه الروح ٠٠ الخ » والملائكة ـ كما فى الصحيح ، خلقوا من النور وأنها كريمة الخلقة ايضا لانها فطرت على الكمال ، ولذا اضافها الله تعالى الى نفسه فى معرض الامتنان فى قوله : « ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ » دع ما يطرأ عليها بعد اتصالها بالبدن مـن تزكية ترقى بها فى معـارج الكمال أو تدسية تنحط بها الى أسفل سافلين ، وبعـد ارتباطها بالبدن يتكون منهما المخلوق العظيم العجيب المسمى بالانسان ، الذى جعله الله تعالى خليفة فى الارض ليعمرها ويستثمرها ، ويعبرها الى دار الكمال الحق والحياة الدائمة الأبدية ٠

هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بايجاب حفظها · فكان حفظها أصلا قطعيا وكلية عامة فى الدين . وجاءت هذه الآيات فى تقرير هذا الحفظ من وجوه ثلاثة سنتكلم عليها واحدا واحدا : ــ

(1) ــ حفظ النسل : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا » ·

العرب فى زمان البعثة هم المخاطبون قبل الناس بالقرآن ، وهم المأمورون أول الناس ــ لعموم الرسالة ــ بالبلاغ وعلى اهتدائهم كان يتوقف اهتداء غيرهم . فمن الحكمة توجه القصد الى تطهيرهم من مفاسدهم ، وقد كانوا فى الجاهلية منهم من يقتل البنات خشية الفقر وليوفر ما ينفق عليهن لينفقه على نفسه وبيته وبنيه . ويرى النفقة عليهن ضائعة لأنه لا ينتظر منهن سعيا للكسب ولا نصرة على العدو ، وهذه هى الموءودة المذكورة فى قوله تعالى : « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » على انه قد كان من ساداتهم من يحيى الموءودة ، فيشتريها من عند أبيها وينجيها من القتل ، كزيد ابن نفيل القرشى أبى سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين رضى الله عنهم ، وصعصعة ابن ناجية التميمى الصحابى جد الفرزدق الشاعر المشهور · وقد كان قتل البنات شائعا فيهم مستفيضا ومنهم ــ كما فى « لسان العرب » ــ من كان يئد البنين عند المجاعة ، فجاء النهى عن القتل فى الآية متعلقا بلفظ الولد شاملا للبنات والبنين ، ومعه السبب الذى كان يحملهم على القتل ، وهو خشية الاملاق : اى خوف الفقر والاقتار، والمملق هو الذى خرج ماله من يده فلم يبق بها شىء ، ومن مادته الملقة ، وهى الصفاة الملساء ، فنهوا عن هذا القتل الفظيع مع ذكر سببه لتصوير حالتهم بوجه تام ، وليتخلص من ذكر السبب الى ابطاله ورده ·

معالجة هذه الرذيلة : بإبطال سببها ، وعظيم قبحها،وسوء عاقبتها :

أبطل تعالى خوفهم من الفقر بقوله : « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » فأخبر أن رزق الجميع عليه . وأنه متكفل برزق خلقه بما يسر لهم من اسباب جلية أو خفية ، لا فرق فى ذلك بين الذكر والانثى والكبير والصغير · كما أنه

تعالى هو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، كما فى الآيـة السابقة ، فهما مرتبطان بهذه المناسبة ، ومن ضلالهم أنهم نظروا الى قوة الكبير فحسبوه مرزوقا من نفسه فهداهم بقوله : « وَإِيَّاكُمْ » الى أن الكبار مرزوقون من الله بتقديره وتيسيره • ولما كان لا فرق بين الكبير والصغير فى الحاجة الى لطف الله وضمان الرزق من الله فلا وجه لخوف الفقر من وجود الاولاد وكثرتهم ، لانه ما من واحد منهم الا ورزقه مضمون من خالقه جل جلاله •

وبين تعالى فظاعة هذا القتل بقوله : « أَوْلَادَكُمْ» باضافة الاولاد اليهم فان الاولاد أفلاذ الاكباد ، وبضعة من لحم المرء ودمه،ونسخة من ذاته ، فمحبتهم فطرة ، والعطف التام عليهم خلقة ، فكيف يكون قبح وفظاعة فعل من بلغ بهم القتل ؟ وأى خير يرجى من قاتل ولده لغيره من الناس بعد ما جنى أفظع الجنايات على ألصق الناس به ؟

وبين تعالى سوء العاقبة لهذا القتل بقوله : « إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا » أى اثما كبيرا لما فيه من قتل النفس وقطع النسل وهلاك الجنس وخراب العمران وسوء الظن بالله وعدم خشيته وعدم الشفقة على خلقه ، يقـال : خطىء يخطأ خطئا اذا قصد الفعل القبيح ففعله • واخطا يخطىء خطئا اذا قصد شيئا فاصاب غيره • ومن مثل وعيد الآية ما ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم سئل أى ذنب أعظم ؟ قال : «أن تجعل لله ندا وهو خلقك» قال : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » •

عموم حكم الآية وترغيبها : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والحكم يعم بعموم اللفظ كما أن ذكر سبب القتل فى الآيـــة لا يقتضى التخصيص لانه ذكر لتصوير الحال الذى كانوا عليه ، فالقتل حرام لاى سبب كان •

وهذا الفعل الذى كان فى الجاهلية على الوجه المتقدم وهو فعل مؤد الى قطع النسل وخراب العمران ، لا تسلم منه الامم الاخرى فى مختلف

الازمنة والبلدان ، امـا بالقتل بعد الولادة . وامـا بافساد الحمل بعـد التخليق ، وهو حرام باتفاق - وقد يكون بالامتناع من التزوج أو بعـدم الانزال فى الفرج وهو العزل ، والآية كما نهت عن القتل . قد رغبت فى النسل بذكر ضمان الرزق ، فعلى المؤمن ان يسعى لذلك من طريقه المشروع وان يتلقى ما يعطيه الله من نسل ابن أو بنت بفرح لنعمة اللـه وثقـة برزق الله وايمان بوعده ·

(2) ـ حفظ الفرج : «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» .

فى الزنى اراقة للنطفة وسفح لها فى غير محلها ، فلو كان منها ولـد لكان مقطوع النسب مقطوع الصلة ساقط الحق · فمن تسبب فى وجوده على هذه الحالة فكأنه قتله · ولهذا بعد ما نهى عن قتل الاولاد نهى عن الزنى الذى هو كقتلهم لانه سبب لوجودهم غير مشروع ·

قال الجوهرى « قربته أقربه قربانا، أى (دنوت منه) » فقوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى » أبلغ فى النهى من ولا تزنوا ، لانه بمعنى : ولا تدنوا مـن الزنى· وأفاد هذا تحريم الزنى وتحـريم الدنو منـه لا بالقلب ولا بالجوارح ، فقد جاء فى الصحيح : « كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى ، فهو مدرك ذلك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والاذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام ، واليدان زناهما البطش . والرجل زناها الخطى ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه » فزنى هذه الجوارح دنو من الزنى الحقيقى ومؤد اليه ، وقد حمى الشرع الشريف العباد من هذه الفاحشة بما فرض من الحجاب الشرعى · وهو ستر الحرة ما عدا وجهها وكفيها وجمع ثيابها عند الخروج بالتجليب ، وبما حرم من تطيب المـرأة، وقعقعة حليها عنـد الخروج ، وخلوتها بالاجنبى، واختلاط النساء بالرجال، فتظافر النهى والتشريع عـلى ابعاد الخلق عن هـذه الرذيلة · والمسلم المسلم مـن تحرى مقتضى هذا النهى وهذا التشريع فى التـرك والابتعـــاد ·

معالجة هذه الرذيلة بتقبيحها وسوء عاقبتها : بين تعالى قبحها بقوله : « **إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً** » والفاحشة هى الرذيلة التى تجاوزت الحد فى القبح ، وعظم قبح الزنى مركوز فى العقول من أصل الفطرة كان ولم يزل كذلك معروفا • ومن رحمة الله تعالى بخلقه أن ركز فى فطرهم ادراك أصول القبائح والمحاسن ليسهل انقيادهم للشرع عندما تدعوهم الرسل الى فعل المحاسن وترك القبائح وتأتيهم بما هو معروف فى الحسن أو القبح لهم ، فتبين لهم حكم الله فيه وما لهم من الثواب أو العقاب عليه •

وبين تعالى سوء عاقبة الزنى بقوله : « **وَسَاءَ سَبِيلاً** » أى بئس طريقا طريقه ، طريق مؤد الى شرور ومفاسد كثيرة فى الدنيا ، وعذاب عظيم فى الآخرة ، فهو طريق الى هلاك الابدان،وفساد الاعراض،وضياع الامـوال، وخراب البيوت،وانقطاع الانساب،وفساد المجتمع وانقراضه،زيادة على ما فيه من معنى القتل للنفوس الذى تقدم فى صدر الكلام •••

فعلى المؤمن اذا وسوس له الشيطان بهذه الرذيلة أن يتعوذ بالله منه ، ويستحضر قبحها ، والمفاسد التى تجر اليها ، والاثم الكبير الذى يعقبها ، وقبل ذلك كله حرمة النهى الشرعى عنها ، فيكون ذلك له ــ باذن الله ــ وقاية منها •••

(3) ــ عدم العدوان : ــ « وَلاَ تَقْتُلُوا اَلنَّفْسَ اَلَّتِي حَرَّمَ اَللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومَاً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانَاً فَلَا يُسْرِفْ فِي اَلْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً » جاء أسلوب هذه الآيات تدرجا من الخاص الى العام ، فقتل الاولاد قتل للنفس التى حرم الله ، والزنى كالقتل للنفس كما قدمناه ، وجيء هنا بالنهى الصريح عن قتل النفس،وأكد مقتضى النهى بوصف النفس بقوله : « **اَلَّتِي حَرَّمَ اَللَّهُ** » والتحريم هو المنع ، فحرم الله معناه منع الله ، والتقدير حرم الله قتلها ، فحذف لدلالة : « **لاَ تَقْتُلُوا** » عليه ، فالمنهى عنه هو القتل ، والمحرم هو القتل ، فتأكد المنع بالنهى والتحريم • وفى اسناد التحريم الى الله بعث للنفوس على الخشية من الاقدام على المخالفة وتنبيه لها على ما يكفها عن الاقدام وهو استشعار عظمة الله •

القتل المحرم : بين تعالى بقوله : « إِلَّا بِالْحَقِّ » أن القتل المحرم هو القتل بالباطل ، وأن القتل بالحق ليس بمنهى عنه ، وبين الحق فى الحديث الصحيح بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : الزانى الثيب ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » فى غير هذه الثلاث مما جاء فى بيانات أخرى عند بعض الائمة ، ويرجع الى احدى هذه الثلاث أو يقال بتقدم هذا الحصر فى الورود عليها ، وهذا القتل الحق لا يتولاه أفراد الناس فى بعضهم ، وانما يتولاه الامام الذى اليه القيام بتنفيذ الاحكام وفصل الحقوق ·

الردع عن العدوان بشرع القصاص : القتل وسفك الدم عمل قديم فى البشر فلهم ــ على الجملة ــ ضراوة عليه والف به ، وأعظم ما يكف الشخص عن نفس أخيه خوفه على نفسه ، فلذلك شرع الله تعالى القصاص بين النفوس ، وبين تعالى ذلك بقوله : « وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا » المظلوم من قتل عمدا عدوانا ، والولى هو القريب ، والسلطان التسلط · والمعنى : ومن قتل عمدا عدوانا ، فقد جعلنا لقريبه تسلطا بتمكينه من القصاص ·

لا يحفظ النفوس الا العدل : كفاء النفس نفس ، فلا يقتل الا القاتل بما قتل، دون غيره ودون تمثيل به ، وبين تعالى هذا بقوله : « فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ » أى لا يتجاوز القصاص المشروع ، لان الاسراف ظلم ومثير للحفائظ فيتسلسل الشر ·

تسكين نفس الموتور : الموتور هو من قتل قريبه ، ولفقد القريب لوعة ربما تذهب بالنفس الى شر غاية ، فذكر بقوله تعالى : « **انه كان منصورا** » فان قريب المقتول قد نصره الله بما جعل له من القصاص ، فاذا لم يستوف له فى الدنيا ، إستوفى له فى الآخرة ·

والمؤمن بيقينه لا يرى يوم القيامة الا قريبا ، وكفى بالله حسيبا ·(*)

(*) الشهاب ــ ج 7 ، م· 6 ــ غرة ربيع الاول 1349 هـ/أوت 1930 م ·

حفظ الأموال باحترام الملكية

« وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ . . . » .

(سورة الاسراء ، الآية 34)

مال الشخص : هو ما كان ملكا له. **واليتيم :** هو من عدم أباه، من اليتم، بمعنى الانفراد ، ومن الدرة اليتيمة ، ومن عدم أباه فقد عدم ناصره ، فاذا بلغ النكاح فقد بلغ القوة فاستغنى عن الناصر ، فلا يقال فيه يتيم في اللغة ، واعتبر الشرع الشريف وجود قوة العقل فمنع استقلاله ودفع ماله اليه بعد البلوغ حتى يؤنس منه الرشد. **والتي هي احسن :** الفعلة والخصلة التي هي أنفع ، **والبلوغ الى الشيء** : الوصول والانتهاء اليه . **والاشد :** جمع شدة ، كانعم جمع نعمة ، فالاشد هو القوى ، وبلوغ الاشد هو بلوغ القوى والوصول الى الحالة التي تحصل فيها القوى للانسان ، القوى البدنية والقوى العقلية ، ولا يقال في الشخص قد بلغ أشده الا اذا حصل على قواه من الجهتين ، فاما القوى البدنية فعلامة حصولها هو البلوغ . وأما القوى العقلية فعلامة حصولها هو الرشد الذي يظهر في حسن التصرف ، وقد جمع العلامتين قوله تعالى في سورة النساء : ــ

« **وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** » . فابتداء الاشد من البلوغ اذا كان معه رشد ، ولا يزال يتدرج حتى يستكمل في الاربعين كما قال تعالى : « **حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** » . فالاربعون هي سن الاستكمال والاستواء والتمام في القوى ، وهي السن التي بعث الله فيها النبي صلى الله عليه

وآله وسلم للعالمين بشيرا ونذيرا . ولا يزال الانسان في قوته ـ ما لم تعرض الطوارىء ـ الى الخمسين ، قال الشاعر : ـ

أخو الخمسين مجتمع اشدى ونجّذني مداوَرَةُ الشؤون

ثم ياخذ في التراجع .

مال المرء قطعة من بدنه ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه ، وبه قوام اعماله في حياته . فالامور مقرونة بالنفوس كما في الاعتبار ، فقرنت في النظم آية حفظ الاموال بآيات حفظ النفوس . كما قرن بينهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « فان دماءكم واموالكم وأعراضكم عليكم حرام » .

نهى تعالى عن قربان مال اليتيم الا بالوجه الذي هو أنفع . فلابد لكافل اليتيم من النظر والتحري عند التصرف في ماله حتى يعرف ما هو ضار وما هو نافع ، وما هو ضار ولا نافع وما هو أنفع ، فلا يتصرف الا بما هو نافع . فاذا تعارض وجهان نافعان تحرى أنفعهما لليتيم ، وفي هذا النهي ـ بطريق الاحرى ـ تحريم أخذ مال اليتيم بالباطل والتعدي عليه ظلما ، ومثل اليتيم في وجهي النهي المتقدمين غيره ، فكل ذي ولاية أو امانة على مال غيره يجب عليه أن يتحرى التحريم المذكور . كما يحرم على كل احد أن يتعدى على مال غيره . وانما خص اليتيم بالذكر لانه ضعيف لا ناصر له ، والنفوس أشد طمعا في مال الضعيف . فالعناية به أوكد، والعقوبة عليه اشد . ومن تادب بادب الاية في مال الضعيف ، كاليتيم . كان حقيقا ان يتأدب بادبها في مال غيره . ومن بليغ ايجاز القرآن في بيانه أنه يذكر الشيء ليدل به على نظيره ، أو الذي هو أحرى بالحكم منه ، أو لكون امتثال الحكم الشرعي فيه داعيا الى امتثاله في غيره بالمساواة أو الاخروية .

واجاز تعالى لولي اليتيم أن يتصرف في ماله بالاستثناء في قوله : « إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » فيجوز له تنميته لليتيم بوجوه التجارة .

الولاية والاستقلال : الولاية على اليتيم واستقلاله حالتان كلتاهما حق وخير اذا كانت كل واحدة منهما في وقتها المناسب لها . وكل واحدة

منهما تكون ظلما وشرا اذا كانت فى غير وقتها • فلذلك بين تعالى الحالتين ووقتهما بما قبل (**حتى**) وما بعدها ، فوقت عدم بلوغ الاشد هـو وقت الولاية ، فمن الفروض الكفائية على الامة أن يكون أيتامها مكفولين غـير مهملين ، ووقت بلوغ الاشد ـ ببلوغ الحلم والرشد ـ هو وقت استقلال من كان يتيما ، ووقت دفع ماله اليه ، فلا يجوز حينئذ الاستيلاء على ماله والسيطرة عليه •

الوفـاء بالعهــد

« وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً » .

اوفى بعهده : اذا اتى بما التزم تاما وافيا ، **والعهـد** : من عهد اليـه بالشىء اذا أعلمه به • قال تعـالى : « **وَلَقَـدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ** » أى أعلمناه • فالعهد هو الاعلام بالالتزام ، أو الاعلام بما يلتزم • فمـن الاول : عاهدت زيدا على كذا • أى أعلمته بالتزامى له ، وتعاهد القوم على الموت ، أى أعلم بعضهم بعضا بالتزامه • ومن الثانى : عهد الله الى العباد أى اعلامهم بما عليهم ان يلتزموه • وقول عبد الله بن عمر رضى الله عنه : الدينار بالدينار ، والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما ، هذا عهد نبينا الينا • وعهدنا اليكم • أى اعلامه لنا واعلامنا لكم بما يلتزم ، والمسؤول من سأل • **وسأل** : بمعنى طلب ، اما طلب علما واما طلب شيئا ، فان كانت الاولى تعدى الفعل الى المفعول الثانى بعد ، تقول سألته عن كذا فأجابنى ، وان كانت الثانية تعدى الفعل اليـه بنفسه ، تقول : سألتـه ثوبا فأعطانيه • فقوله تعالى : «**إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً**» اذا كان من الاولى فالاصل «مسؤولا عنه» فحذف ايجازا لظهور المراد ـ واذا كان من الثانى فلا حذف ، والمعنى حينئذ مطلوب أى مطلوب الوفاء به •

الوفاء بالعهد شرط ضرورى لحصول السعادتين : عهد الله تعالى لعباده هـو ما شرعه لهم من دينه فوفاؤهم بعهده قيـام بأعباء ذلك الدين الكريم

وانتظام شؤونهم فى هذه الحياة ـ أفرادا وجماعات وأمما ـ متوقف على الوفاء من بعضهم لبعض بما بينهم من عهود ، فالوفاء ضرورى لنجاة العباد مع خالقهم ولسلامتهم من الشرور والفوضى والفتن • وضرورى ـ اذا ـ لتحصيل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة •

ولمكانة هذا الاصل وضرورته تكرر فى الكتاب والسنة الامر بـه على وجه عام بين الافراد والامم بلا فرق بين الاجناس ، والملل • وجاء هنا فى آية الوصاية باليتيم ، وهى آية حفظ الاموال باحترام الملكية ، لوجهين : الاول ان الكافل لليتيم قد أعلن بكفالته ـ بلسان حاله ـ أنه ملتزم لحفظه فى بدنه وماله ، فهذا عهد منه يطالب بالوفاء به ويسأل عن ذلك الوفاء ، الثانى : أن الآية فى حفظ الاموال وعدم التعدى على ملك أحد ، والناس يتعاملون بحكم الضرورة،ويبنون تعاملهم على تبادل الثقة والعهود المبذولة من بعضهم لبعض بلسان المقال أو بلسان الحال ، فامروا بالوفاء بالعهد الذى هو أساس للتعامل ، وفى ذلك سلامة مال كل أحد من التعدى عليه •

ولا ينافى هذا عموم اللفظ الذى يقتضى الامر بالوفاء عاما لانه باق على عمومه ، وانما يدخل فيه هذان الوجهان المذكوران فى ارتباط النظم دخولا أوليا • ومن بديع ايجاز القرآن فى نـظم الآيات أن يؤتى باللفظ مفيدا للعام ومقويا للخاص •

الترغيب فى الوفاء والترهيب من الخيانة :

« إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا »

اذا كان مسؤول بمعنى مطلوب ، أى مطلوب الوفاء به ، فانه مطلوب فى الفطرة وهى الشريعة ، فالعباد فطروا على استحسان الوفاء ومطالبة بعضهم بعضا بـه ، والشرع طالبهم بالوفاء وشرعه لهـم ووعدهم الثواب عليه • ففى قوله : « **إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا** » ترغيب لهم فى الوفاء بحسنه ومشروعيته وحسن الجزاء عليه • ويتضمن هذا الترغيب بالتخويف مـن تـرك الترغيب بالتخويف من تـرك المطلوب • واذا كان مسؤول بمعنى

« مسؤول عنه » فان المعنى ان الله تعالى يسال العباد يوم القيامة عن عهودهم هل اوفوا بها ليجازيهم على الوفاء بحسن الجزاء ، وعلى الخيانة بالعذاب والاهانة . فينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ويقال هذه غدرة فلان كما جاء في الصحيح . ففى الآية على هذا ـ أيضا ـ ترغيب وترهيب .

إيفاء الحقوق عند العامل

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً » الآية (35) .

ايفاء الكيل : اتمامه ، **والقسطاس** : هو الآلة التى يحصل بها الايفاء من المكيال والميزان على تعدد أنواعهما ، **والمستقيم** : الصحيح الذى لا عيب فيه ، ومما يجعله غير صالح للوفاء بالعدل ككسره أو اعوجاجه أو اى خلل في تركيبه . **والخير** : النافع . **والتاويل** : مصدر أول ، بمعنى رجع ، من آل يؤول أولا ، بمعني رجع ، وهو هنا بمعنى المرجع والمآل ، أى العاقبة .

الامر بايفاء الكيل من موضوع ما قبله في الامر بحفظ الاموال واحترام الملكية . والمكيلات والموزونات مورد عظيم للتعامل ، ومعرضة تعريضا كبيرا للبخس والتطفيف، واخذ مال الناس بالزيادة أو بالتنقيص ، اما بفعل الشخص واما بفساد الآلة ، فامر تعالى بايفاء الكيل، وأمر باختيار الآلة الصالحة لذلك ، وبين أن الوفاء يكون عند الكيل بقوله : « **إِذَا كِلْتُمْ** » على سبيل التاكيد ، حتى لا يتاخر الوفاء عن الكيل بان يكمل ما نقص او يرد ما زاد ، فان الذى يفصل الحق ويطيب النفوس هو الوفاء وقت الكيل .

الترغيب في إيفاء الكيل

« ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

رغب تعالى في الايفاء بوجهين · **الأول** : أنه خير ، فيفيد العدل والحق وأكل الحلال وراحة البال ، وفيه حصول الثقة التي هي رأس مال التاجر ، وفيه حفظ نظام التعامل الذي هو ضروري للحياة ، وهذه كلها وجوه نفع وخير · **الثاني** : أنه أحسن عاقبة عاجلا في نفس الشخص وأخلاقه وفي عرضه وسمعته وفي سلامته من المطالبات والمنازعات ، وآجلا بحسن جزائه عند الله بما أعد للموفين من الاجر العظيم ·

تركيب على هذا الترغيب : هذان الوجهان اللذان رغب الله تعالى بهما في الوفاء ـ ينبغي للعاقل أن يجعلها نصب عينيه في كل ما يتناوله ويعمله، فيقتصر على ما هو خير ينفعه في الحال ، وحسن العاقبة بنفعه وعدم ضرره في المآل · والله يوفقنا الى خير الاقوال والاعمال انه الكريم الواسع النوال (1) ·

(1) الشهاب ـ ج 8 ، م· 6 ـ غرة ربيع الثاني 1349 هـ/ سبتمبر 1930 م ·

العلـم والأخـلاق

« وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً . وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً » .

(سورة الاسراء : الآية 36 ـ 37)

المناسبة : العلم الصحيح والخلق المتين هما الاصلان اللذان ينبني عليهما كمال الانسان . وبهما يضطلع باعباء ما تضمنته الآيات المتقدمة من أصول التكليف فهما اعظم مما تقدمهما من حيث توقفه عليهما فجيء بهما بعده ليكون الاسلوب من باب الترقي من الادنى الى الاعلى . ولما كان العلم أساس الاخلاق قدمت آيته على آياتها تقديم الاصل على الفرع .

آيـة العلـم :

المفردات والتراكيب : القفو : اتباع الاثر، تقول قفوته أقفوه اذا اتبعت أثره، والمتبع الاثر شخص موال فى سيره لناحية قفاه فهو يتبعه دون علم بوجهة ذهابه ولا نهاية سيره . فالقفو اتباع عن غير علم ، فهو أخص من مطلق الاتباع ، ولذلك اختيرت مادته هنا . ولكونه اتباعا بغير علم جاء فى كلام العرب بمعنى قول الباطل . قال جرير :

وطال حِذارِى غربة البَيْن والنَّوى   وأحْدُوثَةٌ من كاشِح مُتَقَوِّف

أى متقول بالباطن .

والعلم : ادراك جازم مطابق للواقع عن بينة . سواء كانت تلك البينة حسا ومشاهدة أو برهانا عقليا كدلالة الاثر على المؤثر والصنعة على الصانع

فاذا لم تبلغ البينة بالادراك رتبة الجزم فهو ظن،هذا هو الاصل ، ويطلق العلم أيضا على ما يكاد يقارب الجزم ويضعف فيه احتمال النقيض جدا • كما قال تعالى عن اخوة يوسف عليه السلام : « **وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ** » نسمي القرآن ادراكهم لما شاهدوا : علما • لانه ادراك كان يبلغ الجزم لانبيائه على ظاهر الحال وان كان ثم احتمال خلافه في الباطن ، لانه احتمال ضعيف بالنسبة لما شاهدوه • **والسمع** : القوة التي تدرك بها الاصوات بآلة الاذن • **والبصر** : القوة التي تدرك بها الاشخاص والالوان بآلة العين • وقدم السمع على البصر لان به ادراك العلوم وتعلم النطق فلا يقرأ ولا يكتب الا من كان ذا سمع وقتا من حياته • **والفؤاد** : القلب ، والمراد به هنا العقل من حيث اعتقاده لشيء ما واطلاق لفظ الفؤاد والقلب على العقل مجاز مشهور ، **وكان** : تفيد ثبوت خبرها لاسمها وكونها على صورة الماضي لا يدل على انقضاء ذلك الارتباط • ومثل هذا التركيب يفيد في الاستعمال استحقاق الاسم للخبر ، فالجوارح مستحقة للسؤال ويكون ذلك بالفعل يوم القيامة • **والمسؤول** : الموجه اليه السؤال ليجيب •

واولئك اشارة الى هذه الثلاثة ، وضمير كان عائد على كل ، وضمير عنه عائد على ما ، وضمير مسؤولا عائد على ما عاد عليه ضمير كان • والتقدير : كل واحد من هذه الثلاثة:السمع والبصر والفؤاد كان مسؤولا عما ليس لك به علم •

العقل ميزة الانسان واداة علمه : يمتاز الحيوان عن الجماد بالادراك ويمتاز الانسان عن سائر الحيوان بالعقل وعقله هو القوة الروحية التي يكون بها التفكير ، وتفكيره هو نظره في معلوماته التي ادرك حقائقها وادرك نسب بعضها لبعض ايجابا وسلبا،وارتباط بعضها ببعض نفيا وثبوتا ، وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الارتباط على صورة مخصوصة ليتوصل بها الى ادراك أمر مجهول • فالتفكير اكتشاف المجهولات من طريق المعلومات، والمفكر مكتشف ما دام مفكرا •

ولما امتاز الانسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير ـ امتاز عنه بالتنقل والتحول فى اطوار حياته ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته فمن المشى على الاقدام الى التحليق فى الجو ، مثلا وبقى سائر الحيوان على الحال التى خلق عليها دون أى انتقال ٠

وبقدر ما تكثر معلومات الانسان ويصح ادراكه لحقائقها ولنسبها ويستقيم تنظيمه لها ـ تكثر اكتشافاته واستنباطاته فى عالمى المحسوس والمعقول وقسمى العلوم والآداب ٠ وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام بل قرون مدنيتهم ٠ عربوا كتب الامم الى ما عندهم ونظروا وصححوا واستدركوا واكتشفوا ٠ فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم،وأناروا بالعلم عصرهم،ومهدوا الطريق،ووضعوا الاسس لما جاء بعدهم ، فأدوا لنوع الانسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة فى حالها وماضيها ومستقبلها ، وكما نرى الغرب فى مدنيته اليوم ترجم كتب المسلمين فعرف علوم الامم الخالية التى حفظتها العربية وادتها بامانة وعرف علوم المسلمين ومكتشفاتهم فجاء هو أيضا بمكتشفاته التى هى ثمرة علوم الانسانية من أيامها الاولى الى عهده ، وثمرة تفكيره ونظره فيها ٠ وقد كانت مكتشفاته أكثر من مكتشفات جميع من تقدمه ، كما كانت مكتشفات صدر هذا القرن أكثر من مكتشفات عجز القرن الماضى لتكاثر المعلومات فان المكتشفات تضم الى المعلومات فتكثر المعلومات فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على نسبة كثرتها وهكذا يكون كل قرن ما دام التفكير عمالا ـ أكثر معلومات ومكتشفات من الذى قبله ٠

فاذا قلت معلوماته قلت اكتشافاته ٠ وهذا كما كان النوع الانسانى فى اطواره الاولى ٠

واذا كثرت معلوماته واهمل النظر فيها بقى حيث هو جامدا ثم لا يلبث أن تتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقل او تضمحل لان المعلومات اذا لم تتعاهد بالنظر زالت من الحافظة شيئا فشيئا وهذا هو

طور الجمود الذى يصيب الامم المتعلمة فى ايامها الاخيرة عندما تتوافر الاسباب العمرانية القاضية بسنة الله بسقوطها ·

واذا لم يصح ادراكه للحقائق او لنسبها او لم يستقم تنظيمه لها كان ما يتوصل اليه بنظره خطأ فى خطأ وفسادا فى فساد · ولا ينشأ عن هذين الا الضرر في المحسوس والضلال فى المعقول · وفى هذين هلاك الفرد والنوع جزئيا وكليا من قريب أو من بعيد · وهذا هو طور انحطاط الامم الانحطاط التام وذلك عندما يرتفع منها العلم ويفشو الجهل وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها فتتخذ رؤوسا جهالا لامور دينها وامور دنياها فيقودونها بغير علم فيضلون ويضلون ويهلكون ويهلكون ويفسدون ولا يصلحون · وما أكثر هذا ـ على أخذه فى الزوال باذن الله ـ فى أمم الشرق والاسلام اليوم ·

العلم هو وحده الإمام المتبع فى الحياة فى الاقوال والافعال والاعتقادات :

سلوك الانسان فى الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا ، يستقيم باستقامته، ويعوج باعوجاجه،ويثمر باثماره،ويعقم بعقمه · لأن افعاله ناشئة عن اعتقاداته ، وأقواله اعراب عن تلك الاعتقادات ، واعتقاداته ثمرة ادراكه الحاصل عن تفكيره ونظره ·

وهذه الادراكات الحاصلة عن التفكير والنظر ليست على درجة واحدة فى القوة والضعف ، فمنها ما هو قوى معتبر ، ومنها ما هو ضعيف ساقط عن الاعتبار ، فالاول : العلم وهو ادراك أمر على وجه لا يحتمل ان يكون ذلك الامر على وجه من الوجوه سواه وهو عام الاعتبار · ويليه الظن وهو إدراك لأمر على وجه هو ارجح الوجوه المحتملة ، وهو معتبر عندما تتبين قوة رجحانه فيما لا يمكن فيه الا ذاك ، وهذه هى الحالة التى يطلق عليه فيها لفظ العلم مجازا · والثانى : الوهم ، وهو ادراك الامر على الوجه المرجوح · والشك وهو ادراك لامر على وجهين ، وجوه متساوية فى الاحتمال،وكلا هذين لا يعول عليه ·

ولما كان الانسان ـ بما فطر عليه من الضعف والاستعجال ـ كثيرا ما يبنى أقواله وأفعاله واعتقاداته عـلى شكوكه وأوهامه وعـلى ظنونه حيث لا يكتفى بالظن،وفى هذا البناء الضرر والضلال ـ بين الله تعالى لعباده ـ فى محكم كتابه انه لا يجوز لهم ولا يصح منهم البناء لاقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم الا على ادراك واحد وهو العلم فقال تعالى : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أى لا تتبع ما لا علم لك به ، فلا يكن منك اتباع بالقول أو بالفعل أو بالقلب لما لا تعلم. فنهانا عن أن نعتقد الا عن علم ، أو نفعل الا عن علم ، أو نقول الا عن علم . فما كل ما نسمعه وما كل ما نراه نطوى عليه عقد قلوبنا ، بل علينا أن ننظر فيه ونفكر فاذا عرفناه عن بينة واعتقدناه والا تركناه حيث هو فى دائرة الشكوك والاوهام أو الظنون التى لا تعتبر . ولا كـل ما نسمعه أو نراه أو نتخيله أو نقوله ، فكفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع كما جاء فى الصحيح ، بل علينا أن نعرضه على محك الفكر فان صرنا منه على علم قلناه ، مراعين فيه آداب القول الشرعية ومقتضيات الزمـان والمكان والحال. فقد أمرنا أن نحدث الناس بما يفهمون ، وما حدث قوم بحديث لا تبلغه عقولهم الا كان عليهم فتنة والا طرحناه . ولا كل فعل ظهر لنا نفعله ، بل حتى نعلم حكم الله تعالى فيه لنكون على بينة من خيره وشره ونفعه وضره .

فما أمر تعالى الا بما هو خير وصلاح لعباده ، وما نهى تعالى الا عمـا هو شر وفساد لهم أو مؤد الى ذلك . واذا كان من المباحات نظـرنا فى نتائجه وعواقبه ووازنا بينها . فاذا علمنا بعد هذا كله من أمر ذلك الفعل ما يقتضى فعله فعلناه والا تركناه .

فلا تكون عقائدنا ـ اذا تمسكنا بهذا الاصل الاسلامى العظيم ـ الا حقا ، ولا تكون أقوالنا الا صدقا ، ولا تكون افعالنا الا سدادا .

ولعمر اللـه انـه ما دخل الضلال فى عقائد الناس ولا جـرى الباطل والزور على السنتهم ولا كان الفساد والشر فى أفعالهم،الا باهمالهم أو تساهلهم فى هذا الاصل العظيم .

تفصيل : نهينا عن أن نتبع ما ليس لنا به علم ، فالذى نتبعه هو ما لنا به علم ، أى لنا علم يقتضى اتباعه بأن يكون من عقائد الحق وأقوال الصدق وأفعال السداد · فأما ما كان من عقائد الحق فى أمر الدين أو فى أمر الدنيا فلا حضر في اعتقاد شيء منه · وأما ما كان من أفعال السداد فكذلك · وأما ما كان من أقوال الصدق ففيه تفصيل اذ ليس كل قول صادق يقال ، فالنقائص الشخصية فى الانسان لا تقال فى غيبته لانها غيبة محرمة ولا يجابه بها فى حضوره لانها اذاية ، الا اذا وجه بها على وجه النصيحة بشروطها المعتبرة التى من أولها أن لا تكون فى الملأ · وهكذا يجب فى مثل هذه الاصول الكلية عندما يتفقه فيها أن ينظر فيما جاء من الآيات والاحاديث مما فى البيان لها والتفصيل فى مفاهيمها ·

تفريع : الفرع الاول : من اتبع ما ليس له به علم فاعتقد الباطل فى أمر الدين أو فى حق الناس أو قال الباطل كذلك فيهما ، أو فعل المحظور فهو آثم من جهتين : اتباعه ما ليس له به علم ، واعتقاده أو قوله للباطل وفعله للمحظور · ومن اعتقد حقا من غير علم أو قال فى الناس صدقا عن غير علم أو فعل غير محظور عن غير علم فانه ـ مع ذلك ـ آثم من جهة واحدة، وهى اتباعه ما ليس له به علم ومخالفته لمقتضى هذا النهى ·

الفرع الثانى : المقلد فى العقائد الذى لا دليل عنده أصلا ، وانما يقول سمعت الناس يقولون فقلت ـ هذا آثم لاتباعه ما ليس له به علم · فاما اذا كان عنده دليل اجمالى كاستدلاله بوجود المخلوق على وجود خالقه فقد خرج من الاثم لتحصيل هذا الاستدلال له العلم · والمقلد فى الفروع دون علم بادلتها متبع لمفتيه فيها ، يصدق عليه باعتبار الأدلة التى يجهلها انه متبع ما ليس له به علم ، ولكنه له علم من ناحية أخرى وهى علمه بأن التقليد هو حكم الله تعالى فى حق مثله من العوام بما أمر تعالى من سؤال أهل العلم وما رفع عن العاجز من الاصر وهو من العامة العاجزين عن درك أدلة الاحكام ·

نصيحة على هذا الفرع : أدلة العقائد مبسوطة كلها فى القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير ۰ وادلة الاحكام أصولها مذكورة كلها فيه ، وبيانها وتفاصيلها فى سنة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذى أرسل ليبين للناس ما نزل اليهم ، فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية،وادلة تلك العقائد من القرآن العظيم ۰ اذ يجب على كل مكلف أن يكون فى كل عقيدة من عقائده الدينية على علم ۰ ولن يجد العامى الادلة لعقائده سهلة قريبة الا فى كتاب الله ، فهو الذى يجب على اهل العلم أن يرجعوا فى تعليم العقائد للمسلمين اليه ۰ أما الاعراض عن أدلـــة القرآن والذهاب مـع أدلـــة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية،فانه من الهجر لكتاب الله ، وتصعيب طريق العلم الى عباده وهم فى أشد الحاجة اليه ۰ وقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم فى عامة المسلمين من الجهل بعقائد الاسلام وحقائقه ۰

ومما ينبغى لاهل العلم أيضا ـ اذا أفتوا أو أرشدوا ـ أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين الى أصل دينهم ، ويذيقوهم حلاوته ، ويعرفوهم منزلته ، ويجعلوه منهم دائما على ذكـــر ، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب ، ويكون لفتاواهم ومواعظهم رسوخ فى القلوب وأثر فى النفوس ۰ فالى القرآن والسنة ـ أيها العلماء ـ ان كنتم للخـير تريـدون ۰

الفرع الثالث : المجتهد اذا أفتى مستندا الى ما يفيد الظن من أخبار الآحاد أو الاقيسة أو النصوص الاخرى الظنية الدلالة ، هل هو متبع لغير العلم ؟ والجواب لا ، بل هو متبع للعلم وذلك من ثلاثة وجوه :

الوجه الاول : أن كل دليل يكون ظنيا بمفرده ـ يصير يقينا اذا عرض على كليات الشرع ومقاصده وشهدت لـه بالصواب ۰ وهذا هو شـــأن المجتهدين فى الادلة الفردية ۰

الوجه الثاني : أن المجتهد يعتمد فى الاخذ بالادلة الظنية لما لـــه من العلم بالادلة الشرعية الدالة على اعتبارها ۰

الوجه الثالث : أن تلك الادلة بمفردها تفيد الظن القوى الذى يكون جزما ويسمى ـ كما تقدم علما،فما اتبع المجتهد الا العلم ٠

الفرع الرابع : لا نعتمد فى اثبات العقائد والاحكام على ما ينسب للنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من الحديث الضعيف لانه ليس لنا به علم ، فاذا كان الحكم ثابتا بالحديث الصحيح مثل قيام الليل ثم وجدنا حديثا فى فضل قيام الليل بذكر ثواب عليه مما يرغب فيه جاز عند الاكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذى لم يكن شديدا على وجه الترغيب ٠ ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات اليه وهذا هو معنى قولهم : « الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الاعمال » أى فى ذكر فضائلها المرغبة فيها فى أصل ثبوتها ٠

فما لم يثبت بالدليل الصحيح فى نفسه لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف فى ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين ٠

الفرع الخامس : أحوال ما بعد الموت كلها من الغيب فلا نقول فيها الا ما كان لنا به علم بما جاء فى القرآن العظيم أو ثبت فى الحديث الصحيح وقد كثرت فى تفاصيلها الاخبار من الروايات مما ليس بثابت ، فلا يجوز الالتفات الى شىء من ذلك ٠ ومثل هذا كل ما كان من عالم الغيب مثل الملائكة والجن والعرش والكرسى واللوح والقلم واشراط الساعة وما لم يصل اليه علم البشر ٠

سؤال الجوارح يوم الهول الاكبر :

« إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا » ٠

من قال ما لم يسمع سئل يوم القيامة سمعه فشهد عليه،ومن قال رأيت ولم ير سئل بصره فشهد عليه ، ومن قال عرفت ولم يعرف أو اعتقد ما لم يعلم سئل فؤاده فشهد عليه، لانه فى هذه الاحوال الثلاثة قد اتبع ما ليس له به علم ٠ وهذه الشهادة كما قال تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » ٠

هذه الثلاثة تسأل على وجوه منها ما تقدم وهو الذى يرتبط به هذا الكلام بما تقدم من النهى . ومنها سؤال السمع لِمَ سمع ما لا يحل له ولِمَ لم يسمع ما يجب ، وسؤال البصر لِمَ رأى ما لا يحل ، وعن جميع أعمال البصر من نظر البغض والاحتقار ونحو ذلك . وسؤال الفؤاد عما اعتقد وعما قصد وجميع أعمال القلوب .

فوائد ختام الآية : فختام هذه الآية تأكيد للنهى السابق وتفصيل لطرق العلم وتنبيه على لزوم حفظها واحدة واحدة ، وترهيب للانسان من اتباع ما لا يعلم بما يؤول اليه أمره من فضيحة يوم القيامة وخزى بشهادة جوارحه عليه .

فالله نسأل أن يجعلنا متبعين للعلم فى جميع ما نعمل، ويثبت لنا ما نعمل ويثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . انه يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

آيــة الأخــلاق

« وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحاً . إِنَّكَ لَـنْ تَخْـرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً » .

المفردات والتراكيب : المرح : مشية فيها خفة ونشاط واختيال ناشئة عن شدة فرح بالنفس، تقول العرب : أمرح الكلأ الفرس فمرح فهو فرس مرح وممراح، اذا شبع فأخذ يمشى بخفة ونشاط واختيال . ويقال مرح الرجل اذا اختال فى مشيته ونظر فى عطفيه ، ولا يكون ذلك الا لفرحه بنفسه واعجابه بها ، **وخرق الارض :** ثقبها ، والطول ارتفاع القامة .

نصب مرحا بتمش لانه متضمن له تضمن الكلى لجزئيه ، اذ المرح جزئى من جزئيات المشى ، فكأنه قال لا تمرح مرحا . ونظيره قول الشاعر :

يعجبــه السخــون والبــرود والتمــر حبا ما لــه مــزيد

فنصب حبا بيعجب لان الاعجاب متضمن للحب ، أو نصب على أنه حال كجاءني زيد ركضا . ونصب طولا على أنه تمييز أى جهة الطول . والتقدير : ولن يبلغ طولك طول الجبال .

التفسير : حب الانسان لنفسه غريزة فيه ، وذلك يحمله على الاعجاب والفرح بها وبكل ما يصدر عنها ويستخفه ذلك حتى يتركه يمشي بين الناس مختالا متبخترا ، وهذه هي مشية المرح التى نهى الله تعالى فى هذه الآية عنها . ولما كانت هي فرعا عن الاعجاب بالنفس والفرح بها ، فالنهى منصب على أصلها كما انصب عليها .

ولما كانت هذه العلة ناشئة عن علة العجب اعقب الله تعالى بيان الداء الذى نهى عنه بذكر الدواء الذى يقلعه من أصله . فقال تعالى : « إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » . فذكر الانسان بضعفه بين مخلوقين عظيمين من فوقه ومن تحته ، فاذا ضرب برجليه الارض فى مرحه فهو لا يستطيع خرقها ، واذا تطاول بعنقه فى اختيال فهو لن يبلغ طول الجبال . فقد أحاط به العجز من ناحيتيه ، وذكر الانسان لضعفه وعجزه أنجع دواء لمرض اعجابه بنفسه .

نعم الانسان أعظم من الارض والجبال بعقله ، ولكنه لو سار على نور عقله لما مشى فى الارض مرحا ، لان عقله يبصره بعيوب نفسه ونقائص بشريته ، فلا يدعه يعجب بها فلا يكون من المرحين فما مرح الا وهو محروم من نور العقل مفتون بمادة الجسم . فذكر بضعف هذا الجسم وصغارته .

العجب أصل الهلاك : اذا أعجب المرء بنفسه عمى عن نقائصها ، فلا يسعى فى ازالتها . ولها عن الفضائل فلا يسعى فى اكتسابها فعاش ولا أخلاق له مصدرا لكل شر بعيدا عن كل خير .

وعن العجب بالنفس ينشأ الكبر على الناس والاحتقار لهم ، ومن احتقر الناس لم ير لهم حقا ، ولم يعتقد لهم حرمة ولم يراقب فيهم الا ولا ذمة ، وكان عليهم ــ مثل ما كان على نفسه ــ أظلم الظالمين .

وابليس اللعين ـ نعوذ بالله تعالى منـه ـ كان أصل هلاكه من عجبه بنفسه ، وانه خلق من النار ، وأنه خير من آدم ، فتكبر عليه فكان مـن الظالمين الهالكين ·

تـرك العجب شرط فى حسن وكمال الأخلاق : تربية النفوس تكـون بالتخلية عن الرذائل ، والتحلية بالفضائل ، والعجب هو أساس الرذائل · فاول الترك تركه ، وهـو المانع مـن اكتساب الفضائل ، فشرط وجودها تركه كذلك ، ومن لم يكن معجـبا بنفسه كان بمدرجة التخلق بمحاسن الاخلاق والتنزه عن نقائصها ، لان الانسان مجبول على محبة الكمال وكراهة النقص · فاذا سـلم من العجب فان تلـك الجبلة تدعوه الى ذلك التخلق والتنزه · فاذا نبه على نقصه لم تأخذه العزة ، واذا رغب فى الكمال كانت له واليه هزة فلا يزال بين التذكيرات الالهية والجبلة الانسانية الخلقيـة يتهذب ويتشذب حتى يبلغ ما قدر له من كمال · ولهذه المعانى التى تتصل بتفسير هذه الآية الكريمة ـ وهى أصول فى علـم الاخلاق ـ عنونا عليها بـآيــة الاخــلاق ·

تاكيد الأوامر والنواهى المتقدمة بطريق الإيجاز

« كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً » الآية (38) .

المناسبة : ان الغاية التى يسعى اليها كل عاقل هى السعادة الحقة ، وان التكاليف الاسلامية كلها شرعت لسنوقه اليها ، ولما كانت اصولها قد تضمنتها الآيات السابقة أمرا ونهيا بطريق الاطناب والتفصيل ـ أعيـد الحديث عنها فى هذه الآيـة بطريق الايجاز والاجمال · قصـدا للتاكيد وتقرير هذه الاصول العظيمة فى النفوس ، مع اشتمال هذه الآية الموجزة على ما لم يشتمل عليه ما تقدمها،وهذا من بديع التاكيد ، لاشتماله عـلى السابق مع شىء جديد ·

المفردات والتراكيب : السيء : هو القبيح والقبائح المنهى عنها فيما تقدم، قبيحة لذاتها، ولنهي الله تعالى عنها، **والمكروه** : هو المبغوض المسخوط عليه، وهو ضد المحبوب المرضي عنه. والمحاسن محبوبة لله أمر بها ويثيب عليها ويرضى على فاعلها، والمقابح مبغوضة له تعالى نهى عنها، ويعاقب عليها ويسخط على مرتكبها ، وليس المكروه بمعنى عدم المراد لانه لا يكون في ملكه تعالى ما لا يريد وما تشاءون الا أن يشاء الله . وليس بمعنى المنهى عنه نهيا غير جازم لان ذلك اصطلاح فقهي حادث بعد نزول القرآن والقرآن لا يفسر الحادثة باصطلاحات .

ذلك : اشارة الى جميع ما تقدم من المامورات والمنهيات على قراءة (سيئه) ، فالمكروه هو سيء ما تقدم وهو القبائح المنهى عنها . أو اشارة الى خصوص القبائح على قراءة (سيئة) ، ومكروها خبر كان على القراءة الاولى ، وخبر ثان على القراءة الثانية ، وتقدير الكلام على القراءة الاولى ، كل ذلك المذكور كان سيئه ــ وهو المنهيات ــ مكروها عند ربك ومفهومه ان حسنه ــ وهو المامورات ــ محبوب عنده ، وعلى الثانية كل ذلك المنهى عنه كان سيئة مكروها عند ربك . ومفهومه أن المامور به حسن عنده .

التفسير : عرّف ــ تعالى ــ عباده في هذه الآية بمنطوقها ومفهومها ــ على ما تقدم في التقرير ــ أن ما أمرهم به هو الحسن المحبوب ، وأن ما نهاهم عنه هو القبيح المبغوض . فعلموا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيه هي على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة ، وأنه ــ تعالى ــ لا يأمر بقبيح ولا ينهى عن حسن ، وفي علمهم بهذا ما يحملهم على الامتثال ويرغبهم فيه ، فان الحسن تميل اليه النفوس ، والقبيح تنفر منه . وفي قوله تعالى : « **عند ربك** » غاية الترغيب في الحسن ، والتنفير من القبيح فان الحسن جد الحسن ما كان حسنا عند الله تعالى ، والقبيح جد القبيح ما كان قبيحا عنده ، وفي اسم الرب تنبيه على ان العلم بالحسن والقبيح على وجه التفصيل والتدقيق حتى يكون المامور به حسنا قطعا

والمنهى عنه قبيحا قطعا انما هو له تعالى ، وأن أوامره ونواهيه ـ تعالى ـ الجارية على مقتضى ذلك هى من مقتضى ربوبيته ـ تعالى ـ وتدبيره لخلقه ٠

مكانة هذه الأصول علما وعملا

« ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ » ٠

المناسبة : لما بينت الاصول تمام البيان وقررت غاية التقرير جاءت هذه الآية للتنويه بما يحث العباد على تحصيل ما فيها من علم والتحلى بما دعت اليه من عمل ٠

المفردات والتراكيب : الحكمة : هى العلم الصحيح والعمل المتقن المبنى على ذلك العلم ، وقال مالك بن انس رضى الله عنه : هى الفقه فى دين الله والعمل به ٠ والقرآن حكمة لدلالته على ذلك كله ٠

ذلك : اشارة الى ما تضمنته الآيات المتقدمة من قوله تعالى : « **لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ** » ومن فى (**مِمَّا**) تبعيضية ٠ ومن فى (**مِنَ ٱلْحِكْمَةِ**) بيانية ، مجرورها بين المبهم وهو ما فى قوله (**مِمَّا**) والتقدير ذلك الذى تقدم بعض الحكمة التى أوحاها اليك ربك ٠

المعنى : هذا ضرب آخر من تأكيد العمل بما تقدم والترغيب فيه ، فبين تعالى أن ما تضمنته الآيات المتقدمة كله حكمة ، فالمتحقق بما فيها من علم والمتحلى بما حثت عليه من أعمال هو الحكيم الذى كمل من وجهته العلمية وجهته العملية وتلك أعلى رتب الكمال للانسان ٠

وفى ذكر انها بعض من كل تنبيه على جلالة كلها ، وهو عموم ما أوحى الله تعالى الى نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتنبيه أيضا على أن شرح هذه الاصول فيما أفادته من علم وعمل ، والتفقه فيها يرجع فيه الى الوحى ويعتمد فى ذلك على بيانه ، وفيه بيان أن الوحى هو المرجع الوحيد لبيان دين الله تعالى وشرعه وما أنزله لعباده من الحكمة ، وذلك الوحى هو

القرآن العظيم وسنة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذى ارسل ليبين للناس ما نزل اليهم ٠

ختـــام الآيـــات

« وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَهاً آخَـرَ فَتُلْقَى فِى جَهَنَّـمَ مَلُومـاً مَدْحُـوراً » (39) ٠

المناسبة : لما كانت هذه الآيات فى أصول الهداية وأساس الهداية ، وشرطها هو التوحيد ختمت الآيات بالنهى عن الشرك كما بدأت به ٠

المفردات والتراكيب : الالقاء : هو الطرح ، **والملوم :** هو الذى يقال لـه لم فعلت القبيح وما حملك عليه ونحـو هذا ٠ **والمدحور :** المبعـد ، وانتصبا على الحال ٠

المعـنى : نهى تعالى عن الشرك وأن يعبد معه سواه ، فالعبادة بالقلب واللسان والجوارح لا تكون الا له ٠ وكما حذر فى فاتحة الآيات بقعـود المشرك فى الدنيا مذموما بالشرك الذى ارتكبه مخذولا لا ناصر له ٠ كذلك حذر هنا بمثال المشرك فى آخرته بالقائه فى جهنم ملوما على ما قدم مطرودا مبعدا فى دركات الجحيم ٠

نظرة عامـة فى الآيات المتقدمة : قد تضمنت هـذه الآيات عـلى قلتها **الاصول** التى عليها تتوقف حياة النوع البشرى وسعادته من حفظ النفوس والعقول « **وَلَا تَقْـفُ** » الآية ٠ والانساب والاموال والحقوق (**وَأَوْفُـوا بِٱلْعَهْدِ ، وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ**) والاعراض (**وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَا ـ وَلَا تَقْفُ**) والدين الذى هو عملة ذلك كله ، وفى حفظه حفظ لجميعها ، وفى افتتاح الآيات بقوله تعالى : « **لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً** » وختمها بقوله تعالى : « **وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً** » بيان من الله تعالى لخلقه بأن الدين هو أصل هذه الكمالات كلها ، وهو

سياج وقايتها وسوء حفظها ، وأن التوحيد هو ملاك الاعمال وقوامها ومنه بدايتها واليه نهايتها ٠

وكذلك المسلم الموفق يبتدىء حياته بكلمة التوحيد حتى يموت عليها فالله نسأل ـ كما من علينا فى البداية ـ أن يمن علينا بها فى النهاية ٠

اللهـم هـذا لنـا وللمسلمين أجمعـين ٠(*)

(*) الشهاب ـ ج 10 ، م٠ 6 ـ غرة جمادى الثانية 1349 هـ/ نوفمبر 1930 م ٠

القــــول الحَســَـن

« وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا أَلتِى هِىَ أَحْسَنُ » .

(الاسراء ــ 53)

اللسان أداة البيان ، وترجمان القلب والوجدان . والكلام به يتعارف الناس ويتقاربون ، وبه يتخاجون ويتفاوضون ، ولولاه لما ظهرت ثمرات العقول والمدارك ، ولما تلاقحت الافكار والمشاعر ، ولما تزايدت العلوم والمعارف ، ولما ترقى الانسان فى درجات أنواع الكمالات ، ولما امتاز على بقية الحيوانات .

فهو رابطة أفراد النوع الانسانى وعشائره وأممه ، وبريد عقله وواسطة تفاهمه . فأذا حسن قويت روابط الالفة ، وتمكنت أسباب المحبة . وامتد رواق السلام بين الافراد والعشائر والامم . وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم ، وتشابكت الايدى على التعاون والتوازر ، وجنى العالم من وراء ذلك تقرر الامن واطراد العمران . واذا قبح كان الحال على ضد ذلك . فالكلام السيء قاطع لاواصر الاخوة ، باعث على البغضاء والنفرة ، يبعد بين العقول فتحرم الاسترشاد والاستمداد والتعاون بين القلوب فتفقد عواطف المحبة وحنان الرحمة . وهما اشرف ما تتحلى به القلوب ، واذا بطلت الرحمة والمحبة بطلت الالفة والتعاون ، وحلت القساوة والعداوة ، وتبعهما التخاصم والتقاتل . وفى ذلك كل الشر لأبناء البشر .

فالمحصل للناس سعادتهم وسلامتهم ، والمبعد لهم عن شقاوتهم وهلاكهم هو القول الحسن . ولهذا أمر الله تعالى نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ان

يرشد العباد الى قول التى هى أحسن فقال تعالى : « وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ·

والعباد المامورون هنا هم المؤمنون لوجهين : الاول انهم أضيفوا اليه وهذه اضافة شرف لا يكـون الا للمؤمنين بـه ، الثانى ان الذين يخاطبون بهـذا الارشاد ويكون منهم الامتثال انما هم من حصلوا على أصل الايمان ·

والتى هـى أحسن هـى الكلمة الطيبة والمقالة التى هـى أحسن مـن غيرها فيعم ذلك ما يكون من الكلام فى التخاطب العادى بين الناس حتى ينادى بعضهم بعضا بأحب الاسماء اليه ، وما يكون من البيان العلمى فيختار اسهل العبارات وأقربها للفهم حتى لا يحدث الناس بما لا يفهمون فيكـون عليهم حديثه فتنة وبلاء وما يكـون مـن الكـلام فى مقام التنازع والخصام فيقتصر على ما يوصله الى حقه فى حدود الموضوع المتنازع فيه، دون اذاية لخصمه ولا تعرض لشان من شؤونه الخاصة به ـ وما يكون من باب اقامـة الحجة وعرض الادلة فيسوقها بأجلى عبارة وواقعها فى النفس خالية مـــن السب والقدح ، ومن الغمز والتعريض ومن أدنى تلميح الى شيء قبيح وهذا يطالب به المؤمنون سواء كان ذلك فيما بينهم أو بينهم وبين غيرهم ، وقـد جاء فى الصحيح أن رهطا من اليهود دخلوا على النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقالوا السام عليكم ففهمتها عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقالـــت : وعليكـم السـام واللعنـة · فقال لهـا رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وآلـه وسلـم : مهـلا يـا عائشـة ان اللـه يحـب الرفـق فى الامـر كلـه · فقالت : ألم تسمع ما قالوا ؟ فقال قــد قلت : وعليكم · فكان الرد عليهم بمثل قولهم بأسلوب العطف على كلامهم وهو قوله وعليكم أحسن من الرد عليهم باللعنة · فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ القولة التى هى أحسن وهذا هو أدب الاسلام للمسلمين مع جميع الناس ·

وأفاد قوله تعالى « أَحْسَنُ » بصيغة اسم التفضيل ان علينا ان نتخير فى العبارات الحسنة فننتقى احسنها فى جميع ما تقدم من أنواع مواقع الكلام ، فحاصل هذا التاديب الربانى هو اجتناب الكلام السيء جملة والاقتصار على الحسن وانتقاء واختيار الاحسن من بين ذلك الحسن وهذا يستلزم استعمال

العقل والروية عند كل كلمة تقال ولو كلمة واحدة ، فرب كلمة واحدة أوقدت حربا • وأهلكت شعبا ، أو شعوبا • ورب كلمة واحدة انزلت أمنا ، وانقذت أمة أو أمما • وقد بين لنا النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مكانة الكلمة الواحدة من الاثر فى قوله : « الكلمة الطيبة صدقة ، واتقوا النار ولو بكلمة طيبة » •

وهذا الادب الاسلامي ـ وهو التروى عند القول واجتناب السوء واختيار الاحسن ـ ضرورى لسعادة العباد وهنائهم • وما كثرت الخلافات وتشعبت الخصومات وتنافرت المشارب وتباعدت المذاهب حتى صار المسلم عدو المسلم ، والنبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول : المسلم أخو المسلم ـ الا بتركهم هذا الادب وتركهم للتروى عند القول والتعمد للسىء بل للاسوا فى بعض الاحيان •

التحذير من كيد العدو الفتان

« إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا » •

نـزغ الشيطان وسوسته ليهيـج الشر والفساد • وعداوته باعتقاده البغض وسعيه فى جلب الشر والضر • وابانته لعداوته باعـلانه لها كما علمنا القـرآن •

وهو يلقى للانسان كلمـة الشر والسوء ويهيج غضبه ليقوله ويهيج السامع ليقول مثلها وهكذا حتى يشتد المراء ويقع الشر والفساد • ولون آخر من نزغه ، وهو أنه يحسن للمرء قول الكلمة التى يكون فيها احتمال السوء ويلـح عليه فى قولها ويبالغ فى تحسين الوجه السالم منـه وفى تهوين أمر وجهها القبيح ـ حتى يقولها • فاذا قالها أعاد لسامعه بالنـزغ يطمس عنه الوجه السالم منها ويكبر له الوجه القبيح ولا يزال به يثـير نخوته ويهيج غضبه حتى يثور فيقع الشر والفساد بينه وبين صاحبه •

فحذر الله تعالى عباده من كيده حتى يحترسوا منه اذا تكلموا واذا سمعوا فيتباعدون عما فيه احتمال السوء فضلا عن صريحه ويحملون الكلام على وجهه الحسن عند احتماله له ويتجاوزون عن سيئه الصريح ما امكن التجاوز ·

المحاسنة على الحال والظاهر

والتفويض الى الله تعالى فى العواقب والسرائر

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » ·

اقوى الاحوال مظنة لكلمة السوء هى حالة المناظرة والمجادلة ، وأقرب ما تكون الى ذلك اذا كان الجدال فى أمر الدين والعقيدة ، فما أكثر ما يضلل بعض بعضا أو يفسقه أو يكفره فيكون ذلك سببا لزيادة شقة الخلاف اتساعا ، وتمسك كل برأيه ونفوره من قول خصمه · دع ما يكون عن ذلك من البغض والشر · فذكر الله تعالى عباده بانه هو العالم ببواطن خلقه وسرائرهم وعواقب أمرهم ، فيرحم من يشاء ويعذب من يشاء بحكمته وعدله ، فلا يقطع لاحد بانه من اهل النار لجهل العاقبة سواء كان من أهل الكفر أو كان من أهل الفسق أو كان من أهل الابتداع كما لا يقطع لاحد بالجنة كذلك · الا من جاء النص بهم ·

فلا يقال للكافر عند دعوته أو مجادلته انك من اهل النار ولكن تذكر الادلة على بطلان الكفر وسوء عاقبته ، ولا يقال للمبتدع يا ضال وانما تبين البدعة وقبحها، ولا يقال لمرتكب الكبيرة يا فاسق ولكن يبين قبح تلك الكبيرة وضررها وعظم اثمها فتقبح القبائح والرذائل فى نفسها وتجتنب اشخاص مرتكبيها· اذ رب شخص هو اليوم من أهل الكفر والضلال تكون عاقبته الى الخير والكمال ، ورب شخص هو اليوم من أهل الايمان ينقلب ـ والعياذ بالله تعالى ـ على عقبه فى هاوية الوبال ·

وخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ـ انه لم يرسله وكيلا على الخلـق حفيظا عليهم كفيلا باعمالهم • فما عليه الا تبليغ الدعوة ونصرة الحق بالحق والهداية والدلالة الى دين اللـه وصراطه المستقيم ـ خاطبه بهذا ليؤكد لخلقه ما أمرهم به من قول التي هي أحسن للموافق والمخالف فلا يحملنهم بغض الكفر والمعصية على السوء في القول لاهلها فانما عليهم تبليغ الحق كما بلغه نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم ولن يكون أحد احرص منه على تبليغه فحسبهم ان يكونوا على سنته وهديه • أحيانا اللـه عليهما وأماتنا عليهما وحشرنا في زمرة أهلهما آمين (1) •

(1) الشهاب ـ ج 11 ، م• 6 ـ رجب 1349 هـ/ديسمبر 1930م•

دعـــاء غـــير اللـــه

من دعا غير الله فقد عبد ما دعاه
وهو في عبادته من الخاسرين

« قُــلْ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِــنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا » .

(سورة الاسراء ، الآية 56)

المفردات : الدعاء : هو النداء لطلب شيء من المدعو ، ولذلك لا يدعى الا العاقل أو ما نزل منزلته مجازا من الجمادات ، او ما كان له فهم لبعض الاصوات مـن الجمادات ، واذا كان لشيء معظم ليطلب منه ما هـو وراء الاسباب العادية وفوق الطاقة البشرية فهو عبادة ولا يكون الا من المخلوق لخالقه ، واذا لم يكن كذلك فهو عادة وهـو دعاء المخلوقين بعضهم بعضا لغرض من الاغراض · (**والزعم**) : القول بغير دليل · و (**من دونه**) · أى غيره · و (**الملك**) : الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيـه و (**كشف الضر**) : ازالته · و (**لا تحويلا**) : نقلا له الى شخص آخر ·

التراكيب : أمروا بالدعاء لتوقيفهم على خيبتهم فيه بظهور عجز من يدعون · وحذف مفعولا زعم ، والتقدير زعمتوهم آلهة ، للعلم بهما لانهم ما دعوهم الا لكونهم آلهة في زعمهم · ولا يملكون : وقع بعد الفاء ولم يجزم في جواب الامر لانه خبر لمبتدأ محذوف تقديره فهم لا يملكون ، وهذا لان الفاء قصد بها العطف ولم يقصد بها السببية ، ولا يصح أن تقصد بها السببية لان ذلك يقتضى أن يكون عدم ملكهم متسببا عن الدعاء مثلها في قول الشاعر :

رب وفقني فلا أعدل عن سنن الساعين في خير سنن

فان عدم العدول متسبب عن التوفيق . وليس كذلك الامر في هذه الآية فان عدم ملكهم متحقق سواء دعوا أم لم يدعوا ، فلذلك امتنع النصب ووجب الرفع على التقدير المتقدم .

المعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك الذين اتخذوا آلهة من دون الله فعبدوها ، ادعوا معبوداتكم هذه التي زعمتموها آلهة من دون الله عندما ينزل بكم الضر ، وانظروا هل تستطيع تلك المعبودات الباطلة أن تكشف وتزيل عنكم ذلك، أو أن تحوله عنكم الى غيركم فانكم تجدونها عاجزة عن ذلك غير قادرة على شيء منه ، وانما يقدر على ذلك الاله الحق وهو الله الذي خلقها وخلقكم فاعبدوه هو وادعوه هو واقلعوا عن عبادة ودعاء ما سواه .

الأحكام : تدل الآية على أن دعاء غير الله تعالى لدفع الضرر ومثله جلب النفع ـ عبادة للمدعو ، فان المشركين كانوا يتعبدون لآلهتهم بهذا الدعاء الذي نهاهم الله تعالى عنه ببيان خيبتهم فيه ووقوعه في غير محله . وتسمية الدعاء عبادة ثابتة لغة وشرعا بغير ما دليل ، منها حديث النعمان بن بشير عند احمد وأصحاب السنن مرفوعا (الدعاء هو العبادة) وحديث أنس عند الترمذي مرفوعا (الدعاء مخ العبادة) وهذه لأن العبادة هي الخضوع والتذلل لمن بيده الخلق والتصرف والعطاء والمنع ، ومظهر هذا الخضوع والتذلل هو الدعاء لدفع الضر، أو جلب النفع ، فلذلك عبر عنه في الحديث الاول بأنه هو العبادة أي معظمها ، وفي الثاني بأنه مخ العبادة أي خالصها ودلت الآية أيضا على أنه لا يجوز دعاء غير الله من المخلوقين أي مخلوق كان لدفع ضر ـ ومثله جلب نفع ـ لان الآية نعت على المشركين دعاءهم من لا يملك كشف الضر ولا تحويله ، وهذا أمر يشترك فيه جميع المخلوقين فلا مخلوق يستطيع كشف الضر أو تحويله عن نفسه ولا عن غيره،فلا مخلوق يجوز دعاؤه،ودلت على أن كشف الضر أو تحويله ـ ومثله جلب النفع ـ انما هو للمعبود الحق لان الآية استدلت عليهم في مقام الامر بتوحيد الله بالعبادة

بانتفاء ملك كشف الضر أو تحويله عن غير الله ، فأفاد ذلـك قصر هـذا التصرف عليه تعالى وحده ٠

استنتاج : لما ثبت شرعا أن الدعاء عبادة فمن دعا شيئا فقد عبده ولو كان هو لا يسمى دعاءه عبادة جهلا منه أو عنادا لان العبرة بتسمية الشرع واعتباره لا بتسمية المكلف واعتباره ، ألا ترى لو أن شخصا قام للصلاة بدون وضوء مستحلا لذلك فلما أنكرنا عليه قال انني لا أعتبر هذه الافعال والاقوال عبادة ولا أسميها صلاة ، أترى ذلك يجيز فعله ويدفع عنه تبعته ؟ كلا ، ولا خلاف في ذلك بين المسلمين ٠ بل قد حكموا بردته ان كان يفعل ذلك ويراه حلالا ٠ لانه يكون قد أنكر معلوما من الدين بالضرورة فالداعي لغير الله تعالى يطلب منه قضاء حوائجه قد عبد من دعاه وان لم يعتبر دعاءه عبادة ، لان الله قد سماه عبادة ، واذا استمر على فعله ذلك مستحلا له بعد تعليمه وارشاده يكون قد أنكر معلوما من الدين بالضرورة وهو أن العبادة ـ والدعاء منها ـ لا تكون الا لله فيحكم بردته نظير مستحـل الصلاة بلا وضوء بلا فارق ٠

تطبيـق : اذا علمـت هذه الاحكام فانظـر الى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين ، تجد السواد الاعظم من عامتنا غارقا في هذا الضلال ، فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح مـن الاحياء والاموات يسالونهم حوائجهم من دفع الضر ، وجلب النفع ، وتيسير الرزق ، وأعطاء النسل ، وانزال الغيث وغير ذلك مما يسالون ويذهبون الى الاضرحة التي شيـدت عليها القباب ، أو ظلمت بها المساجد ، فيدعون مـن فيها ويدقون قبورهم وينذرون لهم ويستثيرون حميتهم بأنهم خدامهم وأتباعهم فكيـف يتركونهم وقد يهددونهم بقطع الزيارة ، وحبس النذور ، وتراهم هنالك في ذل وخشوع وتوجه قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم ، فاعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوين وان لم يعتقدوها عبادة ، اذ العبارة باعتبار الشرع لا باعتبارهم ، فيا حسرتنا على انفسنا كيف لبسنا الدين لباسا مقلوبا حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال ٠

تحذير وارشاد : فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير الله وليحذروا غيرهم منه • ولينشروا هذه الحقائق بين اخوانهم المسلمين بما استطاعوا عسى أن يتنبه الغافل ، ويتعلم الجاهل ، ويقلع الضالون عن ضلالتهم ، ولو بطريق التدريج ، وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم وقاموا بفريضة النصح ، وخدموا الاسلام والمسلمين •

نجاة المعبودين بهداهم وهلاك العابدين بضلالهم

« أُوْلَئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً » .

(سورة الاسراء ، الآية 57)

المفردات : يبتغون : يطلبون باعتناء واهتمام • (**الوسيلة**) سبب الوصول الى البغية والقرب من المطلوب ، والوسيلة الموصلة الى الله هي عبادته ، وطاعته بامتثال أوامره ونواهيه ، والتزام محابه واجتناب مكارهه، وهذا المعنى هو المراد هنا • (**أقرب**) : أى فى المكانة والمنزلة (**يرجون رحمته**) : ينتظرون انعاماته لافتقارهم اليه • (**ويخافون عذابه**) : يخشون عقوبته ، وانتقامه لعلمهم بقوته وسلطانه ، وقصورهم عن القيام بجميع واجب حقه • (**محذورا**) مخيفا متحذرا منه •

التراكيب : أولئك : اشارة الى المعبودين الذين وصفهم • ويدعون ضميره للداعين • وأصله يدعونهم ، يبتغون خبر أولئك • و (أيهم) : اسم موصول مضاف الى ضمير المبتغين ، وهو بدل بعض من كل من الواو فى يبتغون « وأقرب » خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة صلة الموصول ، ويحتمل أن يكون أيهم استفهاما مبتدأ وأقرب خبر ، وتقدير الكلام ينظرون أيهم أقرب •

نزول الآية : قال ابن مسعود : هي في نفر من الانس كانوا يعبدون نفرا من الجن ، فأسلم الجن وبقي الانس على عبادتهم ، وجاء عنه وعن غيره أنها في الذين كانوا يعبدون الملائكة من العرب ·

المعنى : أولئك الجن والملائكة الذين يدعوهم هؤلاء المشركين أربابا قد أسلموا فصاروا من عباد الله المؤمنين يطلبون أسباب الزلفة والقرب عند ربهم ينظرون من هو الذي يكون منهم أقرب مكانة باجتهاده ، وصالح عمله (هذا على الاعراب الثاني وعلى الاعراب الاول : يطلب الذي هو أقرب منهم أسباب الزلفة عند الله فأحرى وأولى غيره) ويرجون بأعمالهم الصالحة رحمته ويخافون بمخالفتهم عذابه · ان عذاب ربك كان من حقه وشأنه أن يتقى ويحذر لما فيه من عظيم الخزي وشديد الالم ·

الاحكام : أفادت الآية أن العبادة لا تنفع صاحبها الا اذا كانت على الوجه الحق والا فانه لا يحصل منها الا على الخيبة والوبال ، وأن المكلف لا يحمل شيئا من اثم عمل غيره اذا لم يكن راضيا به ولو كان ذلك العمل متسببا عنه اذا لم يكن متسببا هو فيه · وأن المكلف مطالب بأن يطلب أسباب القرب الى الله بجد واجتهاد وأن يكون جامعا بين الرجاء والخوف في سلوكه ·

التطبيق : نعرف كثيرا من الصالحين ـ رحمهم الله تعالى ـ قد شيدت عليهم القباب ونذرت لهم النذور وقصدوا لقضاء الحاجات ودعوا في المهمات وكان ذلك كله مما أحدثه المحدثون بعدهم وبالغ فيه المستغلون له ممن ينتمون اليهم فهم ـ ان شاء الله تعالى ـ برآء من اثم ذلك كله وانما اثمه على فاعليه ·

عبرة وتحذير : يأتي يوم القيامة أولئك الذين كانوا يدعون الملائكة والجن المسلمين وعباد الله الصالحين ويحسبون أنهم ينفعونهم في ذلك اليوم · فيتبرأ منهم أولئك الذين كانوا يعبدونهم بدعائهم ويتركونهم في ذلك الموقف العصيب · فما أمر خيبتهم يومذاك وما أعظم حسرتهم ويا لها من عبرة لقوم يعقلون ·

فحذار يا اخواننا من هذه العاقبة السيئة وهذا الموقف المخزى ، فبادروا الى توحيد الله بالدعاء الذى هو مخ العبادة واقتصروا فى جانب الصالحين على محبتهم والترضية عليهم وسؤال الرحمة لهم والاقتداء بهم فيما كان منهم من طاعة وخير ولا تعظموهم بما لا يكون الا لله رب العالمين ٠

والله ينصرنا بالحق ويهدينا اليه ويجعلنا من حزبه ويميتنا عليه آمين يا رب العالمين (1) ٠

---

(1) الشهاب : ج 12 م 6 ، شعبان 1349 هـ جانفى 1930 م ٠

الطور الأخير لكل أمة وعاقبته

« وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً » .
(سورة الاسراء ، الآية 59)

تمهيد : الامم كالافراد ، تمر عليها ثلاثة اطوار : طور الشباب ، وطور الكهولة ، وطور الهرم ، فيشمل الطور الاول نشأتها الى استجماعها قوتها ونشاطها مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة . ويشمل الطور الثاني ابتداء اخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ وقوة السلطان الى استكمالها قوتها وبلوغها غاية ما كان لها ان تبلغه من ذلك بما كان فيها من مواهب وما كان لها من استعداد وما لديها من أسباب ، ويشمل الطور الثالث ابتداءها في التقهقر والضعف والانحلال ، الى ان يحل بها الفناء والاضمحلال . اما بانقراضها من عالم الوجود ، واما باندراسها من عالم السيادة والاستقلال ، وما من أمة الا ويجري عليها هذا القانون العام وان اختلفت اطوارها في الطول والقصر كما تختلف الاعمار .

هذه السنة الكونية التي أجرى الله عليها حياة الامم في هذه الدنيا أشار اليها في كتابه العزيز في غير ما آية .

فذكر أعمال الامم وانها مقدرة محددة بآجالها في مثل قوله تعالى : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ » ، وذكر انشاء الامم على اثر الهالكين في مثل قوله تعالى : « وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ » ، وذكر طور شباب الأمة ودخولها معترك الحياة في مثل قوله تعالى : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ

وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » فان بني اسرائيل ما استخلفوا في الارض حتى قووا واشتدوا وتكونت فيهم اخلاق الشجاعة والنجدة والحمية والانفة بعد خروجهم من التيه وذلك هو الطور الاول طور الشباب للامة الاسرائيلية . وذكر الطور الثاني وهو طور الكهولة واستكمال القوة وحسن الحال ورغد العيش في مثل قوله تعالى : «وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ » وذكر الطور الثالث طور الضعف والانحلال في مثل قوله تعالى : « وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً » واهلاكهم يكون بعد اسباغ النعمة واقامة الحجة عليهم وتمكن الفساد فيهم وتكاثر الظلم منهم · فإهلاكهم هو نهاية الطور الثالث من اطوار الامم الثلاث · والى خاتمة الطور الثالث وعاقبته جاء البيان في قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً » ·

الالفاظ : « **القرية** » : المساكن المجتمعة ومادة (ق ر ى) تدل على الجمع ، فتصدق على القرية الصغيرة والمدينة الكبرى وتطلق القرية مجازا على السكان اطلاقا لاسم المحل على الحال · ومنه هذا · و « **الاهلاك** » : الابادة والافناء بالاستئصال كما فعل بعاد وثمود · و « **قبل يوم القيامة** » أى في الدنيا و « **العذاب الشديد** » : كامراض الابدان وفساد القلوب وانحطاط الاخلاق وافتراق الكلمة وتسليط الظلام كما أرسل على بني اسرائيل عبادا أولي بأس شديد فساءوا وجوههم وجاسوا خلال ديارهم ، وكتسليط أهل الحق على أهل الباطل ، وكالجدب والقحط وجوائح الارض وجوائح السماء · و « **في الكتاب** » : أى اللوح المحفوظ و « **مسطورا** » أى مكتوبا اسطارا مبينا ·

التراكيب : « ان » نافية و « من » زيدت لاستغراق الجنس وتاكيد العموم و « الا » افادت مع ان النافية حصر كل قرية في احد الامرين من الهلاك والعذاب الشديد ليعلم ان لا نجاة لكل قرية من احدهما قطعا ·

و « أو » نفيد احد الشيئين المذكورين على الابهام وعدم التعيين و « ذلك » اشارة الى المذكور من الهلاك والتعذيب ·

المعنى : يقول تعالى ما من قرية على وجه الارض الا ولابد أن يحل بها منا هلاك وفناء بما يبيدها ويفنيها أو عذاب شديد لا يفنيها ولكنه يذيقها أنواع الآلام وشديد النكال · كان هذا قضاء سابقا فى علمنا ماضيا فى ارادتنا مكتوبا أسطارا فى اللوح المحفوظ ·

الاحكام : أحكام الله تعالى قسمان : أحكام شرعية وهى التى فيها بيان ما شرعه لخلقه مما فيه انتظام أمرهم وحصول سعادتهم اذا ساروا عليه ، وأحكام قدرية وهى التى فيها بيان تصرفه فى خلقه على وفق ما سبق فى علمه وما سبق فى ارادته ·

والاحكام الشرعية تقع من العباد مخالفتها فيتخلف مقتضاها من الفعل أو الترك ، والاحكام القدرية لا تتخلف أصلا ولا يخرج المخلوقات عن مقتضاها قطعا · وفى هذه الآية حكم من احكامه القدرية وهو ان كل قرية لابد ان يصيبها احد الامرين المذكورين بما سبق من علمه وما مضى من ارادته فلا يتخلف هذا الحكم ولا تخرج عنه قرية ·

إيضاح وتعليل : الله حكم عدل حكيم خبير ، فما من حكم من احكامه الشرعية الا وله حكمته ، وما من حكم من احكامه القدرية الا وله سببه وعلته · لا لوجوب أو ايجاب عليه ، بل بمحض مشيئته ، ومقتضى عدله وحكمته · وقد قضى على كل قرية بهذه العاقبة من الهلاك أو العذاب الشديد فى هذه الآية ، وبين فى غيرها سبب استحقاقها لهما فقال تعالى : « وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا » « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » « وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً » « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا » « وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » فأفادت هذه

الآيات ان سبب الهلاك والعذاب هو الظلم والفساد والعتو والتمرد عن أمر الله ورسله والكفر بانعم الله . وما ربك بظلام للعبيد .

توجيه : الطور الاخير للامم هو الذى ذكر فى الآيات كثيرا دون الطور الاول والثانى . ووجه ذلك انه هو الطور الذى ينتشر فيه الفساد ويعظم فيه الظلم وينتهى فيه الاعذار للامة ويحل فيه اجلها فينزل بها ما تستحقه من هلاك أو عذاب . فكرر ذكر هذا الطور لزيادة التحذير منه والتخويف من سوء عاقبته والحث على تدارك الامر فيه بالاقلاع عن الظلم والفساد والرجوع الى طاعة الله واعمال يد الاصلاح فى جميع الشؤون فيرتفع العذاب ، بزوال ما كان لنزوله من أسباب .

استنتاج وتطبيق : القرى التى قضى عليها بالهلاك والاستئصال هذه قد انتهى أمرها بالموت وفات عن العلاج مثل عاد وثمود من الامم البائدة . واما القرى التى قضى عليها بالعذاب الشديد فهذه لا تزال بقيد الحياة فتداركها ممكن وعلاجها متيسر . مثل الامم الاسلامية الحاضرة . فمما لا شك ان فينا لظلما وعتوا وفسادا وكفرا بأنعم الله ، واننا من جراء ذلك لفى عذاب شديد . ولا نعنى بهذا ان الامم الاسلامية مخصوصة بهذا بل مثلها وأقوى منها فى أسباب العذاب والهلاك غيرها من أمم الارض . وان لهم لقسطهم من العذاب الشديد ، واذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك أو العذاب لما عندهم من أسبابهما فلأنه لكل أمة أجل ولما يأت ذلك الاجل بعد . فاذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

ارشاد واستنهاض : قد ربط الله بين الاسباب ومسبباتها خلقا وقدرا بمشيئته وحكمته لنهتدى بالاسباب الى مسبباتها ونجتنبها باجتناب أسبابها وقد عرفنا فى الآيات المتقدمة بأسباب الهلاك والعذاب لنتقى تلك الاسباب فنسلم أو نقلع عنها فننجو . فان بطلان السبب يقتضى بطلان المسبب . وقد ذكر لنا فى كتابه أمة اقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعدما كان ينزل بها ليؤكد لنا ان الاقلاع عن السبب ينجى من المسبب فقال تعالى: « **إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ** » فبمبادرتهم للايمان واقلاعهم عن الكفر كشف عنهم

العذاب ، وارشدنا في ضمن هذا الى العـــلاج الناجع في كشف العذاب وابطال أسبابه وهو الايمان ، كما أرشدنا الله اليه أيضا في قوله تعالى قبل هذا : « **فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا** » اى نجاها من العذاب وذكر قوم يونس دليلا على ذلك · وأرشدنا اليها أيضا في قوله تعـالى : « **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** » فالايمان والتقوى ـ هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا لاننا اذا التزمناهما نكون قد اقلعنا عن أسباب العذاب · ولا ننهض بهذا العلاج العظيم الا اذا قمنا متعاونين أفرادا وجماعات فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه وبدأ به في نفسه ثم فيمن اليه ثم فيمن يليه من عشيرته وقومه ثم جميع أهـــل ملته ، فمن جعل هذا من همه وأعطاه ما قدر عليه من سعيه كان خليقا أن يصل الى غايته أو يقترب منها· ولنبدأ من الايمان بتطهير عقائدنا من الشرك واخلاقنا من الفساد واعمالنا من المخلفات ، ولنستشعر أخوة الإيمان التى تجعلنا كجسد واحد ولنشرع في ذلك غير محتقرين لانفسنا ولا قانطين من رحمـة ربنـا ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا · فبدوام السعى واستمراره يأتى ذلك القليل من الاصلاح على صرح الفساد العظيم مـــن أصله ، وليكن دليلنا في ذلك وأمامنا كتاب ربنـا ، وسنة نبينـا ، وسيرة صالح سلفنا · ففى ذلك كله ما يعرفنا بالحق ويبصرنا في العلم ويفقهنا في الدين ويهدينا الى الاخذ بأسباب القـــوة والعز والسيادة العادلة في الدنيا ونيل السعادة الكبرى في الاخرى · وليس هذا عن العاملين يبعيد ، وما هو على الله بعزيز ·

رجاء وتفاءل : ان المطلع على أحوال الامـم الاسلامية يعلـم انها قـد شعرت بالداء ، واحست بالعذاب ، وأخذت في العلاج · وان ذلك وان كان يبدو اليوم قليلا لكنه بما يحوطه من عناية الله وما يبذل فيه من جهود المصلحين ـ سيكون باذن اللـه كثيرا وعسى أن يكون في ذلك خـير للامم الارض أجمعـين ·

حقق الله الآمال وسدد الاعمال بلطف منه وتيسير ، انه نعم المـــولى ونعـم النصـير (1) ·

---

(1) الشهاب ـ ج 1 ، م· 7 ـ رمضان 1349 هـ/فيفرى 1931 م ·

التكريم الرباني للنوع الانساني

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » .

(سورة الاسراء ـ الآية : 70)

اللغة : (كرمنا) : الكرم ضد اللؤم ، يوصف به الشيء لشرفه فى ذاته بكمال صفاته أو لحسن أفعاله وما يصدر عنه من النفع لغيره ، فيقال فرس كريم وشجرة كريمة وأرض كريمة اذا حسنت هذه الاشياء فى ذواتها وكملت فيها صفات أنواعها ، ويقال: نفس كريمة اذا كملت بمحاسن الاخلاق التى بها كمال النفوس · وقالت بلقيس فى كتاب سليمان عليه السلام : «إِنِّيَ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ» لانه كان على أكمل ما تكون عليه الكتب من بيان اسم مرسله وذكر اسم الله تعالى فى أوله وختم على ما فيه ، هذا كله من كرم الذات بما كمل فيها من صفات · ووصف جبريل بأنه رسول كريم لشرف ذاته الملكية وحسن أفعاله بما كان على يده من نفع للخلق بتبليغ الوحى والهدى وهذا من كرم الذات والافعال ، وهو الكرم الكامل الذى يكون بشرف الذات ونفع الافعال · ويقال كرم الشيء ـ بضم الراء ـ لازما ، ويتعدى بالهمز والتضعيف ، فيقال أكرمته وكرمته بمعنى واحد ، أي فعلت له فعلا فيه رفعة له ومنفعة · فكرمنا بنى آدم ، أى فعلنا لهم ما فيه رفعتهم ومنفعتهم ، من انعاماتنا عليهم · **(وحملناهم)** : من الحمل بمعنى الرفع اى أركبناهم ورفعناهم على المركوبات مثل قوله تعالى :

« وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » (1) ٠
« وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ » (2) « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ » (3) ٠

و (**الطيبات**) : ما يطيب للأكل والشرب مما يلذ فى الطعم وتحمد عاقبته، فلا يكون الطيب الا حلالا غير الحلال ـ وان لذ طعمه فى بعض أقسامه ـ فانه لا تحمد عاقبته بما فيه من اثم ، وتبعة وما يكون فيه مـــن ضرر ٠

(**وفضلناهم**) : من الفضل بمعنى الزيادة أى صيرناهم ذوى فضل وزيادة فى الكرامة كما تقول : فضلت زيدا على عمر فى العطاء أى صيرته ذا فضل وزيادة عليه فيه ٠

التراكيب : متعلق (حملناهم) محذوف لقصد التعميم المناسب لمقام الامتنان بالتكريم مع الاختصار ، تقديره : على كل ما يصلح لحملهم عليه ٠

المعـــنى : يقول تعالى : ولقد أنعمنا على بنى آدم نعما عظيمة كثيرة فى خلقتهم من تركيب أبدانهم وأرواحهم وعقولهم ، وفى حياتهم بما مكناهم من أسباب السلطان على غيرهم من الخلق من عالم الجماد والنبات والحيوان وتسخير هذه العوالم لهم يحصلون منها منافعهم ، فأوصلنا اليهم هذه النعم وكرمناهم بها فنفعناهم ورفعنا أقدارهم ٠ ومن هذا التكريم والانعـام الذى فيه المنفعة وفيه الرفعة أننا سخرنا لهم ما يركبونه فى البر والبحر ومكناهم من أسباب تسييره والانتفاع به ، واننا بثثنا لهم على وجه الارض أنواعا من المآكل والمشارب اللذيذة المباحة من النبات والحيوان والجماد ، فخلقناها صالحة لغذائهم ومكناهم من أسباب تحصيلها واصلاحها والتفنن فيها ٠ فكان لهم بذلك كله زيادة بينة من نعمتنا ، وفضل محقق على كثير من مخلوقاتنا ٠

---

(1) سورة التوبة
(2) سورة القمر
(3) سورة الاسراء

مسائل :

المسألة الاولى : تكريم الله تعالى لخلقه ، قسمان : أحدهما عام والآخر خاص .

فأما العام : فهو اخراجه لهم من العدم الى الوجود واعطاؤه لكل شيء منهم خلقته اللائقة به من تركيب أجزاء ذاته وتعديل مادة تكوينه ومن أعضائه ـ اذا كان من ذوى الأعضاء ـ التى يحتاج اليها فى حياته لجلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، وهدايته والهامه ما خلق صالحا لذلك الى استعمال تلك الاعضاء وطرق الجلب والدفع بها .

وأما الخاص : فهو تكريمه وانعامه على عباده المؤمنين بنعمة الاسلام فى الدنيا ، وبدار السلام فى الاخرى . والتكريم المذكور فى هذه الآية من القسم الاول العام كما سيتبين فى المسألة الرابعة .

المسألة الثانية : جميع المخلوقات التى اخرجها الله تعالى من الوجود الى العدم وان كانت متساوية فى أصل التكريم العام فانها متفاوتة فيه بحسب تفاوتها فى شرف الذات وكمال الخلقة ، فعالم النبات أكثر حظا فى التكريم من عالم الجماد ، وعالم الحيوان أكثر حظا منهما ، ونوع الانسان أكثر حظا فى التكريم العام من جميع الحيوان .

المسألة الثالثة : عظم حظ الانسان من هذا التكريم من جهة ذاته بحسن صورته واعتدال مزاجه ، ومن جهة روحه بأنها من العالم النورانى العلوى وبأنها مع اتصالها بالبدن قابلة للتحلى بأكمل الصفات وأطهر الاخلاق ، وعرف الاسباب ومسبباتها ووجوه ارتباطاتها واتصلاتها ونسبة بعضها الى بعض ، فملك وساد واستفاد وأفاد .

المسألة الرابعة : هذا التكريم المذكور فى المسألة السابقة هو عام للنوع الانسانى من حيث هو انسان لا فرق فيه بين من آمن ومن كفر لانه راجع للخلقة الانسانية التى يتساوى فيها الجميع ، والتمكين من اسباب المنافع الذى هو ثابت لجميع النوع بما عنده من عقل وتفكير وهذا هو مقتضى

العموم المستفاد من لفظ (بنى آدم) ومثل هذا التكريم فى العموم الحمل فى البر والبحر والرزق لانهما من جملة التكريم ، كما تقـدم فى فصـل بيـان المعـنى :

المسالة الخامسة : تفضيل الله تعالى لمن يشاء من خلقه قسمان : تفضيل فى الخلقة وتفضيل فى الجزاء والمثوبة • فمن الاول تفضيل بنى آدم المذكور فى هذه الآية بما كرموا به واعطوه فى خلقتهم من الوجوه المتقدمة زائدا على كثير من مخلوقات الله مما كانت لهم به الرفعة والمنفعة لجميع نوعهم على العموم • ومن الثانى تفضيل المجاهدين على القاعدين فى قوله تعالى : « **وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** » (1) •

المسالة السادسة : اقتضى قوله تعالى : « **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ** » اى بما كرمناهم به فى خلقتهم انهم لم يفضلوا على جيمع مخلوقات الله وأن بعض المخلوقات افضل منهم فى الخلقة وأكثر منهم كرما فى الجنس فمن هو هذا المخلوق المفضل عليهم ؟ هذا ما نبينه فى المسالة التالية :

المسالة السابعة : اذا نظرنا فى عوالم المخلوقات فاننا نجدها منقسمـة الى قسمين : قسم مشاهد ، وقسم غير مشاهد علمناه بالوحى الصادق من الكتاب والسنة •

فالقسم الأول : هو عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان ، وهذا القسم كله قد فضل عليه الانسان بميزة عقله التى ساد بها الجميع وبغيرها مما تقدم •

والقسـم الثـانى : هـو الملائكـة والجـن فامـا الجـن ، فالانسـان أشرف منهم خلقـة وأكـرم عنصرا ، فهـم ظلمانيون خلقـوا من النـار • وهو ترابى وروحه من عالم النور الذى هو عالم الملائكة • فلذا كان أهـلا لاصطفاء الرسل منه كما اصطفيت من الملائكة ولم يصطف من الجن رسول ولا نبى ، وأما الملائكة فخلقتهم أشرف من خلقة الانسان وأكرم لانهم خلقوا

---

(1) سورة النساء •

من نور محض منزهة أجسامهم النورانية عن كثافة الاجساد الانسانيـــة الترابية واخلاطها وظلمتها ، فلم يفضل عليهم النوع الانسانى عن الخلقة بل فضلوا عليه فهم غير الكثير الذى فضل عليه الانسان ٠

المسالة الثامنة : المفاضلة تقع بين الملائكة وبنى آدم على وجهين : اما من جهة الخلقة واما من جهة المثوبة ٠ فأما من جهة الخلقة فقد عرفنا فى المسالة المتقدمة أن الملائكة أفضل ، والآية ظاهرة فى ذلك ظهورا بينا ٠ وأما من جهة الاجر والمثوبة فهو خارج عن معنى الآية وموضوعها ، وافضل الخلـــق ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ افضل منهم قطعا ، وفى المفاضلة بين الانبياء والملائكة فى الاجر والثواب خلاف كبير وتفويض أمر ذلك الى الله تعالى فى مقام التذكير أسلم ٠

سلوك المكرمين ــ حكمة الامتنان بتكريم الانسان :

امتن الله تعالى على بنى آدم بهذا التكريم لهم فى شرف الخلقة ورفعتها ، وكثرة المنفعة وتيسير اسبابها تذكيرا لهم بنعمته ليشكروها فيزيدهم منها، وتعريفا لهم بشرف أنفسهم ليقدروها فينتفعوا بها ٠ فهذان الامران هما الحكمة المقصودة بهذا الامتنان فلنتكلم عليها فى الفصلين التاليين ٠

شكر العبد لنعمة ربه : قد ابتدأنا بهذه الكرامة فى الخلقة بدون سعى منا ولا عمل ، وهو المبتدىء بالنعم قبل استحقاقها ٠ فمن عرف هذه الكرامة وشكرها كان من المكرمين ، ومن لم يعرف قيمتها وكفرها كان من المهانين ٠ « وَمَنْ يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ » . فلنقابل هذا التكريم فى الخلقة بالشكر الجزيل بأن نعقد قلوبنا على تعظيم النعمة به ، ونطلق السنتنا بالاعتراف والثناء على مسديه ، ونستعمل هذه الخلقة الكريمة فى مراضى ربنا وطاعته ٠ متوسلين بشكر ما ابتدأنا به خالقنا من تكريم الخلقة الى ما وعد به الشاكرين من تكريم الجزاء والمثوبة بانواع الطافه وانعامه وجزيل فضله واكرامه ٠ فسبحانه ذا الجلال والاكرام ٠

معرفة العبد لقدر نفسه : قد استودعنا خالقنا خلقة كريمة ، فعلينا ان نعرف قيمتها وان نقدرها قدرها ٠ وحق على من كرمه ربه أن يكرم نفسه ،

فعلينا أن نكرم أنفسنا بتكريم أرواحنا بتنزيهها عن مساوىء الاخـــلاق وتحليتها بمكارمها . وتكريـم عقولنا بتنزيهها عـــن الاوهــام والشكوك والخرافات والضلالات ، وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات وتكريم جوارحنا بتنزيهها عن المعاصي،وتجميلها بالطاعات فنتحرى باقوالنا وافعالنا أكرم الاقوال وأكرم الاعمال ، ونترفع عن جميع الرذائل والدنايا ، ونتباعد عن كل مواطن السوء والسفالة،ونحفظ كرامتنا وشرفنا أمام الله والناس، ونجهتد أن لا يمسنا بسوء لا منا ولا من غيرنا. فاذا قدرنا ـ هكذا ـ أنفسنا وشكرنا ـ كما تقدم ـ ربنا بلغنا ـ باذن الله تعالى ـ أبعد الغايات من التكريم والتفضيل . يسرنا الله والمسلمين أجمعين لما يسر له عبـــاده المكرمين المفضلين برحمتك يا أرحم الرحمين (1) .

---

(1) الشهاب ـ ج 2 ، م. 7 ـ شوال 1349 هـ ـ مارس 1931 م .

الصــلاة لأوقاتهـا

« أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » .

(سورة الاسراء ـ الآية : 78)

المفردات : (**أقم**) : أمر من أقام أى اجعلها قائمة وذلك بحفظها والمحافظة عليها وحفظها صونها من الخلل فى شروطها وأركانها من أقوالها وأعمالها فى الظاهر والباطن . والمحافظة عليها بالمداومة عليها فى أوقاتها . (**الصلاة**) : المراد الصلوات الخمس المكتوبة . (**لدلوك**) : اللام لام الاجل والسببية (الدلوك) هو الميل وبدايته عند الزوال ونهايته بالغروب (الى) لانتهاء الغاية ، فغسق الليل هو نهاية غاية الإقامة . (**الغسق**) : هو ظلمة الليل،وبداية الظلمة بالغروب وتمامها بعد مغيب الشفق عند اشتداد الظلمة . (**قرآن الفجر**) : ما يقرأ به فى صلاة الفجر ـ وهى الصبح ـ من القرآن فسميت قرآنا من تسمية الكل باسم جزئه تنبيها على أهمية ذلك الجزء ومكانته . (**مشهودا**) : محضورا .

التراكيب : أفادت اللام السببية ان ميل الشمس سبب فى وجوب الصلاة والى عند التجرد عن القرائن لا يدخل ما بعدها فى حكم ما قبلها ، لكن هنا قامت القرينة الشرعية ـ وهى مشروعية الصلاة فى الليل ـ على ان ما بعد الى داخل فى حكم ما قبلها فهو محل أيضا لإقامة الصلاة فيه.وقرآن الفجر منصوب عطفا على الصلاة وخصصت بالذكر لانها لم تكن عند ميل الشمس ولا عند الغسق . بل تكون عند الوقت الذى اضيفت اليه وهو الفجر . وجملة (**إِنَّ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**) تذييل لتاكيد اقامة صلاة الفجر .

المعنى : أقم يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وامره أمر لامته لانهم مأمورون بالاقتداء به ـ الصلاة لاجل ميل الشمس فاد الظهر والعصر، وفى غسق الليل فاد المغرب والعشاء ، واقم صلاة الفجر انها صلاة مشهودة ·

بيان وتوجيه : هذه الآية قد انتظمت أوقات الصلوات الخمس، ووجه ذلك بوجوه :

الاول ـ ان الظهر تكون أول الميل والعصر تكون وسطه · وان المغرب تكون عند أول الغسق والعشاء تكون عند شدته بمغيب الشفق · والصبح عند الفجر ·

الثاني ـ ان الظهر عند أول الميل والعصر عند وسطه والمغرب عند نهايته والعشاء عند الغسق أي اشتداد الظلمة فانه اذا تم الميل ابتدأت الظلمة ·

الثالث ـ ولم أره لاحد واللفظ يحتمله ـ ان ميل الشمس يبتدىء بالزوال وينتهي فيما يرى لنا بالبصر بمغيب الشفق غير ان ميلها في الزوال والغروب مشاهد بمشاهدة ذاتها ، وميلها بعد الغروب مستدل عليه بما يشاهد من أخذ الشفق في المغيب الى ان يغيب بتمامه ، ولا شك ان ذلك نتيجة ميلها من وراء الافق ، فالصلوات الاربع على هذا واجبة لدلوك الشمس · أما غسق الليل فهو اشتداد ظلمته وذلك يكون على اتمه بعد مضى الثلث الاول من الليل فيكون غسق الليل بهذا المعنى خارجا عن حكم ما قبل الى ، لان وقت العشاء ينتهي بانقضاء الثلث الاول فالاوقات تنتهي عند غسق الليل ·

تفسير نبوي : اخرج البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « تفضل صلاة الجميع صلاة احدكم وحده بخمس وعشرين جزءا وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » · ثم يقول أبو هريرة فاقرءوا ان شئتم : « إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » · فاستشهد أبو هريرة بالآية على الحديث ليبين انه تفسير لها وان صلاة الفجر مشهودة

تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار • وجاء هذا عند احمد عن ابن مسعود مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم • وجاء اجتماع الملائكة بأبسط من هذا عند مالك رحمه الله فاخرج فى موطئه عن أبى هريرة (ض) ان رسول اللـه صلى اللـه عليه وآلـه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو اعلم بهم كيف تركتم عبـادى فيقولون تركناهم يصلون واتيناهم وهم يصلون » •

استنباط : مـن تخصيص صـلاة الفجر بجملة التذييل المؤكدة ، وما اشتملت عليه من هذه المزية اخذ جماعة من أهل العلم افضليتها على غيرها فان قلت ان صلاة العصر ايضا لها هذه المزية كما تقدم فى حديث مالك • قلت : ان ثبوت هذه المـزية للفجر قطعى بنص القـرآن ومتفق عليه فى روايات الحديث بخلاف العصر فقد جاء فى بعض الروايات دون بعض ، وتبقى الفجـر ممتازة بتخصيصها بالتأكيد فى نص الكتـاب،وكفى هـذا مرجحا لها •

ترغيب وترهيب : قد جاء عن النبـى صلى اللـه عليه وآله وسلم فى الترغيب فى امتثال هذا الامر (أَقِمِ الصَّلَاةَ) وفى الترهيب من مخالفتـه مـن الاحاديث ما فيـه مقنـع ومزدجر،فمما جـاء فيهما حديـث عبـادة ابن الصامت (ض) قال سمعت رسول اللـه صلى اللـه عليه وآله وسلم يقول : « خمس صلوات كتبهن الله عز وجل على العباد فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد ان يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ان شاء عذبه وان شاء أدخله الجنة » رواه مالك وغيره •

ومما جاء فى الترغيب حديث أبى هريرة (ض) قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « أرأيتم لو ان نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا لا يبقى من درنه شيء • قال : فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو اللـه بهن الخطايا » • رواه الشيخان فى صحيحهما • ومما جاء فى الترهيب حديث جابر بن عبد

الله (ض) : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » · رواه مسلم وغيره بنحوه · وحديث بريدة (ض) مرفوعا : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » · رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترميذى وابن حبان والحاكم ·

الاحكام : قد قال بكفر تارك الصلاة جماعات كثيرة من الفقهاء والمحدثين سلفا وخلفا مستدلين بحديث جابر وحديث بريدة الصريحين فى كفره ، وذهبت جماعات أخرى كذلك الى عدم كفره على عظم جــرمه ، مستدلين بحديث عبادة بن الصامت المتقــدم الصريح فى جعلــه فى المشيئة ، والكافر مقطوع له بدخول النار · ويجيبون عن حديث جابر وبريدة بأن المراد من كفر تارك الصلاة هو الكفر العملى ·

والكفر قسمان اعتقادى وهو الذى يضاد الايمان ، وكفر عملى وهــو لا يضاد الايمان ومنه كفر تارك الصلاة غير المستحل للترك وكفر من لم يحكم بما أنزل الله كذلك · وبهذا يجمع بين الاحاديث · وكفى زاجرا للمرء عن ترك الصلاة ان يختلف فى ايمانه هذا الاختلاف ·

تعليم : فى ربط الصلاة بالاوقات تعليــم لنا لنربط أمورنا بالاوقات ونجعل لكل عمل وقته ، فللنوم وقته وللاكل وقته وللراحة وقتها ولكل شيء وقته · وبذلك ينضبط للانسان أمر حياته وتطرد له أعماله ويسهل عليه القيام بالكثير من الاعمال · اما اذا ترك أعماله مهملة غــير مرتبطة بوقت فانه لابد ان يضطرب عليه أمره ويتشوش باله ولا ياتى الا بالعمل القليل ويحرم لذة العمل، واذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر فقل سعيه وكان ما يأتى به من عمل ـ على قلته وتشويشه ـ بعيــدا عـــن أى اتقان · وقد كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم مقسمــا لزمانه عــلى أعماله ، وفيه القدوة الحسنة ·

فقد روى عياض فى « الشفا » عن على (ض) قال كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اذا أوى الى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء فجزءا لله وجزءا لاهله وجزءا لنفسه ثم جزء جزأه بينه وبين الناس فيرد ذلك على العامة بالخاصة ولا يدخر عنهم شيئا · فكان من سيرته فى جزء الأمة ايثار أهل

الفضل باذنه قسمته على قدر فضلهم فى الدين ، منهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين،ومنهم ذو الحوائج،فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والامة من مسألته عنهم ، واخبارهم بالذى ينبغى لهم ، ويقول : ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وأبلغونى حاجة من لا يستطيع ابلاغى حاجته ، فانه من ابلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع ابلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة ٠ لا يذكر عنده الا ذلك ولا يقبل أحد غيره يدخلون روادا ولا يتفرقون الا عن ذواق ويخرجون أدلة انتهى ٠ فهكذا ينبغى للمسلم ان يقسم أوقاته على أعماله ويعمرها كلها بالخير ٠ وكما ربط الله له صلاته بالاوقات وهى من أمور دينه كذلك يربط هو بالاوقات جميع أمور دنياه ٠

والله نسأل لنا ولجميع المسلمين ان يقصرنا على طاعته ويفقهنا فى أسرار دينه ويوفقنا الى اتباع سنة رسوله عليه وعلى آله افضل الصلاة والسلام ٠

نافلة الليل وحسن عاقبتها

« وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » .

(سورة الاسراء ، الآية 79)

الالفاظ : من : للتبعيض ٠ **الهجود** : النوم والهاجد النائم و ج هجود ومنه :(الا طرقتنا والرفاق هجود) والتهجد ترك الهجود ، كالتحرج والتأثم فى ترك الاثم والحرج ، وبناء تفعل يكثر فى التحصيل كتعلم وتقدم ، وجاء قليلا فى معنى الترك ، والمراد منه هنا ترك النوم للقيام بالعبادة ، (**نافلة**) ، قال الجوهرى : عطية التطوع من حيث لا تجب ومنه نافلة الصلاة اهـ ٠ أى ان الصلاة مؤداة على وجه التطوع دون الوجوب ، فلذا قيل فيها نافلة ٠ وهى على كلام الجوهرى بمعنى الشىء الزائد ، فهى اسم غير مصدر ٠ قال أبو البقاء وغيره : النافلة الزيادة ، فهى مصدر كالعاقبة ٠ **عسى** : للرجاء ، وهى من الله تعالى على الوجوب ، لان اطماعه تعالى لعباده فى الجزاء على أعمالهم هو من وعده ، ومحال عليه تعالى ان يخلفه ٠ **مقاما** : محل القيام ٠ **محمودا** : مثنيا عليه ٠

التراكيب : من الليل متعلق بفعل محذوف دل عليه تهجد تقديره أسهر • الضمير في به عائد على القرآن لتقدم ذكره ولا تراعى الاضافة ، والباء باء الاداة لان التهجد بمعني التعبد يحصل بالقرآن ، أى بالصلاة ويحتمل ان يكون الضمير عائدا على الليل ، فالباء بمعنى فى ، أى فيه ، نافلة : مصدر منصوب بتهجد لا تفاقهما فى المعنى • والتقدير : تنفل نافلة ، وهذا يجرى على الوجهين فى معاد الضمير • ويحتمل أن يكون حالا • وهذا يجرى على عود الضمير على القرآن بمعنى الصلاة • مقاما : اما مصدر من غير لفظ عامله الذى هو يبعثك بمعنى يقيمك من مرقدك • واما ظرف أى يبعثك فى مقام ، ومحمودا : صفة لمقام ، ولكن الذى يحمد حقيقة هو القائم فى المقام ، فجعل الحمد للمقام توسعا،تنبيها على عظم الحمد وكثرته ، فانه فاض على صاحب المقام حتى غمر مقامه •

المعنى : أسهر بعضا من الليل فتعبد بالقرآن فى الصلاة زيادة على تعبدك به فى صلاة فرضك فتكون على رجاء أن يبعثك ربك من مرقدك يوم يقوم الناس لرب العالمين • فيقيمك مقاما يحمدك فيه جميع الناس لما يرون لك من فضل وما يصل اليهم بسببك من خير •

وفى الآية ـ مسائل :

المسألة الاولى : كيف يكون التهجد ؟ فأما اللفظ فانه يفيد ترك النوم للعبادة فيشمل تركه كله أو بعضه بان لم ينم أصلا أو لم ينم أولا ثم رقد أو نام أولا ثم قام • لكن ثبت أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان ينام ثم يقوم ، فبينت السنة العملية أن التهجد المطلوب هو القيام بعد النوم •

المسألة الثانية : هل كان قيام الليل فرضا عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون أمته بمقتضى قوله تعالى : « نَافِلَةً لَكَ » قد ذهب الى هذا جماعة كثيرة من أهل العلم سلفا وخلفا ، ويرد عليه إن توجيه الخطاب اليه لا يقتضى تخصيص الحكم به كما فى آية : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » وآيات كثيرة ، ولان قيام الليل يقع من غيره فيسمى نافلة اتفاقا • ولحديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « ان الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة

ـ تعنى سورة المزمل ـ وهى مكية « قم الليل » فقام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه حولا وأمسك الله خاتمتها اثنى عشر شهرا ، حتى أنزل الله فى آخر هذه السورة التخفيف فصار قيامه تطوعا بعد فرضه » رواه مسلم ٠

فهذا يدل على أنهم فهموا أن الامر من قوله تعالى : « قم » لهم معه ، مع انه موجه اليه بخطاب الافراد ، وانه كان فرضا عليه وعلى الناس فصار تطوعا عليه وعلى الناس ٠ ولحديث المغيرة بن شعبة فى الصحيحين وغيرهما : « قام رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حتى تورمت قدماه . وهذا لمداومته على القيام كل ليلة ببعض عشرة ركعة ـ فقيل له قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : (أفلا أكون عبدا شكورا » ٠ فلو كانوا يعلمون أن قيام الليل واجب عليه ويفهمونه من القرآن لما أنكروا مشفقين عليه أن يقوم بما هو واجب عليه ، ولان قوله : « أفلا أكون عبدا شكورا » يفيد أنه متطوع بهذا القيام باختيار ليؤدى شكر نعمة ربه عليه ٠

فان قيل : ان السؤال والجواب راجعان الى تورم قدميه ، وذلك ناشىء على المداومة ٠ قيل اذا أنكر الشىء الناشىء عن المداومة فقد انكرت المداومة . والمداومة على الفرض لا تنكر ٠ فبقى الدليل سالما ٠ ولهذا كله قال هؤلاء الموردون ان قيام الليل تطوع ونفل فى حقه وفى حق أمته ، وبقى للاولين أن يقولوا ان قوله تعالى : « عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » خاص به ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتفاقا ، وقد جعل جزاء لتهجده بالليل . ولما كان الجزاء خاصا به فالعمل المجزى عنه خاص به ، فلهذا حملنا قوله على معنى دون غيرك ، ولما رأيناه واظب على التهجد ولم يتركه حملناه على أنه كان مفروضا عليه ، وحملنا نافلة على معنى أنها فريضة زائدة فوق الصلوات الخمس ، فيقول المخالفون فى هذا انكم حملتم النافلة على الفريضة ، وهذا خلاف أصل معناها الذى هو التطوع ٠ وأما ما ذكرتم من خصوص الجزاء به فانا نقول ان الخطاب موجه له فى الاول وفى الآخر ، ففى الاول لما لم يعارضنا معارض ألحقنا به أمته . وفى

الثانى لما منعنا مانع وهو اختصاصه بالمقام المحمود لم نلحقهم به ، وبقى الجزاء مساويا للعمل فى صورة اللفظ حيث كان كل منهما موجها اليه ، واذا تأملت فى هذا البحث الذى سقناه أدركت أن القول بعدم الخصوصية هو الراجح . فالآية حث وترغيب على قيام الليل للعموم ، ووعد له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالمقام المحمود .

المسألة الثالثة : ما هو المقام المحمود ؟ « هو مقامه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ للشفاعة العظمى » يشفع للخلائق وقد جهدوا من كرب الموقف فجاءوا الى كبراء الرسل عليهم الصلاة والسلام يسألونهم أن يشفعوا لهم الى ربهم ليفصل القضاء ويريحهم من كرب الموقف فيتدافع الشفاعة أولئك الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ ويتنصلون منها بأعذار رهيبة للرب جل جلاله حتى ينتهوا اليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيتقدم فيشفع ويسأل فيعطى . كما جاء هذا كله مفصلا فى الاحاديث الصحيحة المستفيضة . فيحمده الخلق كلهم لما يرون من فضله عند ربه ولما وصل اليهم من الخير المطلوب بسببه .

اختصاصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمقام المحمود ودليله : ثم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذه الشفاعة العظمى شفاعات أخرى بينتها صحاح الاحاديث ، ولعموم فضل هذه الشفاعة العظمى لاهل الموقف كلهم ، قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما فى صحيح مسلم:« أنا سيد الناس يوم القيامة » . والسيد من يتولى أمر السواد ، فظهر عموم سيادته بعموم نفعه ، وقد فسر المقام المحمود بمقام الشفاعة عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ رواه عنه البخارى فى صحيحه وفسره بها غيره .

المسألة الرابعة : هل المقام المحمود خاص به ؟ قد علمت من المسألة السابقة أنه مقام الشفاعة العظمى ، وهى خاصة به فهو خاص به ويدل عليه حديث جابر الصحيح : « من قال حين يسمع النداء ـ الأذان ـ : اللهم رب هذه الدعوة التامة،والصلاة القائمة, آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته،حلت له شفاعتى يوم القيامة » فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ الموعود بالمقام المحمود .

تنبيه والحاق : قد جعل الله تعالى جزاء نبيه ـ صلى اللـه عليه وآله وسلم ـ على تجهده وخلوته بربه في مناجاته في هذا المقام الذي يحمده فيه الخلق ، ويتقبل فيه شفاعته ويستجيب دعوته ويفتح عليه فيه بمحامد من ذكره لم يفتح عليه بها قبل ، وفي هذا تنبيه للمؤمنين على حسن عاقبـة القائمين لربهم في جنح الليل ، وما يكون لهم من مقامات عند ربهم على حسب منازلهم · فكما كان المؤمنون ملحقين بنبيهم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في مشروعية هذه العبادة ، كذلك هم ملحقون به في حسن الجزاء عليها ، وان كان قد خصص هو عليه السلام بذلك الجزاء الاعظم،فلهم جزاؤهم من مقامات القرب ، والزلفى والقبول ، والرضا ، على ما يناسب منازلهم جزاء بما كانوا يعملون (1) ·

(1) الشهاب : ج 3 م 7 ـ ذو القعدة 1349 ، مارس 1931م·

صدق المدخل والمخرج

« وَقُلْ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا » .

(سورة الاسراء ، الآية 80)

المناسبة : مضى في الآيات السابقة ذكر الله تعالى ما كان من المشركين من الكيد لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمحاولتهم فتنته في دينه والله يثبته ، ومبالغتهم في عداوته واذايته ، حتى كادوا يستفزونه ويزعجونه من أرض مكة فيخرجونه منها . وجاء بعدها أمر الله تعالى باقامة الصلاة والتهجد بالليل ، وفي ذلك أمر الله له بالقيام بعبادة ربه والتوجه والانقطاع اليه وعدم المبالاة والاشغال عن مهام العبادة بهم . فجاء بعد ذلك الامر الذي في هذه الآية بسؤاله أن يختار له ، وفي ذلك تفويض أمره الى ربه ورضاه بما يختار له . فالآيات السابقة أمر بالتجرد لعبادته ، وهذه أمر بالتسليم لمشيئته . فبتلك يكون منقطعا اليه ، وبهذه يكون معتمدا عليه .

الالفاظ : المدخل : يكون بمعنى الادخال ، ويكون بمعنى زمانه أو مكانه . **الصدق :** أصله وصف القول بمعنى قوله ومطابقته للواقع . ويوصف به الفعل اذا وقع على وجهه ، وكما ينبغي أن يكون . وتضاف اليه الاشياء الكاملة في أنفسها الحسنة في ظاهرها وباطنها . **لدن :** بمعنى عند . **السلطان :** بمعنى التسلط . يصدق على التسلط على العقول بالحجة وعلى غيرها بالملك والولاية . **النصير :** بمعنى ناصر .

التراكيب : مدخل ومخرج منصوبان على المصدرية أو على الظرفية .

المعنى : قل يا محمد سائلا ربك متضرعا اليه : يا رب أدخلني ادخالا حسنا كامـلا تساوى فى ظاهره وباطنه فى الحســن والكمال ، وتماثلت بدايته ونهايته وحاله وعاقبته فيهما أكون فيه على بصيرة ويقين ، وثبات وقوة ، واخرجنى اخراجا كذلك ـ واذا كان بمعنى الظرف كان المعـنى أدخلنى فى مكان حسن أو زمـان حسن ··· الخ · واخرجنى كذلك ـ واجعل لى من عندك تسلطا بالحق على العقول بالحجة والبرهان ، وعـلى الملك بالعدل والاحسان · ينصرنى ويؤيدنى على كل من يقف فى طريق دعوتى اليك ، وهداية خلقك من جبابرة البغى أو رؤوس الضلال ·

توجيه : قدمنا احتمال المصدرية في مدخل ومخرج لانه أعم ، والعموم انسب بهذا الدعاء الجليل الذى ليس فى الفاظه ما يدل على التخصص ، ولما كان الذى يضاف الى الصدق لا يكون الا حسنا لا عيب فيـه ، ثابتـا لا خلل فيه ، وصفنا الادخال والاخراج بما وصفناهما به لان ذلك كله من مقتضى الحسن والكمال والثبوت · ولما كان السلطان المطلوب هو مـــن عند الله ولا يكون الا سلطانا بالحق سواء أكان فى العلم أم فى الحـــكم فسرناه بالحجة والبرهان والعدل والاحسان ·

ترجيح : اذا نظرنا الى ما تقدم من قوله تعالى : « **وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا** » قيل : ان المراد بمدخل الصدق هو المدينة · ومخرج الصدق هو مكة ، وتكون مكة مخرج صدق لانه يخرج منها على حق ويقين وبصيرة وباذن من الله تعالى وتأييده،وتكون المدينة مدخل صـدق لذلك كذلك · واذا نظرنا الى عموم اللفظ حملنا الآية على العموم اعتبارا بحكم اللفظ ، ولا يفوت اعتبار المناسبة لما تقدم ، فان الخروج من مـكة ودخول المدينة يكون مما دخل فى العموم دخولا أوليا،فالحمل على العموم ـ كما رأيت ـ محصل لاعتبار اللفظ واعتبار المناسبة ولذلك اخترناه ·

تطبيق : كل فرد من أفراد بنى الانسان فى كل لحظة من لحظات حياته لا ينفك عن المداخل والمخارج ، فكل ساعة يقضيها من حياته هى مدخـل باعتبار دخوله فيها من غيرها ومخرج باعتبار خروجه منها الى سواها ، فان قضاها صادق العقد،صادق القول ، صادق العمل،وفارقها كذلك فهى

مدخل صدق ومخرج صدق ٠ وان قضاها وفارقها سيء العقد، سيء القول، سيء العمل، فهي ليست كذلك بل هي مدخل كذب وفجور، ومخرج كذب وفجور ٠ فالانسان محتاج في كل لحظة من حياته لتوفيق الله وتأييده وحفظه وامداده ، فجاء هذا الدعاء القرآني منبها على هذه العقيدة ، مشتملا على سؤال ما يحتاج اليه الانسان في جميع شؤونه في حياته وأطواره فيه ـ من ألطاف ربه ٠ ولما كان الانسان في كل لحظة من حياته ـ لابد ـ واجدا معارضا وصادا عن الخير والصدق ، وقاطعا في طريق الحق ـ من نفسه وشياطين الانس والجن ـ قرن الدعاء السابق بالدعاء الثاني الذي فيه طلب التأييد من الله بالسلطان المبين ، فالدعاءان على اختصارهما وايجازهما ـ قد جمعا للانسان كل حاجته من تحصيل الخير ودفع الشر ، فهما من أعظم الادوية الربانية للانسان ، ومن أعظم وسائله الشرعية الى خالقه ، فما أحراهما بأن يلهج بهما في كثير من أوقاته ٠

استنباط : اذا علمنا الله تعالى دعاء ففي ضمن ذلك التعليم تعليم آخر لنا كيف نعمل ما يناسب ذلك الدعاء ، وكيف نسلك السلوك الذي هو مظنة الاستجابة ٠ فلما علمنا تعالى ـ مثلا ـ كيف ندعوه بقوله : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » كان في ذلك ارشاد لنا الى سلوك الطريق المستقيم ، والاهتداء بأهله ، والمباينة لغيرهم ، فكذلك هنا لما علمنا كيف ندعوه بالحفظ والتوفيق في المدخل والمخرج كان في ذلك ارشاد لنا الى ما ينبغي لنا أن نكون عليه في مداخلنا ومخارجنا ، وجميع مصادرنا ومواردنا من تحري ما فيه مرضاته واجتناب ما فيه سخطه ، ولما علمنا كيف ندعوه بالتقوية والتأييد بسلطان من لدنه مبين ، كان في ذلك ارشاد لنا أن نكون أهل قوة في الايدي ، وقوة في البصائر ، ودفاع عن الحق بما استطعنا من قوة ٠

سلوك وامتثال : فعلينا أن لا ندخل في أمر الا على بصيرة به وعلم بحكم الله تعالى فيه ، وأن دخوله خير ، وان لا نخرج من أمر الا على بصيرة وعلم كذلك ، لا فرق بين أمر وأمر من كبير وصغير ، وجليل وحقير، ونكون ـ مع بذل غاية ما عندنا من نظر واختيار ـ معتمدين على ربنا ، واثقين

بحسن اختياره لنا . مسلمين له فيما اختاره ، ضارعين له ، مظهرين فقرنا وحاجتنا فى كل حال ، وعلينا أن نحصل من الاسباب ما يحصل لنا قوة العلم وقوة العمل، لنكون أهلا للدفاع عن الحق وحزبه ، ومقيمين لسلطان الله فى أرضه بالحق والعدل والاحسان ـ معتمدين ـ مع تحصيل تلك الاسباب ـ على الله وحده ، ومنتظرين منه الفرج والتيسير ·

هذان هما الاصلان الاساسيان فى سلوك أهل الله : التمسك بالحق ، ومدافعة الباطل . فاستمسك بهما تكن ـ باذن الله ـ من الفائزين ·

مجيء الحق وزهوق الباطل واستجابة دعاء الصادقين

« وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » ·

(سورة الاسراء ، الآية 81)

المناسبة : لما أمر الله تعالى نبيه أن يدعوه بحسن المدخل والمخرج والنصرة والتأييد ، أمره أن يعلن استجابته لدعوته بمجيء الحق، وفى ذلك نصره ، وذهاب الباطل،وفى ذلك هلاك أعدائه وذهاب دولتهم · هذا على النظر العام ، واما على النظر الخاص فان الله تعالى بعدما ذكر أن أعداءه كادوا يستفزونه من الارض،وأمره أن يتوجه الى عبادته ودعائه،ذكر فى هذه الآية ما كان من نصره على المشركين،وفتح مكة عليه،وتنكيس الاصنام التى هى باطلهم،واعلان كلمة التوحيد الذى هو دينه وهدايته · ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم ـ يتلو هذه الآية عندما كان يشير الى الاصنام فتسقط الى الارض · ففى الصحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه،أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ دخل مكة (يعنى عام الفتح) وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب،فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » ·

الالفاظ : الحق : الثابت الذى لا يعتريه زوال · **الباطل :** الذى لا ثبات له فى نفسه،فالاسلام حق ويشمل كل ما هو طاعة · والشرك والكفر

باطل،ومثله كل ما هو معصية . **زهقت الروح** : خرجت ، وزهق الباطل ذهب واضمحل . **الزهوق** : الهالك الذاهب .

التراكيب : جملة ان الباطل كان زهوقا أطناب بالتذييل ، المخرج اخراج المثل لتاكيد منطوق الكلام السابق . وشبه الباطل الذى غلب بادلة الحق فزالت شبهه من الاذهان، وطواغيته من الارض بالحيوان الذى صرع فذبح فزهقت روحه،وذهب على طريق المكنية حيث حذف المشبه به ، وهو الحيوان المصروع المذبوح ، وذكر المشبه وهو الباطل المغلوب ، وأشير الى المحذوف بذكر لازمه وهو الزهوق .

المعنى : وقل يا محمد ــ معلنا بما أظهر الله على يدك،وما قضى به من نصرك،وما أجاب من دعائك ــ جاء الاسلام والتوحيد بأدلته وحججه وقوته وسلطانه ، وذهب الكفر والشك فبطلت شبهه ، واضمحلت دولته،وأصبح الحق غالبا والباطل مغلوبا ، وكذلك كان الباطل شأنه الذهاب والاضمحلال.

صدق وعد الله جل جلاله : نزلت هذه الآية بمكة والنبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم،يلقون من المشركين ما يلقون والمسلمون فى ضعف ــ من العدد ــ وقلة ، والمشركون فى قوة، وكثرة ، فكانت هذه الآية وعدا بما سيكون من غلبتهم وقوتهم وكثرة عددهم، فيبطل الشرك ويذهب سلطانه ، وقد صدق الله وعده،ففتح عليهم مكة، وتمت لهم على المشركين النصرة ، وللاشارة الى انجاز هذا الوعد وصدق الخبر ، قرأ النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الآية يوم فتح مكة كما تقدم .

تفصيل : مجيء الحق هو بظهور أدلته وقيام دولته ، وزهوق الباطل هو ببطلان شبهه وذهاب دولته ، فأما القسم الاول فان الامر فيه ما زال ولن يزال كذلك ولن تزداد على الايام أدلة الحق الا اتضاحا ، ولن تزداد شبه الباطل الا افتضاحا . وأما القسم الثانى فانه مرتبط بأحوال أهل الحق وما يكون عليه من تمسك به وقيام فيه أو اهمال له وقعود عنه فيدال لهم ويدال عليهم بحسب ذلك .

عقيدة : يرتبط قلب المسلم مطمئنا على أن ما هو عليه من الاسلام حق لا شك فيه،وانه يومئذ منصور ما تمسك به،وانه اذا خذل فانما جاءه ذلك

مـن ناحية نفسه ، وعلى أن ما عدا الاسلام هو باطل لا شك فيـه ، وأن صاحبه هالك عند ربه ، وأن ما يكون له من سلطان لم يأته من جهة باطله ، وانما جاءه من أسباب عمرانية مما يقتضيه الحق وفرط فيه أهله فحرموا ثمـــرتـه ٠

سلوك : على أهل الحـق أن يكون الحـق راسخا فى قلوبهم عقائد ، وجاريا على ألسنتهم كلمات ، وظاهرا على جوارحهم اعمالا ، يؤيدون الحق حيثما كان وممن كان ، ويخذلون الباطل حيثما كان وممن كان ، يقولون كلمة الحق على القريب والبعيد ، على الموافق والمخالف،ويحكمون بالحـق كذلك على الجميع ، ويبذلون نفوسهم وأموالهم فى سبيل نشره بين الناس وهدايتهم اليه بدعوة الحق ، وحكمة الحق وأسبابه ووسائله على ذلـــك يعيشون وعليه يموتون ، فلنجعل هذا السلوك سلوكنا وليكن من همنا ٠ فما وفينا منه حمدنا الله تعالى عليه، وما قصرنا فيه تبنا واستغفرنا ربنا ٠ فمن صدقت عزيمته ووطن على العمل نفسه ـ أعين ويسر للخير ٠ وربك التواب الرحيم (1) ٠

---

(1) الشهاب : ج4 م 7 ، ذى الحجة 1349 هـ ـ افريل 1931 م ٠

القــرآن شفــاء ورحمــة

« وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً » .

(سورة الاسراء ، الآية 82)

المناسبة : لما جاء في الآية السابقة الاخبار بمجيء الحق،وفي مجيئه صحة الارواح والابدان والاحوال ، وبزهوق الباطل،وفي ذهابه ذهـاب العلل والامراض كذلك ــ جاء في هذه الآية بذكر القرآن والاخبار عما جاء فيه من الشفاء والرحمة،تنبيها على انه هو الشافي من أمراض الباطل وعلله ، وانه هو مصدر الحق وحجة ناصره، ومحصل الرحمة لاتباعه والمتمسكين به.

المفردات : **من** : لابتداء الغاية أو للتبعيض،لانه نزل مبعضا،فكل بعض نزل منه فهو شفاء ورحمة · **الشفاء** : البرء من المرض مرض الابدان أو مرض النفوس · **الرحمة** : النعمة · **الظلم** : وضع الشيء في غير محله · كوضع الكفر موضع الايمان ·

الخسار : النقص والضياع يكـون في الاموال ، يقال خسر ماله اذا ضيعه · ويكون في النفوس،فيقال خسر نفسه اذا ضيعها ولم يستعملها فيما خلقت له من الطاعة والكمال ، ويكون في الدين ، فيقال خسر دينه اذا ضيعه ولم يعمل به · فخاسر القرآن هو من ضيعه ولم يؤمن به ·

التراكيب : قرنت جملة ننزل بالواو مع ان ما قبلها انشائية · وذلك على وجهين : الاول ان تكون معطوفة على جاء الحق،أي وقل ننزل،فعطفت الخبرية على الخبرية التي لها محل وهو المفعولية بالقول · الثاني ان يكون الواو للاستئناف،وهي في الحقيقة صلة في الكلام لتقويته ، وقـــرنت جملة لا يزيد بالواو،لانها معطوفة على جملة الصلة،وعبر بالمضارع في ننزل

ويزيد، قصدا لمعنى التجدد، لان الآيات كانت تنزل شيئا فشيئا ، وتنكير شفاء ورحمة للتعظيم • وقدم الشفاء لانه برء من النقص، على الرحمة لانها حصول الكمال تقديم التخلية على التحلية . وآيات القرآن سبب في حصول الشفاء فجعلت هي شفاء على طريق المبالغة، تنبيها على تحقق حصوله بها •

المعـــنى : وننزل عليك يا محمد بحسب الوقائع والمناسبات آيـات من القرآن العظيم، هي شفاء يستشفي بها المؤمنون، ونعمة عظيمة انعمنا بها عليهم، يؤمنون بها ، ويحلون حلالها، ويحرمون حرامها، ويعملون بما فيها، فينالون سعادة الدنيا والآخرة ، اما الكافرون الظالمون الذين قابلوا بالكفر ما يجب ان يقابل بالايمان، وقابلوا بالرد ما يجب ان يقابل بالقبول، فان نزول تلك الآيات، يكون سببا في زيادة خسارهم وضياع الخير عليهم ، اذ كل آية من تلك الآيات كانت كافية في شفائهم لو استشفوا بها، وتزول الرحمة عليهم لو اهتدوا بها الى الاسلام، لكنهم يقابلون كل آية بالكفـــر والجحود، فيخسرون في كل مرة كنزا عظيما . وهكذا يزداد خسارهم بقدر كفرهم المتجدد بنزول الآيات •

تنظــير : وصف الله تعالى القرآن بانه شفاء في مواضع مـن كتابه ، منها هذه ومنها قوله تعالى في سورة يونس عليه السلام : « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** »، ومنها في سورة فصلت : « **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** » • وافادت الآيات كلها انه شفاء لاهـل الايمان الذين يؤمنون دون غيرهم – فانهم باعراضهم عنه كانوا من الخاسرين، وجاءت آية يونس بتقييد الشفاء بها في الصدور الذي هو العقائد ، لان ذلك هو المقصود الاول من هداية القرآن، وأصل لغيره، فانه اذا شفيـــت الصدور من عقائد السوء، ونزغات الشكوك واعتقدت الحق، وارتبطت على اليقين – زكت النفوس ، واستقام سلوك الانسان • فرده وجماعاته ورقي درجات الكمال ، فلا ينافي ذلك ان القرآن شفاء أيضا للنفوس من سيء الاخلاق، كما هو مقتضى الاطلاق في آية الاسراء هذه، وآيـــة فصلت، لأن الاخلاق ناشئة عن العقائد، ولازمة لها، ولأنهما كليهما – العقائد والاخلاق – لا تكمل النفس الانسانية الا بالشفاء فيهما • ولا ينافي أيضا حصـــول

الشفاء للابدان بالقرآن في بعض الاحوال،كما هو مقتضى الاطلاق أيضا، ومقتضى ما سيأتي من الآثار، وان كان هذا ليس هو المقصود بالقصد الاول من شفاء القرآن ٠

تقسيـــم : الامراض الانسانية قسمان : أمراض أرواح، وأمـــراض أبدان ٠ وكلاهما أنواع ٠ وأمراض الارواح المقصودة بالذات هنا ترجع الى نوعين : مرض العقول، ومرض النفوس ، فالاول بجمود النظر وفساد الادراك وتقليد الآباء واعتقاد الباطل والشك في الحق ٠ والثاني : بفساد الاخلاق وانحطاط الصفات ، اما الاعمال فهي تابعة لهما، فتصلح بصلاحهما وتفسد بفسادهما، والقرآن قد جاء داعيا الى النظر والتفكر والاعتبار والتدبر، مبينا ـ بما ساق من حجج الله وحجج رسله ـ الطريق الاقوم في الادراك الصحيح ، والسبيل الاشـد في الفهـم والتفهيم ، ناعيا عـلى المقلـدين تقليدهم، كاشفا لاهل الباطل عن باطلهم، ذاكرا من قواطع البراهين البينة الواضحة ما لا يبقى معه خفاء في الحق ولا ريب ٠ وجاء أيضا مبينا للاخلاق الفاسدة، وذاكرا سوء أثرها، وقبح مغبتها ، مبينا كذلك الاخلاق الصحيحة، وعظيم نفعها وحسن عاقبتها، فهذا شفاؤه للنفوس والعقول ، وهو راجع الى تصحيح العقائد، وتقويم الاخلاق، وبهما سلامة الارواح وكمالها، وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها ٠ على ان القرآن هو شفاء للاجتماع البشري، كما هو شفاء لافراده فقد شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس، ما فيه العلاج الكافي، والدواء الشافي لأمراض المجتمع الانساني من جميع أمراضه وعلله ٠ شفاء العقائد والاخـــلاق، وهما أساس الاعمال ـ والمجتمع ٠ وهذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيـــات القرآن من معالجتها، وبيان ما هو شفاء لها ٠ ولا شفاء لها الا بالقـــرآن، ـ والبيان النبوي راجع الى القرآن ـ ومن طلب شفاءها في غير القرآن فانه لا يزيدها الا مرضا ٠ فهذه الامم الغربية بسجونها ومشانقها ومحاكمها وقوتها، قد امتلأت بالجنايات والفضائح المنكرة التي تقشعر منها الابدان، وهذه الممالك الاسلامية التي تقيم الحدود القرآنية كالمملكة النجديـــة الحجازية، والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقـــرت

السكينة فيها، دون سجون ولا مشانق مثل أولئك، وما ذلك الا لانهم داووا الملك بدواء القرآن ، فكان الشفاء التام ٠

واما الامراض البدنية، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ما أنزل الله داء الا انزل له شفاء)، رواه البخارى من طريق أبى هريرة ، وقال : (لكل داء دواء، فاذا أصيب دواء الداء برأ باذن الله تعالى)، رواه مسلم من طريق جابر، وثبت عنه أنه داوى وتداوى٠وروى الائمة من ذلك عنه الكثير الطيب فى كتاب الطب من صحيح البخارى وغيره ٠ وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم انه استشفى ، واسترقى ببعض آيات القرآن العظيم ، وأقر على ذلك من فعله من أصحابه ٠ روى البخارى من طريق يونس عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضى اللـه تعالى عنها٠قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،اذا أوى الى فراشه،نفث فى كفيه بـ : « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ » وبالمعوذتين جميعا ، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده ٠ قالت عائشة:فلما اشتكى كان يأمرنى ان أفعل ذلك به ٠ قال يونس كنت أرى ابن شهاب يصنع ذلك اذا أتى الى فراشه) ٠ وروى الشيخان،واللفظ للبخارى،عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : (انطلق نفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى سفرة سافروها،حتى نزلوا على حي من احياء العرب،فاستضافوهم فأبـوا أن يضيفوهم،فلدغ سيد ذلك الحي،فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء ، فقال بعضهم:لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا،لعله ان يكون عند بعضهم شيء ، فأتوهم فقالوا : يا أيها الرهط ان سيدنا لدغ،وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء ؟ فقال بعضهم : نعم والله ، انى لا أرقى،ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا،فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنـا جعلا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم،فانطلق يتفل عليه ويقرأ : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » فكانما أنشط (1) من عقال (2) فانطلق يمشى وما بـه قلبة(3)، قال فأوفهم جعلهم الذى صالحوهم عليه. فقال بعضهم، اقسموا،فقال الذى رقى:لا تفعلوا حتى نأتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم،فنذكر له

---

(1) حل ٠ (2) حبل يشد به ذراع البهيمة ٠ (3) بحركات أى علة ٠

الذي كان، فننظر ما يأمرنا . فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا له فقال : (وما يدريك (4) انها رقية . ثم قال : قد اصبتم ، اقسموا وضربوا لي معكم سهما) فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) فثبت بهذين الحديثين ان فى القرآن شفاء للابدان . وحصل عندنا من جميع ما تقدم انه شفاء للارواح والابدان للافراد والمجتمع.

مداواة الابدان ، بالطب والقرآن : ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم الامر بالتداوى قولا وعملا ، وثبت عنه الاستشفاء بالقرآن، ولا منافاة بينهما، فان الانسان مركب من روح من عالم النور، وجسم من عالم المادة المركبة . فمن الحكمة الالهية، ان شرع الله لنا عند الامراض على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجمع بين الادوية المادية التى هى المناسبة للبدن، والآيات القرآنية التى هى المناسبة للروح، مع ما فى الادوية القرآنية من اطمئنان القلب بالله وقوته به وانتعاشه بذكره . وفى ذلك من تقوية للروح ونعيمها ما يهون عليها الم المرض، ويغلبها باذن الله تعالى عليه . ومثل الآيات القرآنية فى ذلك، كل ما ثبت فى السنة من الرقى النبوية المأثورة .

تحذير : فرط قوم فاهملوا الاستشفاء بالذكر المأثور، واقتصروا على على الدواء المادى، فحرموا انفسهم من خير كثير اذا لم يكونوا له كالمنكرين ، وافرط آخرون ، فاهملوا الدواء المادى، وزهدوا الناس فيه ، وتزيدوا فى جانب المأثور، حتى خرجوا عنه، واتخذوا لهم من ذلك حرفة وموردا للمعاش، ونسوا انواع اشفية القرآن الروحية والاجتماعية التى هى المقصودة بالقصد الاول من تنزيله، مقتصرين على الوجه الذى وجدوا منه سبيلا الى الاسترزاق على ما احدثوا فيه وما ابتدعوا . فعكسوا الامر، وخالفوا السنة ووقعوا فى المحظور من عدة وجوه . هذان الطرفان مذمومان . والعدل هو الوسط الذى لا يهمل هذا ولا ذاك ويقف فى الوارد عندما ورد ، ويتناوله على ما ورد .

---

(4) تعجب من وقوله على انها رقية واصابته فى ذلك .

تطبيـــق : نزول الآيات فى الكافرين لا يمنع من تطبيقها على مـــن شاركهم فى مثل الحال الذى انكرته عليهم من المؤمنين،لأن الوصف المذموم مذموم سواء أكان المتصف به مؤمنا أم كان كافرا · فالذين تتلى عليهم الآيات القرآنية والاحاديث النبوية،وتوضح لهم الدلائل الشرعية،وهـم عنها معرضون،وعن تدبرها غافلون،وبها متهاونون ـ يزدادون بكل مرة اثما باعراضهم وغفلتهم وتهاونهم فيخسرون بقدر ما يفوتهم من الهدايـة على حسب حالهم،واذا لم يكن خسارهم كخسار الكافرين،فهو كخســـار المعرضـين الغافلين المتهاونين ، وكفى بـه خســارا يتنـزه عنه المؤمنـون ويأباه الراشدون ·

سلـــوك : نتناول القرآن العظيم دواء من عند ربنا،شفاء لأمـراض عقولنا ، وأمراض نفوسنا ، وأمراض مجتمعنا ، فنتطلب ذلك منه بتدبر آياته،وتفهم اشاراته،ووجود دلالاته ، وشفاء أيضا لأبداننا،فنفعل كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم اذا أوى الى فراشه على ما تقدم فى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها · وعلى ما جاء من نحو ذلك مما ثبت عنه عليه وآله الصلاة والسلام وانتهى اليه علمنا ، غير مقصرين ولا غالين ، وعلى ربنا متوكلين، سائلين ان يشفينا بالقرآن الكريم أجمعين، آمين يا رب العالمين (1).

---

(1) الشهاب ـ ج 5 ، م· 7 ـ محرم 1350 ـ ماى 1931م·

صفتان من صفات النوع الانسانى
الإعراض عن النعمة والياس من الرحمة

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا » .

(سورة الاسراء ـ الآية : 82)

تمهيــد : فى النوع الانسانى غرائز غالبة عليه لا يسلم منها الا من عصم الله أو وفق الى الايمان والعمل الصالح · وفى آيات القرآن العظيم بيان لكثير من تلك الغرائز للتحذير من شرها والتنبيه على سوء مغبتها منها هذه الآية الكريمة ·

المناسبة : لما ذكر تعالى أن القرآن يكون شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا ، بين تعالى سبب خسار أولئك الظالمين وهو اعراضهم عن الله وبعدهم منه ويأسهم من رحمته ، وعلم منه أن المؤمنين الذين كان القرآن لهم شفاء ورحمة هم على الضد منهم فهم أهل اقبال على الله تعالى وقرب منه ورجاء فيه ·

المفردات : (**انعمنا**) : اوصلنا أنواع الاحسان · (**الانسان**) : المراد به النوع باعتبار مجموعه فلا ينافى خروج أفراد كثيرين بالعصمة والتوفيق. (**اعرض**) : صد بوجهه الى ناحية أخرى فارى عرض وجهه أى ناحية وجهه· (**نئـا**) : بعد · (**بجانبه**) : بناحيته بشقه الايمن أو الايسر ، والباء للتعدية أى ابعد جانبه · (**مسه**) : أصابه · (**الشر**) : البلايا والرزايا بأنواعها · (**يئوسا**) : شديد الياس والقنوط وعدم انتظار الفرج ·

التراكيب : جيء بفعل الشرط وجوابه ماضين لتحقق وقوعهما ولذلك كان التعليق باذا وجواب الشرط والفعل والمعطوف عليه فيهما الصورة

التامة للمعرض غاية الاعراض فانه يصرف عنك وجهه وهذا مفاد الفعل الاول،ويلوى عنك عطفه ويبعد جانبه ويوليك ظهره،وهذا مفاد الفعل الثاني. ثم هما كناية عن الاستكبار وعدم الاكتراث والالتفات الى مولى النعم سواء حصلت هذه الصورة بالفعل او لم تحصل .

المعنى : واذا أنعمنا على الانسان أعرض تمام الاعراض إما بعدم قبول تلك النعمة استكبارا او تهاونا كما يكون من الذين يكفرون بالقرآن او يخالفونه وهو من أعظم نعم الله عليهم . وإما بعدم القيام بحق الله فى تلك النعمة وعدم شكره عليها كنعمة العقل والبدن والحال وغيرها ، اذا لم تستعمل فى طاعة الله ولم يقم بحقه فيها . واذا مس الانسان الشر ونزلت به المصائب،وحلت به النوائب،استولى عليه اليأس والقنوط، وانسدت فى وجهه أبواب الرجاء .

توجيه : يرتبط اليأس من رحمة الله بالاعراض عن نعمته من جهتين :

الاولى : أن من أعرض عن نعمة الله فقد قطع صلته بخالقه وذهب ممعنا فى بعده،فاذا نزلت به المصيبة كان كالمنقطع به فى البيداء يجد نفسه وحده فياخذه اليأس والقنوط من كل جانب .

الثانية : ان الاعراض عن النعمة ترك لها ولموليها والآيس متروك لوحده مغضوب عليه قد ترك فترك وكان جزاؤه من جنس عمله .

انتقال واعتبار : هذه حالة أهل الاعراض أما أهل الاقبال على الله تعالى والقبول لانعامه فان قلوبهم عامرة بالله وصلتهم متينة به فاذا نزلت بهم المصائب رجعوا اليه وانتظروا رحمته فكان ذكره غناهم فى الفقر وأنسهم فى الوحشة ، ونعيمهم فى الالم . وكان لهم من الرجاء فى أنواع رحمته ما يهون عليهم جميع المصائب .

تبصير وتحذير : بصرنا القرآن فى هذين الوصفين الذميمين الاعراض عن النعمة ، واليأس من الرحمة،ونحن نراهما فاشيين فى أكثر الناس على تفاوت بينهم على حسب ما عندهم من ايمان وعمل صالح . بصرنا القرآن بهما ليحذرنا منهما ومن سوء عواقبهما،فان الاعراض عن النعمة كفر بها

ومقتض لسلبها ، وان اليأس من رحمة الله جهل به وكفر بما هو متقلب فيه من نعمه، وموجب لانطماس القلب وشلل البدن وانقطاع الاعمال •

فليحذر المؤمن من هذين الوصفين الذميمين ، وليعمل على اجتنابهما واجتثاثهما من أصلهما •

سلوك : على المرء أن يقبل نعم الله تعالى ويقبل عليها اقبال المستعظم لها، العارف بحقها، وعظيم الفضل بها، ليقوم بشكرها وذكر الله عندها، وليتفحصها وليتأملها نعمة نعمة ليشكر الله عليها واحدة واحدة بالقلب واللسان والاركان حسب المستطاع، حتى ما يكون من باب المصائب والآلام فانه يتناوله على انه نعمة من الله تعالى بما فيه من أجر وتمحيص، وما يحصل به من رجوع وانابة، وما يكون منه من تربية وتدريب على السلوك اللازم في الحياة الفردية والاجتماعية : « **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**) وليكن دائما متمسكا بحبل الرجاء في الله في تسيير الاسباب، وكشف الكروب، ودفع المكروه، فالرجاء حسن ظن في الرب وقوة في القلب، وباعث على العمل ومخفف أو مذهب للالم • فيالها من طاعة عظيم أجرها، جليل نفعها في الدنيا والدين ، فهنيئا للشاكرين الراجين ويا ويح الكافرين ـ كفر عقيدة أو كفر نعمة ـ القانطين •

مباينة سلوك أهل الحق لسلوك أهل الباطل

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً » •

(سورة الاسراء ـ الآية : 83)

المناسبة : قد استفيد مما تقدم تقسيم الخلق الى قسمين أهل ايمان ورجاء ، واهل كفر وقنوط ، فجاء البيان في هذه الآية بأن كل فريق له مذهبه وطريقه الذي يكون عليه •

المفردات : (**شاكلته**) : طريقته ومذهبه المشاكلة له اللائقة به التي صارت له طبيعة وخلقا • (**أهدى سبيلا**) : أسد مذهبا واقوم طريقا •

التراكيب : التعبير بالمضارع مع لفظة على يفيد تجدد العمل وانبنائه على الخلق والطبيعة ٠

المعـــنى : قل يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كل فريـق منا ومنكم يعمل فى حياته على طريقته ومذهبه فأعمالنا مباينة لاعمالكـم لان طريقتنا مباينة لطريقتكم ، فربكم أعلم بمن هو اقوم طريقا وأسـد مذهبا فيثبت المهتدين ويعاقب الضالين ٠

ومن فوائد الآية الكريمة استدراج الضال لقبول الهدايـة : وذلك بمناصفته بأنك على ناحيتك وهو على ناحيته،واظهار التساوى معه امـام علم الله وقدرته،وهذا من أنفع الاسباب فى نجاح الدعوة ، وعليـه فى القرآن آيات كثيرة منها سورة : « **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** » فينبغى لدعاة الحق ان يلتزموه ولا يهملوه ٠

والبراءة من أهل الباطل ٠ وذلك باعلان المباينة لهم والمخالفة لهم فى عملهم وما انبنى عليه عملهم بأسلوب المناصفة الـــذى جاءت به الآيـــة فتحصل البراءة مع الفائدة المتقدمة ٠

انبناء الاعمال على العقائد والاخلاق : فان الآية ؛ وان كانت بالخطاب الاول للمشركين،ثم لامثالهم من الكافرين،فانها تفيد أن كل أحد تبنى أعماله على مذهبه وطريقته التى هى خلقه وطبيعته،ونأخذ من هذا أن الذى نوجه اليه الاهتمام الاعظم فى تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الاخلاق، فالباطن أساس الظاهر وفى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله،واذا فسدت فسد الجسد كله ٠

فعل المؤمن ما يناسب ايمانه : فان كل أحد يعمل على طريقته وطبيعته اللائقـة بـه ، ولا يليق بالمؤمن ولا يشاكله الا الصدق فى القول والاحسان والوفاء والامانة ، فلا يظلم من ظلمه ولا يخون من خانه ولا يكذب على من كذب عليه فلا تجرى أفعاله فى مقابلة الناقص على ما يشاكل ذلك الناقص، بل تجرى أفعاله على ما يشاكله هو فى ايمانه وكماله ٠

مراقبة الله فى السلوك : فان علمنا بأنه أعلم بمن هو أهدى سبيلا يدعونا الى المبالغة فى تقويم سلوكنا حتى نكون على الصراط المستقيم الذى لا اعوجاج فيه فانه هو أهدى الطرق واقربها وما ذلك الصراط المستقيم الا القرآن العظيم والهدى النبوى الكريم وسلوك السلف الصالح وذلك هو دين الاسلام ، نسال الله لنا ولجميع المسلمين الاستقامة والنجاة يوم القيامة بمنه وكرمه آمين (1) ·

(1) الشهاب ـ ج 7 ، م· 7 ـ ربيع الاول 1350 هـ ـ جوليبت 1931 م ·

الـــــود
من إكرام اللـه لأولياء اللـه

« إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا »

(سورة مريم ، الآية 96)

سبب النزول ، ووعد السابقين : كان السابقون الاولون من المؤمنين ـ أول الاسلام بمكة ـ مبغوضين من أهل مكة المشركين مهجورين منهم مزهودا فيهم • ومن أشد الآلام على النفس واشقها ان يعيش الانسان بين قـومه مبغوضا مهجورا مزهودا فيه خصوصا مثل تلـك النفوس الحية الابية • فانزل اللـه هذه الآيـة تأنيسا لاولئك السادة ووعدا لهم بأن تلك الحالة لا تدوم وأنه سيجعل لهم ردا فيصيرون محبوبين مرغوبا فيهم • وقد حقق الله وعده فكان أولئك النفر بعد السادة المقدمين من أقوامهم وعشائرهم لسبقهم وفضلهم وكانوا ـ وهم قادة الجيوش فى الفتوحات الاسلامية ـ المحبوبين هم وجيوشهم المرغوب فيهم من الامم التى فتحوها لعدلهم ورحمتهم ورفعهم لنير الاستعباد الديني والدنيوى الذى كانت تئن تحته تلك الامم ، واثبت التاريخ ان بعض الامم الاجنبية دعتهم الى انقاذها من أيدى رؤسائها، فكانت هذه الآية من آيات الاعجاز بالاعلام بما يتحقق فى الاستقبال مما هو كالمحال فى الحال فكان على وفق ما قال •

عموم الوعد لعموم اللفظ : الإيمان ، هـو التصديق الصادق المثمر للاعمال ، والاعمال الصالحة ـ وهى المستقيمة النافعة المبنية عـلى ذلـك الايمان ـ هما اللذان جعلهما الله سببا فى تحقيق جعل هذا الود لما قـال تعالى : « **إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا** »

فيعم ذلك كل أهـل الايمان والعمل الصالح · وهم أولياء اللـه و « إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ » ·

سبب الود وسبب الجعل : تكسب مودة الناس باسباب متعارفة بينهم منها القرابة ومنها الصداقة ومنها صنائع المعروف ومآثر الاحسان · اما هذا الود الذى وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات فسببه جعل من الله له فى قلوب العباد لهم دون تودد منهم ولا توقف عـلى تلك الاسباب فيودهم من لم يكن بينه وبينهم علاقة نسب أو صداقة ولا وصل اليه منهم معروف فهذا نوع من الود خاص يكرمهم الله به وينعم عليهم به الرحمن مـن جملة نعمـه التى يحدثها ويجددها لهم زيادة عـلى ما يقتضيه الايمان والعمل الصالح ـ ومنه الاحسان ـ من مودة القلوب اما سبب هذا الجعل والوضع والايجاد من الله لهذا الود والاكرام به فهو الايمان والعمل الصالح وهما سبب لإكرامات كثيرة من الله تعالى ـ هذا الجعل للود منها ·

بشارة وتثبيت : فى الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق وانصار السنة ومرشدى الامم عندما يقومون بدعوة القرآن فى عشائرهم ويلقون منهم النفور والاعراض والبغض والانكار ويجدون أنفسهم غرباء بينهـم يعاديهم من كانوا أحبابهم ويقاطعهم أقرب الناس قرابة اليهم ويصبـــح يؤذيهم من كان يحميهم ويدافع عنهم ـ فى الآية بشارة لهم بان تلك الحالة لا تدوم وانهم سيكون لهم عـلى كلمـة الحق مؤيدون وفى اللـه محبوبون وسيكون لهم ود فى القلوب ممن يعرفون وممن لا يعرفون · وفيها أيضا تثبيت لهم فى تلك الغربة ووحشة الانفراد بما يكون لهم من أنس الـود وأى ود هو · ود يكون من جعل الرحمن ·

دفـع اشكال : الآيـة منظور فيها الى مجموع الذيـن آمنـوا وعملوا الصالحات وغالبهم فلا يشكل علينا ان منهم من يموت فى غربة الحق قبل ان يكون له على الحق انصاره ومنهم مـن يموت غير معروف من الناس · كما ان الود الذى يجعل لهم غير منظور فيه للعموم فلا يشكل ببعض مـن يبغضهم تعصبا لهوى أو تقليد الضال أو حرصا على منفعة ومحافظة عـلى جاه أو منصب أو مال ·

تفسير نبوي : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ان الله اذا أحب عبدا دعا جبريل فقال انى أحب فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء : ان الله يحب فلانا فاحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الارض · واذا ابغض عبدا دعا جبريل فيقول انى ابغض فلانا فابغضه فيبغضه جبريل ثم ينادى (جبريل) فى اهل السماء ان الله يبغض فلانا فابغضوه فيبغضونه ثم توضع له البغضاء فى الارض » رواه بهذا اللفظ مسلم ورواه البخارى وغيرهما · وزاد الطبرانى « ثم قـرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا » فارتبط الحديث بالآية بزيادة الطبرانى ، وبين النبى (ص) بقراءة الآية ان هذا القبول الذى يجعل لمن أحبه الله فى أهل الارض ــ والمراد بهم من يعرفونه منهم ــ هو نوع الود المذكور فى الآية وبين ان أهل القبول فى الارض محبوبون في أهل السماء قبل أهل الارض وبين ان سبب ذلك القبول هو محبة الله لهم فمن أحبهم حببهم لعباده ولما كان سبب القبول محبة الله لهم بين (ص) ان بغض الله سبب فى بغض الخلق لهم اذ ما تسبب عن احد الضدين يتسبب عن الآخر ضده · ولما كانت محبة الله مسببة عن الايمان والعمل الصالح فبغض الله مسبب عن ضدهما اذ ما تسبب عنه احد الضدين يتسبب عن ضده الضد الآخر ، وكما كان ذلك الود والقبول يكون شيئا زائدا على ما تقتضيه أسباب الود بين الناس كذلك تكون هذه البغضاء التى يهين الله بها ويعاقب من يشاء زيادة على ما تقتضيه أسباب البغضاء بينهم فيكون هـذا الذى وضعت لـه البغضاء ــ والعياذ بالله ــ مبغوضا حتى ممن لم يكن منه اليه شيء من أسباب البغض.

تبيين وتعيين : قد يكون الأتباع والمحبون والراغبون لأهل الحق ولأهل الباطل لائمة الهدى ولرؤوس الضلال لدعاة الاتباع ولدعاة الابتداع · ولكن أهل المحبة من الله والود والقبول من العباد هم أهل الحق وأئمة الهدى ودعاة الاتباع للكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالحون لا لانفسهم والتحزب لهم وجلب النفع لهم ، والذى يعينهم لهذه الكرامة دون غيرهم هو اتباعهم للنبى (ص) فى سيرته ودعوته وما كانت دعوته

الا للقرآن وبالقرآن دون ان يسال على ذلك من اجر • وهذا لان الـــود والقبول عند العباد مسببان عن محبة الله للعبد ومحبة اللــه لا تكون الا للمتبعين للنبى (ص) لقوله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ » ، فكرامة الـود والقبول انما هى للمتبعين لـه (ص) فاما غيرهم فما يكون لهم من قبول عند امثالهم فهو فتنة وبلاء عليهم •

ارشاد : افادت الآيــة الكريمة والحديث الشريف ان على المسلم ان يتمسك بالايمان والعمل الصالح والاتباع للنبى (ص) ولو كان فى قوم انفرد بينهم بذلك وحده • ولا يستوحش من انفراده بينهم • فحسبه رضى الله ومحبته وكفى بهما انسا ، وليثق بانه ـ ان صدق ـ وعد الله فى عمره يكون له ود وقبول في عباد الله وانس بمن يحبهم ويحبونه لله وتلك المحبة النافعة الدائمة والصلة المتينة الجامعة التي تجمــع بين أهلها فى الدنيا والآخرة • جعلنا الله والمسلمين من العاملين له المتحابين فيه (1) •

---

(1) ش : ج 4 م 11 ، ربيع الثاني 1354 هـ جويلية 1935 م •

مــن آداب المتعلــــم
حســن التلقي وطلــب المــزيد

« وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً »

(سورة طـه ، الآية 114)

لا حياة الا بالعلم وانما العلم بالتعلم فلن يكون عالما الا من كان متعلما كما لن يصلح معلما الا من قد كان متعلما ، ومحمد صلى اللـه عليه وآلـه وسلم الذى بعثه الله معلما كان أيضا متعلما ٠ علمه الله بلسان جبريل ، فكان متعلما عن جبريل عن رب العالمين ٠ ثم كان معلما للناس اجمعين ٠ ارايت أصل العلم ومن معلموه ومتعلموه ؟ ثم ارأيت شرف رتبـة التعلم والتعليم ٠ لا جرم كان لرتبة التعلم آدابها ولرتبة التعليم آدابها ٠ وكان محمد (ص) اكمل الخلق فى آدابها بما أدبه اللـه وانزل عليه من الآيات فيهما ، مثل آيتنا اليوم وغيرها ٠

لزوم الصمت عند السماع : كان النبى (ص) اذا نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي وقراه عليه قرا معه وساوقه فى القراءة وكان ذلك منه (ص) لحرصه على حفظه وعدم نسيانه ، حتى يبلغه كما انزل عليه ٠ ولان تعلق قلبه بما يسمع من جبريل وامتلاءه به واستيلاء ذلك المسموع على لبه يدعوه الى النطق بـه لما بين القلب واللسان من الارتباط ولان شـوقه الى ذلك المسموع ومحبته ورغبته فيه تبعثه على التعجيل بقراءته ، غير ان القراءة عند السماع وقبل تمام الالقاء تمنع تمام الوعى لان عمل اللسان بالنطق يضعف عمل القلب بالوعى والحفظ ٠ فلذا نهى الله تعالى نبيه (ص) عن

ان يعجل بقراءة القرآن عند سماعه من جبريل من قبل ان يقضى ويتم اليه وحيه فقال تعالى : « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » .

تأكيد الصمت بكف اللسان : لا يتم تفرغ القلب للوعى الا بسكون اللسان فلا يكفى فى تفرغه ترك القراءة الجهرية عند السماع حتى ينكف اللسان عن الحركة فلا تكون قراءة لا جهرا ولا سرا فلذا أكد اللـه تعالى طلب ترك القراءة بالنهى عن تحريك اللسان فقال تعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » ثم بين ان الله يجمعه فى قلبه (ص) بالحفظ وانه يطلق بقراءته لسانه بقوله : « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » اى قراءتك اياه ثم أمره ان يتبع قراءة جبريل اذا قرأه عليه فيقرأه كما قرأه بعد فراغه بقـوله : « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » اى فاذا قرأه جبريل وفرغ منه فاتبع قراءته فاقرأه كما قرأه . وانه تعالى يبينه بأقوال نبيـه (ص) وافعاله بقوله : « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

هذا الادب أدب عام : انما المقصود من الكلام البيان عن المراد وانما المقصود من السماع وعى الكـلام ليفهم المراد فكما كان عـلى المتعـلم ان يسكت حتى يفرغ معلمه من القدر المرتبط بعضه ببعض مما يلقيه اليه المعلم حتى يفرغ المعلم من القائه كذلك على المناظر ان يستمع لمناظره حتى يستوفى دعواه وحجته وعلى كل قارىء لكتاب ان يستوفى ما يرتبط بعضه ببعض منه ثم يبدى رأيه فيه وعلى كل مستمع لمتكلم كذلك ، فبهذا الادب يتم وعي المتعلم فيحفظ وفهم المناظر فيرد ويقبل وفهم القارىء فيعرف ما يأخـــذ ويترك وفهم السامع لتحصل فائدة الاستماع . وبترك هذا الادب كثيرا ما يقع سوء الوعي أو سوء الفهم وفوات القصد من المناظرة أو القراءة أو الكـــــلام .

دوام التعلم للازدياد من العلم : يتعلم الانسان حتى يصير عالما ويصير معلما ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه ومهما قضى من حياته فى التعليم وتوسع فيه وتكمل به فلن يزال بحاجة الى العلم ولن تزال امامه فيما علمه وعلمه أشياء مجهولة يحتاج اليها فعليه ابدا ان يتعلم وان يطلب المزيد . ولذا أمر الله نبيه (ص) ــ وهو المعلم الاعظم ــ ان يطلب من الله ــ

وهو الذى علمه ما لم يكن يعلم ـ ان يزيده علما فقال : « وَقُلْ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمـــاً » ·

تحذير واقتداء : ما أكثر ما رأينا من قطعهم ما حصلوا من علم عـن العلم فوقف بهم عندما انتهوا اليه فجمدوا واكسبهم الغرور بما عندهـم فتعظموا وتكلموا فيما لم يعلموا فضلوا واضلوا وكانوا على انفسهم وعلى الناس شر فتنة واعظم بلاء فبمثل هذه الآية الكريمة يداوى نفسه مـن ابتلى بهذا المرض فيقلع عن جموده وغروره ويزداد مما ليس عنده ممن عنده علم ما لم يعلم · ويحذر من ان يقف عن طلب العلم ما دام فيه زمن من الحياة ويقتدى بهذا النبى الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فلن يزال يطلب من الله تعالى ان يزيده علما بما ييسر له من أسباب وما يفتح له من خزائن رحمته وما يلقيه فى قلبه من نور وما يجعل له من فرقان وما يوفقه اليـه من أصل ذلك كله وهو تقوى اللـه والعمل بما علمه · نسـأل اللـه لنا وللمسلمين العلم النافع والعمل الصالح فهو ولى الهداية والتوفيق (1) ·

---

(1) ش : ج 5 م 11 ، جمادى الاولى 1354 هـ 1935 م ·

مـن وعـد اللـه للصالحين

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّالِحُونَ »

(سورة الانبياء ، الآية 105)

المناسبة : لما مضى في السورة ذكر الانبياء (ص) وأممهم وختم الحديث عنهم بذكر الساعة وقربها ومقدماتها وأحوال الخلق يوم القيامة ـ جاء في هذه الآية ذكر الامة التي جاءت بعد تلك الامم كلها وهي أمة محمد (ص) ٠

توجيه : وانما كانت هذه الآية في أمـة محـمد لانه لما تكلم على الامم الخالية لم يبق الكـلام الا عليها فخوطبت بما قضاه اللـه وكتبه من ارث الصالحين الارض ٠ والمخاطبون بهذه الآية المكية هم المومنون بالله الموحدون له المتبعون لرسوله محمد (ص) المصدق لجميع الرسل (ص) وهم اصحاب النبـي (ص) وهم الصالحون الموجودون يوم ذاك على وجه الارض فكانت الآية اعلاما بما كتبه الله لهم ووعدا بارثهم الارض ٠

الالفاظ : « **الزبور** » : بمعنى المزبور أى المكتوب والمراد بـه جنس ما أنزله الله من الوحي على رسله (ص) وأمر بكتابته ٠ وقرأ حمزة الزبور جمع زبر أى كتاب فعينت هذه القراءة ان المراد بالزبور في القراءة الاولى الكتب المنزلة لا خصوص زبور داود (عليه السـلام) ٠ « **الـذكر** » : المراد به هنا اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه كل شيء قبل ان يخلق الخلق وجاءت تسميته بالذكر فيما رواه البخارى في مواضع من صحيحه عن عمران بن حصين (ض) قال رسول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم : « كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والارض » ومما كتبه في الذكر ما انزله على رسله (ص)

كما قال تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٌ » ، « الارض » : جنس الارض الدنيوية لان هذا اللفظ موضوع لها فاذا اطلق انصرف اليها وبهذا فسرها ابن عباس من طريق على بن طلحة وهى أصح طرقه • « يرثها » : تنتقل اليهم من يد غيرهم واصل الارث الانتقال من سالف الى خالف وقد يطلق فى غير هذا الموضع على أصل التمليك مجازا • « الصالحون » : الصالح من كل شيء هو ما استقام نظامه فحصلت منفعته وضده الفاسد وهو ما اختل نظامه فبطلت منفعته ، ويظهر هذا من تتبع مواقع الاستعمال فاذا قالوا هذه آلة صالحة عنوا انها مصلحة للمنفعة المرادة منها لانتظام اجزائها ، واذا قالوا آلة فاسدة عنوا أنها لا تحصل المنفعة لاختلال فى تركيبها • والصالح فى لسان الشرع ـ قرآنا وسنة ـ لم يخرج عن هذا المعنى المقصود حيثما جاء • فالصالح هو من استنار قلبه بالايمان والعقائد الحقة وزكت نفسه بالفضيلة والاخلاق الحميدة واستقامت أعماله وطابت أقواله فكان مصدر خير ونفع لنفسه وللناس • استقام نظامه فى عقده وخلقه وقوله وعمله فعظمت وزكت منفعته وهذا هو معنى الصالحون حيثما جاء كما فى قوله تعالى : « وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » وكما فى التشهد « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » وقد بين القرآن من هم الصالحون بيانا شافيا وكافيا بذكر صفاتهم مثل قوله تعالى : « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ » •

المعنى : يخبرنا الله تعالى انه كتب فى الكتب التى انزلها على رسله من بعدما كتب فى اللوح المحفوظ الذى هو أصل تلك الكتب أن الارض يرثها ويملكها عباده الصالحون أهل العقائد الصحيحة والاخلاق الكريمة والاعمال المستقيمة الذين ينفعون العباد والبلاد •

تطبيق : خاطب الله بهذه الآية المؤمنين بمكة وهم فى قلة عدد وعدد يعدهم بذلك ـ لا بطريق صريح ـ انهم يرثون الارض ويكون لهم فيها القوة والنفوذ ويبعثهم بتعليق الوعد بوصف الصلاح على التمسك به والازدياد منه والاستمرار عليه ثم صرح لهم بالوعد بعد فى سورة النور

وهي مدنية بقوله تعالى : « وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ » • وقد حقق الله لهم هذا الوعد ففتح لهم الفتوح واورثهم ملك كسرى وقيصر ومد ملكهم في الشرق والغرب واولئك الذين كانوا في قلة وخوف يوم نزلت الآية المكية هم الذين شاهدوا ذلك النصر وتلك الفتوح وتراسوا ذلك الملك العريض •

تعميم وتقييد : علق الوعد بالوصف وهو الصلاح ليعلم انه وعد عام ولتعلم كل امة صالحة أنها نائلة حظها ـ لا محالة من هذا الوعد • واقتضى هذا التعليق بالوصف أيضا تقييده بأهله فاذا زال وصف الصلاح من امة زال من يدها ما ورثت ونظير هذا التقييد قوله في آية النور : « يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ » •

تنظير : مثل هذه الآية فيما تضمنته من الوعد الذى يقوى به قلوبهم ويثبت ايمانهم ويظهر به صدق نبيه (ص) بما أعلمه به من غيب ـ أحاديث صحيحة (1) كقول النبى (ص) لخباب (ض) وقد لقي الصحابة من المشركين شدة فساله أن يدعو فقال له النبي (ص) : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ما يخاف الا الله (2) • وكقوله (ص) لعدى بن حاتم (ض) « فان طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف الا الله • ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى » وقد امتدت به الحياة حتى رأى ذلك ومثل هذا أحاديث أخرى في الصحيح • فقد تطابقت الآيات والاحاديث في هذا الوعد • وقد صدق الله وعده لعباده الصالحين وصدق

(1) البخارى فى باب ما لقى النبى (ص. من المشركين •
(2) البخارى فى باب علامات النبوة فى الاسلام •

نبيه (ص) بما لم يكن يعلمه أحد ولا يرى شيئا من أسبابه بل لا يرى الا ما هو مناف له ولكن العاقبة للمتقين ٠

اشكال وحله : قال أناس ان أرض الدنيا كما يستولى عليها الصالحون يستولى عليها غيرهم والارض التي لا يرثها الا الصالحون هي أرض الجنة فيجب تأويل الآية بها ٠

والجواب : أن هذا التاويل انما يحتاج اليه أن لو كانت الآية هكذا : « **ان الارض لا يرثها الا عبادى الصالحون** » بطريق الحصر فيهم ٠

أما لما كانت الآية لا حصر فيها فلا حاجة الى هذا التأويل بل فى لفظ الارث وربطه بوصف الصلاح دلالة على انها كانت لغيرهم فانتقلت اليهم وانها تزول مع زوال وصف الصلاح ٠ وقد جاء التنبيه على أن الارض يرثها عبادى الصالحون وغيرهم فى قوله : « **إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** » فيرثها الصالحون نعمة ويرثها غيرهم فتنة ونقمة كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير ٠

ايراد وجوابه : قد يقال فما هى الفائدة اذا فى تخصيص الصالحين بالذكر فى هذا الآية ٠ والجواب ـ 1 ـ ان هذه الآية خوطب بها أول الناس الصحابة بمكة وهم الصالحون فى الارض ليعلموا ما وعدهم الله به وليعلموا ان قوة الباطل الى ضعف وأن ضعف الحق الى قوة ٠ ـ 2 ـ ولان شان الصالحين أنى كانوا أن يكونوا قليلا سيما أول أمرهم فهم بحاجة الى أن يعلموا هذا الوعد ليزدادوا ايمانا وقوة وثباتا . ـ 3 ـ ولان الخلق مفتونون بالكثرة فى العدد والعدة غافلون عن القوة الروحية والاخلاقية وما ينشأ عنهما من استقامة لا يحسبون لذلك حسابا فيحتاجون الى العلم بان الصالحين نائلون حظهم من هذا الوعد وان كانوا قلة فى الناس ٠ و « **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ** » ٠

تحذير من تحريف : راى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الارض ـ وهى مدنية مادية فى نهجها وغايتها ونتائجها فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والاحسان ـ فقالوا ان رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم الله بارث الارض ٠ وزعموا ان المراد بالصالحون

في الآية الصالحون لعمارة الارض · فياللّه للقرآن · وللانسان · من هذا التحريف السخيف كان عمارة الارض هي كل شيء ولو ضلت العقائد · وفسدت الاخلاق · واعوجت الاعمال وساءت الاحوال وعذبت الانسانية بالازمات الخانقة وروعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة · وهددت باعظم حرب تاتي على الانسانية من أصلها والمدنية من أساسها · هذه هي بلايا الانسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الارض وافسدت الانسان ثم يريد هذا المحرف ان يطبق عليها آية القرآن : كتاب الحق والعدل والرحمة والاحسان · واصلاح الانسان ليصلح العمران · فاما الصالحون فهو لفظ قرآني قد فسره القرآن كما قدمناه وقد شرف أهله باضافتهم الى اللـه في قوله : « عبادي » فحمله على الصالحين لعمارة الارض تحريف للكلام عن مواضعه ابشع التحريف وابطله فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين ·

موعظة وارشاد : فعلى الامم التي تريد أن تنال حظها من هذا الوعد ان تصلح انفسها الصلاح الذي بينه القرآن فاما اذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح فلاحظ لها من هذا الوعد وان دانت بالاسلام ·

ولله سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيئته في ملك الارض وسيادة الامم يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء · من أخذ بنوع من تلك السنن بلغت به وبلغ بها الى ما قدر له من عز وذل وسعادة وشقاء وشدة ورخاء وكل محاولة لصدها عن غايتها ـ وهو آخذ بها ـ مقتضى عليها بالفشل · سنـة اللـه ، ومن ذا يبدلها أو يحـولها ؟ « فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً » ، « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً » ، ثم « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ » ·(*)

(*) ش: ج 6 م 11 ، جمادى الثانية 1352 هـ ـ سبتمبر 1935 م ·

دفــاع اللــه عــن المــؤمنين

« إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُــورٍ »

(سورة الحج ، الآية 38)

الكلمات : دفع الشيء : صده ورده ، والدفاع عن الشيء حمايته بصد ما يؤذيه عنه . وقرىء فى المتواتر (يدفع) وقرىء (يدافع) وهــو بمعنى يدفع ولكنه أريد قوة الدفع فجيء بيفاعل الذى يقتضى المغالبة فى أصلــه لان دفع المغالب اقوى وابلغ . أو لان ما يهيئه الله لهم من أسباب الدفع التى يباشرونها مقابلة لما يقصدهم به اضدادهم فكان الدفع مــن الجانبين. **خان :** اذا ضيع ما جعل فى حفظه وعهدته والخوان الكثير التضييع لمــا استحفظ . **والكفور :** الكثــير الجحود للنعم فلا يعترف بها أو لا يــؤدى شكــــرها .

التراكيب : عندما يكون المؤمنون فى قلة وضعف واعداؤهم فى كثرة وقوة كالحالة التى كان عليها المؤمنون يوم نزلت الآية بعيد الهجرة ـ تشك النفوس فى سلامتهم من كيد عدوهم فلذا جاء هذا الخبر مؤكدا بان . ولكون هذا الدفع متجددا جيء بالفعل مضارعا . ولبيان سبب الدفع جيء بالجملة المستانفة بعد الجملة الاولى واكدت بان لان الاولى تحمل المخاطب على ان يسأل سؤال المتردد هل هؤلاء المدفوعون اعداء مبغوضون ؟ فأجيب بالتاكيد . وحذف مفعــــول يدافع ليعم كل ما يدفع فشمل كيــــد جميع الكائـــــدين .

التفسير : هذا من الله تعالى خبر حق ووعد صدق للمؤمنين بانه يرد عنهم كيد اعدائهم ويبطل مكرهم ويكف شرهم وان عظم ذلك منهم وكثر · وان هذا منه لهم متكرر متجدد · ذلك لانهم بايمانهم حافظوا على أمانة الله عندهم وعهده لديهم واعترفوا بنعمه وشكروها فأحبهم الله ورضى عنهم فأيدهم ونصرهم ودافع عنهم · ولان اعداءهم ضيعوا أمانة اللـــه عندهم بارتكاب المنهيات وترك المأمورات وجحدوا وحدانيته أو نبوة نبيه (ص) أو ما جاءهم به من شرعه فابغضهم ورد كيدهم مغلوبين مدحورين ·

تحرير في التعليل : ان الحب من الله والبغض كسائر أفعاله لا تقع الا على وجه الحق والعدل والسداد وهذا أمر واجب لافعال الرب الحكيم . فالمؤمنون أحبهم ونصرهم لايمانهم ، واعداؤهم ابغضهم وخذلهم لخيانتهم وكفرهم · واقتضت هذه المقابلة ان الخيانة والكفر من صفات اضدادهم وليست من صفاتهم فايمانهم مستلزم لامانتهم بحفظ عهد الله عندهم فى نفوسهم وعقولهم وابدانهم وجميع ما لديهم على جميع أحوالهم ، ومستلزم لاعترافهم بنعم الله وشكره عليها باستعمالها فى طاعته وطلب المزيد من بره · وأمانتهم هذه وشكره هى مظهر ايمانهم الذى يميزهم عن اضدادهم ويـدل على صدقهم فى ذلـك الايمان ورسوخه فى قلوبهم · فاذا أعدمت منهم الامانة فخانوا الله والرسول وخانوا أمانتهم وفشت الفواحش والمناكر والبدع فيهم وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، واذا بطروا نعم اللـه عندهم فعطلوا منها مـا عطلـوا بجهلهم وكسلهم وقعودهم عـن الخـير وأسباب الحياة والسعادة ، واستعملوا منها ما استعملوا فى الشر والفساد واتباع الشهوات ــ اذا كانوا هكذا فقـد استوجبوا غضب اللـه وبغضه ونقمته وحرموا نصرته ودفاعه وكانوا هم الظالمين ·

خيانة دون خيانة وكفر دون كفر : الخيانة خيانتان خيانة عقيدة وخيانة أعمال وكذلك الكفر وكذلك النفاق وكذلك الشرك وانما يخرج المرء عن أصل الاسلام بما كان في أصل العقيدة لا بمـا كان في الاعمال الا عملا يدل

دلالة ظاهرة على فساد العقيدة وانحلالها · وعلى هذا عقد البخارى رحمه الله فى الجامع الصحيح أبوابا فى ظلم دون ظلم وكفر دون كفر ·

تطبيق : لما كان المسلمون أهل الايمان والصدق والشكر والامانة دافع الله عنهم وقد شهد التاريخ بذلك من الله لهم ، فلما خانوا وكفروا تركهم ومكن منهم · ولكنه برحمته وعدله لم ينس لهم أصل اسلامهم فابقى لهم أصل وجودهم الذاتى · وهم لحم على وضم بين الامم لا يستطيعون دفعا عن أنفسهم · وابقى لهم أصل وجودهم الروحى بكتابه المتلو بين ظهرانيهم رغم اعراضهم عن تدبره وهجرهم لما فيه ـ عساهم يرجعون ·

تنبيه وتحذير : كل عمل لا يحل فهو خيانة وان كان بادنى اشارة وقد نبه الله على هذا بقوله : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ » وهى مسارقة النظر الى ما لا يحل والاشارة بطرف العين فيما يحرم · واعظم الخيانة بعد الكفر خيانة العامة لان الذنب يعظم بعظم اثره وانتشار ضرره · ولهذا جاء ما جاء من الوعيد الشديد فيمن ولى أمرا من أمور المسلمين فغشهم ولم ينصح لهم ، فحق على المسلم ان يحذر من الخيانة دقيقها وجليلها وخصوصا ما اتصل بالناس منها ويتنبه من أقل كلمة وادنى اشارة توقعه فى خطرها ·

سؤال وجوابه : فان قيل : قد نجد من عباد اللـه المؤمنين من يصيبه البلاء والشدة فيعذب وقد يقتل وكأين من نبى قتل ، وقد أصاب المؤمنين يوم احد ويوم حنين ما أصابهم · فالجواب : ان دفع الله يكون بأسباب وانواع وعلى وجوه تختلف بحسب الحكمة ولا تخلو كلها من دفاع فان ما يصيب المؤمنين من البلاء فى افرادهم وجماعتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد ويقوى فيهم خلق الصبر والثبات وينبههم الى مواطن الضعف فيهم أو ناحية التقصير منهم فيتداركوا أمرهم بالاصلاح والمتاب فاذا هم بعد ذلك الابتلاء اصلب عودا وأطهر قلوبا وأكثر خبرة وامنع جانبا وان فى صبر الصابر منهم وقد نزل به البلاء الذى لا يقدر على دفعه والظلم الذى لا يقدر على ازالته ـ لبعثا للقوة فى نفس غيره ممن يأتسى به ، وضعفا فى قلب ظالمه ـ وفى كليهما دفع من الله عن المؤمنين ·

مشاهدة وتوصية : نعرف فى حياتنا مواطن ما نجونا فيها الا بدفع الله وبطل كيد الكائدين فيها بمحض صنع اللـه ، وقد كنا فيها ـ فيما نرى ـ على شىء من العمل لله • فكيف بمن كانت أعمالهم كلها لله • وهذه المشاهدة التى شاهدنا ـ ولا نشك انّ من غيرنا من شاهد مثلنا أو أكثر منا ـ توجب علينا ان نوصى بالايمان بالله والمحافظة على عهده والثقة به فان ذلك يحقق وعد الله بالدفع وينيل أهله العزة والحفظ • فعلى المسلم ان يعمل لذلك ويعتد به ثقة بالله وصادق وعده • والله لا يخلف الميعاد (1) •

(1) ش : ج 9 م 11 ، غرة رمضان 1354 هـ ـ ديسمبر 1935 م •

أكل الحلال والعمل الصالح

« يَا أَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ »

(سورة المؤمنون ، الآية 15)

الكلمات : الطيب : ما صلح واعتدل فى نفسه وسلم من كل ما يفسده ويخرجه عن اعتداله وأصل خلقته فكان مستلذا للنفوس سواء كان مما يدرك بالسمع أو بالبصر او بالذوق أو بالشم أو باللمس أو بالعقل . فالطيب هو اللذيذ لذة حسية أو عقلية ويقابله الخبيث وهو المستقذر حسا أو عقلا ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : « **وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ** » فما أحل الله الا الطيب المستلذ وما حرم الا الخبيث المستقذر فلهذا صار الطيب فى لسان الشرع يجيء كثيرا بمعنى الحلال ويكون ضده الخبيث بمعنى الحرام . ومنه « **كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ** » اى المحللات فملك غيرك وان كان مستلذا فى الحس فانه ليس طيبا لك شرعا وذلك لانه مستقذر فى العقل بما فيه عند تناوله بدون اذن صاحبه من التعدى المستقبح فى العقل . وقد يجيء الطيب بمعنى الجيد والخبيث بمعنى الرديء وعليه قوله تعالى : « **يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ** » . **الصالح** : هو المستقيم النافع وهو فعل المامورات وترك المنهيات وتناول المباحات من حيث انها مباحات أو وسائل لفعل المامورات وترك المنهيات .

التراكيب : للاهتمام بالمامور به قدمت قبل الامر جملة النداء ، ولان هذا المامور به مما يجب عليهم تبليغه نودوا بلفظ الرسل . ولان كل واحد منهم أوحى الله اليه بهذا النداء والامر فى زمانه كان النداء والامر

للجمع ، وقد دخل فى الجمع عيسى - عليه الصلاة والسلام - الذى كان الحديث عليه فى الآية التى قبل هذه وهى : « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ». كما دخل فى الجمع محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - الذى نزلت عليه هذه الآية ٠ لان المقصود من الاكل - وهو الغذاء واللذة - يحصل ببعض قبل « من الطيب » بمن التبعيضية ٠ ولما كان المخاطب باكل الحلال والعمل الصالح شأنه ان تتشرف نفسه لتعيين ثمرة ذلك جاء الخبر مؤكدا بأن فى « إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وعلم الله مستلزم لجزائه للعاملين فكان كناية عن الجزاء وفى الكناية عن الجزاء بالعلم تفخيم لهذا الجزاء وتعظيم فهو جزاء الله العليم وكفى به ٠

التفسير : خلق الانسان مركبا من روح وبدن وانما بقاء بدنه بالغذاء وانما كمال روحه بالعمل فأمر الله بالاكل لبقاء البدن واشترط ان يكون من الطيبات لانها هى التى تغذى ولا تؤذى، اما الخبائث ففيها الاذى ويتفه (1) أو يعدم منها الغذاء ، وأمر بالعمل الصالح الذى فيه زكاء للنفس ونفع لها فى العاجل والآجل وخير للعباد والبلاد ٠ وأخبر بعلمه بعمل العاملين ليجتهدوا فى العمل ويخلصوا له فيه وينتظروا جزاءهم من عنده ٠ والدين كله عمل صالح وتوحيد خالص ٠ وقد انتظمتهما الآية تصريحا فى العمل واستلزاما فى التوحيد ٠ وبين - تعالى بهذا الآية ان هذا الذى اشتملت عليه هو دين الله لجميع الامم أوصى به رسله (ص) ليبلغوه لخلقه فهو حقيق ان يؤخذ به ويعمل عليه ٠

توجيه الترتيب : تتوقف الاعمال على سلامة الابدان فكانت المحافظة على الابدان من الواجبات ولهذا قدم الامر بالاكل على الامر بالعمل فليس من الاسلام تحريم الطيبات التى أحلها الله كما حرم غلاة المتصوفة اللحم وليس من الاسلام تضعيف الابدان وتعذيبها كما يفعله متصوفة الهنادك ، ومن قلدهم من المنتسبين الى الاسلام ، والميزان العدل فى ذلك هو ما كان

---

(1) تفه الرجل يتفه تفوها : قل عقله فهو تافه ٠ وتفه الطعام يتفه تفاهة : لم يكن له طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة فهو تفه وتافه ٠

عليه النبى (ص) واصحابه (ض) وقد بين ذلك أئمة السنة والاثر رحمهم الله وقد جوده مالك « ر » فى كتاب الجامع من الموطا ٠

وفى تقديم الاكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على انه هو الذى يثمرها لان الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن فتصلح الاعمال كما ان الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن فتفسد الاعمال ٠

بيان نبوى : أخرج مسلم فى صحيحه من طريق أبى هريرة (ض) ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أيها الناس ان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا ٠ وان اللـه تعالى أمر المؤمنين بما أمـر به المرسلين فقال تعالى : « **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** » وقال تعالى : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** » ثم ذكر الرجل يطيل السفر ــ اشعث اغبر ــ يمد يديه الى السماء ٠ يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فـانى يستجاب لذلك » ٠ فبين الحديث الشريف ان اللـه طيب ــ أى منزه عن النقص فى ذاته وصفاته وافعاله تنعم العقول والارواح بمعرفته ــ كما يليق به ومحبته ٠ وانه لا يقبل من الاعمال الا طيبا أى صالحا فى نفسه خالصا من شوائب المخالفة والرياء والشرك ، وبين ان الشرع عام للرسل وللامم ولا يستثنى من هذا الا ما دل الدليل على اختصاصه بالرسل ، وبـين ان أكل الحلال هو الذى يثمر قبول الدعاء والدعاء هو مخ العبادة ٠ فاذا رد عليه فقد ردت عليه عبادته , فكان هذا البيان النبوى على مقتضى ما أفاده ترتيب الامرين فى الآية ٠

تكميل : فى آية الرسل الامر بالاكل من الطيبات والامر بالعمل الصالح واستلزام الامر بالاخلاص وفى آية المؤمنين الامر بالاكل من الطيبات والامر بالشكر والتصريح بلزوم توحيده تعـالى فى العبادة لان تمامها هكـذا : « **وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ».واقتصر فى الحديث على الامر بالاكل من الطيبات أما لان الكلام كان فى الحث على أكل الحلال ، واما لان الراوى اختصر الرواية ٠

الاهتداء : على المؤمن ان يتحرى فى ماكله ومشربه وكل ما به قـوام ذاته ـ الحلال الطيب يمتثل بذلك أمر الله ويقصد التوصل به الى العمل الصالح · وعليه ان يتحرى فى فعله وتركه أمر الله ونهيه حتى يكون عمله عملا صالحا طيبا متقبلا · يمتثل بذلك امر الله ويقصد قبول عبادته ودعائه لديه · والمتحرى للحق والخير جدير بالتوفيق اليه وكثرة أصابته ·

رزقنا اللـه والمسلمين التحرى لطاعتـه والتوفيق لمرضـاته والتادب بكتابـه آمـــين (1) ·

---

(1) الشهاب : ج 11 م 11 ، ذو القعدة 1954 فيفرى 1936 م ·

الاجتماع العام ، للأمر الهام
وارتباط الجماعة بأمر الإمام

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

(سورة النور ، الآية 62)

الالفاظ : الامر الجامع هـو الحادث الذى يتطلب الاجتماع بطبيعته فيجمع الامام الناس من أجلـه · من ذوى الرأى والمعرفة بمثلـه والخبرة والتجربة فيه · مـن كل ما يعـم نفعه أو ضرره من أمور السلم والحرب وشؤون الحياة والاجتماع · ليتشاوروا فيما بينهم ويستضيئوا بعضهم لراي بعض · والاستئذان هو طلب الاذن مـن الامام بمفارقة الاجتماع لعذر قاض بالمفارقة ·

المعنى : يأمر الله المؤمنين اذا كانوا مع رسـوله صلى اللـه عليه وآله وسلم على أمر جامع ان لا يفارقوا مجلسه كلهم أو بعضهم الا باذنه · وأكد هذا الامر بما وطأ لـه من ذكر الايمان بالله ورسوله تنبيها على انه مـن مقتضاهما · وبقرنه بهما وجعله ثالثا لهما تعظيما لشأنـه وتنبيها عـلى ملازمته لهما ممن صدق فيهما · حتى كأن غير المستاذنين لا إيمان لهـم وباعادته فى الجملة الثانية ببيان ان الذين يستأذنون هم دون غـيرهم الثابتون فى ايمانهم المستمرون عليه تعريضا بالذين لا يستأذنون وتقبيحا

لحالهم بانهم لا ثبات لهم فى الايمان ولا استمرار منهم على العمل بـــه • فليسوا بالمؤمنين ولا بالذين يؤمنون •

ثم جعل الخيار لرسوله فى الاذن وعدم الاذن لهم اذا استأذنوه لبعض شانهم تعظيما لامر الاجتماع وتعظيما للصالح العام وتوكيدا لحق الامام على الجماعة لحفظ الاجتماع وتتميم الاعمال •

ثم أمره ان يستغفر لهم فقد يكون العذر دون الاضطرار • وقد يكون ما فاته من بركات الاجتماع وحسنات المشاركة فيه بالرأى والاهتمام وتكثير السواد ـ بسبب ذنب كان منهم فى أمر غير الاجتماع وأكد هذا الامر بأنه الكثير المغفرة لعباده الدائم الرحمة بهم •

الاحكام : لما كان الاجتماع شرع للمصلحة والذهاب بدون استئذان حــرم للمفسدة فالمشروعية والتحريم دائمان بدوام المصلحة والمفسدة • فأحكام الآية مستمرة الاحكام عامة للمسلمين فى كل زمان وكل مكان مــع أئمتهم وقادتهم والمقدمين منهم فيهم فى كل ما يعرض من اجتماع لصالح عام • فمن أحكام الآية الكريمة ـ ان على أئمة المسلمين وذوى القيادة فيهم اذا نزل بهم أمر هام ان يجمعوا جماعة المسلمين الذين يرجى منهم الرأى والعمل فيما نزل فلا يجوز لهم ان يهملوا أمــرهم ولا ان يستبدوا عليهم ـ وان على المسلمين ان يجتمعوا اليهم ويكونوا معهم يظاهرونهم ويؤيدونهم وينصحون لهم • فلا يجوز لهم ان يتخلفوا عنهم ولا ان يخذلوهم ـ وان على المجتمعين ان لا يذهب واحد منهم الا باذن ـ وان لا يستأذن الا لعـــذر ببعض الشأن ـ وان على الامام ان ينظر فى الاذن وعدمه فيفعل ما هو أولى •

بيان مراد ، ودفع اغترار واعتراض : تجـد فى آيات القرآن العظيم أخبارا ووعودا من الله تعالى للمؤمنين ولربما حسب من لا يعلم انها تشمل كل من كان على أصل الايمان من اعتقاده مع بعض أعماله وان فرط فى كثير من أصول الاعمال • فيبين اللـه تعالى فى هذه الآيـة وامثالها مراده بالمؤمنين عند اطلاق لفظ المؤمنين فى تلك الاخبار والوعود حتى لا يغتر المفرطون ولا يعترض الجاهلون •

توجيه وارشاد : انما ينهض المسلمون بمقتضيات ايمانهم بالله ورسوله اذا كانت لهم قوة وانما تكون لهم قوة اذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتئازر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة • ولهذا قرن الله في هذه الآية بين الايمان بالله ورسوله والحديث عن الجماعة وما يتعلق بالاجتماع فيرشدنا هذا الى خطر أمر الاجتماع ونظامه ولزوم الحرص والمحافظة عليه كأصل لازم للقيام بمقتضيات الايمان وحفظ عمود الاسلام •

موعظة . ما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به الا باهمالهم لامر الاجتماع ونظامه ، اما باستبداد أئمتهم وقادتهم واما بانتشار جماعتهم بضعف روح الدين فيهم وجهلهم بما يفرضه عليهم • وما ذاك الا من سكوت علمائهم وقعودهم عن القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين وتعليم الجاهلين وبث روح الاسلام الانساني السامي في المسلمين • فعلى اهل العلم ـ وهم المسؤولون عن المسلمين بما لهم من ارث النبوة فيهم ـ ان يقوموا بما ارشدت اليه هذه الآية الكريمة فينفخوا في المسلمين روح الاجتماع الشورى في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد ولا يتخلف منهم متوان ، وحتى يظهر الخاذل لهم ممن ينتسب اليهم فينبذ ويطرح ويستغنى عنه بالله وبالمؤمنين •

موازنة وترجيح : هنالك المصلحة العامة وهنالك المصلحة الخاصة ، ومحال ان تتساوى هذه بتلك • انظر الى الذكر الحكيم كيف عبر عن الاولى بالامر الجامع وفي هذا ما فيه من تفخيم ، وعبر عن الثانية ببعض الشان وفي هذا ما فيه من التحقير والتقليل • وفي قرنها بالاستغفار تنبيه على ترجيح الاولى على الثانية ، وانها ما كانت تعتبر الا على وجه الرخصة والاستغراق في الاهتمام والتدبير للمصلحة العامة أحق وأولى •

امتثال ورجاء : لنجعل المصلحة العامة غايتنا والمقدمة عندنا حتى لا يكون ـ ان شاء الله ـ في مصالحنا الخاصة ما يصرفنا أو يشغلنا عنها راجين من الله تعالى ان يعيننا على ما قصدنا وان يوفقنا الى استعمال كل مصلحة خاصة لنا في مصلحة عامة لنا ولاخواننا انه نعم الموفق ونعم المعين (1) •

---

(1) الشهاب : ج 1 م 13 ـ محرم 1356 هـ ، مارس 1937 م •

الاجتماع العام ، للأمر الهام
وارتباط الجماعة بأمر الإمام

« لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا . قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(سورة النور ــ الآية 63)

المناسبة والارتباط : لما بينت الآية السابقة وجوب الاستئذان عند ارادة الانصراف من مجلسه ، عليه الصلاة والسلام ، بينت هذه الآية وجوب تلبية دعوته اذا دعا ، وفضحت حالة الذين يتسللون غير مستأذنين وحذرت من فعلهم واوعدت الوعيد الشديد المخالفين امثالهم ·

الالفاظ : الدعاء : النداء وطلب الاقبال للحضور · **بينكم :** فى اعتقادكم ومعاملتكم · **يتسللون :** يذهبون قليلا قليلا من الجماعة متخفين · **لواذا :** ملاوذة بان يلوذ هذا بهذا ويلوذ هذا بهذا متسترا به حتى لا يرى عند خروجه · **فليحذر :** فليتيقظ وليتحرز · وذلك باجتناب المخالفة · **يخالفون عن أمره :** يصدون ويعرضون عن طريقته وسنته ومنهاجه وما كان عليه من سير فى الحياة · **الفتنة :** البلاء بأنواع النقم أو بنعم تستدرج إلى النقم هذا معنى الفتنة لانها ذكرت فى مساق الوعيد · **عذاب اليم :** فى الآخرة ·

المعنى : لا تنزلوا دعاء الرسول لكم اذا دعاكم الى الحضور عنده منزلة دعاء بعضكم بعضا للحضور ، فتحسبون أنفسكم مخيرين ان شئتم اجبتم وان شئتم تخلفتم فتارة تجيبون وتارة تتخلفون · فاجابة دعوته والاسراع اليه واجب محتم عليكم والتخلف أو التباطؤ ــ لغير عذر واضح ــ محرم

عليكم • ذلك لانه اذا دعاكم لا يدعوكم الا لمصلحة قطعية وخير محقق يعود عليكم فى أمـر الدين أو أمـر الدنيا ففى تخلفكم أو تباطئكم تفويت أو تعطيل أو تثبيط •

واذا حضرتم مجلسه فابقوا كلكم عنده ولا تذهبوا من مجلسه واحـدا واحدا أو اثنين اثنين يتستر بعضكم ببعض عنـد الخروج حتى لا يـراه الناس ولا يراه الرسول فان الله يعلم قطعا اولئك الذين يخرجون متسللين متسترين بعضهم ببعض فاذا نجوا من ملام الرسول فانهم لا ينجون من عـذاب اللــه •

واذا كان الله عالما بصنعهم ومفارقتهم لمجلس رسوله وثلمهم لجماعته وصدهم واعراضهم عما هو عليه هو ومن معه ـ فهو معاقبهم على ما ارتكبوا بالبلايا يصبها عليهم فى الدنيا او العذاب الاليم ينزله بهـم فى الاخرى أو يجمع لهم ما بينهما • فليتجنب أولئك المخالفون لامره هذه الفتنة وهذا العذاب وليحذروا منهما • وما ذلك الا بترك المخالفة والاقلاع عنها والرجوع الى الموافقة والاتباع •

تنظير وتعميم : امراء المسلمين وقادتهم ومن يتولون أمرا من أمورهم العامة تجاب دعوتهم اذا دعوا لامر عام وشان مما يرتبط بما فى عهدتهم من أمر الناس ، ويسرع اليهم ولا يتسلل من مجالسهم • ذلك لما لهم من حق الخلافة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما كان يقوم به من أمر الناس وتدبير شؤونهم وضبط نظامهم ورعاية مصالحهم •

ميزان : كل الاقوال والاعمال توزن باقواله واعماله ، وكل الاحوال والسير توزن بسيرته وحاله • فما وافقها فهو الحق والخير والهدى ، وهو الذى يقبل من كائن من كان • وما خالفها فهـو الباطل والشر والضلال ، وهو الذى يرد على صاحبه كائنا من كان • وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما انه صلى اللـه عليه وآلـه وسلم قال : « من عمل عملا ليس عليه أمـرنا فهـــو رد » •

وجوه الفتنة وسببها : مخالفة السنة النبوية والهدى المحمدى وما كان عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى تنفيذ شرع الله وتطبيق

احكامه وتمثيل الاسلام تمثيلا عمليا ـ تلك المخالفة هي سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم بحكم صريح هذه الآية · وقد ذكر المفسرون في تفسير الفتنة أشياء على وجه التمثيل لا على وجه الحصر والتحديد فذكروا الكفر ، والقتل والاستدراج بالنعم ، وقسوة القلب عن معرفة المعروف والمنكر ، والطبع على القلب حتى لا يفقه شيئا ، وكل هذا قد أصاب المسلمين بسبب مخالفتهم ·

أعظم الفتنة : غير ان أعظم الفتنة ـ فيما نرى ـ هو ما قاله الامام جعفر الصادق : « ان يسلط عليهم سلطان جائر » فانه اذا جار السلطان ـ وهو من له السلطة في تدبير أمر الامة والتصرف في شؤونها ـ فسد كل شيء ، فسدت القلوب والعقول والاخلاق والاعمال والاحوال ، وانحطت الامة في دينها ودنياها الى احط الدركات ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك · ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدة بقائه · هذا اذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين ـ بحسب ظواهره ـ بدينها فكيف اذا لم يكن من جنسها ولا من دينها في شيء، حقا ان أعظم ما لحق الامم الاسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على يد السلاطين الجائرين منها ومن غيرها · وهذا ما يشهد به تاريخها في ماضيها وحاضرها · فما أصدق كلمة جعفر الصادق وما أعمق نظره فيها · ومن أحق بمثلها من بيت النبوة ومعدن الحكمة ؟ عليهم الرضوان والرحمة ·

تطبيق وتحذير : من أبين المخالفة عن أمره واقبحها الزيادة في العبادة التي تعبد لله بها على ما مضى من سنته فيها واحداث محدثات على وجه العبادة في مواطن مرت عليه ولم يتعبد بمثل ذلك المحدث فيها · وكلا هذين زيادة واحداث وابتداع مذموم ، يكون مرتكبه كمن يرى انه اهتدى الى طاعة لم يهتد اليها رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وسبق الى فضيلة قصر رسول الله (ص) عنها · وكفى بهذا وحده فتنة وبلاء ، دع ما يجر اليه من بلايا أخرى · وقد طبق الامام مالك رضي الله عنه هذه الآية الكريمة على هؤلاء المتزيدين احسن تطبيق وأبلغه واردعه لمن كان له فهم وايمـــان ·

روى الامام ابن العربي ـ رحمه اللـه ـ بسنده المتصـــل الى سفيان ابن عيينة رحمه الله قال : « سمعت مالك ابن انس ـ واتاه رجل ـ فقال

يا أبا عبد الله من اين أحرم ، قال : من ذى الحليفة من حيث احرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : انى أريد أن احرم من المسجد • فقال : لا تفعل • قال : انى أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر • قال : لا تفعل ، فانى أخشى عليك الفتنة • قال : واى فتنة فى هذا ؟ انما هى اميال أزيدها • قال : واى فتنة أعظم من ان ترى انك سبقت الى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم • انى سمعت الله يقول : « فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » فليتأمل المسلمون ـ وخصوصا المنتسبين الى مذهب مالك ـ فى فقه هذا الامام العظيم ووقوفه عند حدود الله وليحذروا من عاقبة المتزيدين المتغالين •

بوارق أمل : لقد شعر المسلمون عموما بالبلايا والمحن التى لحقتهم ، وفى أولها سيف الجور المنصب على رءوسهم ، وادرك المصلحون منهم ان سبب ذلك هو مخالفتهم عن أمر نبيهم (ص) فأخذت صيحات الاصلاح ترتفع فى جوانب العالم الاسلامى فى جميع جهات المعمور • تدعو الناس الى معالجة أدوائهم • بقطع سببها واجتثاث أصلها ، وما ذلك الا بالرجوع الى ما كان عليه محمد عليه الصلاة والسلام وما مضت عليه القرون الثلاثة المشهود لها منه بالخير فى الاسلام وقد حفظ الله علينا ذلك بما إن تمسكنا به لن نضل أبدا ـ كما فى الحديث الصحيح ـ الكتاب والسنة • وذلك هو الاسلام الصحيح الذى أنقذ الله به العالم أولا ، ولا نجاة للعالم مما هو فيه اليوم الا اذا أنقذه الله به ثانيا •

وقد أخذ المسلمون يصيخون أسماعهم ويستجيبون أفواجا أفواجا لداعى الاصلاح أينما دعاهم • وفى ذلك ـ والحمد لله ـ ما يقوى الرجاء والامل ويبعث على الجد والعمل • « ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ » (1) •

---

(1) الشهاب : ج 2 م 13 ـ صفر 1356 هـ افريل 1937 م •

« الفـــرقـــان »

« تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا (1) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا »(2)

(سورة الفرقان ـ الآيات : 1 ، 2)

المفردات : « **تبارك** » : مادة (ب٠ر٠ك) كلها ترجع الى معنى الثبوت منها بروك الابل استناختها ، والبركة كالقربة مثل الحوض يثبت فيها الماء ، والبراكاء الثبات في الحرب ، ومنها البركة بمعنى النماء والزيادة ولا ينمو ويزيد الا ما كان ثابت الاصل ، وشان ثابت الاصل أن ينمو ويزيد فلم تخرج عن معنى الثبوت ٠ وتبارك من البركة فمعناه تزايد خيره والله تعالى له الكمال ومنه الانعام ، فتبارك أى تزايد كماله وانعامه فلا تحصى انعاماته ولا تحد كمالاته ٠ وثبوت الكمال ينافي وينفي ضده فيقضي التنزه عن النقص ، فانتظم اللفظ ثلاثة معاني التنزه عن النقص والاتصاف بالكمال والافاضة للانعام ، فتبارك « تقدس وتعاظم » الفعل الاول مفيد للاول والفعل الثاني مفيد للثاني والثالث « **نزل** » : مادة نزل كلها ترجع الى معنى الهبوط من عل والحلول في أسفل ٠ ونزل المضاعف أبلغ في المعنى من أنزل وقد يفيد كثرة النزول كما هنا لانه نزله مفرقا على نيف وعشرين سنة ، وقد يفيد القوة في نزول واحد كما في « **لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً** » : لأن تنزيل الجملة أقوى من انزال التفصيل « **الفرقان** » : أصله مصدر فرق بمعنى فصل وهو أبلغ في الدلالة على المعنى من فرق المصدر المجرد بما فيه من زيادة الالف والنون كما كان القرآن أبلغ من القراءة لذلك وهو هنا اسم من أسماء هذا الكتاب الكريم « **نذير** » : مادة نذر كلها ترجع الى الاعلام والتحتيم فمنها نذر على نفسه الصوم أوجبه

وحتمه وأعلم به ونذر بالعدو كفرح علم به وانذره أعلمه ولا يستعمل الا فى ابلاغ ما فيه تخويف ، فهو اعلام بتأكيد وتحتيم • ونذير هنا بمعنى منذر من فعيل بمعنى مفعل •

التراكيب : « **الذى نزل** » عرف المسند اليه بالموصولية لزيادة تقرير الغرض الذى اليه سيق الكلام لان الغرض بيان كمالات الله تعالى وانعاماته وتنزيل الفرقان منها فهو من أعظم نعم الله على البشر ومن آيات الله الدالة على قدرته وعلمه وحكمته . **عبده** ، اضافة تشريف لانه أكمل العباد•

المعنى : تقدس وتعاظم الرب الذى نزل الكتاب الذى يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال وحزبيهما من الناس مفصلا آيات آيات على محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أكمل عباده ليكون بذلك الكتاب لجميع الانس والجن منذرا لهم يعلمهم بعذابه ويخوفهم بشديد عقابه ان لم يعبدوه وحده ويخلعوا غيره من آلهتهم الباطلة ويدخلوا فى الدين الذى جاءهم به وهو الاسلام •

توحيد : هذا الفعل وهو « **تبارك** » لا يسند الا الى الله تعالى • ذلك لان العظمة الحقيقية بالكمال والانعام والتقدس بالتنزه التام ليسا الا له، وما من كامل من مخلوقاته الا وهو ــ جل جلاله ــ الذى كمله ، وما من منعم عليه منهم الا وهو تعالى الذى انعم عليه . وما من زكى منهم الا وهو ــ سبحانه ــ الذى زكاه •

سلوك : هذا الرب الكامل المكمل المنعم المتفضل القدوس المقدس هو الذى أنزل هذا الفرقان فاذا أردت ان ترقى فى درجات الكمال وتظفر بأنواع الانعام وتزكى نفسك الزكاء التام فعليك بهدى هذا الفرقان فهو بساط القدس ومعراج الكمال ومائدة الاكرام • وقد سئلت عائشة رضى الله تعالى عنها عن خلق النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن •

تفقه واستنباط : لما سمى الله كتابه الفرقان علمنا انه به يفرق بين الحق والباطل وأصل هذا وذاك فهو الحكم العدل والقول الفصل بين كل متنازعين

يدعي كل منهما انه على الحق فيما هو عليه من عقد أو قول أو عمل فما تقابل حق وباطل وما تعالجت حجة وشبهة الا وفى هذا الكتاب الحكيم ما يفرق بينهما وانما يتفاوت الناس في ادراك ذلك منه على حسب ما عندهم من قوة علم وصدق بصيرة وحسن اخلاص ، فعلينا ـ اذا ـ أن يكون أول فزعنا فى الفرق والفصل اليه وان يكون أول جهدنا فى استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه مستعينين بالسنة القولية والعملية على استخراج لآليه · فاذا حكم قبلنا وسلمنا وكنا مع ما حكم له وفارقنا ما حكم عليه . فالله سماه الفرقان لنعلم أنه فارق بنفسه · ولنعمل بالفرق به ولا يكمل ايماننا بانه الفرقان الا بالعلم والعمل ·

ولما جعل ـ تعالى ـ غاية تنزيل الفرقان أن يكون عبده نذيرا اقتضى ذلك أن نذارته تكون بالقرآن لتقوم الحجة وتتم الحكمة وتحصل الفائدة وتشمل النعمة · وقد صرح بهذا فى قوله تعالى بالأعراف : « **كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ** » وبالانعام : « **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** » وبالنمل : « **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ** » و بـ ق : « **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ** » وبالتوبة : « **وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** » فعلينا ـ اذا ـ أن نعلم أن القرآن هو كتاب النذارة والهداية فنستخرج أصولهما وفنونهما من آياته وهذا حظ العلم · وأن يكون اهتداؤنا فى أنفسنا وهدينا لغيرنا به وهذا حظ العمل وهما ركنا الايمان ·

تطبيق وتحاكم : فى العالم الاسلامى كله اليوم طائفتان من المؤمنين تتنازعان خطة الهداية والنذارة والتذكير ، ولكل منهما فى سلوكها للقيام بتلك الخطة سبيل ، وكل منهما تدعى أنها هى التى على الصواب وانهـا الاحق والاولى بنفع العباد · فرأينا أن نطبق فصل الفرقان عليهما وننظر كيف يفرق ما بينهما وبين المصيبة من المخطئة منهما ، وفي ضمن ذلـك تحاكمهما اليه وفصل النزاع بينهما بحكمه , وانما اخترناهما للتطبيق

والتمثيل لخطر الخطة التى تنازعا عليها وعظيم النفع والضرر الذى يحصل من خطأ المخطىء وصواب المصيب بها ، ولان الهداية والنذارة والتذكير أمور لها انزل القرآن فتنازعهما عليها تنازع عليه ، فاحق فصل نمثل به لنعلمه هو فصله بين المتنازعين فيه · وها نحن نعرض بعض حال كل طائفة فى قيامها بالخطة ثم نسوق آيات القرآن وننظر من أسعد الطائفتين بها :

الطائفة الاولى : يذكرون من يدعونهم بغير القرآن باحزاب وأوارد من وضعهم لا مما ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم الا قليلا · ولهم عليهم فى أموالهم حق فى أوقات من السنة معلومة ·

والطائفة الثانية : يذكرون الناس بالقرآن فيأمرونهم بقراءته وتدبره ويبينون لهم معانيه ويحثونهم على التمسك به والرجوع اليه ·

ويدعونهم الى الاذكار النبوية الثابتة فى الكتب الصحاح لرجوعها الى القرآن بحكم قوله تعالى : « **وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ** » ولا يطلبون عليهم فى ذلك أجرا ·

والله تعالى يقول فى الحال الاول : « **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ** » وغيرها من الآيات المتقدمة فى هذا المجلس · ويقول ـ تعالى ـ فى الحال الثانى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : « **قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً** » · « **قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ** » · ويقول فى آية صريحة صراحة تامة فى بيان من يجب ان يتبع من الدعاة : « **ٱتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْـراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ** » ، ومن هـم المهتدون ؟ هـم المتبعون للنبى صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى فى الاعراف : « **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَٱتَّبِعُـوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** » · واتباعه بالنسبة لموضوعنا هو اتباعه فى طريق دعوته الخلق الى الله · وقد ثبت بالقرآن انه كان يدعو بالقرآن ويذكر به وانه لا يسئل على ذلك أجرا ·

بان ـ والحمد لله ـ بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين واتضح طريق الحق في الدعوة والارشاد لمن يريد سلوكه منهما • والله نسأل لنا ولهم قبول الحق والتعاون عليه والقوة والاخلاص في الصدع به والثبات عليه.

و « يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ » (1) •

---

(1) الشهاب : ج 12 ، م 7 ـ شعبان 1350 هـ ، ديسمبر 1931 م •

كلام الظالمين فى الكتاب الحكيم والرسول الكريم
ورد رب العالمين

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ
قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ
ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » (6) .

(سورة الفرقان)

الالفاظ : **كفروا** : غطوا الحق بانكاره وعدم الاعتراف والاعلان به وكل من غطى شيئا وستره فقد كفره وسمى الليل كافرا لانه يغطى الاشياء بظلامه والزارع كافر لانه يغطى البذر بالتراب · **افك** : كذب مصروف عن وجهة الحق ، من افكه يفكه افكا اى صرفه · **افتراه** : اختلقه واخترع صورته · **جاءوا** : وردوه وانتهوا اليه · **ظلما** : وضع الشيء فى غير موضعه · **زورا** : شهادة بالباطل · **اساطير** : جمع اسطورة اى اخبار وحكايات مسطورة فى كتب الاوائل · ليست محل الثقة ، **اكتتبها** : امر بكتابتها له، وافتعل ياتى للطلب كاحتجم وافتصد ، **تملى** : تلقى عليه ليحفظها فيلقيها على الناس · **بكرة** : ما بين الفجر والطلوع · **أصيلا** : ما بعد العصر الى المغرب · **السر** : الخفى من كل شيء · **غفورا** : ستارا للذنوب كثير التجاوز عنها · **رحيما** : دائم الافاضة للنعم ·

المعنى : وقال الذين أنكروا الحق مع ظهوره وجحدوه مع وضوحه ما هذا الكلام الذى يتلوه محمد علينا الا كلام كذب مصروف عن وجه الحق اخترعه وصوره وأعانه عليه غيره أناس آخرون · فقد سموا الحق الصراح والصدق الخاص افكا ، وجعلوا أخبار الامين الذى كانوا يدعونه هم أمينا – افتراء ، وجعلوا القرآن الذى عجزوا عن معارضته كلاما عاديا متعاونا على تركيبه وتصويره ، فسموا الشيء بغير اسمه ، ووضعوا الوصف فى غير موضعه ، فانتهوا بذلك الى ظلم عظيم أتوه ووقعوا فيه ، وقد شهدوا بالباطل فنسبوا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما هو برىء منه من الافتراء والاستعانة بغيره فانتهوا الى زور عظيم تحملوه ·

وقالوا – أيضا – هذا الذى يتلوه علينا هو من أخبار الاوائل وكتبهم المسطورة التى سطروها من أعاجيب أحاديثهم مما يتلهى به ولا يوثق بصحته توصل اليها من غيره أمر فكتبت له فكاتبها له يمليها عليه دائما فى طرفى النهار فيحفظها هو ويأتينا بها ، قل – يا محمد – أنزل هذا الذى أتلوه عليكم الخالق الذى يعلم الشيء الخفى والامر المكتوم فى العالم العلوى والعالم السفلى · وما أمهلكم فلم يعاجلكم بالعذاب · وبقى يجدد لكم التذكير مع اعراضكم وعنادكم وقبح صنيعكم وسوء ردكم الا أنه من شأنه الصفح والتجاوز ودوام الانعام والتفضل ، فهل لكم أن ترجعوا الى هذا الرب الغفور الرحيم ؟

مزيد بيان : بهر العرب ما رأوا وما سمعوا · من رجل كان بالامس معرضا عنهم تاركا لهم وشأنهم يشهد موسم الحج معهم ويجتنب مشاهد وثنيتهم ولكنه لا يعاديهم ، ولا ينكر عليهم ويسير بينهم بالصدق والجد والعفاف وكمال المروءة سيرة تخالف سيرتهم فهم لذلك يحبونه ويعظمونه ويدعونه الامين لقبا خصصوه به فصار يدعى به بينهم · فأصبح اليوم – وقد جاوز الاربعين – ينكر عليهم ويسفه أحلامهم ويقبح عبادتهم وما يعبدون ويصبر على أذاهم ولا يقابلهم بالمثل ويستمر على دعوته غير مبال بهم ولا حاسب شيئا لكثرتهم ولا لسطوتهم · ومن كلام مثل كلامهم فى ألفاظه

وفي تراكيبه ثم هم يعجزون عن معارضته بمثل أقصر سورة منه ، ثـــم يشهدون الفرق بينه وبين كلام محمد نفسه فهو اذا حدثهم حدثهم بمـــا اعتادوا من حديثه معهم حتى اذا تلى عليهم القرآن جاءهم بما هو فـــوق كلامه وكلامهم وما تقصر عن معارضته ألسنتهم ·

بهرهم هذا وهذا وأخذ العناد بعقولهم واستحوذت عليهم شياطينهم فحاروا فيما يقذفون به هذا الرسول وهذا الكتاب فأخذوا يقولون عن الكتاب انه افك مفترى ورأوه أكبر مما كانوا يسمعون من كلام محمد فلم يكن ليأتي به وحده وهو فوق المعتاد من كلامه فاذا هنالك أقوام يعينونه ومن هم الاقوام ؟ وهو ـ بعد ـ في نفر قليل ممن آمن به ، وهم هم في كثرتهم وتساندهم وقد عجزوا عن الاتيان بشيء مثله ، فالقليل أحـــرى بالعجز من الكثير ، ويقولون أنه أساطير الاولين وقد كان منهم من عرف شيئا من أخبار الفرس وملوكهم وكان يحدثهم بها ويقصها عليهم ويزعم لهم أنها مثل ما يأتي به محمد ، فقالوا ـ وقد علموا الفرق ـ هذه منها وهي مثلها ولكن محمدا عرفوه أميا لا يقرأ ولا يكتب فكيف اتصل بهاته التي زعموها أساطير فاخترعوا وسيلة لذلك أنه يكتبها له غيره ويمليها عليه وهو يحفظها ، ومن هو هذا الذى يكتب ويملي عليه وهم قد عرفوا مدخل محمد ومخرجه ومغداه ومجلسه ، وعرفوا بلدتهم ومن يساكنهم ، فكيف لا يرونه ولا مرة بين يدى هذا الكاتب المملي ولا يشاهدونه يوما في صحبته ، فاخترعوا لذلك أنه يمليها عليه في طرفي النهار في ظـــلام من الوقت وسكون من الناس · وقالوا في الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه مفترى يستعين على افترائه بغيره ، ويتظاهر باستقلاله وينسب لله ما هو من حكايات الاوائل وأوضاعهم · فيكذب عليه ـ تعالى ـ لديهم رد الله عليهم كل ما قالوا فيهما بانه ظلم وزور وأن ما يتلوه عليه هذا النبى الكريم من ذلك الكتاب الحكيم ليس مما يكون الا من خالق المخلوقات العالم بأسرارهـــا ·

اسلوب في البيان : لقد جاءوا بالظلم والزور في قولهم الاول وقولهم الثاني • وقوله : « قل » أمر بما يرد قولهم الاول وقولهم الثاني غير أنه قصد الى الايجاز وعدم التكرار فجعل مع قولهم الاول الوصف وهو الظلم واكتفى بذكره هنا عن اعادته ، وجعل مع قولهم الثاني الدليل وهو انزال من يعلم السر • واكتفى بذكره هنا عن ذكره مع الاول فحذف من كل ما اثبت مع الآخر • وجعل الوصف مع الاول والدليل مع الثاني ترقيا من الدعوى للدليل •

وجه الدليل : القرآن أعجز العرب ببلاغته حتى عرفوا وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم أنه ليس مثله من طوق البشر •

هذه هي الناحية الظاهرة في اعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتى به صلى الله عليه وآله وسلم • وهنالك ناحية أخرى هي أعظم وأعم وهي ناحيته العلمية التي يـذعن لها كل ذي فهم من جميع الامم في كل قطر وفي كل زمن • وهذه الناحية هي التي احتج بها في هذا الموطن • فقد استدل على أن القرآن لا يمكن ان يكون أتى به محمد من عنده ولا يمكن ان يستعين عليه بغيره ولا أن يكون من اوضاع الاوائل ـ بأنه ينطوي على اشياء من أسرار الكون لا يعلمها الا خالقه ـ فمن ذلك ما أنبأ به من أسرار الامم الخالية وبين من أسرار الكتب الماضية ، وما أنبأ من أحداث مستقبلة، وما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة كالزوجية في كل شيء وسبح الكواكب في الفضاء وسير الشمس الى مستقر مجهول معين عند الله لها وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع وما تصلح عليه حياة الانسان مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء الى اليوم والى ما بعد اليوم • فكتاب اشتمل على كل هذه الاسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق •

ترغيب : قد دعانا الله الى العلم ورغبنا فيه في غير ما آية ، واعلمنا أنه خلق لنا ما في السموات وما في الارض جميعا ، وأمرنا بالنظر فيما

خلقه لنا ، واعلمنا هنا أن فى هذه المخلوقات أسرارا بينها القرآن واشتمل عليها ، وكان ذلك من حجته العلمية على الخلق ، فكان فى هذا ترغيب لنا فى التقصى فى العلم والتعمق فى البحث لنطلع على كل ما نستطيع الاطلاع عليه من تلك الاسرار ، أسرار آيات الاكوان والعمران ، وآيات القرآن فنزداد علما وعرفانا ، ونزيد الدين حجة وبرهانا ، ونجنى من هذا الكون جلائل ودقائق النعم ، فيعظم شكرنا للرب الكريم المنعم . فقهنا الله فى كتابه ، ووفقنا الى الاهتداء به والسير على سننه (1) .

---

(1) الشهاب ــ ج 3، م. 13 ــ ربيع الاول 1356 هـ/ماى 1937 م .

منزلة الرسالة العلية
والضرورات البشرية

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » (سورة الفرقان من الآية رقم 20) ٠

المناسبة : لما طعنوا في رسالته بأنه بشر يفعل ما يفعله البشر بقولهم : « **مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ** » رد الله عليهم بأن هذا هو حال جميع المرسلين من قبله واحتج عليهم بما يعلمون من ذلك بما يسمعون من أهل الكتاب جيرانهم وبما عندهم من أخبار عاد وثمود من بني جلدتهم ٠

المفردات : الارسال هو البعث لتبليغ شيء أو قضائه ٠ وفي لسان الشرع هو انزال الله تعالى الوحي على من اصطفاه من خلقه لينذر به من أمره بانذاره من قوله تعالى : « **وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ** » فالرسالة وحي مع أمر بالتبليغ ٠

التراكيب : مفعول ارسلنا محذوف تقديره رجالا وعليه عاد الضمير في انهم وهو صاحب الحال والحال هي الجملة التي بعد الا والجملة الثانية حال بالعطف على الاولى والاستثناء مفرغ من الاحوال وتقدير الكلام : وما أرسلنا قبلك رجالا من المرسلين الا حالة انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق ٠ أي ما أرسلناهم في حالة من الاحوال الا في هذه الحال ٠ وان واللام والحصر بما والاكل هذه لتأكيد المعنى الذى سيق اليه الكلام وهو اثبات أن رسول البشر لا يكون الا بشرا ردا على منكرى ذلك من المشركين ٠ وعبر بالمضارع في يأكلون ويمشون ، لان ذلك من ضروريات

بشريتهم فهو يتجدد ويتكرر منهم ، وأكل الطعام والمشى فى الاسواق كناية عن البشرية لانهما وصفان لا زمان لها ٠

المعنى : وما ينكر عليك هؤلاء من أكلك الطعام ومشيك فى الاسواق مع أنك رسول الله وقد علموا أنه ما من رسول كان قبلك الا وهذه حالته وما أنت الا واحد منهم فلا عيب عليك فى ذلك ولا حجة لهم عليك به ٠

تاريخ : هذه المقالة شنشنة قديمة من الامم التى ارسلت اليها الرسل فقابلتها بالجهل والعناد ٠ فقد قال لنوح قومه : « **مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا** » وقال لهود قومه : «**مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ** » ولصالح : « **مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** » ولشعيب : « **وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** » ولموسى وهارون : « **أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا** » وفى سورة ابراهيم عن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم انهم قالوا لرسلهم : « **ان أنتم الا بشر مثلنا** » فقال المشركون للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ما قاله أمثالهم لاخوانه المرسلين عليهم الصلاة والسلام ٠

تعليل : ما اعترض المعترضون على الرسل ببشريتهم الا من جهلهم وسوء نظرهم وغباوتهم ، أما جهلهم فقد جهلوا ما فى البشرية من استعداد لنيل أرقى الكمالات ، وجهلوا ما تقتضيه الرسالة من مشاكلة بين الرسول والمرسل اليهم لتحصل المفاهمة والاتصال ، وجهلوا ما يؤهل به البشر لرتبة الرسالة من كمال فى الروح والعقل والاخلاق والسلوك مما كان الرسل متصفين به كله أمام أعين أقوامهم ، واما سوء نظرهم فانهم نظروا الى بشرية الرسل فقاسوهم بهم وقالوا لهم أنتم مثلنا مع وجود الفارق الواضح بينهم وبين الرسل فى الصفات النفسية التى بها كمال الانسان، وأما غباوتهم فانهم لغلبة الجسمانيات على حسهم واهمالهم استعمال عقولهم لم يتفطنوا للكمال المشاهد الذى امتاز به الرسل بين أقوامهم ٠

تعليل : هذه العلل التى صدر اعتراض المعترضين عنها قد علمنا الله تعالى فى كتابه العزيز ما يعصمنا منها ، فعلمنا أن الانسان مستعد لان

تخضع له العوالم بما فيه من روح الله وانه يلتحق بعالم الملائكة الاطهار بتلك الروح عند ما تكون على أصل طهرها وقدسها، علمنا هذا بقوله تعالى : فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » فاخضع له ملائكته أشرف العوالم ، وبقوله تعالى : « قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ » فاتصل بهم وخاطبهم وعلمهم ، فلا عجب أن ياتى الماثلون له من ابنائه فى طهره وعصمته على سنته فى الاتصال بالملائكة ومخاطبتهم ، وعلمنا أن الرسول لا يكون الا من جنس المرسل اليهم ليحصل الاتصال ويمكن التلقى ، وأن أهل الارض لو كانوا ملائكة لارسل لهم ملك ، وانهم لو أنزل عليهم ملك وهم بشر لكسى حلة البشرية ولالتبس عليهم أمره ولقالوا فيه مثل ما قالوا فى المرسلين من البشر · علمنا هذا بقوله تعالى : « قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا » وبقوله : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » وعلمنا أن البشر يؤهل للرسالة باصطفاء الله له ومن مقتضى ذلك الاصطفاء تطهيره من أول نشاته من أوضار البشرية وظلم الجسمانية وتسفلها · فتبقى روحه على غاية الطهر والعلوية النورانية مستعدة للاتصال بالملا الاعلى حتى تستكمل قواها فياتيها الملك بالوحى ، علمنا هذا بمثل قوله تعالى : « اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ » وقوله : « وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ » وقوله : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ » وقوله : «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ» وغيره كثير · وعلمنا أن الرسل وان كانوا موافقين لنا فى الخلقة البشرية فانهم مباينون لنا غاية المباينة فى الخلقة النفسية من حيث الطهر والكمال ·

فنفوسهم بقيت على طهرها لم تدنس بشيء ، ونفوسنا لا تخلو من تدنس والموفق من داوم على غسلها بالتوبة وتحليتها بالصالحات ، وكمالهم فطرى ويبلغون فيه بعملهم المتواصل وعصمتهم الربانية الى الغايات التى لا تنال ، وكمالنا ليس كذلك فى الامور الثلاثة : الفطرة والعمل المتواصل والعصمة· علمنا هذه بقوله تعالى : « إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » فبالنظر الصحيح فيما من الله عليهم به ندرك انهم ليسوا مثلنا وان ساوونا فى الخلقة البشرية · وعلمنا أن لا ننظر الى ظواهـــر الامور دون بواطنها والى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية بل نعبر من ـ الظواهر الى البواطن وننظر من المحسوس الى المعقول ونجعل حواسنا خادمة لعقولنا ونجعل عقولنا هى المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير · علمنا هذا بقوله تعالى : « لاَ يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ اَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ » فلا ينظر الى بهرجة الكثرة ولكن الى حقيقة وحالة الشيء الكثير فيعتبر بحسبهما ، وبقوله : « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ، كَلاَّ » فلا يجوز أن نغتر بالمال والقوة والجاه وأنواع النعيم اذا سيقت الينا فنحسب انها هى نفس الكرامة الربانية التى دعينا الى العمل لنيلها بل انما نعدها كذلك اذا كان معها التوفيق الى شكرها بالقيـــام بحقوقها وصرفها فى وجوهها · ولا نغتر بحالة الضيق والعسر والضعف فنحسب انها اهانة من الله لصاحبها . بل علينا أن ننظر الى ما معها من صبر ورجاء وبر أو ضجر ويأس وفجور : فنعلم حينئذ انها مـــع الاولى للتمحيص والتثبيت ومع الاخيرة للزجر والعقاب بعدل وحكمة من احكم الحاكمين · وبقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا اَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ » فعلمنا انه بشر ولكنه خصص بالوحى اليه بتوحيد الله وبما يقتضيه مقام الايحاء اليه من طهر وكمال حتى لا تحجب عنا بشريته التى نشاهدها بابصارنا كمال حاله ومنزلته الذى ندركه ببصائرنا ·

عقيـــدة : الرسول انسان ذو روح طاهرة نورانية علوية بها تأتى له تلقى الوحى من الملائكة ، وذو جسد بشرى تجرى عليه ضروريات البشرية الخلقية دون نقائصها الكسبية ، لانه مصرف بتلك الروح العلوية الطاهرة التى لا يصدرعنها الا الخير . وبهذا الجسد البشرى تأتى للبشر الاخذ عنه والاقتداء به · ومأخذ هذه العقيدة من الآيات التى تلوناها فى فصـــل التعليم المتقدم ·

تحذيـــر : علينا ان نحذر من أن نعترض أو نحكم بالانظار السطحية دون بحث عن الحقائق ، أو ان نلحق شيئا بشيء دون أن نتحقق انتفاء جميع الفوارق • فقد ـ انتشرت بعدم الحذر من هذين الامرين جهالات ، وارتكبت ضلالات . وبالنظر السطحي ازدرى ابليس آدم فامتنع مـــن السجود له واعترض على خالقه ، فكانت عليه اللعنة الى يوم الدين ، وبعدم النظر الى الفوارق ، قال أحد بنى آدم لاخيه لما تقبل قربانه دونه هـــو « **لَأَقْتُلَنَّكَ** » حتى ذكره أخوه بوجود الفارق فقال : « **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** » وحقيقة الاول ترجع الى الجهل المركب وحقيقة الثانى ترجع الى القياس الفاسد وهما اعظم أصول الفساد والضلال •

سلـــوك : الانبياء والمرسلون آكمل النوع الانسانى وهم المثل الاعلى في كماله ، وقد كان اصل كمالهم بطهر أرواحهم وكمالها ، فأقبل عـلى روحك بالتزكية والتطهير والترقية والتكميـل ، ولا سبيل الى ذلـك الا بالاقتداء بهم والاهتداء بهديهم • وقد قال الله تعالى لنبيتا عليه وعليهم الصلاة والسلام : « **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** » فاقرأ ما قصه القرآن العظيم من أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم وسيرهم وتفقه فيه وتمسك به تكن ـ ان شاء الله تعالى ـ من الكاملين

فتنــة العبــاد بعضهم ببعض

« وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا »

(سورة الفرقان ـ الآية : 20)

والمناسبة : أفاد ما تقدم من الآية أن الرسل يأكلون الطعام فيحتاجون للغذاء وتحصيله ، وأنهم يمشون فى الاسواق للسعى والتكسب ، وأفاد آخر الآية الحكمة الربانية فى ذلك وهو أن يكون بذلك فتنة واختبـــار للعباد ، وتلك سنة الله تعالى فى خلقه ، فقد جعل بعضهم لبعض فتنة •

المفردات : قال فى « لسان العرب » الازهرى وغيره جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختيار وأصلها ماخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب اذا أذبتهما بالنار لتميز الردىء من الجيد ، اهـ . ومنـــه قوله تعالى : « أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ » و « إِنَّمَـا أَمْوَالُكُـمْ وَأَوْلاَدُكُـمْ فِتْنَـةٌ » و « فَتَنَّـاكَ فُتُونـًا » و « نَبْلُوكُـمْ بِالشَّـرِّ وَٱلْخَـيْرِ فِتْنَـةً » ، « أَتَصْبِرُونَ » الصبـر : حبس النفس عـــلى المكـروه . والمكروه لها فعل ما فيه تعب وترك ما فيه لـذة ، ويكـــون فى المشروع والمقدور . ففى الاول بالقيام بالمأمورات والترك للمنهيات . وفى الثانى ــ وهو المصائب والبلايا ــ بالرضا والتسليم للخالق ، وعدم الاعتراض عليه وعدم السعى فى ازالتها بغير الوجه المأذون فيه . و « البصير » : هـــو المشاهد للاشياء ظاهرها وباطنها ، ذواتها ونعوتها وأحوالها ، مباديهـا وغاياتها وعواقبها .

التراكيب : الاستفهام فى اتصبرون بمعنى الامر أى اصبروا وخرج الامر فى صورة الاستفهام تنبيها على قلة الصبر فى الوجود ، فهو من الامر المعدوم الذى يسأل عنه هل يوجد ، وفى ذلك بعث للهمم عـلى تحصيلـه والتمسك به . وجملة « **وكان الخ** » معطوفة على جملة « **وجعلنا** » وعدل عن مقتضى الظاهر وهو وكنا بصراء بالاضمـــار الى « **وكان ربك بصيرا** » بالاظهار ، للتنبيه على أن فتنته لعباده من مقتضى ربوبيته لهـم وحسـن تدبيره فيهم . موقع هذه الجملة بعد الجملة الاولى لبيان أن فتنته لهم هى عن علم وبصر بصواب ذلك وحكمته . وأنه مطلع على حقيقة ما يكون منهم عند الاختبار ، ليجازيهم عليه وفى هذا وعد ووعيد للممتحنين .

المعـــنى : امتحنا بعضكم ببعض لتظهر حقائقكم عند الامتحان . جعلنا الرسل يأكلـون كما يأكـل البشر ، ويكتسبون كما يكتسبون ، لنمتحن العباد بهم ، فيظهر من يتبعهم بالايمان واليقين ، لما معهم من الحق والكمال، ويصبر على ما يلحقه فى اتباعهم من الجهد والبلاء ، ممن يحتقرهم ويعرض عنهم لما يرى من بشريتهم . كما جعلنا الامم فتنة لرسلها وامتحانا لهـم

ليظهر صبرهم على ما يلاقون منهم من اذايــة وشر ، فتعلو درجاتهــم ، ويضاعف أجرهم · وجعلنا الغني امتحانا للفقير حتى يظهر صبره على حاله، وكفه لعينه ويده عن شيء غيره ، كما جعلنا الفقير امتحانا للغني حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه · وجعلنا الصحيح فتنة للمريض حــتى يظهر صبره على بلواه ورضاه بما اعطاه الله ، كما جعلنا المريض فتنــة للصحيح ، حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه من العطف عليــه وعيادته ومواساته · وجعلنا الرعية فتنة للراعي ، حتى يظهر صبره على القيام بواجب رعايتها ، كما جعلنا الراعي فتنة للرعية ليظهر صبرها على طاعته . وهكذا في جميع اقسام الناس · أتصبرون على هذا الامتحان فان الصبر عليه عزيز شديد . فاصبروا فانه لا يخرجكم من هذا الامتحــان خالصين خلوص الذهب الابريز الا الصبر · وكان ربك يا محمد بصيرا ، عالما بعاقبة الامتحان في عباده ، مطلعا على كل ما يكون منهم عند الامتحان ليجازيهم عليه ·

سؤال وجوابه : الله تعالى عالم بما يكون من عباده بعد امتحانهم قبل أن يمتحنهم ، فما هي حكمة الامتحان ؟

والجواب : أن الله تعالى انما يحاسب عباده على ما عملوه وكسبــوه واكتسبوه بما عندهم من التمكن من الفعل والترك ، وما عندهم من الاختيار، لا على ما علمه منهم قبل أن يعملوه ، فلهذا يمتحنون ، لتظهر حقائقهم ويقع جزاؤهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم ، ولا حجة لهم في تقدم علمــه تعالى بما يكون منهم ، لان تقدم العلم لم يكن ملجئا لهم على أعمالهم ، ففي هذا الامتحان قيام حجة الله على العالمين ، أمام أنفسهم وأمام الناس كما فيه اظهار لحقيقتهم لانفسهم ولغيرهم ·

تطبيـــق : كما يفتن الفرد بالفرد كذلك تفتن الامة بالامة ، من ذلك اننا ـ معشر الامة الاسلامية ـ قد فتنا بغيرنا من أمم الغرب ، وفتنوا هم بنا · فنحن ندين بالاسلام وهو دين السعادة الدنيوية والاخروية ولكــن حيثما كنا ـ الا قليلا ـ لسنا سعداء لا في مظاهر تديننا ، ولا في أحوال

دنيانا ، ففي الاولى نأتي بما يبرأ منه الاسلام • ونصرح بانه من صميمه • وفي الثانية ترانا في حالة من الجهل والفقر والتفرق والذل والاستعباد يرثى لها الجماد ، فلما يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الاسلام ويسخرون منه الا من نظر منهم بعين العلم والانصاف فانه يعرف ان ما نحن عليه هو ضد الاسلام ، فكنا فتنة عظيمة عليهم ، وحجابا كثيفا لهم عن الاسلام ، فكنا — ويا للاسف — فتنة للقوم الظالمين • وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة ، وتقدم علمي وعمراني ، فننظر الى تلك الناحية منهم فنندفع في تقليدهم في كل شيء حتى معائبهم ومفاسدهم ، ونزدري كل شيء عندنا حتى أعز عزيز الا من نظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير هو عندنا في ديننا وتاريخنا ، وان ذلك هو هو ، الذي تقدموا وسادوا به ، وأن ما عندهم من شر هو شر على حقيقته ، وأن ضرره فيهم هو ضرره ، وأنه لا يجوز أن يتابعوا عليه فكانوا فتنة لنا حتى يظهر من ينظر بعين الحق للحقائق ممن تبهره الظواهر فتسلبه ادراكه فيغدو لا يفرق بين اللب والقشور •

الاقتداء : علمنا من هذه الآية وغيرها أن الله تعالى يمتحن عباده ويختبرهم ليظهر حقائقهم ، فلنقتد به تعالى في هذا فنبني أمورنا على الامتحان والاختبار ، فلا نقرر علما ، ولا نصدر حكما الا بعد ذلك ، وخصوصا في معرفة الناس والحكم عليهم ، فالظواهر كثيرا ما تخالف البواطن والتصنع والتكلف ، قلما يسلم منهما أحد ، ولا يعصم من الغلط مع هذه المغلطات كلها الا الامتحان والاختبار فاعتصم بهما •

الاقتداء : كل من اتصل بك من اهلك وبنيك وابيك وأمك وأصحابك وعشيرتك وقومك ، وكل من ترتبط به برباط من ابناء جنسك — هو فتنة وامتحان لك ، هل تقوم بواجبك نحوه من جلب خير له او دفع شر عنه او جلب خير منه لغيره أو دفع شره عن غيره ، وهل تكف يدك عن شيئه، وتكف بصرك عما متع به ، وتسال الله مما عنده من فضله ؟ وانما تقوم بواجبك نحوه مما تقدم ، وتكف يدك وعينك عنه ، وتسال الله مما عنده

راضيا بما قسم لك معتقدا الخير كل الخير في قسمه ـ اذا تدرعت بالصبر على اتيانه وان كان عليك ثقيلا والكف عما يطلب منك الانكفاف عنه وان كان منك قريبا ، وفي طبعك لذيذا ، وانما يكون لك هذا الصبر ، اذا كنت دائم اليقين بعلم الله بك واطلاعه عليك ، وأنه كان بك بصيرا .

هذه الحقائق كلها هدتنا هذه الآية الكريمة اليها : هدتنا الى أنا امتحنا ببعضنا ، وأن الذي يخلصنا في هذا الامتحان ، ويخرجنا سالمين هو الصبر ، وأن حالتنا في الامتحان منكشفة لمن سيجازينا عليها ، فلنهتد بهدايتها الى ما هدتنا اليه ، ولنتدرع في هذا الامتحان العظيم بالصبر المتين ولنستحضر في قلوبنا مراقبة الله لنا لتثبيت قدمنا في مقام الصبر بروح اليقين ، فبذلك نخرج ـ ان شاء الله تعالى ـ من نار الفتنة ذهبا خالصا نقيا ، وجوهرا طيبا زكيا فنسعد في الدارين برضى رب العالمين ، والله ولي التوفيق (1) .

---

(1) الشهاب ـ ج 1 ، م. 8 . رمضان 1350 هـ ـ جانفي 1932 م .

ندامة الظالم
على تركه السبيل القويم ، وصحبته للمضلين

« وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا (27) ، يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا » (29) .

(سورة الفرقان)

المناسبة : لما سأل المشركون أن يروا الملائكة اخبروا بانهم سيرونهم فى يوم يكون شره عليهم عظيما . وذكر فى الآيات السابقة ما يكون فى ذلك اليوم من حبوط اعمالهم وتشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة وغير ذلك. وذكر فى هذه الآية ما يكون فى ذلك اليوم من ندم الظالم وسوء حاله .

المفردات : الظلم : وضع الشىء فى غير موضعه ، كوضع الكفر موضع الايمان ، ووضع المعصية موضع الطاعة ، وحق الله تعالى أن يؤمن بـه ويوحد ويطاع . فمن كفر او أشرك به أو عصاه فقد ظلم . وهو هنا الكافر والمشرك لانه الذى لم يتخذ مع الرسول سبيلا . **الويلة :** الهلكة ، كالويل بمعنى الهلاك . **فلان :** يكنى به عن الاعلام ، كما يكنى بالهن عن الاجناس . **الخليل :** فعيل ، بمعنى فاعل ، وهو من تخللت مودته القلب وامتزجت بالنفس ، فكانت له مكانة منهما وسلطان عليهما . هذا فى جانب الخلق . واما فى جانب الله تعالى فبالمعنى الذى يليق بقدسه وتنزيهه ، فابراهيم عليه السلام خليل الرحمان بما له عنده تعالى من عظيم المنزلة ورفعة الشان

وقبول الدعوة ، وما له عليه من جزيل الانعام · **الاضلال** : الصد والصرف عن طريق الحق والنجاة · **الذكر** : القرآن العظيم · وفسر بالشهادتين وبالاسلام · والقرآن فيه ذلك كله ، وهو الذى سيأتى على الاثر ذكر هجرهم له ولذلك اخترناه فى معنى الذكر هنا · **الشيطان** : الخبيث الشرير الذى استولى عليه ، وتمكن منه خلق الافساد والاضرار من الجن والانس · **الخذول** : الكثير الخذل ، أى التسليم والترك لمن نزل به البلاء فى وقت الحاجة الى انقاذه ·

التراكيب : شأن من وقع فى غيظ وحسرة وندامة أن يعض يديه ويأكل بنانه كأنه لما لم يجد شيئا يطفىء فيه غيظه رجع على نفسه بذلك ، فعض اليد لازم لحالة الحسرة والغيظ والندامة ، فلذا يكنى به عنها ، من اطلاق اللازم وارادة الملزوم ، وذلك لا يمنع من وقوع العض منه حقيقة ، بل وقوع ذلك هو الشان الغالب · وجملة يقول يا ليتنى : حالية ، فهو يعض حالة كونه قائلا : يا ليتى ، فبينت هذه الجملة ما يقول ، كما بينت التى قبلها ما يعمل ، فصورتاه فى حاله الشنيع الفظيع ، ويوم منصوب باذكر ، أو معطوف على يوم يرون الملائكة ، كما عطف عليه : ويوم تشقق السماء ، ويوم يرون منصوب باذكر ، أو بيمنعون البشرى ، كما يدل عليه : لا بشرى يومئذ للمجرمين ، والتنكير فى قوله : سبيلا ، للافراد ، أى : سبيلا واحدا ، لا تعدد فيه ، بخلاف ما كان عليه الظالم من سبل أهوائه المتعددة المتشعبة · والالف فى : يويلتى ، منقلبة عن ياء المتكلم ، والاصل : يويلتى ، نادى ويلته ، أى هلكته لتحضر فى ذلك الوقت لانه وقتها ، وليس نداؤها رغبة فى حضورها ، فالهلاك لا يرغب فيه ، وانما نادى الهلاك ليحضر لما حصل له من اليأس والقنوط من أسباب النجاة فلم يبق له الا الهلاك ، كما يقول العليل للطبيب وقد أيس من معالجة جرح ببدنه مثلا : اقطع فهذا وقت القطع ، وهكذا يخرج كل نداء فى حالة شدة لما لا يخلص منها وانما يزيد فى اشتدادها كما ينادى الشقى « يا شقوتاه » والمفتضح « يا فضيحتاه » والمصاب « يا مصيبتاه » وكنى بفلان ، لان لكل ظالم خليلا له اسمه

الخاص ، فلا يمكن التصريح باسماء الجميع ، فما بقى الا الكناية عنها بفلان وجملة : لقد أضلنى ، بيان لسبب تمنيه السابق ، و « الـ » فى الشيطان، والانسان ، للجنس ، فيدخل فى جنس الشيطان خليل الظالم الذى صده عن الذكر ، وقرين خليله من الجن الذى سول له ذلك وأعانه ، وقرينه هو الذى زينه له ودعاه اليه ، والجملة من كلام الظالم لاعلان خيبته واظهار ألمه منها لما وجد نفسه وحده مخذولا ممن أضله وأغواه ·

المعـــنى : ويوم يعض الظالم لنفسه بالكفر بربه أو الشرك على يديه ندما وحسرة على تفريطه وعدم اتباعه لسبيل الحق مع الرسول الـــذى أرسل اليه ، وعلى تورطه لنفسه بصحبته لخليله وطاعته له حتى صرفه عن الايمان بالقرآن بعد ما جاءه وسمعه وتمكن من الايمان به فاغواه ذلــك الخليل وقرينه ، وقرينه هو حتى أردوه ثم خذلوه فى ذلك اليوم العظيم وفى وقت الحسرة والندامة ، فلم يجد منهم نصرا ولا معونة كما هو شأن الشياطين فى خذلان من يغوونه ويردونه ·

الحاق واعتبار : كما علينا أن نتبع سبيل الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، التى جاء بها من عند الله تعالى وهى الاسلام ، كذلك علينا أن نتبع سبيله فى القيام بشرائع الاسلام علما وعملا فى أبواب العبادات واحكام المعاملات ، وفى تطبيق أصول الاسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة ، وهذه هى سنته التى كان عليها وكان عليها أصحابه وأهـــل القرن الثانى من التابعين وأهل القرن الثالث من اتباع التابعين ، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم ، وكما أن مــن عدل عن الاسلام ولم يسلك سبيله وقع فى ضلال الكفر ، كذلك من عدل عن السنة ولم يسلك سبيلها وقع فى ضلال الابتداع ، وكما أن من لــم يتخذ مع الرسول سبيل الاسلام يندم أشد الندم ويتحسر أعظم الحسرة على ما كان من تفريطه ، كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل السنة ، اذ كل منهما قد ظلم نفسه ، وفرط فى سبيل نجاته ، فالآية وان كانــت فى الكافر والمشرك فهى تتناول بطريق الاعتبار أهل الاهواء والبدع ·

وبهذا كانت الآية متناولة بوعظها وترهيبها جميع الخلق ممن لم يدخل فى الاسلام . أو دخل فيه ولم يلتزم سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ٠

تحـذيـر : عندما تتخلل صحبة شخص من الناس قلبك وتمتـزج بروحك ، ويستولى بسلطان مودته عليك ، تصير أقواله وأفعاله كلها عندك مرضية، وعيوبه ونقائصه عنك محجوبة٠ فتمسى طوع بنانه ورهن اشارته يوجهك حيث شاء ويصرفك عما أراد ٠ وهذه حالة من أخطر الاحـوال عليك . لانك فيها قد سلبت تمييزك وخسرت ارادتك ، وصرت آلة فى يد غيرك . فقد ترى الخير وتدعى اليه فيصرفك عنه ، وقد ترى الشر وتحذر منه ويوقعك فيه ، وهب هذا الخليل كان مخلصا لك وحدبا عليك فانه غير معصوم من الخطا والضلال . أما اذا كان شريرا مفسدا فهنالك الهلاك المحقق والوبال الشديد ، وقد ذكر لنا الله تعالى فى الآية ما كان من سوء مآل الظالم بسبب انقياده لخليله واتباعه له عن غير رؤية وصدق وتمييز يحذرنا من سلطان الخلة الذى يهمل معه شأن الارادة والتمييز ويعلمنا أن علينا أن نحافظ على ارادتنا وتمييزنا ونظرنا لانفسنا مع الصديق والعدو ، ومع الخليل وغير الخليل ، بل نحافظ عليهما مع الخليل أكثر لانه مظنة الخوف بما له من المكانة فى القلب والسلطان على النفس ٠

ارشـــاد : لما كان خليل المرء بهذه المنزلة فعليك أن تختار من تخال ، فلا تخال الا من حسنت سريرته واستقامت سيرته ، وغلب الصواب على أقواله واعماله ليكون دليلك الى الخير وسائقك اليه مع محافظتك عـلى ارادتك وتمييزك معه على كل حال ٠

عـلاقـة : اذا أردت أن تعرف شر خلانك وأحقهم بهجرك له وابتعادك عنه ، فانظر فيما يرغبك هو فيه ، وما يرغبك عنه . فاذا وجدته يرغبك عن القرآن وعما جاء به القرآن ، فاياك واياه . فتلك أصدق علاقة عـلى خبثه وسوء عاقبة قربه ، فابتعد عنه فى الدنيا قبل أن تعض على يديـك على صحبتك له فى الآخرة ، واذا وجدته يرغبك فى القرآن وما جاء بـه

القرآن ، فذلك الخليل الزكي الصادق فاستمسك به وحافظ عليه، وان خلة اسست على الرجوع الى القرآن والتحاب على القرآن والتناصح بالقرآن لخلة نافعة دنيا وأخرى ، لانها أسست على أساس التقوى • وقد قال الله تعالى : « **ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ** »

شكوى النبي الكريم ، من هجر القرآن العظيم

« وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُورًا »

(سورة الفرقان الآية 30)

المناسبة : لما ذكر تعالى ما قاله المشركون من الباطل في معارضة القرآن والاعراض والصد عنه وما قالوه من عبارات الحسرة والندامة يوم القيامة على ما كان منهم من ذلك في الدنيا ـ ذكر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم من الشكوى لربه بهم من تركهم للقرآن العظيم وهجره •

المفردات : مهجورا : متروكا مقاطعا مرغوبا عنه **الرسول** : محمد صلى الله عليه وسلم **وقومه** قريش •

التراكيب : في قوله يا رب اظهار لعظيم التجائه وشدة اعتماده وتمام تفويضه لمالكه ومدبر أمره وموالي الانعام عليه • وفي التعبير عنهم بقومه واضافتهم اليه ، وفي التعبير عن القرآن باسم الاشارة القريب ـ بيان لعظيم جرمهم بتركهم للقرآن وهو قريب منهم في متناولهم وقد أتاهم به واحد منهم أقرب الناس اليهم • فصدوا وأبعدوا في الصد عمن هو اليهم قريب من قريب • وهذا أقبح الصد وأظلمه • وفي قوله اتخذ الخ بيان أنهم جعلوا الهجر ملازما له ووصفا من أوصافه عندهم وذلك أعظم من أن يقال هجروه الذي يفيد وقوع الهجران منهم دون دلالة على الثبوت والملازمة •

المعنى : وقال الرسول شاكيا لربه ان قومي الذي أرسلتني اليهم بالقرآن لاتلوه عليهم قد صدوا عنه وتركوه وثبتوا على تركه وهجره •

استنتاج واعتبار : فى شكوى النبى صلى اللـه عليه وسلم من هجر القرآن دليل على أن ذلك من أصعب الامور وأبغضها لديه وفى حكاية القرآن لهذه الشكوى وعيد كبير للهاجرين بانزال العقاب بهم اجابة لشكوى نبيه ٠ ولما كان الهجر طبقات أعلاها عدم الايمان بـه فلكل هاجر حظه من هذه الشكوى وهذا الوعيد ٠

تنزيل : ونحن ــ معشر المسلمين ــ قد كان منا للقرآن العظيم هجر كثير فى الزمان الطويل ٠ وان كنا به مؤمنين ٠ بسط القرآن عقائد الايمان كلها بادلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين فاخذنا فى الطرائق الكلامية المعقدة واشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة فضلا عن العامة ٠ وبين القرآن أصول الاحكام وامهات مسائل الحلال والحرام ووجوه النظر والاعتبار مع بيان حكم الاحكام وفوائدها فى الصالح الخاص والعام ، فهجرناها واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر جافة بلا حكمة محجبة وراء أسوار من الالفاظ المختصرة تفنى الاعمار قبل الوصول اليها ٠ وبين القـرآن مكارم الاخلاق ومنافعها ومساوىء الاخلاق ومضارها وبين السبيل للتخلى عن هذه والتحلى بتلك مما يحصل به الفـلاح بتزكية النفس والسلامة مـن الخيبة بتدسيتها فهجرنا ذلك كلها ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا خرجنا فى اكثرها عن الحنيفية السمحة الى الغلو والتنطع وعن السنة البيضاء الى الاحداث والتبدع وأدخلنا فيها من النسك الاعجمى والتخيل الفلسفى ما أبعدها غاية البعد عن روح الاسلام وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام وآل الحال بهـم الى الخروج مـن أثقال أغـلالها والاقتصار على بقيـة رسومها للانتفاع منها ومعارضة هدايـة القرآن بها ٠ وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه ونبهنا على ما فيه من عجائب الحكمة ومصادر النعمة لننظر ونبحث ونستفيد ونعمل فهجرنا ذلك كله الى خريدة العجائب وبدائع الزهور والحوت والصخرة وقرن الثور ! ودعانا القرآن الى تدبره وتفهمه والتفكر فى آياته ولا يتم ذلك الا بتفسيره وتبيينه فاعرضنا

عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه فترى الطالب يفنى حصة كبيرة من عمره في الحلول الآليـة دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة فى أصغر تفسـير كتفسير الجلالين مثلا بل ويصير مدرسا متصدرا ولم يفعل ذلك وفى جامع الزيتونة عمره الله تعالى ـ اذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع فى درس تفسير فانه ـ ويا للمصيبة ـ يقع فى خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه فى القواعد التى كان يحسب أنه فـرغ منها من قبـل فيقضى فى خصومة من الخصومات اياما أو شهورا فتنتهى السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه الا قليلا دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير ، وانما قضى سنته فى الماحكات بدعوى انها تطبيقات للقواعد على الآيات كان التفسير انما يقرأ لاجـل تطبيق القواعد الآلية لا لاجل فهم الشرائع والاحكام الالهية • فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون انفسهم انهم فى خدمة القرآن •

وعلمنا القرآن أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو المبين للناس ما نزل اليهم من ربهم وان عليهم ان يأخذوا ما أتاهم وينتهوا عما نهاهم عنه فكانت سنته العملية والقولية تالية للقرآن فهجرناها كما هجرناه وعاملناها بما عاملناه حتى انه ليقل فى المتصدرين للتدريس من كبار العلماء فى أكبر المعاهد من يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطا والبخارى ومسلم ونحوها مطالعة فضلا عن غيرهم من أهل العلـم وفضلا عن غيرها من كتب السنة وكم وكم وكم بين القرآن وكم وكم وكم قابلناه بالصد والهجران •

بيان واستشهاد : شر الهاجرين للقرآن هـم الذين يضعون مـن عنـد انفسهم ما يعارضونه به ويصرفون وجوه الناس اليهم والى ما وضعوه عنه لانهم جمعوا بين صدهم وهجرهم فى انفسهم وصد غيرهم فكان شرهم متعديا وبلاؤهم متجاوزا وشر الشر وأعظم البلاء ما كان كذلك • وفى هؤلاء جـاء ما ذكره الامام ابن القيم فى كتاب اعلام الموقعين عن حماد بن سلمة ثنا أيوب السختيانى عن أبى قلابة عن يزيد ابن أبى عمـيرة عن معاذ بن جبل قال : « تكون فتن فيكثر المال ويفتح القرآن حتى يقرأه الرجل والمرأة والصغير

والكبير والمنافق والمؤمن فيقرؤه الرجل فلا يتبع فيقول والله لأقرأنه علانية فيقرؤه علانية فلا يتبع فيتخذ مسجدا ويبتدع كلاما ليس من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاياكم واياه فانه بدعة وضلالة • قاله معاذ ثلاث مرات اهـ • فانظر فى قطرنا وفى غير قطرنا كم تجد ممن بنى موضعا للصلاة ووضع كتبا من عنده أو مما وضعه أسلافه من قبله وروجها بين أتباعه فاقبلوا عليها وهجروا القرآن وربما يكون بعضهم قصد بما وضع النفع فاخطأ وجهه اذ لا نفع بما صرف عباد الله عن كتاب الله وانما يدعى لله بكتاب الله ولذلك سمى صنيع هذا الواضع بدعة وضلالة وحذر معاذ منه وأكد فى التحذير بالتكرير ، وهذا الحديث وان كان موقوفا على معاذ فهو فى حكم المرفوع لانه اخبار بمغيب مستقبل وهذا ما كان يعلمه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الا بتوقيف من النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد تحقق مضمونه فى المسلمين منذ أزمان ولا حول ولا قوة الا بالله •

سبيل النجاة : لا نجاة لنا من هذا التيه الذى نحن فيه والعذاب المنوع الذى نذوقه ونقاسيه الا بالرجوع الى القرآن الى علمه وهديه وبناء العقائد والاحكام والآداب عليه والتفقه فيه وفى السنة النبوية شرحه وبيانه والاستعانة على ذلك باخلاص القصد وصحة الفهم والاعتضاد بانظار العلماء الراسخين والاهتداء بهديهم فى الفهم عن رب العالمين وهذا أمر قريب على من قربه الله عليه ميسر على من توكل على الله فيه ـ وقد بدت طلائعه والحمد لله وهى آخذة فى الزيادة ان شاء الله وسبحان من يحيى العظام وهى رميم •

التسلية والتثبيت للنبى صلى الله عليه وسلم

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيءٍ عَدُوًّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً » . (سورة الفرقان ـ الآية : 31)

المناسبة : لما شكا عليه الصلاة والسلام قومه سلاه الله تعالى وعزاه وأمره بالصبر والثبات ووعده ورجاه •

المفردات : العدو : وزنه فعول يكون للواحد والجماعة ·

التراكيب : كاف كذلك بمعنى مثل . والاشارة للجعل المفهوم مما تقدم، أى مثل ذلك الجعل للاعداء لك جعلنا لكل نبى ··· الخ ·

المعـــنى : مثلما جعلنا لك أعداء من قومك كفروا بك وهجروا كتابك وصدوا عنك وبالغوا فى اذايتك جعلنا لكل نبىء مما نبأنا أعداء من أهـــل الذنب والاجرام · فما أصابك الا ما أصابهم فاصبر كما صبروا وكفى بربك هاديا ـ يهديك الى صراط الحق ويبصرك الرشد ويعرفك بما تؤدى به رسالة ربك ، فلا تتحير فى أمرك لما ترى من صدود قومك ـ وناصرا ينصرك على أعدائك يأمره بالصبر ويثبته بالتأسى ، يعده بانه يهديه فى طريـــق التبليغ وينصره على معارضيه حتى يتم أمر الله على يده ·

هؤلاء الذين سماهم الله ـ تعالى ـ اعداء لنبيه ووصفهم بالاجرام هم أولئك الذين هجروا القرآن وصدوا عنه فهذا تخويف عظيم ووعيد شديد لكل من كان هاجرا للقرآن العظيم بوجه من وجوه الهجران ·

اقتداء وتاس : حق على حزب القرآن الداعين به والداعين اليه ان يقتدوا بالانبياء والمرسلين فى الصبر على الدعوة والمضى فيها والثبات عليها وأن يداووا أنفسهم عند ألمها واضطرابها بالتاسى بأولئك السادة الاخيار ·

بشـــارة : قد وعد الله تعالى نبيه بعد ما أمـــره بالتأسى والصبـــر ـ بالهداية والنصر ـ وفى هذا بشارة للدعاة من أمته من بعده السائرين فى الدعوة بالقرآن والى القرآن على نهجه أنه يهديهم وينصرهم كما قال تعالى :
« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »
معهم بالفضل والنصر والتأييد ، وهذا عام للمجاهدين المحسنين . والحمد لله رب العالمين (1) ·

(1) الشهاب ـ ج 2 ، م· 8 ـ شوال 1350 هـ ـ فيفرى 1932 م

تثبيت القلوب
بالقرآن العظيم

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .
كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » .

سورة الفرقان ـ الآية : 32)

المناسبة : هذا اعتراض آخر من اعتراضاتهم الباطلة نسق مع ما تقدم منها ليجاب عنه ويبين خطاهم فيه كما فعل بما تقدم .

المفردات : (لولا) : مع المضارع للتخصيص نحو : لولا تستغفرون الله ـ ومع الماضي للوم والتوبيخ ، نحو : لولا جاءوا عليه باربعة شهداء . وهي هنا مع الماضي ، فتكون للوم على عدم حصول المذكور وحصول ضده ، والمقصود من اللوم هنا الاعتراض على عدم نزوله جملة واحدة ونزولـه مفرقا ، فالمعترض عليه هو نزوله مفرقا . (نزل) : ياتي مرادفا لانزل ، والتضعيف أخو الهمزة ، ويأتي مفيدا للتكثير ، فيفيد تكرر النـزول وتجديده ، وخرج على هذا قوله تعالى : « نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ » ، وأما هنا فلا يصح حمله على التكثير المفيد للتدريج ، لئلا يناقض قولهم : جملة واحدة فيكون التضعيف المرادف للهمزة . وعندي أن نزل المضاعف يرد لكثرة الفعل ولقوته ، فجاء لكثرته في آية آل عمران المتقدمة ، وجاء لقوته في هـذه الآية ، لان انزال الجملة مرة واحدة أقوى من انزال كل جزء من الاجزاء بمفرده . (كذلك) : الاشارة للانزال المفرق المفهوم من قولهم : لولا نزل عليه القرآن جملة،لانه في معنى لمه نزل عليه جملة ولم ينزل عليه مفرقا .

(**التثبيت**) : ثبات الشيء اقامته ورسوخه دون اضطراب وذلك من قوته، كما أن اضطراب المضطرب من ضعفه فتفسير تثبيت الفؤاد هنا بتقويته تفسير بملازم معناه على أنه مراد منه أيضا أصل المعنى وهو السكون وعدم الاضطراب · فتثبيته ـ اذا ـ هو تسكينه وتقويته · (**الترتيل**) : مادة : ر ت ل · كلها ترجع الى تناسق الشيء وحسن تنضيده منه : ثغر رتل ، بالتحريك ، أى مفلج بين الاسنان فرج لا يركب بعضها بعضا ، وترتيل القرآن فى التلاوة هو القاء حروفه حرفا حرفا وكلماته كلمة كلمة وآياته آية ، آية ، على تؤدة ومهل حتى يتبين للقارىء والسامع ولا يخفى عليه منه شيء · وأما ترتيله فى نزوله ، وهو المراد هنا فانه أنزله آية وآيتين وآيات مفرقا نجوما على حسب الوقائع ·

التراكيب : (وقال الذين كفروا) وصل لانه قيل من اقوالهم ، فعطف على ما تقدم من مثله · (كذلك لنثبت) الاصل : أنزلنا كذلك ، فأوجز بحذف المتعلق لوجود ما يدل عليه فى اعتراضهم ، وفصل لانه جواب عن اعتراضهم · (ورتلناه) : وصل لانه معطوف عـلى أنزلناه المحذوف ، والتنوين فى (ترتيلا) تنوين تنويع وتعظيم ، أى نوعا من الترتيل عظيما·

المعـنى : وقال الذين كفروا ـ وهم قريش أو اليهود أو الجميع ، وهو الظاهر ، لان قريشا واليهود كان يتصل بينهم الكلام فى شأن النبيء صلى الله عليه وآله وسلم وشأن القرآن ـ قالوا معترضين ومقترحين : لمه لم ينزل عليه القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة وغيرها ، ونـزل عليه مفرقا · فقال الله تعالى جوابا لهم : أنزلنا كذلك الآنزال مفرقا لنثبت به قلبك فيسكن ويطمئن وتقويه فيصبر ويتحمل · وانزلناه مرتلا مفرقا تفريقا مرتبا منزلا كل قسم منه فى الوقت المناسب لانزاله والحالـة الداعية اليه اللائقة به ·

« **مزيد بيان للاعتراض والجواب** : أما اعتراضهم فكان لانهم سمعـوا القرآن يذكر أن الكتاب أنزل على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، كما أنزلت الكتب على الانبياء عليهم السلام من قبله بمثل قوله تعالى : « **كذلك**

انزلنا اليك الكتاب » . فقالوا لماذا انزل هذا الكتاب مفرقا ولم ينزل مثل تلك الكتب جملة واحدة وهم لما عجزوا عن معارضة أقصر سورة منه أخذوا يباهتون بالباطل ويعترضون بمثل هذا الاعتراض . وأما الجواب فكان ببيان حكمتين في انزاله مفرقا . الحكمة الاولى : تثبيت قلبه والحكمة الثانية : تفريقه مرتبا على الوقائع ، وكان في تينك الحكمتين مزيتان عظيمتان للقرآن العظيم على غيره من كتب الله تعالى ، فكان ما اعترضوا به على أنه نقص فيه عنها هو كمال له عليها .

شرح الحكمة الاولى : كان كل نجم ينزل من القرآن العظيم ـ والنجم : القسم الذي ينزل معا آية أو آيتين أو أكثر ـ يزداد به عجزهم وعنادهم ظهورا ، وتزداد به حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه وضوحا. فيزداد بذلك سكون قلبه وطمأنينته بظهور أمره على عدوه وعلو كلمة الحق على كلمة الباطل ، وفي ذلك تقوية له وأي تقوية لا عن شك كان في قلبه أو تردد ولكن البراهين المتوالية والحجج المتتالية تزيد في سكون القلب واطمئنانه ، وان كان معقودا من أول أمره على اليقين . فهذا وجه من تثبيت فؤاده بالآيات المتفرقات في النزول . وقد كان كل نجم من نجوم القرآن ينزل ينبيء من العلم والعرفان مما يرجع الى العقائد أو الاخلاق أو الاحكام أو التذكير بالامم الماضية وأخبار الرسل المتقدمين أو باليوم الآخر أو بسنة الله في المكذبين الى غير ذلك من علوم القرآن فيتقوى قلبه عند نزول كم نجم بما يكتسبه منه من معرفة وعلم . وكان يلقى من الجهد والعناء في تبليغ الرسالة ما تضعف عن تحمله القوى البشرية ، فاذا انزل عليه القرآن واتصل بالملك الروحاني النوراني وقذف في قلبه ذلك الوحي القرآني تقوى قلبه على تحمله أعباء الرسالة ومشاق التبليغ . ولما كان البلاء والعناء في سبيل التبليغ متكررا متجددا كان محتاجا الى تجديد تقوية قلبه ، وكان ذلك مقتضيا لتفريق نزول الآي عليه ، فهذه ثلاثة وجوه من التثبيت .

حظنا من العمل بهذه الحكمة : قلوبنا معرضة لخطوات الوسواس ، بل للاوهام والشكوك· فالذى يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم ، ولقد ذهب قوم مـــع تشكيكات الفلاسفة وفروضهـــم ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم ، فما ازدادوا الا شـــكا وما ازدادت قلوبهم الا مرضا حتى رجع كثير منهم فى أواخر أيامهم الى عقائد القرآن وادلة القرآن فشفوا بعد ما كادوا كامام الحرمين والفخر الـــرازى ،

وقلوبنا معرضة لران المعصية الذى تظلم منه القلوب وتقسوا حـــتى تحجب عنها الحقائق وتنطمس أمامها سبل العرفان فالذى يجلو عنها ذلك الران ، ويزيل منها تلك القسوة ويكشف لها حقائق العلم ويوضح لهـــا سبل المعرفة هو القرآن العظيم ·

فقراؤه المتفقهون فيه قلوبهم نيرة مستعدة لتلقى العلوم والمعارف ، مستعدة لسماع الحق وقبوله ، لها من نور القرآن فرقان تفرق به بـــين الحق والباطل ، وتميز به بين الهدى والضلال ، وقلوبنا معرضة للضعف عن القيام بأعباء التكليف وما نحن مطالبون به من الاعمال ، والذى يجدد لنا فيها القوة ويبعث فيها الهمة هو القرآن العظيم · فحاجتنا الى تجديد تلاوته وتدبره أكيدة جدا لتقوية قلوبنا باليقين وبالعلم وبالهمة والنشاط للقيام بالعمل ·

شرح الحكمة الثانية : من محاسن هذه الشريعة المطهرة أنها نزلت بالتدريج المناسب كما كان فى تحريم الخمر وكما كانَ فى العدد المفروض عليه الثبات للعدو فى آيات الانفال وكما كان فى مشروعية قيام الليـــل فى آيات سورة المزمل وما كان ليكون هذا التدريج بغير تفريق الآيات فى التنزيل · ومن محاسنها نسخ الحكم عند انتهاء المصلحة التى اقتضت تشريعه وانقضاء زمنها لحكم آخر انسب منه للبقاء فى الازمان كما كان فى آيتى المتوفى عنها فى سورة البقرة ، وما كان ذلك ليتأتى الا بتفريـــق الآيات فى الانزال · وكانت الوقائع تقع والحوادث تحدث والشبه تعرض والاعتراضات ترد ، فكانت الآيات تنزل بما تتطلبه تلك الوقائع من بيان

وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام وما تستدعيه تلك الشبه من رد وتلك الاعتراضات من ابطال الى غير ما ذكرنا من مقتضيات نزول الآيات المعروفة باسباب النزول ، وفي بيان الواقعة عند وقوعها وذكر حكم الحادثة عند حدوثها ورد الشبهة عند عروضها وابطال الاعتراض عند وروده ـ ما فيه من تأثير في النفوس ووقع في القلوب ورسوخ في العقول وجلاء في البيان وبلاغة في التطبيق واستلاء على السامعين ، وما كان هذا كله ليتأتى لولا تفريق الآيات في التنزيل وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب وهذا التنضيد الغريب الذي بلغ الغاية من الحسن والمنفعة حتى أنه ليصح أن يعد وحده وجها من وجوه الاعجاز ٠

حظنا من العمل بهذه الحكمة : ان نقرأ القرآن ونتفهمه حتى تكون آياته على طرف ألستتنا ومعانيه نصب أعيننا لنطبق آياته على أحوالنا وننزلها عليها كما كانت تنزل على الاحوال والوقائع . فاذا حدث مرض قلبي او اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه ، واذا عرضت شبهة او ورد اعتراض طلبنا فيه الرد والابطال . واذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها ، وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والاحوال الى أقصى حد يمكننا ٠

اقتداء : انظر الى هذه الحكمة في هذا التنزيل كيف تنزل آياته على حسب الوقائع ، أليس في هذا قدوة صالحة لائمة الجمع وخطبائها في توخيهم بخطبهم الوقائع النازلة وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال ، بلى والله ، بلى والله ٠ ولقد كانت الخطب النبوية والخطب السلفية كلها على هذا المنوال تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال ٠ وأما هذه الخطب المحفوظة المتلوة على الاحقاب والاجيال ، فما هي الا مظهر من مظاهر قصورنا وجمودنا ٠ فالى الله المشتكى ، وبه المستعان(1).

---

(1) الشهاب ـ ج 3، م٠ 8 ـ ذو القعدة 1350 هـ/مارس 1932 م ٠

الحـــق والبيـــان
فى آيـــات القـــرآن

« وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً »

(سورة الفرقان ـ الآية : 33)

المناسبة : لما رد تعالى اعتراضاتهم وابطل شبهاتهم اخبر تعالى بأنه لا يزال القرآن كذلك يدمغ باطلهم بحقه فيزهقه ويصدع غشاء تمويههم بصادق بيانه فيمزقه لطمأنة قلب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وتثبيته ووعدا له بدوام النصر والتأييد ٠

المفردات : (المثل) : هو الشبه ، هذا أصله ، ثم يطلق على الكلام الذى قيل أول ما قيل فى مقام ، ثم لحسنه وايجازه حفظ وجرى على الالسنة وصار يقال فى كل مقام يشابه مقامه الاصلى الذى قيل فيه أولا ، لمشابهة المقام الثانى للمقام الاول ، ثم صار يطلق أيضا على كل كلام فيه بيان لشىء وتصوير له سواء أطابق ذلك البيان والتصوير الواقع وأتى بالحق ، أم لم يطابق الواقع ولم يأت بالحق ، وهذا المعنى هو المراد هنا فان المشركين جاءوا بكلمات فى حق الله تعالى وفى حق كتابه وفى حق ملائكته وفى حق نبيه ولم يطابقوا فيها الواقع ولا أتوا فيها بحق ، كقولهم فى الله وملائكته : « **لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا** » ٠ وفى نبيه : « **مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ** » وفى القرآن : «**أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا**» « **لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً** » ٠ فهذه هى امثالهم التى ضربوها فضلوا ٠ وجاء القرآن بعد كلماتهم الباطلة بكلمات الحق الدامغة مثل قوله تعالى : « **قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** » ٠

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » . « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » . فهذه هى امثال الله التى جاءت بالحق وأحسن تفسيرا . « **التفسير** » : الكشف عن المعنى.

التراكيب : وصلت الجملة لمشاركتها لما قبلها فى الخبرية والمخبر عنهم والموضوع المتحدث عنه مما جاءوا به من الباطل وما رد عليهم به من الحق ، وجملة (جئناك) حالية من كاف الخطاب المفعول فى : لا يأتونك ، والحصر بالنفى والا فى تلك الحال ، والتقدير : ولا يأتونك بمثل فى حال من احوالك الا فى حال مجيئنا لك بالحق واحسن تفسيرا ، والتعبير بالمضارع فى يأتونك يفيد الحدوث وتجدد الاتيان منهم ، والتعبير بالماضى فى جئناك مع أنه فى معنى المستقبل يفيد تحقق المجىء ، وهو المناسب لمقام الوعد والتثبيت .

المعنى : ولا ياتيك يا محمد هؤلاء المشركون وأمثالهم بكلام يحسنونه ويزخرفونه ويصورون به شبهة باطلة أو اعتراضا فاسدا الا جئناك بالكلام الحق الذى يدفع باطلهم ويدحض شبهتهم وينقض اعتراضهم ويكون أحسن بيانا وأكمل تفصيلا .

اهتداء : اذا تتبعت آيات القرآن وجدتها قد أتت بالعدد الوافر من شبه الضالين واعتراضاتهم ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف فى أوجز لفظ واقربه وأبلغه ، وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن يتحتم على رجال الدعوة والارشاد أن يكون لهم به فضل عناية ومزيد دراية وخبرة. ولا نحسب شبهة ترد على الاسلام الا وفى القرآن العظيم ردها بهذا الوعد الصادق من هذه الآية الكريمة فعلينا عند ورود كل شبهة من كل ذى ضلالة أن نفزع الى آى القرآن ولا اخالنا اذا أخلصنا القصد واحسنا النظر الا واجديها فيها وكيف لا نجدها فى آيات ربنا التى هى الحق وأحسن تفسيرا .

اقتداء : لنقتد بالقرآن فيما ناتى به من كلام فى مقام الحجاج أو مقام الارشاد فلنتوخ دائما الحق الثابت بالبرهان أو بالعيان ولنفسره

احسن التفسير ولنشرحه أكمل الشرح ولنقربه الى الاذهان غاية التقريب وهذا يستدعى صحة الادراك وجودة الفهم ومتانة العلم لتصور الحــق ومعرفته ، ويستدعى حسن البيان وعلوم اللسان لتصوير الحق وتجليته والدفاع عنه فللاقتداء بالقرآن فى الاتيان بالحق وأحسن بيان ، علينا ان نحصل هذه كلها ونتدرب فيها ونتمرن عليها حتى نبلغ الى ما قدر لنا منها · هذا ما على أهل الدعوة والارشاد وخدمة الاسلام والقرآن فأما ما على عموم المسلمين من هذا الاقتداء فهو دوام القصد الى الاتيان بالحق وبذل الجهد فى التعبير باحسن لفظ وأقربه ومن اخلص قصده فى شىء وجعله من وكده أعين ـ باذن الله تعالى ـ عليه ·

حشـــر الكفـــار الى النـــار

« ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا »

(سورة الفرقان ـ الآية : 34)

المناسبة : لما أبطل شبههم بين مآلهم وجزاءهم ·

المفردات : (**الحشر**) : السوق والجمع (**المكان**) : المنزل (**والسبيل**) : الطريـــق ·

التراكيب : فصلت الجملة لانها بيان لحالهم فى الآخرة وهو غـــير الموضوع المتقدم عرف المسند اليه بالاشارة فى قوله أولئك شر مكانا للتنبيه على أن المشار اليه وهو الذين المتقدم حقيق بما بعد اسم الاشارة من قوله شر مكانا واضل سبيلا . بسبب ما اتصف به المشار اليه المتقدم مما دلت عليه الصلة وهو حشرهم على وجوههم الى جهنم الذى ما أصابهم الا بمـــا قدمت أيديهم ففى الحقيقة هم أحقاء بكونهم شرا مكانا واضل سبيـــلا بسبب ما أداهم الى ذلك الحشر فاكتفى بذكر المسبب عن السبب ، وأفعل التفضيل لم يذكر معه المفضل عليه ليفيد أن مكانهم شر مكان من أمكنة

الشر ، وسبيلهم أضل سبيلا من سبل الضلال ، واسناد الضلال للسبيل مجـــاز ٠

المعـــنى : هؤلاء المشركون القائلون للمقالات المتقدمة ومن كان على شاكلتهم في الكفر والعناد الذين يجمعون ويساقون الى جهنم مقلوبين على وجوههم أولئك شر مكانا ومستقرا فانهم أهل النار وأضل طريقا ، فانهم سلكوا طريق الكفر الذى أداهم الى ذلك المستقر ٠

حديـــث : أخرج الشيخان عن انس بن مالك رضى الله تعالى عنه ، أن رجلا قال : يا نبى الله كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : (اليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة) ؟

فقــه : من هذا الحديث علمنا انه يجب فيما يرد من الاخبار عن اليوم الآخر ان يحمل على ظهره ولو كان غير معتاد فى الدنيا ، لان أحوال العالم الآخر لا تقاس على أحوال هذا العالم ٠

توجيــه : رفعوا وجوههم فى الدنيا عن السجود لله ، فأذل الله تلك الوجوه فمشوا عليها فى المحشر ٠ ورفعوا رؤوسهم كبرا عن الحق فنكسها الله يوم القيامة ٠ ومشوا فى طريق النظر والاستدلال مشيا مقلوبـا ، فمشوا فى الآخرة مشيا مقلوبا فكان ما نالهم من سوء تلك الحال جزاءا وفاقا لما أتوا من قبيح الاعمال ٠ وما ربك بظلام للعبيد ٠

تحذير : فيما يذكره الله تعالى من هذا الجزاء العادل تخويف عظيم لنا من سوء الاعمال التى تؤدى الى سوء الجزاء وخصوصا من مثل ما ذكر فيما تقدم من ترك السجود والكبر على الحق والنظر المقلوب ٠

عصمنا الله والمسلمين أجمعين بالعلم والدين وهدانا سنن المرسلين آمين يا رب العالمين ٠

---

(1) الشهاب ــ ج 3 ، م٠ 8 ــ ذو القعدة 1350 هـ ــ مارس 1932 م ٠

من إكرام الله تعالى عبده ، تحميله أعباء الرسالة وحده

« وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً »

(سورة الفرقان ـ الآية : 51)

المناسبة : قد استفيد من الآيات المتقدمة ما كان يكابد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من اذاية قومه وما كان يلقاه من مكابرتهم للحق وتعنتهم بالباطل · وما كان يعانيه من الجهد الجهيد فى انذارهم وتبليغ دين الله تعالى اليهم وقد أحاط به الاعداء من كل جانب ولقيته العقبات من كل ناحية وهو فى ذلك كله جاهد فى القيام بتبليغ الامانة ناهض باعبـــاء الرسالة ماض فى تلك السبيل ليس معه من نذير ، وقد كان ذلك ممـــا تتفسخ له القوى البشرية لولا تأييد من الله فأراد تعالى فى هذه الآية أن يثبته فى مقامه ويؤنسه فى انفراده فيبين له أن تخصيصه بالقيام هـذا المقام العظيم هو لاجل تعظيمه وتكريمه وتخصيصه بالاجر الكثير والثواب الذى ليس له من مثيل ·

المفردات : **البعث** : الارسال ، **القرية** : منازل الناس حيث يقيمون ويكونون مجتمعا كبيرا أو صغيرا ، **النذير** : المخوف من الوقوع فى الشر والهـلاك ·

التراكيب : مفعول المشيئة محذوف قياسا ، وتقدير الكلام : ولو شئنا أن نبعث · والبعث فى كل قرية منتف بحكم لو ، لانها هنا تدل على امتناع جوابها لامتناع شرطها ·

المعـــنى لو أردنا لارسلنا فى كل بلدة ومصر رسولا ينذرهم ويخوفهم من حلول نقمتنا بهم بكفرهم بنا ومعصيتهم لنا فيخفف عنك عبء ما حملت

ويسقط عنك بذلك تعب كثير · ولكنا لم نرد ذلك وحملناك أنت وحدك اعباء واثقال النذارة لجميع القرى ليظهر فضلك بعموم رسالتك ويعظم اجرك بعظم جهادك وصبرك ويكثر ثوابك بكثرة من يؤمن بك ومن تود وتعمل ليؤمن بك ·

حديث : صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل أحمر وأسود . وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي ، وجعلت لي الارض طيبة طهورا ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر . وأعطيت الشفاعة) · وذكر اللونين الاحمر والاسود لقصد التعميم · هكذا جاء هذا الحديث عن جابر بن عبد اللـه في صحيح مسلم ، وجاء فيه من طريق أبي هريرة زيادة : (وختـم بي النبيون) فتعميم رسالته وختم النبوة به في هذا الحديث الصحيح من طريقيه من مقتضى معنى الآية فانه لما عممت رسالته ولم يكن معه رسول في حياته وختمت به النبوة فلا يكون كذلك بعد وفاته ثبتت له كرامـة الخصوصية وعظمة المنزلة وجزالة المثوبة وهو ما كنا بيناه في معـنى الآية · وما أحسن التفسير تعضده الاحاديث الصحاح ·

تاسي ورجاء : قد ثبت في السنة ما يكون من كثرة الجهل وموت السنة وانتشار البدعة وقد أيد ذلك الواقع والمشاهدة · فاذا كان دعاة العلـم والسنة وخصوم الجهل والبدعة فلابد أن يكونوا قليلا في العدد الكثـير خصوصا في مبدا أمرهم وأول دعوتهم ولابد أن يلقوا ما يلقون ويقاسوا ما يقاسون · ومما يثبت قلوبهم في عظيم مواقفهم تاسيهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء وحده بالحق والناس كلهم على الباطل ، فمازال يجاهد حتى لقي ربه ـ ومما يثبت قلوبهم أيضا رجاؤهم ـ اذا أخلصوا النية وأحسنوا الاقتداء ـ فيما يكون لهم من الاجر العظيم والثواب الجزيل في جهادهم على قلتهم وفيما يكون لهم من الثواب كذلك فيمن اهتدى بهـم وفيمن بذلوا جهدهم في هدايته وكانت لهم الرغبة العظيمة في ايصال الخير اليه · وان لم يرجع اليهم ·

عدم طاعة الكافرين ، والجهاد بالقرآن العظيم

« فَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا » .

(سورة الفرقان ـ الآية : 32)

المناسبة : لما بين له ما خصصه به من الكرامة دعاه الى مقابلة ذلك بعدم طاعة اهل الكفر والثبات على جهادهم بالقرآن ·

المفردات : الفاء تفريعية · **الطاعة** : الامتثال للمطلب · **والجهاد** : بذل الجهد من ناحيتك فى مقابلة من هو باذل جهده فى الناحية المقابلة لك هذا مقتضى صيغة فعال ·

التراكيب جهادا كبيرا مصدر مبين للنوع المطلوب بصفته وهى كبيرا ·

المعـــنى : لما أكرمناك بعموم رسالتك وختم النبوة بك ، فقابل هذه النعمة باخلاص الطاعة لربك ، ولا تطع الكافرين أعداء الله وأعدائك ، فى أى شيء يدعونك اليه من مقتضيات كفرهم كالرجوع اليهم ، والسكـوت عن بعض كفرهم ، وابذل كل جهدك فى دعوتهم للدين الحق ، ومقاومـــة ما هم عليه من الباطل بالقرآن العظيم ، وجاهدهم بهذا القرآن جهادا كبيرا ، بتحمل كل ما يأتيك من ناحيتهم من بلاء واذاية والصبر عليه والثبات على الدعوة والمقاومة ·

تعميـــم : كما لا تجوز طاعة الكافرين فى شيء مما يمليه عليهم كفرهم، كذلك لا تجوز طاعة العصاة فى شيء مما تمليه عليهم معصيتهم ، لان الجميع فيه مخالفة لدين الله ، وكما يجاهد أهل الكفر بالقرآن العظيم الجهـــاد الكبير . كذلك يجاهد به أهل المعصية لانه كتاب الهداية لكل ضـــال ، والدعوة لكل مرشد ، وفى ذكر الكافرين تنبيه على العصاة من التنبيـه بالاعلى على الادنى لاشتراكهم فى العلة وهى المخالفة ·

اقتـــداء : ما كان للنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليطيع الكافرين، وانما جاء هذا النهى تهييجا له على تمام مخالفتهم ومماكستهم فى جميع

مناحي ومظاهر كفرهم ، والخطاب وان كان له فالحكم شامل لامتــــه ٠ فلا يجوز للمسلم ان يطيع كافرا أو عاصيا في أي شيء من نواحي الكفر ونواحي المعصية ٠ وكما أن الجهاد بالقرآن العظيم هو فرض عليه ، فكذلك هو فرض على امته هكذا على الاجمال ، وعند التفصيل تجده فرضا عـلى الدعاة والمرشدين الذين يقومون بهذا الفرض الكفائي على المسلمـــين ، فالنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قدوة لامته فيما اشتملت عليه الآية من نهي وامـــر ٠

استدلال : هذه الآية نص صريح في آن الجهاد في الدعوة الى الله ، واحقاق الحق من الدين ، وابطال الباطل من شبه المشبهين ، وضـلالات الضالين ، وانكار الجاحدين هو بالقرآن العظيم ، ففيه بيان العقائـــد وادلتها ، ورد الشبه عنها ٠ وفيه بيان الاخلاق محاسنها ومساويها ، وطرق الوصول الى التحلي بالاولى ، والتخلي عن الثانية ومعالجتها ٠ وفيه أصول الاحكام وعللها ، وهكذا فيه كل ما يحتاج اليه المجاهد به في دين الله ، فيستفاد منها كما يستفاد من آيات أخرى غيرها أن على الدعاة والمرشدين ان تكون دعوتهم وارشادهم بالقرآن العظيم ٠

ميـــزان : عندما يختلف عليك الدعاة الذين يدعي كل منهم أنه يدعوك الى الله تعالى ، فانظر من يدعوك بالقرآن الى القرآن ـ ومثله ما صح مـن السنة لانها تفسيره وبيانه ، فاتبعه لانه هو المتبع للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في دعوته وجهاده بالقرآن ، والممتثل لما دلت عليه أمثال هذه الآية الكريمة من آيات القرآن ٠

نعمة ومنقبة : قد سمى الله تعالى الجهاد بالقرآن الكريم جهادا كبيرا ، وفي هذا منقبة كبرى للقائمين بالدعوة الى الله بالقرآن العظيم ، وفي ذلك نعمة عظيمة من الله عليهم حيث يسرهم لهذا الجهاد حتى ليصح أن يسموا بهذا الاسم الشريف (مجاهدون) فحق عليهم أن يقدروا هذه النعمة ، ويؤدوا شكرها بالقول والعمل ، والاخلاص والثبات ، والصبر واليقين ٠

جعلنا الله والمسلمين منهم وحشرنا في زمرتهم أجمعين (1) ٠

---

(1) الشهاب ـ ج 4 ، م 8 ـ ذو الحجة 1350 هـ ـ ابريل 1932 م ٠

تعاقب الليل والنهار للتفكير والعمل

« وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا »

(سورة الفرقان ـ الآية : 62)

المناسبة : لما سال المشركون بقولهم : « **وما الرحمن** » كما يسالون عن المجهول ، ذكر لهم القرآن ما يعرفهم به من عظيم آياته وجلائل انعاماته ، التى هى من آثار رحمته ، فذكر لهم بروج السماء والشمس والقمر ، ثم ذكر لهم تعاقب الليل والنهار ٠

المفردات : (**خلفة**) : يقولون خلفت الفاكهة بعضها بعضا خلفـــا ـ بالتحريك ـ وخلفة اذا صارت خلفا من الاولى ٠ وخلف زيد عمرا يخلفه اذا جاء بعده فى مكانه ، فالخلفة مصدر وهو لما كان على وزن فعلة دل على الهيئة كالركبة بمعنى الهيئة من الركوب ، فالخلفة اذا هيئة من الخلوف ، فاذا قلت خلفه خلفا أو خلوفا فقد أردت مطلق الحدث ، واذا قلت خلفه خلفة فقد اردت هياة خاصة من الخلوف ٠ (**التذكر**) : قبول التذكير ، فان مخلوقات الله مذكرات للعبد بربه، فتذكره هو قبوله ذلك التذكير واعتباره واتعاضه به ٠ (**الشكور**) : مصدر شكر بمعنى القيام بعبادته وطاعته لاجل نعمه ٠ (**أو**) : للتفصيل والتنويع لان المستفيدين من اختلاف الليل والنهار هم المتذكرون والشاكرون فلا تمنع من ان يكون الشخص الواحد متذكرا شاكرا فى آن واحد ٠

التراكيب : خلفة مفعول ثان لجعل على معنى جعلهما ذوى خلفة ٠ وفى الاخبار تقول : الليل والنهار خلفة ، والرجلان خلفة على هذا المعنى ، أى

يخلف أحدهما الآخر ، وكان مفردا عن الاثنين ، لانه مصدر ، والجار في « لمن أراد » يتعلق بجعل . وكان الجعل لهما لانهما المستفيدان منه . ولم يكرر الاسم الموصول لان الشخص الواحد يمكن أن يتصف بالصلتين معا ، وكرر فعل الارادة لانها لابد منها في التذكر وفي الشكر ، وقيل « أن يتذكر » ليفيد المضارع الحدوث والتجدد ، فان الغفلة مستولية على الانسان . والآيات المرئية ما تزال تحدث له التذكر وتجدد له . وقيل « وشكورا » لمناسبة رؤوس الآي .

المعنى يقول تعالى : وهو الذى جعل الليل والنهار ووضعهما يختلفان ويتعاقبان على هياة مخصوصة في التخالف والتعاقب ليستفيد من ذلك العباد ، من أراد أن يتذكر فيعتبر بما فيهما من انتقال وتغير ونظام وتقدير ، ويستدل بذلك على وجود خالقهما وقدرته وارادته ، وعلمه وحكمته ورحمته بمخلوقاته أو أراد أن يشكر فيقوم بعبادة خالقه المنعم عليه بجلائل النعم ودقائقها التي منها هذا الاختلاف والتعاقب بين هذين الوقتين الذى لا يصلح حال الانسان ، ولا تنتظم أعماله ، ولا يستقيم عمرانه الا به .

فقه لغوى : اختيرت لفظة الخلفة هنا لدلالتها على الهيئة ، فتكون منبهة على هياة هذا الاختلاف بالطول والقصر المختلفين في جهات من الارض ، وذلك منبه على أسباب هذا الاختلاف من وضع جرم الارض وجرم الشمس ، وذلك كله من آيات الله الدالة عليه . وبتلك الهيأة من الاختلاف المقدر المنظم عظمت النعمة على البشر ، وشملتهم الرحمة ، فكانت هذه اللفظة الواحدة منبهة على ما في اختلاف الليل والنهار من آية دالة ومن نعمة عامة ، وهكذا جميع ألفاظ القرآن في انتقائها لمواضعها .

فقه شرعي : لما كان جعل الليل والنهار خلفة لاجل التذكر والعمل ، كان كل واحد منهما صالحا للعمل الذى يعمل فيه صاحبه فمن فاته عمل بالليل أتى به في النهار ، ومن فاته عمل بالنهار أتى به في الليل ، وهذا اذا كان من العادات فهو على سبيل التدارك ، واذا كان من العبادات فهو على سبيل

القضاء · وقد روى ابن جرير بسند حسن أن رجلا جاء الى عمر بن الخطاب ـ رضى اللـه عنه ـ فقال : فاتتنى الصلاة الليلة فقال ادرك ما فاتك من ليلتها فى نهارك ، فان الله جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد أن يذكر او أراد شكورا · ومن هذا ما رواه مسلم والاربعة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « من نام عن حزبه أو عن شىء منـه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قـرأه من الليـل » ·

فقه قرآنى : حياة الانسان من بدايتها الى نهايتها مبنية على هذه الاركان الثلاث : الارادة ، والفكر ، والعمل · وهى المذكورات فى هذه الآية ، لان التذكر بالتفكر والشكر بالعمل · فاستفادة الانسان مما خلقه اللـه له ، وجعله لاجله لا تكون الا بهذه الثلاثة ، وهذه الثـلاثة متوقفة على ثـلاثة أخرى لابد للانسان منها فالعمل متوقف عـلى البدن والفكر متوقف عـلى العقل والارادة متوقفة على الخلق ، فالتفكير الصحيح من العقل الصحيح ، والارادة القوية من الخلق المتين ، والعمل المفيد من البدن السليم ، فلهذا كان الانسان مأمورا بالمحافظة على هذه الثلاثة عقله وخلقه وبدنه ، ودفع المضار عنها ، فيثقف عقله بالعلم ، ويقوم أخلاقـه بالسلوك النبوى ويقوى بدنه بتنظيم الغذاء ، وتوقى الاذى والتريض على العمل ·

موعظة : قال الامام ابن العربى سمعت ذانشمند الاكبر ـ يعنى الغزالى ـ يقول : ان الله خلق العبد حيا عالما وبذلك كماله ، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخلقة ، اذ الكمال للاول الخالق ، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الاكل والسهر فى الطاعة فليفعل · ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغوا ، ويـنام نحو سدس النهار راحة فيذهب له ثلثاه ، ويبقى له من العمر عشرون سنة ، ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثى عمره فى لذة فانية ، ولا يتلف عمره سهرة فى لذة باقية عند الغنى الوفى الذى ليس بعديم ولا ظلوم · اهـ

سلـوك : حافظ على العبادات فى اوقاتها ، واقض ما فاتــك ، واربط اعمالك باوقاتها ، وتدارك ما فاتك ، ووجه قصدك الى ما ترى من آيات الله متفكرا ، ووجه قصدك فى جميع أعمالك لله سامعا مطيعا ـ تكن عبدا ذاكرا شاكرا ـ ان شاء الله ـ فى الدارين··

وفقنا الله الى ذلك والمسلمين أجمعين (1) ·

(1) الشهاب ، ج 5 م 8 ، غرة محرم 1351 هـ ماى 1932 م ·

القرآن يصف عباد الرحمن

الصفــة الاولى والثــانية

« وَعِبَـادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَـوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا »

(سورة الفرقان الآية 63)

المناسبة : لما تجاهل المشركون الرحمن واستكبروا عــن السجود لــه عرفهم القرآن بالرحمن بخلقه وتدبيره وانعامه كما مضى في الآيات المتقدمة ، ثم عرفهم بعباده الذين عرفوه بذلك فآمنوا به وخضعوا له بما اشتملت عليه هذه الآيات من صفاتهم ، وكما كانت مخلوقات اللــه المذكورة سابقا دالة عليه ومعرفة به بما فيها من آثار قدرته وآثار رحمته كذلك كان عباده المذكورون أدلة عليه ومعرفين به بأقوالهم وافعالهم وهديهم وسلوكهم ومظاهر آثار رحمة الله عليهم فذكروا بعد ذكر تلك المخلوقات وذكرت هي قبلهم لانها كانت أدلة لهم والدليل سابق على المستدل سبق المستفاد منه على المستفيد ٠

وفي تعريف القرآن لعباد الرحمن بعد تعريفه بالرحمن تشريف كبير لهم وتبكيت لاولئك المتجاهلين المتكبرين ، ووجه آخر في المناسبة ، وهو انه لما ذكر التذكر والشكر في الليل والنهار في الآيــة المتقدمة ذكــر صفات المتذكرين الشاكرين وما اثمره لهم تذكرهم وشكرهم ترغيبا في التذكر والشكر ٠ وقولهم للجاهلين سلاما من مقتضى هونهم ورفقهم فلذلك قرن به وعطف عليه ٠

المفردات : عباد : جمع عبد بمعنى المملــوك الذليل الخاضع أو جمع عابد كصاحب وصحاب وتاجر وتجار بمعنى المطيع والقائم بما يرضى ربــه والاول هنا اظهر ، **الرحمن** : المنعم الذي تتجدد نعمه في كل آن ٠ **يمشون**

على الارض : يتنقلون عليها . **هـونا** : هان الامـر يهون هونا بمعنى سهل ومنه « **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** » اى سهل وشيء هين على وزن فيعل أى سهل ويقال هين بالتخفيف . ومن صفات المؤمن أنه هين لين من الهون بمعنى السهولة فى اخلاقه ومعاملته ، وفي مسند أحمد عن ابن مسعود مرفوعا : « حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس » ، وهو على ما فسرنا من السهولة في اخلاقه ومعاملته، وذلك هو الذى يقربه من الناس، وفسر الهون فى الآية بالحلم والوقار والسكينة والتواضع والطاعة وكلها ترجع الى السهولة واللين وفسر بعـدم الفساد في الارض وعـدم التجبر والتكبر لانها كلها اضداد للسهولة واللين . **خاطبهـم** : كالمهم . **الجاهلون** : السفهاء القليلو الادب السيئو الاخلاق . والجهل ضد العلم ويطلق على السفه والطيش لانهما عنه ينشآن ومنه قول الشاعر :

الا لا يجهلــن احـد علينـا   فنجهل فـوق جهـل الجاهلينا

ومنه الجاهلون في الآية . **سـلاما** : السلام كالسلامة معناهما التعرى مـن الآفات والمكروهات .

التراكيب : وصلت الجملة بما قبلها بالواو لاشتراكهما في القصد وهو التعريف بالرحمن وبعباده . وعبـاد مبتـدأ والذين خبـر وأضاف العباد للرحمن تخصيصا لهم وتفضيلا وتقريبا وفيـه تعريض بأولئك المتجاهلين المتكبرين المبعدين وهونا منصوبا على أنه مفعول مطلق والتقدير مشيا هونا أو على أنه حال مـن فاعـل يمشون اى هينـين ومجيء المصدر حالا كثـير ولمصدريته افرد والموصوف جمع ، نظير الزيدون عدل . ويمشون على الارض هـونا تركيب كنائى أريد به معناه ولازم معناه فهم يمشون هينين برفـق وتثبت لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا . هذا اصـل المعنى وهـو مراد ، ومراد أيضا لازمه وهـو سهولتهم وتواضعهم وعـدم تكبرهم ورفقهم في الامور وبعدهم عن الافساد .

ومراد لازم آخر أيضا وهو سيرهم فى الحياة وتصرفهم فى جميع الامور ومعاملتهم للناس فاذا كانوا أهل رفق وسهولة فى مشيهم فى الارض فكذلك

هم اهل رفق وسهولة فى الامور الاخرى مما ذكرنا لان الرفق والسهولة خلق فيهم فكما هو فى المشى هو فى غيره . وكانت الصلة بالمضارع ليفيد التجدد فان المشى فى الارض ضرورى للانسان وكان المعطوف علـى الصلة بصورة الشرط لان خطاب الجاهلين لهم ليس مما يكون دائما وكان التعليق باذا لان مخاطبة الجاهلين لهم بالسوء أمر محقق ومتى سلم أهـل العلم والدين من الجاهلين ولم يذكر ما يخاطبهم به الجاهلون للعلم بأن خطاب الجاهل أى السفيه لا يكون الا سوءا مما يمليه عليه جهله وسفهه . ونصب سلاما على أنه مفعول مطلق والتقدير قالوا قولا سلاما أى ذا سلام فيشمل كل قول فيه سلامة من الاذى والمكروه كسلام عليكم ويغفر الله لكم وسامحكم الله ونحو ذلك. أو نصب على أنه مفعول به أى قالوا هذا اللفظ سلاما نفسه .

المعنى : يقول تعالى وعباد الرحمن ومماليكه القائمون بحق العبودية له هم أهل الرفق والسهولة الذين يمشون على الارض هينين فى مشيهم وفى معالجتهم لشؤون الحياة ومعاملتهم للناس لحلمهم وتواضعهم غير مستكبرين ولا متجبرين ولا ساعـين فى الارض بالفساد . واذا خاطبهم السفهاء بـما لا ينبغى من الخطاب قابلوهم بالحلم وقالوا لهم سلاما لانهم سلموا من الجهل فسلم المخاطب لهم من ان يجهلوا عليه ولو جهل أو قالوا لهم من الكـلام ما فيه سلامة من الاذى والمكروه .

الاحكـام : فى الآيـة استحباب الرفـق فى المشى وكراهيـة العنف والاضطراب ومن العنف الضرب بالرجل والخفق بالنعل فاذا كانا بعجب وخيلاء فهو حرام . وفيها الاغضاء عن الجاهل ومقابلة كلمته السيئة بالكلام الحسن . وكراهة مجاراته في خطابه ومماثلته واذا كان فى ذلك فتنة أو مفسدة محققة كان حراما . .

تمييز : ليس من الهون في المشى التثاقل والتماوت فيه وروى أن عمر ابن الخطاب (ض) قال لجماعة رآهم كذلك : « لا تميتوا علينا ديننا أماتكم الله » وان عائشة (ض) رأت قوما يتماوتون فسالت عنهم فقيل لها هؤلاء قوم من القراء فقالت لقد كان عمر من القراء وكان اذا مشى اسرع ، واذا

تكلم أسمع ، واذا ضرب أوجع ، وكان مشيه (ض) الى السرعة خلقة لا تكلفا والخير فى الوسط ، وليس هون المشى وحده يعرفك بأن صاحبه من عباد الرحمن فرب ماش هونا رويدا وهو ذئب أطلس ولكن بالهون فى المشى وبما ذكرنا فى فصل التراكيب والمعنى من لوازمه ·

بيان ورد : اشتملت الآية على بيان الادب فى معاملة الجاهلين من افراد الناس سواء أكانوا مسلمين ام غيرهم وما اشتملت عليه من الادب قد جاء فى آيات كثيرة مثل « وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » و « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » فهو أدب مشروع مؤكد وحكم دائم محكم وهو فى معاملات الافراد كما ترى · فلا ينافى ما شرع فى الحرب عند وجود أسبابها وتوفر شروطها بين الامم والجماعات وهى من الامور العامة كما ترى فبطل قول من زعم ان هذه الآية بالنسبة لغير المسلم منسوخة بآية السيف لان هذه الآية ثابت حكمها فى حال وآية السيف ثابت حكمها فى حال أخرى فلا تنسخ احداهما الاخرى · وما اكثر ما قتلت أحكام بآية السيف هذه وهى عند التحقيق غير معارضة لها لمباينة حالها لحالها ·

تمثيل واستدلال : جاء فى الصحيح من طرق مجموع الفاظها ان رهطا من اليهود دخلوا على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا السام عليكم «والسام الموت» ففهمتها عائشة رضى الله عنها فقالت وعليكم السام واللعنة وغضب الله عليكم فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مهلا يا عائشة عليك بالرفق واياك والعنف والفحش ان الله يحب الرفق فى الامور كلها » فقالت له عائشة أولم تسمع ما قالوا فقال لها : « أولم تسمعى ما قلت رددت عليهم · قد قلت « وعليكم » فيستجاب لى فيهم « لانه دعاء بحق » ولا يستجاب لهم فى « لانه دعاء بباطل وظلم » فقد خاطبه هؤلاء الجاهلون بالسوء فقال لهم كلمة سالمة من القبح ليس فيها لفظ الاذاية وهو السام بعيدة عن الايحاش خالصة للرفق فهى من القول السلام أى ذى السلام

من مقتضى الآية على الوجه الاول من وجهيها ففى الحديث مثال لقول السلام فى خطاب الجاهل ودليل على عموم الحكم واحكامه ·

سؤال وجوابه : على الوجه الثانى فى الآية وهو أنه يقول للجاهل سلاما يقال هل يسلم عليه اذا كان كافرا فيقال نعم كما قال ابراهيم لابيه « سلام عليك » وقد قال الله تعالى : « **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ** » ولم يستثن الا قوله لابيه « **لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ** » نعم هو سلام موادعة ومتاركة لا سلام تحية وكرامة ·

لطيفة تاريخية : قالوا ان ابراهيم بن المهدى العباسى كان منحرفا عن على بن أبى طالب (ض) فرآه فى النوم قد تقدمه لعبور قنطرة فقال له ابراهيم انما تدعى هذا الامر يعنى الخلافة بامرأة يعنى فاطمة رضى الله عنها ونحن أحق به منك وحكي ابراهيم رؤياه للمامون وقال له فما رأيت له بلاغة فى الجواب كما يذكر عنه فقال له المامون فما اجابك به قال كان يقول لى : « سلاما سلاما » فنبهه المامون على هذه الآية وقال يا عم قد أجابك بابلغ جواب فخزى ابراهيم واستحيى اهـ فرضى الله عن الامام الهاشمى ما أبلغه حيا وميتا ·

توجيه وسلوك : القول السلام محمود ومطلوب فى كل حال وانما خصت حالة خطاب الجاهل لانها الحالة التى تثور فيها ثائرة الغضب بما يكون من سفهه ومهاترته،فعلى المؤمن ان يكون حاضر البال بهذه الآية عندما تسوق اليه الاقدار جاهلا فيخاطبه بما لا يرضيه حتى يسلم من شره ويكسر من شرته فيسلم له عرضه ومروءته ودينه ويسلم ذلك الجاهل أيضا من اللجاج فى الشر والتمادى فيه فيكون المؤمن بقوله السلام وتادبه بادب القرآن قد حصل السلامة للجميع واعظم به من فضل واجر فى الدنيا والدين وفقنا الله لذلك والمسلمين اجمعين (1) ·

---

(1) الشهاب ، ج 6 م 8 ، صفر 1351 هـ جوان 1932م·

الصفـــة الثـالثـة

« وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً »

(سورة الفرقان ــ الآية : 64)

المناسبة : لما ذكر فيما تقدم سلوكهم مع الخلق ، ذكر فى هذه الآية سلوكهم فى القيام بعبادة الحق · وفيما تقدم بيان حالهم عند اختلاطهم بالعباد ، وفى هذه بيان حالهم عند تفردهم لرب العباد ·

المفردات : يبيتون : من البيتوتة وهى ان يدركك الليل نمت او لم تنم ويقابلها الظلول وهو ان يدركك النهار · **السجد :** جمع ساجد **والقيام :** جمع قائم وهو من الاوزان التى يشترك فيها المصدر والجمع ·

التراكيب : الذين عطف على الخبر الاول واعيد لفظ الذين لاستقلال الحالة الثانية عن الاولى وقدم الجار ليفيد تخصيص عبادتهم بربهم ويفيد الكلام عبادتهم واخلاصهم وقدم سجدا لان السجود اقرب أحوال العبد للرب لحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ووقع قياما فى موقعه مناسبا للفاصلة ·

المعنى : ومن صفات عباد الرحمان انهم يحيون الليل فيبيتون يصلون لربهم يراوحون بين السجود والقيام ·

بيان وترغيب : هذه الآية من آيات الحث على قيام الليل مثل قوله تعالى : **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً** » · وقد بينت السنة المطهرة مقداره فثبت فى الموطا من طريق ابى سلمة عن عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يزيد فى رمضان ولا فى غيره على احدى عشرة ركعة يصلى اربعا فلا تسأل عن

حسنهن وطولهن ثم يصلي اربعا لا تسال عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثا والسلام بعد كل ركعتين لحديث « صلى الليل مثنى » وثبت عند مسلم من طريق سعد بن هشام عنها انه كان يفتتح صلاته بالليل بركعتين خفيفتين فتلك ثلاث عشرة وقد ثبت ذلك في الموطا من طريق عروة عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي بالليل ثلاث عشرة ركعة . وهذا هو الغالب من احواله وقد كان يصلي أقل منه في بعض الاحوال فقد ثبت عند البخارى من طريق مسروق عنها ان صلاته صلى الله عليه وآله وسلم بالليل سبع وتسع واحدى عشرة سوى ركعتى الفجر ومثل ما جاء عن عائشة من انتهاء ركعاته الى ثلاث عشرة جاء في الموطا في حديث ابن عباس وجاء فيه ايضا من حديث زيد ابن خالد الجهنى ، وفى هذه السنة العملية الثابتة بيان للقدر الاكمل الذى يكون به العبد ممن يصدق عليهم هذا الوصف من صفات عباد الرحمن ·

الصفـــة الرابعـــة

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

(سورة الفرقان ـ الآيات : 65 ، 66)

المناسبة : لما ذكر حسن سلوكهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق ذكر خوفهم من ربهم واعتمادهم عليه فى نجاتهم وعدم اغترارهم باعمالهم فهم يأتون من محاسن الاعمال ولا يعتمدون الا على الكبير المتعال ·

المفردات : الغرام : مادة غ ر م تدور على معنى الملازمة مع الثقل والشدة ولذا فسر الغرام بالشر وبالعذاب وبالهلاك الملازم · **ساءت :** بمعنى قبحت مثل بئس لانشاء الذم · **المستقر :** محل الاستقرار أى الثبوت · **والمقام :** محل الاقامة أى البقاء ·

التراكيب : ساءت فاعله الضمير المخصوص بالذم ومستقرا ومقاما تمييز مفسر للضمير وجملة ان عذابها تعليل للجملة الدعائية وفصلت

عنها لكمال الانقطاع بينهما لانشائية الاولى وخبرية الثانية وجملة انهـا ساءت مؤكدة لمضمون الجملة مع اختلاف فى المعنى فان ما افادته الاولى من فداحة عذابها وملازمته اكدته الثانية بما أفاده من مقامه ومستقرها ففصلت عنها لما بينهما من كمال الاتصال نظير . ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ، والتأكيد فيهما بان ، لانه قد لوح واشير فى الكلام السابق الى هـــذا الخبر وشأن السامع لهذا ان يستشرف له استشراف المتردد الطالب فينزل منزلة المتردد فيؤكد له الخبر ووجه التلويح بهذا الخبر أنه لما سئل صرف عذاب جهنم كان هذا مشيرا الى قبح هذا العذاب وشدته فهذا نظير ، « وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ » .

المعـــنى : من صفاتهم انهم يدعون الله تعالى ان يصرف عنهم عذاب جهنم لان عذابها عذاب شديد فادح ملح ملازم ولانها بئست المستقر الذى يستقر ويثبت فيه وبئست المقام الذى يقام ويمكث فيه .

رد واستدلال : زعم قوم ان اكمل أحوال العابد ان يعبد الله تعـالى لا طمعا فى جنته ولا خوفا من ناره وهذه الآية وغيرها رد قاطع عليهـــم ومثلها قول ابراهيم عليه وعلى آله الصلاة والسلام : « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ » فى نصوص لا تحصى كثرة وزعموا ان كمال التعظيم لله ينافيه ان تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع فى ثوابه وأخطأوا فيما زعموا فان العبادة مبناها الخضوع والذل والافتقار والشعور بالحاجة والاضطرار واظهار العبد هذه العبودية باتمها ومن اتم مظهر لها ان يخاف ويطمع كما يذل ويخضع ففى اظهار كمال نقص العبودية القيام بحق التعظيم والاجلال للربوبية، ولهذا كان الانبياء عليهم وآلهم الصلاة والسلام وهم اشد الخلق تعظيما لله وأكثرهـم خوفا من الله وتعوذا من عذاب الله وسؤالا لما عند الله وكفى بهم حجة وقدوة، وان هذه المقالة تكاد تفضى الى طرح الرجاء والخوف وعليهما مبنى الاعمال لما فيهما من ظهور العبودية بالذل والاحتياج ، ومن دعاء القنوت الثابت المحفوظ « واليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد » وهـــذا ضرورى فى

الدين · ولكن مثل هذه المقالة انما يجر اليه الغلو وقلة الفقه في الدين في الكتاب والسنة وما كان عليه هدى السابقين الاولين ·

اعتبار ونصيحة : ان جهنم هي اقبح مستقر واقبح مقام · وان الدنيا هي مطية الآخرة فمن ساء مستقره ومقامه في الدنيا ساء كذلك مستقره ومقامه في الآخرة وان ملازمة العذاب في الآخرة على قدر ملازمة المعاصي في الدنيا فمن لازمها بالكفر ومات عليه دامت له تلك الملازمة ومن لازمها بالاصرار على الكبائر كانت له على حسب ذلك الملازمة · فعلى العاقل ان يحسن مقره ومقامه وان يجتنب كل موطن تلحقه فيه الملامة وان يجتنب مجالس السوء والبدعة ويلازم مجالس الطاعة والسنة وان يسرع بالتوبة مفارقا الذنوب وان لا يصر على شيء من القبائح والعيوب وان يكون سريع الرجوع الى الله ولو عظم ذنبه وبلواه فالله يحب التوابين ويغفر للاوابين· جعلنا منهم أجمعين آمين (1) ·

---

(1) الشهاب ـ ج 9 ، م· 8 ـ جمادى الاولى 1351 هـ ـ سبتمبر 1932 م·

أيهما أكمل :
العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب
أم العبادة دونهما ؟ (1)

زيادة بيان على قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا »

(الفرقان)

قد قال قوم ان العبادة دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب هى اكمل العبادات . وانكرنا مقالتهم فيما كتبناه على قوله تعالى : « **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا** » فى الجزء الصادر فى غرة جمادى الاولى .

وقلنا في الانكار عليهم : « وزعموا ان كمال التعظيم لله ينافيه ان تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه وأخطأوا فيما زعموا » . وذكرنا اثر ذلك بعض الادلة التى اعتمدنا عليها ، وبعد ان مضى على ذلك ثلاثة اشهر كاملة نشر الشيخ المولود الحافظى مقالا ردا علينا دون ان يذكر جميع ادلتنا ودون ان يتعرض لنقضها فى سندها أو متنها أو عدم انطباقها أو افادتها لما سيقت لافادته ، ودون ان يعارضها بمثلها فى الرتبة والدلالة. وأطال بما بعضه خارج عن محل النزاع ، وبعضه هو نفس الدعوة المحتاجة الى الاستدلال . فرأينا اثر اطلاعنا على مقاله ان نعود فى هذا الجزء لذكر

(1) وفيه رد على مقال الشيخ الحافظى المدرج فى جريدة (البلاغ) منذ بضعة أسابيع . (ش) .

أدلتنا التي اعتمدنا عليها فيما اخترناه من ان وضع العبادة الشرعية على رجاء الثواب وخوف العقاب ، وبيان دلالتها على المدعى ، ثم نتكلم على بعض ما في مقاله ، فنقول :

ان العبادة هي غاية الذل والخضوع مع الشعور بغاية الضعف والافتقار ، ومن مقتضى الضعف ان يخاف ويوجل ، ومن مقتضى الافتقار ان يرجو ويطمع • فخوف العبد من عقاب ربه هو من مقتضى اعترافه بضعفه وقوة ربه وشهوده لعزته وقهره وعموم تصرفه في خلقه ، وانه لا معقب لحكمه وانه لا يؤمن من مكره ، وطمعه في ثوابه هو من مقتضى اعترافه بحاجته وفقره وغنى ربه وفضله وتصديقه بوعده فهو يعبده ويخافه ان لا يقبل عبادته ويخشى نقمته • ويعبده ويرجو رحمته وينتظر مثوبته ، وفي عبادته هذه اظهار لغاية العبودية بنقصها وحاجتها وقيام بحق التعظيم والاجلال للربوبية والاعتراف لذلك المقام بالقدرة والعزة والغنى والرحمة والكمال •

فوضعت العبادة في الدين على خوف العقاب ورجاء الثواب لما في ذلك من اظهار غاية عبودية العبد بضعفه وافتقاره امام ربه الغني الرحيم القوى المتين • والدليل على هذا ستسمعه من الكتاب والسنة وأقوال السلف •

اما الكتاب فقوله تعالى : « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » • ووجه الدليل من الآية ان هؤلاء المذكورين فيها هم الكمل من عباد الله الصالحين بدليل حديث ابي هريرة ـ رضى الله عنه ـ المروى في الصحيح قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : (يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا بله ما اطلعتم عليه) • ثم قرأ : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » •

ومع كمالهم لم تتجرد عبادتهم من الخوف والطمع • ووجه آخر : هو ان الله تعالى ذكر لنا عبادتهم لنعرف العبادة الشرعية كيف تكون فذكرها

مع الخوف والطمع فعرفنا ان العبادة وضعت في الشرع على ذلك . ووجه آخر. وهو انه تعالى ذكر لنا صفاتهم وعبادتهم لنقتدي بهم فيها فعلم ان العبادة التي يدعونا ربنا اليها هي العبادة خوفا وطمعا .

ومثل هذه الآية : « ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ - الى - رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ » ووجه الدليل منها كالتي قبلها وتزيد عليها ببيان صريح دعائهم وطلبهم الوقاية من النار وغفران وتكفير السيئات .

ومثلها قوله تعالى : « وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا » . ووجه الدليل منها كالتي قبلها . ومثلها قوله تعالى : « يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ، وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ، إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا » . ووجه الدليل منها مثل ما تقدم وتزيد ببيان ان خوف اليوم العبوس لا ينافي الإطعام لوجه الله .

ومثلها قوله تعالى : « أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ ، ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ ، وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ ، وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ». ووجه الدليل كما تقدم، وفيها ايضا بيان ان خوف سوء الحساب لا ينافي الصبر ابتغاء وجه الله .

ومثلها قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ، وَٱلَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ، وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » . ووجه الدليل ما تقدم ومعنى الآية انهم يعطون ما اعطوا

من اعمال البر والطاعات وقلوبهم خائفة من انهم راجعون الى ربهم فيخافون ان لا تقبل منهم • ففيها بيان انهم كانوا يعملون راجين قبول الاعمـــال خائفين من عدم قبولها •

فهؤلاء هم الكمل من عباد الله وهذه هي عبادتهم في صريح هذه الآيات الكريمة التي ذكرت فيها صفاتهم وكلها بكثرتها وصراحتها دالة دلالة قطعية لما قلناه من ان العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب والخوف مـن العقاب اذ ذلك هو اظهر مظاهر العبودية بذلها وخضوعها وضعفها وحاجتها وفقرها وحالتها المباينة غاية المباينة لمقام الربوبية مقام ذي الجلال والاكرام•

ولا تجد في القرآن العظيم آية واحدة دالة صريحة عـــلى ذكر عباده ـ هكذا ـ دون خوف أو طمع ، ونزيد على الآيات المتقدمة آية دالة عـلى حال عباده المعصومين عليهم الصلاة والسلام . وهي قوله تعالى : « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » ، ووجه الدليل من الآية ان ابراهيم ـ عليه السلام ـ اخبر عن نفسه بصغة المضارع المفيد للتجدد انه يطمع من الله ان يغفر له خطيئته ، فدل ذلك على انه كان في عبادته طامعا ومعلوم انه معصوم وانه مؤمن العذاب ، وان ما سماه خطيئة هو بالنسبة الى مقامــه الرفيع من باب (حسنات الابرار سيئات المقربين) ومع ذلك كله فالمقصود من الدليل حاصل وهو انه خاف المؤاخذة ـ المؤاخذة اللائقة بمقامه ـ وطمع في الغفران وكانت عبادته على الطمع والخوف • ولا يقال انه كان معلما للناس لانه اخبار عن نفسه وخبره صدق ثابت فلابد ان يكون كما أخبـــر •

واما السنة فمنها دعاء القنوت المشهور (نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد) ووجه الدليل منه ان الصلاة اشرف احـــوال العبد واجل مقاماتـه واعظم عبادته وقد علم ان يدعو فيها هذا الدعاء الصريح في رجاء الرحمة وخوف العذاب • وما كان ذلك الا لان العبادة الشرعية موضوعة عليهما •

ومنها حديث : (وأما السجود فادعوا فيه ، فقمن ان يستجاب لكـــم) وهو حديث صحيح ، وفي الصحيح أيضا (اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) ، ووجه الدليل ان اقرب أحوال العبد من ربه هو محـــل

الدعاء ، والداعي يرجو القبول ويخاف المنع ، فالعبادة فى اقرب أحوال العبد موضوعة على الرجاء والخوف ٠

ومنها الحديث الصحيح : (اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الايمن ثم قل : اللهم اسلمت وجهى اليك وفوضت امرى اليك والجأت ظهرى اليك رغبة ورهبة اليك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك اللهم آمنت بكتابك الذى انزلت وبنبيك الذى أرسلت فان مت من ليلتك فانت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به) ٠ ووجه الدليل منه انه تعليم لما يقوله المسلم فيما قد يكون آخر حال يلقى عليه ربه ولا ينبغى ان يلقاه الا على اكمل حال ٠ فعلمنا هذا الدعاء الصريح فى الرغبة والرهبة ليقوله المؤمن ولو كان من أكمل الكمل فدل على أن الرغبة والرهبة عليهما وضعت العبادة في جميع الاحوال ٠

ومنها الحديث الصحيح : (قالت عائشة (رضى الله عنها) كنت نائمة الى جنب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ففقدته فلمسته بيدى فوضعت يدى على قدميه وهو ساجد يقول : (أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك كما اثنيت على نفسك) ، ووجه الدليل أنه فى الحال التى هو فيها أقرب ما يكون من ربه وهى حالة سجوده استعاذ برضى الله من سخطه وبمعافيته من عقبوبته، ثم لما لم يستطع الاحاطة بافعاله رد الامر لذاته فاستعاذ به منه وهو فى الجميع مستعيذ والمستعيذ طالب والطالب راج وطامع فى نيل المطلوب فلم يفارق عبادته الرجاء والطمع حتى فى هذه الحالة التى هى بينه وبين ربه لانه كان ساجدا فى جنح الليل دون حضور أحد من الناس الا عائشة التى كانت نائمة واستيقظت ففقدته فاطلعت عليه فى تلك الحال ٠

ومنها الحديث الصحيح عن ابن عباس الذى كان يعلمهم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اياه كما يعلمهم السورة من القرآن ، رواه مالك وفيه : (اللهم أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) ،

ووجه الدليل منه أنه علمهم هذه الاستعاذة الصريحة فى الخوف والرجاء كسائر ما علمهم من الدعوات المبنية عليهما ٠

وهكذا تجد جميع دعواته المأثورة على الرغبة والرهبة والرجاء والخوف ولا تجد دعاء واحدا علمهم فيه أن يتوجهوا الى الله تعالى دون رغبة ولا رهبة ولا رجاء ولا خوف ولو كانت العبادة الخالية من الطمع والخوف هى أكمل العبادة لكان بينها لهم بيانا شافيا صريحا كعادته فى بيان الكمالات ، وهو الحريص على دلالتهم على كل خير ، فكيف لم يدلهم على هذا المقام بصريح المقام لو كان من الكمال بحيث يدعى لها بعض الناس ٠

فقد بان لنا بما ذكرناه توارد آيات الكتاب واحاديث السنة فى صراحة وجلاء على مشروعية العبادة مقرونة بالرغبة والرجاء والخوف ، ولـــم نظفر بآية واحدة أو حديث واحد فيه التصريح بمشروعيتها مجردة منهـا فضلا عن أنها أكمل منها معهما ، وما كنا لنترك أدلة الكتـــاب والسنـة الصريحة لرأى أحد كائنا من كان ، واننا نورد فيما يلى حديثا من صحيح البخارى يبين لنا كيف كان الصحابة سادة هذه الامة يعبدون الله تعالى يرجون قبول أعمالهم لديه : (قال أبو بردة ابن أبى موسى الاشعرى ، قال لى عبد الله بن عمر : هل تدرى ما قال أبى لابيك ؟ قال قلت لا ، قال فان أبى قال لابيك يا أبا موسى هل يسرك اسلامنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهجرتنا معه وجهادنا وعملنا كلنا معه برد لنا وان كل عمل عملناه بعده نجونا منه رأسا كفانا برأس٠ قال أبى (يعنى أبو موسى) لا والله قد جاهدنا بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وصلينا وصمنا وعملنا خيرا كثيرا وأسلم على أيدينا بشر كثير وانا لنرجو ذلك فقال أبى (يعنى عمر) لكنى أنا والذى نفس عمر بيده لوددت أن ذلك برد لنا وأن كل شىء عملناه بعد نجونا منه كفانا رأسا برأس فقلت ـ أبو بردة ـ ان أباك والله خير من أبى) ووجه الدليل عملهم على الرجاء وخوفهم من عدم القبول والعقاب على المخالفة وان اختلفا فيما اختلفا فيه ولا تجد فى كلام واحد منهم أنه كان يجرد عبادته عـن الطمع والخوف وما كان المقام الاكمل ليفوتهم وهم افقه الناس فى الدين وأحرصهم على الخير ٠

هذه هي ادلتنا فيما ذهبنا اليه ورددنا على مخالفيه وهي أكثر من هذا في كتاب الله وسنة رسوله وفيما ذكرناه كفاية - ان شاء الله - لمن نصح وانصف واخلص الايمان بقوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا »

والآن نعطف بالكلام على مقال الشيخ ونحصره في مواضع :

- أنكرنا على من زعموا أن مرتبة العبادة العليا أن يعبد الله تعالى لذاته دون الطمع في ثوابه ولا الخوف من عقابه ونسبنا اليهم الخطأ ولما وجدنا آيات الكتاب وأحاديث السنة طافحة بأن عبادة الكمل عن عباد الله مقرونة بالخوف والطمع كما قدمنا نسبنا خطاهم الى قلة التفقة في الدين أي في أدلة الدين وهي الآيات والاحاديث المذكورة ، وما عسى أن يقال فيمن لم تكفه تلك الآيات والاحاديث كلها على صراحتها واتفاقها الا أنه لم يتفقه فيها · ولما لم نجد آية واحدة ولا حديثا واحدا يصرح بمدعاهم حملناهم على الغلو هذا كله دون أن نصرح بشخص ولا بطائفة لان الكلام مع القول والدليل · فأبى حضرته الا أن يحمل كلامنا على طائفة مخصوصة يحب هو اليوم التظاهر بالدفاع عنها ثم تطرق من ذلك الى رمينا بما يناسب غرضه من الجرأة وقلة النصيحة والتطاول على الائمة الى ما يريد ان يصفنا بـــه ليقول القارىء أن حضرته موصوف بضده · وربـك أعلم بتلك الاوصاف وأهلهـــا ·

كان استدلالنا بآية (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ) على الوجه الذي بيناه فيما تقدم دون أن نذكر الحصر ولا أن نشير اليه ولا من مقتضى موضوعنا ان نقصر عباد الرحمن على تلك الصفات ، لكن حضرته أخذ يقرر في قواعد الحصر الضرورية عند المبتدئين وخرج من ذلك الى أن الآيـة لا حصر فيها واننا تسرعنا وما تدبرنا ولم نحسن تطبيق قواعد العلوم على موضوع النزاع · وفي الحق أن حضرته هو الذي لم يحسن تنزيل ما طولب به في الحصر على كلام لم ندع فيه الحصر ولم نستدل به وانما استدللنا بالآية مثل ما استدللنا بغيرها على الوجه الذي تقدم وعلى ما معه من الوجوه ·

ما فى كلام الامام الرازى من أن اللـه مستحق للعبادة لذاته وأنه لو امرنا بالعبادة بلا ثواب ولا عقاب لوجبت فهو حق مسلم وليس هو موضوع النزاع ، كان موضوع النزاع هل العبادة مع الخوف والرجاء أكمل أم العبادة دونهما وما فيه من أن (من عبد الله للثواب والعقاب فالمعبود فى الحقيقة هو الثواب والعقاب والله واسطة) .

ـ اذا كان يعنى به أنه عبد الله للثواب من حيث ذاته والعقاب من حيث ذاته دون الامتثال للأمر وتوجه للرب ، فهذا ليس كلامنا فيه ، وان كان يعنى أنه يعبد للثواب والعقاب من حيث أن العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب وخوف العقاب فهو يعبد الله امتثالا لامره فكلامه منوع لان العبادة هى التوجه بالطاعة للـه امتثالا لامره وقياما بحقه مـع الشعور بالضعف والذل أمام قوة وعز الربوبية وذلك يبعث على الخوف المأمور به ، ومع الشعور بالفقر والحاجة أمام غنى وفضل الربوبية وذلك يبعث على الرجاء المأمور به ، فالمعبود فى الحقيقة والواقع هو المتوجه اليه بالطاعة وهو اللـه تعالى لا الثواب الذى تعلق به الرجاء ولا العقاب الذى تعلق به الخوف . وكيف يكون الثواب وهو المعبود والعقاب وهو المعبود والله هو الذى شرعهما ، فهل يشرع عبادة غيره ، وما هذا الا من عدم التأمل فى مثل قوله تعالى : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » . اى شانه أن يحذر ومن حقه أن يحذر وهل هذا الا من عدم التفقه فى قوله تعالى ـ فى أم القرآن والسبع المثانى التى يناجى بها المصلى ربـه وهو فى أعظم عبادة ـ : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » . فان المستعين طالب الاعانة والطالب راج قبول طلبـه خائف من عدم قبـوله ، وقولـه تعـالى فيها : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » . طلب كذلك فليتفقه المتفقهون فى كلام رب العـالمـين .

ونقل كلام الامام الرازى فى باب المحبة قوله : (واما العارفون فقـد قالوا قد يحب الله تعالى لذاته وأما حب خدمته وحب ثوابه فدرجة نازلة) ونحن نقول ان الذات أقدس الموصوف بالكمالات المفيض للانعامات تتعلق

به قلوب المحبين موصوفا بكمالاته وانعاماته التى منها ثوابه وجزاؤه وتلك المحبة تبعث على خدمته بطاعته والتقرب اليه بأنواع العبادات وأما عبادة الذات مجردا عن الانعامات فهو نوع من التعطيل فى الاعتقاد والتقصير فى الشهود واذا كانت المحبة عملا من أعمال العبد القلبية التى يتقرب بها الى اللـه فهى عبادة • وقد بينا بالادلة المتقدمة أن العبادة فى الاسـلام موضوعة على مصاحبة الرجاء والخوف والحب للرب ذى الجلال والاكرام والبطش والانعام لا يغيب عن اجلاله بالخوف والتذلل له بالطمع كحاله فى سائـر العبادات •

ونقل من كلام النيسبورى قوله (المحققون نظرهم على المعبود لا على العبادة وعلى المنعم لا على النعمة) فان كان مراده أن نظرهم على المعبود أى اعتمادهم فى القبول على المعبود لا على العبادة فهذا حق وليس كلامنا فيه ، وان كان مراده أن نظرهم على المعبود أى توجههم الى المعبود دون العبادة فهذا أيضا حق لان العبادة متوجه بها لا اليها وليس كلامنا فى هذا ، وان كان مراده دون تقرب بالعبادة فهذا باطل لان الله تعالى قال : « وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ » اى ما يقربكم اليـه من طاعته وان كان مراده دون شعور بالعبادة فهذا أيضا باطل لان العابد ينـوى العبادة ويقصـد بها القـربة ويتوجه بها مخلصا فيقول : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » فكيف يكون لا شعور له بها وأما قوله (وعلى المنعم لا على النعمة) فان أراد أن المتقرب اليه هـو الله المنعم دون النعمة ، فهذا حق وليس كلامنا فيه ، وان أراد أن رجاء نعمـة الثواب حين التوجه لله والتقرب اليه بالطاعة ينافى التقرب الى المنعـم ويعد تقربا للنعمة فهذا هو الـذى أبطلناه بالادلة السابقة ونقضناه فى الموضع الثالث • وان أراد أن ذكر العبد لنعم الله عليه مخل بكمال عبادته فهذا باطل أيضا لان عبادة الله شكر على ما أتى من النعم وطلب للمزيد من ارفع المقامات وقد قال الله تعالى : « اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا » « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ـ الى ـ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ » « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ » « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » و « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » •

استدل النيسبورى : (بانه قيل لبنى اسرائيل اذكروا نعمتى ولأمة محمد اذكرونى) وهذا منقوض بقوله تعالى : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ » ، « اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ » .

نقل من كلام النيسبورى ما يفيد أن عبادة الله لكونه الاها وكون المخلوق عبدا لا يكون معها رغبة فى الثواب ولا رهبة من العقاب وانها هى أعلى الرتب ونحن نقول من مقتضى شعورك بعبودتيك شعورك بضعفك وفقرك وان من مقتضى علمك بالله شهودك لقوته وفضله وذاك الشعور وهذا الشهود يبعثان فيك الرجاء والخوف فتكون وأنت تعبده لانه الله ولانك عبد راجيا خائفا . ودعوى تجرد العبادة عنهما قد أبطلناها بالادلة السابقة .

نقل قول الامام ابن العربى « أمر الله عباده بعبادته وهى اداة الطاعة بصفة القربة وذلك باخلاص النية بتجريد العمل عن كل شىء الا لوجهه وذلك هو الاخلاص الذى تقدم بيانه » . ثم زعم هو من عنده أن من مقتضى تجريد العمل عن كل شىء تجريده من رجاء الثواب وخوف العقاب يناقيان الاخلاص هو ما كان لوجه الله لكونه الاها لا غير .

وهذا صريح منه فى أن رجاء الثواب وخوف العقاب ينافيان الاخلاص وهو باطل لقوله تعالى : « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ .. » الآية ، وقد تقدمت فخافوا وعملهم لوجه الله بنص القرآن . وروى الائمة فى الصحيح أن أبا طلحة قال : يا رسول الله ، انى أسمع الله تعالى يقول : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وان احب أموالى الى بيرحاء وانها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح » . فأقره على قوله أرجو برها وذخرها ولم يقل له ان هذا مناف للاخلاص كما يقول الشيخ ، وهو يسمبط ويشنبط فى كلام الامام ابن العربى . ثم مالك - ياخى - ولابن العربى حسبك ابن سينا وامثاله الذين يحاولون تطبيق العبادة الاسلامية على الفلسفة اليونانية والآراء الافلاطونية ، أما ابن العربى

فهو حكيم اسلامي وفقيه قرآني وعالم سني ـ حقيقي ـ لا يبني انظاره الا على أصول الاسلام ودلائل الكتاب والسنة ـ وهاك كلامه في ارادة المأذون فيه مع العبادة من أمور الدنيا بله الرجاء والخوف ، ولنسمع كلامه الصريح من الدليل الصحيح في الرد على مثل زعمك . قال على قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » .

المسالة الثانية : قال علماؤنا : (في هذا دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة ، وان القصد الى ذلك لا يكون شركا ولا يخرج به المكلف عن رسم الاخلاص المفترض عليه ، خلافا للفقراء أن الحج دون تجارة أفضل أجرا) وقال على قوله تعالى : « وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ » . (وهذا يدل على أن العبد يعمل محبة في الله ورسوله لذاتيهما وفي الدار الآخرة لما فيها من منفعة الثواب) .

ونقل كلاما للامام الغزالي في المحبة وقد قدمنا في الموضع الثامن الكلام على مثله وبين ان المحبة عبادة وانها موضوعة كسائر العبادات الشرعية على الرجاء والخوف بالادلة المتقدمة .

ـ وقال : وكان من دعائه صلى اللـه عليه وآله وسلم : (اللهم اجعل حبك أحب الاشياء الي ، واجعل خشيتك أخوف الاشياء عندي واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق الى لقائك) وقد تقرر أن خوفه خوف اجلال وتعظيم لا خوف النار والعقاب اهـ ، ونقول أن خوف الاجلال لا يخرج به العبد عن ضعف وذل العبودية ومشاهدة قـوة وفضل الربوبية فلا يتجرد خـوفه الاجلالي عن خوف المؤاخذة : المؤاخذة التي ليست نارا ولا عذابا ولكنها مؤاخذة مناسبة لذلك المقام العالي بدليل أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام ـ وهو مثل نبينا عليه الصلاة والسلام في العصمة وعدم النار والعقاب وقد خاف المؤاخذة فقـال : « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » ولا خطيئة له ولجميع الانبياء والمرسلين لا من الكبائر ولا من الصغائر على كل حال ، وبدليل أنه هو عليه الصلاة والسلام قال : (والله أنني لأستغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) رواه البخاري ، وليس هذه لذنب لا صغير ولا كبير وانما هو لعلمه بالله وعظيم حقه وشدة تعظيمه

لربه فيخاف المؤاخذة فيطلب المغفرة فبان بهذا أن خوف الاجلال لا يتجرد عن خوف المؤاخذة • وبعد هذا البيان نقول لحضرته لا تستدل بالحديث دون بيان رتبته ولا ذكر لمخرجه ، وما هكذا يكون استدلال الامناء من العلماء وانه يرمى الاحاديث هكذا مهملة اختلط الحق بالباطل وتجرأ على السنة النبوية الغبى والجاهل حتى بلغ الامر الى نسبة الاحاديث الى كتب الاسلام المتفق عليها ولا وجود لها فيها ، أما نحن فلا نعرف هذا الدعاء فى الصحاح المتداولة عندنا فليتك تبين من أين جئت به حتى نعرف مقدار ما تعتمد فى احتجاجك عليه •

ـ وقال : فللانبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ حالتان : حالة مع الله ـ تعالى ـ لا يرون فيها غير جلاله وعظمته : وحالة مع الخلق يستغفرون ويستعيذون من النار وسوء المنقلب وفتنة القبر والدجال ، ويطلبون الرحمة والثواب والجنان اهـ، ونقول قد بينا ان رؤية جلال الله مما يبعث على الخوف من المؤاخذة كما مضى عن ابراهيم ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فلا يتجردون عن الخوف خوف الإجلال وخوف المؤاخذة فى حالتهم مع الله وقد دل حديث عائشة الذى قدمناه ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان فى سجوده فى جوف الليل والناس نيام فيما بينه وبين ربه استعاذ برضا الله من سخطه وبمعافاته من عقابه فكانوا يستعيذون ويرجون ويخافون فى حالتهم مع الله وأما حالتهم مع الناس فانهم كانوا يعملون وكانوا يخبرون عن أنفسهم بخوفهم وطمعهم كما أخبر ابراهيم ـ عليه السلام ـ بطمعه واخبر محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اصحابه بأنه أتقاهم لله واخوفه له واخبر عن استغفاره لربه واخبارهم حق صدق لا شك فيه ولا يجوز أن يقال أنهم قالوه لمجرد التعليم وهو فى الواقع لا حقيقة له اذ الاخبار عن النفس بشىء انه كان وهو لم يكن هو الكذب الذى عصمهم الله منه ونزههم عنه ولو تفطن حضرته لهذا لما قال ما قال •

وذكر حديث الاحسان (ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) • وهذا الحديث يقتضى دوام المراقبة لله عند كل حركة وسكون حتى لا تكون من العبد مخالفة فيهما وحتى يأتى بعبادته على غاية الاتقان

في صورها واتم الاخلاص بها وقد علمت أن من مقتضى العبادة الشرعية الشعور بضعف وذل وفقر العبودية أمام عز وقوة وفضل الربوبية فينبعث الرجاء والخوف في العابد وهما مما يحملانه على تمام الاحسان في العبادة باتقانها والاخلاص فيها • ثم من مقتضى مراقبة الله تعالى مشاهدته ، أي مشاهدة جلاله وجماله : بصفات القهر والبطش والملك والسلطان ، وجماله بصفات الفضل والرحمة والاحسان وبصدق المشاهدة لصفات الجـــلال يخاف العبـــد ويخشى وبصدق المشاهدة لصفات الجمال يرجو ويطمـــع فصدق الشهود لابد معه من الرجاء والخوف واذا غاب العبد عن الشعور بالموجودات فانه لا يغيب عن مشاهدة جلال وجمال الذات الباعثين للخوف والرجاء واذا لم يشهدهما وزعم أنه يشهد الذات مجردا انه لم يكـــن في الحقيقة مشاهدا بل غافلا معطلا جامدا وما غيبوبة العابد عن نفسه ان كانت ـ فانها حالة عارضة غير ثابتة وليست مشروعة لا بنص من آيـــة ولا من حديث عن أن تكون فاضلة كاملـــة • فالحديث دال عـــلى المراقبة والمشاهدة الشرعيتين اللتـــين يكون فيها العبـــد عابـــدا العبادة الشرعية الموضوعة على الرجاء والخوف حسب الادلة المتقدمة •

ـ ونقل كلام ابن سينا في كتاب الاشارات وكلام شراحه وهـــو مثل ما تقدم لنا ابطاله بأدلة الكتاب والسنة والشرح بهما لمعنى العبادة المشروعة • واذ كنا نبحث عن العبادة التي شرعها الله لعباده على لسان رسوله فاننا لا نعرفها الا من الكتاب والسنة وقد قدمنا من أدلتهما ما جلى المسألة للعيان واغنى فيها عن كل كلام •

وتلخص وتبين لنا مما تقدم ان العبادة المشروعة هي القصد الى الطاعة مع الشعور بضعف العبد وذله ، وحاجته وفقره ومشاهدته لجلال ربـــه وقدرته وعزته ، وجماله وفضله ورحمته فيكون بتلك المشاهدة خائفا من عقابه أو مؤاخذته ، راجيا لثوابه وانعامه . وان هذه العبادة هي عبادة الكمل من عباد الله الذين وصفهم بأفضل صفاتهم في كتابه وهي عبادة أنبيائـــه ورسله الذين ذكر عبادتهم القرآن وهي عبادة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ التي دلت عليها صحاح الآثار وعبادة أصحابه الثابتة في النقول ،

وخلصنا من هذا الى أن العبادة المجردة عن الخوف والرجاء منافية لصدق مشاهدة الجـلال والجمال مخالفة لعبادة الانبياء والمرسلين وعباد اللـه الصالحين ، وانه لم يرد فيها نص صريح من كتاب أو سنة مثل واحد من الادلة المتقدمة المتكاثرة وانها ما دامت كذلك ليس لنا ان نعدها مشروعة فضلا عن ان نعدها كاملة فضلا عن أن ندعي أنها أكمل لان مشروعية الشيء لا تثبت الا بدليل صحيح صريح ٠ وانى لنا ذلـك فى العبادة المجردة عـن الرجاء والخوف ٠ واللـه يقول الحـق وهو يهدى السبيل والحمد للـه رب العـالمـين (1) ٠

(1) الشهاب : ج 1 م 9 ـ غرة رمضان 1351 هـ جانفى 1933 م ٠

الصفـــة الخـــامســـة

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَـــوَامًا »

(سورة الفرقان ـ الآية : 67)

المناسبة : مضى وصفهم بانهم يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتربى النفس على استصغار الدنيا وما فيهـا وعلى تعظيم الرب والوقوف عند حدوده فلا يعظم شيء من الدنيا عند أهل الصلاة فيمسكوا عن بذله في الحق ولا يستهويهم شيء منها فينتهكوا لأجله حدود الله وحرماته ، ولما كان المال هو أعز شيء في هذه الدنيا وهـــو اعظم سبب لنيل مبتغياتها وصفوا بانهم في تصرفهم فيه على أكمل حال وهي حالة العدل التى أثمرتها لهم الصلاة فلا يمسكونه عن حق ولا يبذلونه في باطل ٠

المفردات : انفقوا : بذلوا المال في وجه من الوجوه ٠ **الاسراف :** مجاوزة الحد المشروع ٠ **الاقتار :** والتقتير التضييق ٠ **القوام :** العـــدل بين الشيئين اى المعتدل ما بينهما وسمى العدل بين الشيئين قواما لاستقامة طرفيه واعتدالهما فلا الى هذا ولا الى ذاك ٠

التراكيب : وكان أى هو اى إنفاقهم المفهوم من أنفقوا بين ذلك خبر كان وقواما حال مؤكدة فلو قيل وكان بين ذلك لكان كافيا ولكـن أكـد بقواما لما فيه من صريح اللفظ المفهم للعدل ، والانفاق يكون ولا يكـــون والشان ان يكون ولهذا علق وكان التعليق باذا وقدم نفى السرف على

نفي التقتير لان الاسراف شرهما ففيه مجاوزة الحدود وضياع المال وفي التقتير مفسدته مع بقاء المال فينفقه في الخير وقد يبقى لغيره فينتفع به ٠

المعــنى : اذا انفقوا أموالهم لم يتجاوزوا الحد المشروع ولم يضيقوا فيقصروا في القدر المطلوب وكان انفاقهم بين التجاوز والتضييق عــدلا مستويا لا افراط فيه ولا تفريط،وصفهم بالقصد الذى هو وسط بــين الغلو والتقصير وهو الحالة بين الحالتين والحسنة بين السيئتين ٠

تحديــد : الاسراف مذموم فهو ما كان في منهى عنه نهى تحريم أو كراهة او في مباح قد يؤدي اليهما ٠ فالاول كمن أولم وليمة أنفق فيها جميع ماله وأصبح بعدها هو واهله للضيعة والحاجة ، والثانى كمن اولم وليمة دعته الى الاستدانة وان كان يظن القدرة على الاداء لان الدين محذر ومستعاذ منه ، والثالث كالاستمرار على ايلام الولائم مع القدرة عليها في الحال مما قد يؤدى الى أحد الامرين المذكورين في المال ٠

والتقتير مذموم أيضا فهو ما كان امساكا عن مامور به أمر وجوب أو استحباب أو عن مباح يؤدى اليهما ، فالاول كمن يمسك عن أهلــه شحا حتى يذيقهم ألم الجوع والبرد ٠ والثانى كمن لا يذيقهم بعض الطيبات التى يخص بها نفسه من السوق ٠ والثالث كمن يمسك عن تطييب خاطر زوجته ببعض الكماليات مع قدرته عليها مما قد يفسد قلب زوجته عليه او يحملها على ما لا يرضيه ٠

والقوام العدل هو الممدوح فهو أن ينفق في الواجب والمندوب وما يؤدى اليهما ويمسك عن المحرم والمكروه وما يؤدى اليهما ويتسع في الحلال دون مداومة في الاوقات واستيفاء لجميع اللذات واستهتار بالمشتهيات ٠

تطبيــق : حالة وطننا في الاعم الاغلبى في الولائم والمآتم لا تخلو من السرف فيها الذى يؤدى الى التقتــير من بعدها فيكون الإثـم قـد أصـاب صاحبها بنوعيه،واحاط به من ناحيتيه،والشر يجر الى الشر والاثم يهدى الى مثله،وعلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين علق كثير ممن سمعناهم يشكون هذه الحالة آمالهم في معالجتها خصوصا في المآتم حقق الله الآمال ٠ وثم

نوع آخر موجود في غالب القطر ويكثر في بعض الجبال وهو أن بعض المأمورين من بعض شيوخ الطوائف ياتون بثلة من اتباعهم فينزلون على المنتمين اليهم من ضعفاء الناس فيذبح لهم العناق ان كانت ويستدين لشرائها ان لم تكن ويفرغ المزاود ويكنس لهم ما في البيت ويصبح معدما فقيرا مدينا ويصبح من يومه صبيته يتضاغون ويمسى أهل ذلك البيت المسكين يطحنهم البؤس ويميتهم الشقاء ميتات متعددة في اليوم وشر ما في هذا الشر انه يرتكب باسم الدين ويحسبه الجهال أنه قربة لرب العالمين، فاما اذا جاء وقت شد الرحال الى الاحياء والاموات وتقديم النذور والزيارات فحدث هنالك عن أنواع السرف والتكلفات والتضييع للحقوق والواجبات .

نصيحة : فياليت الذين تاتيهم تلك الوفود يسالونهم فردا فردا عن حالهم ومن أين جاءوهم بما جاءوهم به من أموالهم فعساهم ان يطلعوا على بؤس أولئك المساكين فترق لهم قلوبهم ويرجعوا اليهم ما لهم أو يزيدوهم من عندهم وليقتصروا على من يجدونهم أهل قدرة على ما دفعوه لهم من أموالهم . فهذه نصيحة اذا عملوا بها خففت من الشر والبؤس عن الزائرين ومن الاثم واللوم عن المزورين فهل بها من عاملين ؟ وفقنا الله والمسلمين (1) .

(1) الشهاب ــ ج 10 ، م . 8 ــ جمادى الثانية 1351 هـ ــ أكتوبر 1932 م .

الصفة السادسة والسابعة والثامنة

« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ »

(سورة الفرقان من الآية : 68)

سبب النزول : ثبت فى الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ أن عبد الله ابن مسعود قال : قال رجل : يا رسول الله اى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تدعو لله ندا وهو خلقك » قال : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » قال : قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » فانزل الله تصديقها : « **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ** ... الى **آثَامًا** »

المطابقة بين الآية وسبب نزولها : تواردت الآية والحديث فى الاثم الاول على شيء واحد . وتواردا أيضا فى الثانى والثالث . الا أن فى الحديث ذكر فرد من العام وهو شر أفراده وأكبرها اثما . وفى الآية ذكر العام ، ولا شك أن شر قتل النفس هو قتل الولد لما فى ذلك ـ زيادة على قتل النفس ـ من الخروج عن حنان الفطرة وارتكاب ضد ما توجبه الرعاية والكفالة وسوء الظن بالله المتكفل برزق الخليقة . كما أن الزنى بحليلة الجار هو شر أفراد الزنى لما فيه زيادة على الزنى من انتهاك حرمة الجار وخيانة الامانة ـ فانهم ما تجاوروا حتى أمن بعضهم بعضا ـ وادخال الفساد على أساس التكوين الاجتماعى فى الناس وهو التجاور والتقارب .

المناسبة : لما أثبت لهم أصول الطاعات فى الآيات المتقدمة نفى عنهم أمهات المعاصى فى هذه الآية تنبيها على أن الايمان الكامل هو ما تثبت معه الطاعات وتنتفى المعاصى ، وذلك هو غاية الامتثال للاوامر والنواهى ،

وفيه تعريض بما كان عليه المشركون من الاتصاف بهذه المعاصى من دعائهم آلهتهم مع الله وقتلهم النفس وارتكابهم فاحشة الزنى • وقدم اثبات الطاعات على انتفاء المعاصى تنبيها على أن من راض نفسه على الطاعة ودانت نفسه بالاخبات والانقياد للاوامر الشرعية ضعفت منه أو زالت دواعي الشر والفساد فانكف عن المعصية •

نكتة استطرادية : فمن هنا نعلم أن على المسلم الذى يعمل لتزكية نفسه أن يواظب على الطاعات بأنواعها وان يجتهد فى حصول الانس بها والخشوع فيها فان ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير ، يقلع منه أصول الشر ويميت منه بواعثه •

وجه ترتيب هذه الصفات المنفيات : قامت الشريعة على المحافظة على حقوق الله وحقوق عباده وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا فمن دعا مع الله غيره وأشرك به سواه فقد أبطل حق الله وأعدم عبادته ومن قتل النفس فقد تعدى على أول حق جعله الله لعباده بفضله وهو حق الوجود وعمل على ابطال وجودهم وفناء نوعهم وزوال عبادتهم، فلهذا قرن قتل النفس بدعاء غير الله معه • ولما كان الزنى فيه بطلان النسب وفساد الخلق والجسد وذلك مؤد الى الاضمحلال والزوال والشرور والاهوال قرن بقتل النفس فذلك قتل حقيقى وهذا قتل معنوى •

المفردات : الدعاء : هو النداء لطلب أمر أو تنبيه عليه • **الاله :** هو المعبود • **حرم الله النفس :** جعل لها حرمة ومنعة فلا يجوز التعدى عليها • ومادة : ح ر م ــ تفيد المنع فى جميع تصاريفها • **الحق :** هو الثابت من مقتضيات القتل فى الشرع •

التراكيب : وصف النفس بالاسم الموصول المعروف الصلة ، لان تحريم الله لها أمر مركوز فى النفوس معروف للبشر بما جاءهم من جميع الشرائع وكان النفى للفعل بصفة المضارع للاشارة الى استمرار ذلك النفى •

المعـــنى : والذين لا يدعون ولا يعبدون مع الله الها آخر فيشركون به سواه فى عبادتهم اياه ولكنهم يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعـــة ويوحدونه فى ربوبيته وألوهيته ولا يقتلون النفس التى جعل الله لهـا حرمة وحرم قتلها بالسبب الا الحق الثابت فى دين الله المعارض لحرمتها المقتضى بالزنى بعد الاحصان أو الكفر بعد الايمان أو القتل للنفس العمد العدوان ولا يزنون فيأتون ما حرم الله عليهم اتيانه من الفروج •

مزيد بيان لتوحيد الرحمن :

من دعا غير الله فقد عبده : ما يزال الذكر الحكيم يسمى العبادة دعاء ويعبر به عنها • ذلك لانه عبادة ، فعبر عن النوع ببعض أفراده وانمـا اختير هذا الفرد ليعبر به عن النوع لان الدعاء مخ العبادة وخلاصتها فان العابد يظهر ذله أمام عز المعبود وفقره أمام غناه وعجزه أمام قدرته وتمام تعظيمه له وخضوعه بين يديه ويعرب عن ذلك بلسانه بدعائه وندائـــه وطلبه منه حوائجه ، فالدعاء هو المظهر الدال على ذلك كله ، ولهذا كان مخ عبادته ، وقد جاء التنبيه على هذا فى السنة المطهرة ، فعن النعمان ابن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (الدعاء هو العبادة) ثم قرأ : « **وَقَالَ رَبُّكُمُ : ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** » رواه أحمد والترمذى وأبو داود رحمهم الله والنسائى وابن ماجة • وعـن أنس (ض) قال : قال رسول الله (ص) : (الدعاء مخ العبادة) رواه الترمذى رضى الله عنه ، فتطابق الاثر والنظر على أن الدعاء عبادة فمن دعا غـير الله فقد عبده واذا كان هو لا يسمى دعاءه لغير الله عبادة فالحقيقة لا ترتفع بعد تسميته لها باسمها وتسميته لها بغير اسمها والعبرة بتسمية الشرع التى عرفناها من الحديثين المتقدمين لا بتسميته •

من دعا شيئا فقد اتخذه الها : لما ثبت ان الدعاء عبادة فالداعى عابد والمدعو معبود والمعبود اله ، فمن دعا شيئا فقد اتخذه الهه ، لانه فعل له ما لا يفعل الا للاله ، فهو وان لم يسمه الها ، بقوله فقد سماه بفعله ، الا ترى الى اهل الكتاب لما اتبعوا أحبارهم ورهبانهم فى التحليل والتحريم

ـ ومما لا يكونان الا من الرب الحق العالم بالمصالح ـ قال الله تعالى فيهم : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ »· وان كانوا لا يسمونهم أربابا فحكم عليهم بفعلهم ولم يعتبر منهم عدم التسمية لهم أربابا بالسنتهم، فكذلك يقال فيمن دعا شيئا انه اتخذه الها ، نظرا لفعله وهو دعاؤه ، ولا عبرة لعدم تسميته له الها بلسانه · وفي حديث عدى بن حاتم الذى رواه الترمذى وغيره أنه قال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم : لما سمعه يقرأ هذه الآية أنهم لم يكونوا يعبدونهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (أليس كانوا اذا حرموا عليهم شيئا حرموه ، واذا احلوا لهم شيئا أحلوه) ؟ قال : قلت : نعم ـ قال : (فتلك عبادتهم اياهم) · قال الامام الجصاص : ولما كان التحليل والتحريم لا يجوز الا من جهة العالم بالمصالح ثم قلد هؤلاء أحبارهم ورهبانهم فى التحليل والتحريم وقبلوه منهم وتركوا أمر الله تعالى فيما حرم وحلل صاروا متخذين لهم أربابا اذ نزلوهم فى قبول ذلك منهم منزلة الارباب ، اهـ ·

وعلى وزانه نقول : لما كان الدعاء عبادة والعبادة لا تكون الا للاله ، كان الداعي لشيء من المخلوقات متخذا اياه الها ، لما نزله بدعائه اياه منزلة الاله ، سواء دعاه وحده دون الله أو دعاه مع الله ، والعياذ بالله ·

تحذير وارشاد : ما أكثر ما تسمع فى دعاء الناس : « يا رب والشيخ » « يا رب وناس ربى » « يا رب والناس الملاح » وهذا من دعاء غير الله مع الله ، فاياك أيها المسلم واياه ، وادع الله ربك وخالقك وحده وحده وحده ، وأنف الشرك راغم ·

الوعيد ، بالعذاب الشديد

« وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (69) » ·

(سورة الفرقان)

المناسبة : اذا أمر القرآن بشيء ذكر فائدته وثمرته للعباد في الدارين، وكذلك اذا نهى عن شيء ذكر مضرته وسوء عاقبته عليهم فيهما فلما ذكر في صدر الآية نفى تلك المعاصي عن عباد الرحمن الذى يفيد النهى عنهـا ذكر هذا الوعيد لبيان سوء عاقبتها وقبح اثرها ٠

نكتة استطرادية : هذه هي سنة القرآن في التربية وهي انجع الطرق في جعل المأمور والمنهي يمتثل للامر والنهى من كل نفسه ويعمل لتنفيذهما بعقله وارادته فالتربية التى تنبني على امتثال الامر والنهى من غير المعصوم والانقياد لهما انقيادا أعمى ـ مخالفة لتربية القرآن ، والخير كله في اتباع القرآن في جميع ما يفيده القرآن ٠

مفـردات : اسم الاشارة راجع للثلاثة المذكورة من قبـل ٠ **يلـق** ٠ يقابل ويصادف وينل ٠ **أثاما** : عقابا جزاء على اثمه فالآثام جزاء الاثم ٠ **يضاعف :** يزاد له على الاصل فيعذب عذابين وأنواعا مـن العذاب ٠ **يخلد :** يبقى طول البقاء يسمى خلودا كما قالت العرب فى أثافى الصخور خوالد لطول بقائها بعد دروس الاطلال لا لدوام بقائها اذ لا دوام لها وعلى هذا قول المخبل السعدى :

الا رمـادا هامـدا دفعـت عنه الرياح خوالد سحـم

المهان : الذليل المحتقر الذى يفعل به ما يذله ويحقره ٠

التراكيب : يضاعف بدل من يلق بدل كل من كل قال الخليل لان مضاعفة العذاب هى لقى الآثام وعندى انه بدل بعض من كل لان لقـى العذاب جزاء على تلك الآثام يكون فى الدنيا والآخرة ومضاعفة العذاب والخلود فيه تكون فى الآخرة وبهذا تكون الآية قد افادت ان المرتكب لما تقدم من المعاصى : الشرك وقتل النفس والزنى ينال جزاءه دنيا وأخرى وعذاب الآخرة المضاعف المستمر اشد وأبقى وهذا هو الجارى على سنة القرآن فى التخويف بسوء عاقبة المعصية عاجلا وآجلا والتنبيه على ان الآجل أشد وأفدح من العاجل ٠

المعـــنى : ومن يأت هذه الافعال فدعا مع الله الها آخر أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق أو زنى فانه يلقى وينال جزاء معصيته في دنياه وجزاءها في اخراه ويكون عذابه عليها في الآخرة مضاعفا مزيدا عليـه أنواع ويستمر فيه باقيا مذللا محقرا ٠

توجيــه : انما ضعف لاهل هذه الكبائر العذاب لان كل كبيرة منها مضاعفة المفاسد والشرور ففي دعاء غير الله الجهل بالله والكفر بنعمة الله والابطال لحق الله وفي قتل النفس تاييم وتيتيم وتاليم لغير من قتل وفتح لباب شر بين أولياء القاتل والمقتول وتعد على جميع النوع وتهوين لهذا الجرم الكبير وفي الزنى جناية على النسل المقطوع وعلى من ادخل عليهم من الزنى من ليس منهم وعلى اصحاب الارث في خروج حقهم لغيرهم وغير ما ذكرنا في جميعها كثير فكانت المضاعفة من باب جعل الجزاء من جنس العمل وهو من مقتضى الحكمة والعدل ٠

تذكـير : يذكرنا القرآن بمضاعفة العذاب على كبائـر الآثام لنذكـر عندما تحدثنا أنفسنا بالمعصية سوء عاقبتها وتعدد شرورها وتشعـــب مفاسدها ومضاعفة العذاب بحسب ذلك عليها لنزدجر وننكف فنسلم من الشر المتراكم والعذاب المضاعف ونفوز بأجر التذكر وثمرة التذكير ٠

جعلنا الله والمسلمين ممن انتفع بالذكرى وسلم من فتن الدنيـــا والاخرى بمنه وكرمه آمين (1) ٠

---

(1) الشهاب ــ ج 11 ، م٠ 8 ــ رجب 1351 هـ ــ نوفمبر 1932 م ٠

استثناء التائبين من المذنبين

« إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّآتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً »

(سورة الفرقان ـ الآية : 70)

سبب النزول : اخرج الشيخان عن ابن عباس (رضى الله عنهما) واللفظ لمسلم قال ابن عباس نزلت هذه الآية بمكة « **وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ الى مُهَاناً** » فقال المشركون وما يغنى عنا الاسلام وقد عدلنا بالله وقد قتلنا النفس التى حرم الله وأتينا الفواحش فانزل الله عز وجل « **إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً** » الى آخر الآية ٠

المناسبة : لما ذكر تعالى عظائم الذنوب وأكبر كبائرها وتوعد بالوعيد الشديد عليها عقبها بذكر التوبة منها ورغب فيها لينبه عباده على طريق الرجوع اليه وان من تاب منهم الى الله تاب الله عليه ٠

المفردات : التوبة : الرجوع الى الله اى الرجوع من معصية الله الى طاعته وذلك بالندم على ما فات والعزم على عدم العود اليه وهذان من عمل القلب ، وبالاقلاع عما هو متلبس به وهذا من عمل الجوارح ٠ **الايمان :** عند ما يذكر مع الاعمال يراد به تصديق القلب ويقينه واطمئنانه بعقائد الحق ، **والعمل الصالح :** هو العمل الطيب المشروع من طاعة الله على العباد سواء كان من عمل الباطن وهو عمل القلب أو من عمل الظاهر وهو عمل الجوارح والعمل الصالح من ثمرات الايمان الدال وجودها على وجوده وكمالها على كماله ونقصها على نقصه وعدمها على اضطرابه وشك انحلاله واضمحلاله ٠ **التبديل :** التحويل فتجعل الحسنة مكان

السيئة . **الغفور** : الستار للذنوب المتجاوز عنها . **الرحيم** : المنعم الدائم الانعـــام .

التراكيب : الا من تاب استثناء من يفعل استثناء متصلا لان الذى يتوب من جملة من فعـل والفاء فى فاولئك تفريعية لتفرع التبديل على التوبة وعاطفة لجملة اولئك على جملة استثنى التى قامت مقامها الا . كما عطفت عليها الجملة الاخيرة جملة وكان . ونظير هذا من يقم منكم فلـه درهم الا زيدا فله درهمان .

المعـــنى : يستثنى من ذلك الوعيد الشديد بمضاعفة العذاب والخلود فيه مهانا من رجع الى الله من الشرك وقتل النفس والزنى بالتوبة الصادقة وشفع توبته بالعمل الصالح الدال على صدق تلك التوبة فهؤلاء بتوبتهم وعملهم الصالح يقبلهم الله ويجعل مكان سيآتهم حسنات وكان الله غفورا يتجاوز عن ذنوب عباده فقد تجاوز عما كان منهم من شرك أو قتل أو زنا رحيما منعما على عباده فقد أنعم عليهم بالحسنات مكان ما تقدم من سيآتهم .

ترتيب وتوجيه : يكون العاصى فى غمرات معصيته فاذا ذكر اللـــه ووفقه الله أسف على حاله ورجع الى ربه وهذه أول الدرجات فى توبته فاذا استشعر قلبه اليقين واطمأن قلبه بذكر الله صمم على الاعراض عن المعصية والاقبال على الطاعة فاذا كان صادقا فى هذا العزم فلابد ان يظهر اثر ذلك على عمله فلهذا روعيت الحالة الاولى فذكرت التوبة والثانية فذكر الايمان والثالثة فذكر عمل صالح .

تايبد واقتداء : روى الائمة عن كعب بن مالك (ض) أحد الثلاثة الذين خلفوا أنه لما جلس بين يدى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما تاب الله عليه قال : يا رسول الله ان من توبتى ان انخلع من مالى الى اللـه ، والى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال رسول الله (ص) : امسك بعض مالك فهو خـير لـك قال فقلت : فاننى امسك سهمى الذى بخيبر . فهذا الصحابى الجليل راى أن من توبته أن يعمل هـذا العمل

الصالح ليكون دليلا على صدق توبته كما اقتضته الآية فتايد بفهمه ما قدمنا وكان خير قدوة للتائبين ٠

وجـــوه التبـــديل : لما كانت السيئة لا تنقلب حسنة كان معنى التبديل هو جعل الحسنة مكان السيئة وهذا على وجوه أولها محو السيئات الماضية بالتوبة وكتابة حسنة التوبة وما فيها من عمل باطن وظاهر كما تقدم ٠ وثانيها تركه المعصية واتيانه بالعمل الصالح فصار يعمل الصالحات بعد ما كان يعمل السيئات وثالثها أن نفسه كانت بالمعصية مظلمة شريرة فتصير بالتوبة والعمل الصالح منيرة خيرة ٠ فالتبديل فى الكتب والعمل وحالة النفس ٠

مسالتـــان اصوليتـــان :

الاولى : هل يخرج غير التائب من النار ؟ استثنى الله التائب من مضاعفة العذاب والخلود فيه مهانا فبقى غير التائب للخلود ، والخلود كما قدمنا فى الآية السابقة طول البقاء ولا يقتضى التابيد فقد يكون معه التابيد وقد لا يكون ، فمع التابيد لا خروج ومع عدمه الخروج وغير التائب الذى بقى للخلود المطلق فى الآية هو المشرك والقاتل والزانى ، فاما المشرك فلا خروج له من النار لقوله تعالى : « **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ** » ، واما القاتل والزانى اذا كانا من أهل الإيمان فانهما يخرجان بعد شديد العذاب بما معهما من الايمان لأحاديث صحيحة منها ما رواه الشيخان البخارى ومسلم على أنس (ض) : (يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان فى قلبه من الخير ذرة) ، وهذا من عدل الله ورحمته فانه اذاقهم من العذاب الشديد والهوان المخزى جزاءهم ، ثم اخرجهم من النار وما أضاع عليهم ايمانهم ، ان الله بالناس لرؤف رحيم ٠

الثانيـــة : هل لقاتل النفس ظلما وعدوانا من توبة ؟ ذهب ابن عباس فى المشهور عنه الذى رواه الشيخان وغيرهما انه لا توبة له وقال فى هذه

الآية انها نزلت فى المشركين وذكر سبب نزولها كما تقدم وقال ـ اثره فاما من دخل فى الاسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له وقال فى هذه الآيـة انها آية مكية نسختها آية مدنية وهى آية الفرقان : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنـًا مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » . ومراده بالنسخ التخصيص يعنى ان لفظة مَن فى « إِلاَّ مَنْ تَابَ » عامة تشمل القاتل فتقتضى بعمومها ان له توبة ، وأن آية الفرقان التى جاءت فى القاتل خصصتها واخرجته من عمومها ، قال ابن رشد ـ بنقل الابى ـ والى هذا ذهب مالك لانه قال : (لا يؤم القاتل وان تاب) قال ابن رشد : وهذا لأن القتل فيه حـق للـه وحق للمقتول، وشرط التوبة من مظالم العباد رد التبعات أو التحلل وهذا لا سبيل للقاتل اليه الا بأن يعفو عنه المقتول قبل القتل اهـ .

وذهب جمهور السلف وأهل السنة الى أن للقاتل توبة ونظروا فى هذه الآية الى عموم لفظها لا الى خصوص سبب نزولها وجعلوا عمـــوم « وَمَنْ يَقْتُلْ » فى آية الفرقان مخصصا بمن تاب المستثنى فى هذه الآية فابن عباس خصص من تاب بمن يقتل وهم عكسوا فخصصوا من يقتل بمن تاب ويرجع تخصيصهم العمومات الدالة على قبول التوبة من كل مذنب مثل قوله تعالى : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِـدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً » . وقوله : « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ » . وقوله : « قَابِلِ التَّوْبِ » . وحديث التائب من الذنب كمن لا ذنب له فى عمومات كثيرة . والظاهر اذا كثرت تفيد القطع .

قدوة فى الفتوى : قال ابن رشد : كان ابن شهاب اذا سئل يستفهم السائل ويطاوله فان ظهر له انه لم يقتل يفتيه بانه لا توبة له وان تعرف بأنه قتل افتاه بان التوبة تصح . قال ابن رشد وانه لحسن من الفتوى . فهكذا ينبغى مراعاة الاحوال ، فى تنزيل الاقوال فان من لم يقتل يجب التشديد عليه وسد الباب فى وجهه ومن قتل ينبغى ترغيبه فى الرجوع

الى الله . وفى مراعاة هذا الاصل والاقتداء بهذا الامام فوائد كثيرة فى الحث على الخير والكف عن الشر والحكيم من ينزل الاشياء فى منازلها كانت اعمالا أو كانت اقوالا .

ترهيب : ما أعظم هذا الذنب وما أكبره ، ونعوذ بالله من ذنب اختلف ائمة السلف فى قبول توبة مرتكبه وقد اجمعوا على قبول توبة الكافر ، ولعظم شأن الدماء كانت أول ما يقضى فيه يوم القيامة بين الخلق . فاياك أيها الاخ ان تلقى الله تعالى بمشاركة فى سفك قطرة من دم ظلما ولو بكلمة فان الامر صعب والموقف خطير .

بشارة التائبين الى رب العالمين

« وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَاباً »

(سورة الفرقان ـ الآية : 71)

المناسبة : لما افادت الآية السابقة ان التوبة تمحو السيآت جاءت هذه الآية اثرها تبين ما لاهلها من جزيل الانعامات وعظيم الدرجات .

المفردات : **المتاب** : مصدر كالمرجع .

التراكيب : خالف جواب الشرط وهو يتوب فعل الشرط وهو تاب بمتعلقه وهو الى الله ومعموله وهو متابا ، وعبر بالمضارع فى الجواب ليفيد التجدد باعتبار تجدد المثوبات للراجعين الى الله ، ونون متابا تنوين تفخيم وتعظيم .

المعنى : ومن تاب التوبة الصادقة وعمل عملا صالحا دليلا على صدق توبته فانه يرجع الى الله الذى يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحسن لقاءهم ويجزل ثوابهم ـ رجوعا وأى رجوع رجوع العز والتكريم الى الحليم الكريم .

ترغيب : دعا الله بهذا عباده المذنبين حتى لا يتسرب القنـــوط الى قلوبهم وهو محرم عليهم ولا يحول بينهم وبين خالقهم ذنب وان عظـم ، ورغبهم في التوبة بأنها رجوع اليه وكفى وان الرجوع اليه فيه من الخير والشرف فوق ما تصوره الالفاظ ، فما أحلمه من رب كريم وما ارحمـه بعباده المذنبين . فهذا داعي الله فأجيبوه وهذا باب الله فلجوه فانكم مهما رجعتم اليه لا تطردوا ومهما قصدتم اليه تقبلوا وتكرموا ، اللهم فكما فتحت لنا بابك فوفقنا اليه وتب علينا لنتوب انك انت التواب الرحيم (1) .

---

(1) الشهاب ـ ج 12 ، م. 8 ـ شعبان 1351 هـ ـ ديسامبر 1932 م .

الصفـــة التاسعـــة

« وَالذِينَ لاَ يَشْهَـدُونَ الـزُّورَ » .

(سورة الفرقان ـ الآية 72)

المناسبة : لما وصفهم بالصفات المتقدمة الدالة كلها على كمال اخلاقهم واستقامة أعمالهم في ظواهرهم وبواطنهم ، بانبنائها على قوة ايمانهم وصحة علمهم ، فكانوا أهل الحق المتصفين به في علمهم وعملهم ، القائمين عليه في جميع أحوالهم ـ وصفهم هنا ببعدهم عن الباطل ومشاهده ومجانبتهم لاهلـــه ٠

المفردات : **الشهود** : هو الحضور الذى يكون فيه ادراك بالحواس أو بالبصيرة ٠ والشهادة هى الاخبار عن علم حصل عن شهود ٠

و « **لا يشهدون** » يحتمل أن يكون من الشهود وان يكون من الشهادة ٠

والزور : أصله الميل ويطلق على الكذب لا لانه ميل عن الحقيقة وعلى كل باطل من الاقوال والاعمال لانه ميل عن الحق ٠

التراكيب : اذا كان لا يشهدون بمعنى لا يحضرون فالزور مفعول بـه واذا كان بمعنى لا يخبرون فالزور مفعول مطلق بعد حـــذف المضاف ، والاصل ولا يشهدون شهادة الزور ٠

المعنى : ـ على الاحتمال الاول ـ والذين لا يحضرون مشهادة الباطل والاثم من كل مجلس تتعدى فيه الحدود او تنتهك فيه الحرمات او يحكم فيه بالجور أو تعظم فيه الطواغيت أو يدعى فيه بدعوى الجاهلية أو تحيا فيه

معالم الوثنية وتطمس فيه السنة النبوية او يدعى فيه احد مع الله أو يضرع الى سواه · وعلى الاحتمال الثانى ـ والذين لا يشهدون شهادة الزور ولا يخبرون الا بالحق الواقع ·

ترجيح وترجيح : يلزم من انهم لا يشهدون مشاهدة الباطل انهم لا يشهدون بالزور لوجهين : الاول لأنهم اذا كانوا لا يحضرون مجالس الباطل فبالاحرى انهم لا يقولونه · والثانى ان يشهد شهادة الزور من مشاهد الباطل التى لا يحضرونها فيكون الوجه الاول أولى لانه اشمل ·

توسع في البيان : على انه من بلاغة القرآن ان تأتى مثل هذه الآيات بوجوه من الاحتمالات متناسبات غير متناقضات فتكون الآية الواحدة بتلك الاحتمالات كانها آيات نظير مجىء الآية بقراءتين : فتكون كآيتين مثل قوله تعالى : « **إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ـ فتثبتوا** » وقوله تعالى فى اية الوضوء : « **وَأَرْجُلَكُمْ** » بالنصب عطفا على الوجه فيفيد غسل الارجل وتلك هى الحالة الاصلية العامة · وبالخفض عطفا على الرؤوس فيفيد مسح الارجل وتلك هى حالة الرخصة عند لبس الخفاف · فتكون هذه الآية باحتمالها مفيدة تنزههم عن شهود الباطل وعن شهادته ·

موعظة : قال جار الله فى الكشاف عن هؤلاء الموصوفين من عباد الرحمن : انهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها تنزها عن مخالطة ـ الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه لان مشهادة الباطل شركة فيه ولذلك قيل فى النظارة الى كل ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه فى الاثم لان حضورهم دليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة فيه لان الذى سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم فى النظر اليه ، اهـ ·

وهذا كما قال فان حضور مشاهد الباطل اقرار لاهلها عليها وترك للنهى عن المنكر ، وقد قال الله تعالى : « **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ** » وقال تعالى : « **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي**

آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، فتعم الآية كل ظالم فلا تجوز لأحد مجالستهم مع ترك النكير عليهم ولا يكفى أن ينكر ويجلس لانه يكون ببقائه معهم قد اظهر ما يدل على الرضا بفعلهم ونقض بالفعل انكاره عليهم بالقول • وروى الطبرانى والبيهقى باسناد حسن عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم : (لا يقفن احدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما فان اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه ولا يقفن احدكم موقفا يضرب فيه رجل ظلما فان اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه) فاخبر أن اللعنة تنزل على الحاضرين لعدم دفعهم ، واقتضى انهم غير راضين بقلوبهم واحرى اذا رضوا فلا يجوز من هذا الحديث وغيره حضور الظلم والقبائح مع عدم دفعها ولو مع عدم الرضا بها • وروى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه ـ لما وصلوا الحجر ديار ثمود ـ (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا ان تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما اصابهم) فاذا كان هذا فيمن ماتوا من اهل العذاب فمثلهم مجالس أهل السوء والفساد ، فاذا نزلت اللعنة والعذاب عمتهم ومن كان معهم • وشهادة الزور المرادة بالنص على الوجه الثانى أو اللزوم على الوجه الاول من أكبر الذنوب اثما وشر الكبائر مفسدة تنقلب بها الحقائق وتضيع بها الحقوق وتبطل المعاملات وتزول الثقة بين الناس وتتعرض النفوس والاموال والاعراض للاذى والشر وتنعدم طمأنينة الناس على ما يعملون من أنفسهم ، وصح عنه عليه وآله الصلاة والسلام انه قال : (الا أنبئكم بأكبر الكبائر الا أنبئكم بأكبر الكبائر ، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، الاشراك بالله وعقوق الوالدين الا وشهادة الزور وقول الزور وكان متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا (شفقة عليه) ليته سكت) فجلس لها وبقى يكررها لعظم شرها وكبر مفسدتها وعظم الاثم فيها على حسب ذلك منها • اعاذنا الله والمسلمين منها ومن كل زور وذى زور •

الصفـــة العـــاشرة

« وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » .

(سورة الفرقان ـ الآية : 72)

المناسبة : نفى عنهم فيما تقدم حضور مشاهد الزور واخبار هنـــا انهم لا يقفون عند اللغو عندما يمرون عليه ترقيا فى وصفهم بالبعد عـن الباطل والاثم والعبث ومجانبة اهله ٠

المفردات : **اللغو** : مصدر لغـا يلغو اى قال باطلا فهو القول الباطل ومثله الفعل الباطل من كل ما لا فائدة فيه ولا نتيجة له مما شأنه ان يلغى ويطرح ، **والكريم** : الخالص العنصر فهو الزكى غير المتدنس ومن مقتضى ذلك حسن اخلاقه واستقامة أعماله وسلامته من الرذائل ٠

التراكيب : كراما حال من فاعل مروا الثانى ليبين وصفهم عند المرور٠

المعـــنى : واذا مروا فى طريقهم بقول يقال أو فعل يفعل مما لا فائدة فيه جاوزوه معرضين عنه ازكياء غير متدنسين بشيء منه ولا ملتفتين لاهله٠

موعظة : فى الاقبال على اللغو شغل للبال به وتكدير للخاطر بظلمته وتضييع للوقت فيه ولكل كلمة تسمعها أو فعلة تشهدها اثر فى حياتك وان قل وقد يعقبها ضدها فتزول بعد ما شغلت وعطلت وقد يردفها مثلها فتثبت وتنمو وتسوء عاقبتها ولو بعد حين ، وبقدر ما تلتفت الى اللغــو تلتفت عن كرمك وبقدر ما يعلق بك منه ينقص من زكائك وبقدر ما تتساهل بالوقوف عليه تقرب من الدخول فيه واذا دخلت فيه واستانست بأهله جرك الى الزور وعظائم الامور ، وللشر أسباب متواصلة وانساب متصلة يؤدى بعضها الى بعض فينتقل المغرور الغافل من خفيها الى جليها ومن صغيرها الى كبيرها ، فالحازم من لم يسامح نفسه فى قليلها ويباعد كل البعد عنها وعن أهلها ٠ ولقد هدتنا الآيات هذه لنهتدى ، وذكرت عباد الرحمن لنقتدى، والله المستعان ، ولا توفيق الا به (1) ٠

---

(1) الشهاب : ج 2 م 9 ـ شوال 1351 هـ ، فيفرى 1933 م

الصفة الحادية عشرة

« وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا » .

(سورة الفرقان ـ الآية 73)

المناسبة : لما وصفهم فيما تقدم باعراضهم عن الباطل ومجانبتهم لاهله وبعدهم عنه ، وصفهم هنا باقبالهم على الحق واكبابهم عليه متفهمين مستبصرين .

الالفاظ :**ذكروا** : وعظوا ونبهوا **بآيات ربهم** : هى آيات القرآن . وفيها التذكير بآيات الاكوان التى ترى بالعيان . **الخرور** : هو السقوط كسقوط الساجد . **الاصم** : فاقد حاسة السمع أو الذى لا يتدبر ما يسمع فلا ينتفع به وهو المراد هنا .

والاعمى : فاقد حاسة البصر أى الذى لا يعتبر فيما يبصر فلا ينتفع به، ويكون الاعمى بمعنى فاقد الإدراك القلبى وهو عمى البصيرة ، وما هنا يحتمل الوجهين الاخيرين .

التراكيب : عبر باذا لان التذكير مما هو واقع محقق كالذى يسمع من القرآن فى الصلاة من الخطب فى الجمع . وبنى الفعل للنائب لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أى مذكر كان . وصما وعميانا حال من الواو ضمير الجماعة فى لم يخروا ، والنفى منصب على الحال التى هى قيد فى الكلام ، واذا كان الكلام مقيدا بقيد كما هنا فان النفى ينتصب على ذلك القيد فى غالب الاستعمال العربى ، ونضيره ما رأيت زيدا راكبا ، نفيا للركوب لا للرؤية ، ولا يلقانى مسلما ، نفيا

للسلام لا للقاء ، فلم ينف عنهم الخرور وانما نفى عنهم الصمم والعمى عند الخرور ٠

المعنى : ومن صفات عباد الرحمن انهم اذا ذكرهم مذكر بآيات ربهم التى انزلها على نبيهم (ص) بما فيها من ذكر مخلوقاته وانعاماته وايامه في اوليائه وأعدائه ووعده ووعيده وترغيبه وترهيبه - أقبلوا عليها واكبوا على سماعها بآذان واعية ، وابصار رامية ، وقلوب حاضرة ، وعقول متدبرة ، لا كمن يقبلون عليها ويكبون على سماعها ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون لانهم لا يعقلون ولا يتدبرون ٠

عموم الحاجة للتذكير : بعد ما ذكر تعالى من صفات عباد الرحمن ما ذكر ، ذكر استماعهم للتذكير تنبيها على أن التذكير محتاج اليه فى كل حال فاذا كان الموصوفون بتلك الصفات يحتاجون اليه فغيرهم أولى ، وذلك لان الغفلة من طبع الانسان ودوام الغفلة صدأ القلوب وصقالها هو التذكير ٠

قبول التذكير من كل مذكر : كما تقبل كلمة الحق من كل قائل يقبل التذكير من كل مذكر ولو كان المذكر من كمل العباد والمذكر من أوساطهم أو أدناهم ، وفى عباد الرحمن المذكورين فى استماعهم اذا ذكروا من اى مذكر ، القدوة الحسنة ٠

ما يكون به التذكير : قال الله تعالى : « **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ** » « **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** » « **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** » فالتذكير بآيات القرآن والاحاديث النبوية هذا هو التذكير المشروع المتبوع والدواء الناجع المجرب ، ولذلك تجد مواعظ السلف كلها مبنية عليه راجعة اليه ، والنصح لله ولرسوله وللمسلمين فى لزوم ذلك والسير عليه ٠

انقسام الناس عند التذكير : الناس عند تلاوة القرآن على قسمين: معرضين مقبلين فالمعرضون غير مؤمنين ، والمقبلون على قسمين : مقبلين بظاهرهم دون باطنهم ومقبلين بظاهرهم وباطنهم ، فالمقبلون بظاهرهم دون باطنهم هم المنافقون ، والمقبلون بظاهرهم وباطنهم

على قسمين مستمعين مستبصرين حاضرين متدبرين ، وغافلين غير متدبرين غير سامعين ولا مبصرين • والاقسام كلها مذمومة الا قسم المقبلين بظواهرهم وبواطنهم المستمعين المستبصرين ، وهذا القسم هو الذى وصف بـه عباد الرحمن ، فكانوا مباينين لاهل الاعراض من الكافرين والمنافقين ، ولاهل الغفلة وعدم التدبر من المؤمنين •

تحذير وتنبيه : قد صورت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذى ينكب عليه ويتلقاه بالقبول ثم لا يتفهمه ولا يتدبره بحالة الاصم الاعمى فى عـدم انتفاعه بما انكب عليه تقبيحا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيـات وتحذيرا منه وتنبيها على أن الانتفاع بالقرآن الذى تتفتح به البصائر وتتسع به المدارك وتتهذب به الاخلاق وتتزكى به النفوس وتتقوم به الاعمال وتستقيم به الاحوال • انما يكون بتفهمه وتدبره دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر •

أمـر وارشـاد : الآيات الدالة على طلب التدبر والتفهم لآيات القرآن العظيم كثيرة منها هذه الآية ومنها قوله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » ، فعلينا أن نحضر قلوبنا عنـد سماعها ونستعمل عقولنا فى فهمها ونحمل انفسنا على الاتعاظ بها ، فاذا صدقت النية واخلص التوجه فتح على العبد من وجوه العلم والعمـل ـ باذن الله ـ بما لم يكن له فى بال ، وان الله وصف هذا الكتاب بأنـه مبارك لزيادة خيراته وتيسيره للذاكرين ـ ترغيبا لنا فى فهمه وتدبيره واستنزال الخيرات واستزادة البركات منه ، فاقبل ـ يا أخى ـ على القرآن على استماعه وعلى تفهمه ، والزم ذلك حتى يصير عادة لـك وملكة فيـك ـ تر من فضل الله واقباله عليك ما يدنيك ـ ان شاء الله ـ ويمليك ويعود بالخير الجزيل عليك • والله نسأل لنا ولكم الاقبال على الله بتلاوة وتدبر كتابه ، والتادب بجميع آدابه ، حتى نحشر فى زمرة أحبابه ، بمنه وكرمه آمـيـن (1) •

---

(1) الشهاب : ج 3 م 9 ـ ذى القعدة 1351 هـ ، مارس 1933 م •

الصفة الثانية عشرة

« وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً » .

(سورة الفرقان ـ الآية : 74)

المناسبة : لما وصفهم فى الآيات المتقدمة بما دل على أنهم أهل خير وكمال فى أنفسهم وصفهم فى هذه بما دل على محبتهم الخير والكمال لغيرهم من قرابتهم أزواجهم وذريتهم ومن سواهم ، وقدم الازواج على الذرية لانهم الصق ولأنهم الأصل .

فقه هذه المناسبة : فطر الانسان على محبته لنفسه لتحمله هذه الفطرة على المحافظة عليها والدفاع عنها وتكميلها بكل وجوه الكمال ، وكان من مقتضى هذه المحبة رغبته فى الوجود والبقاء ، ومما هو قوة فى وجوده ومظهر لبقائه أن يرى الناس على فكره وصفاته واحواله فيرى نفسه ممثلة فى غيره وافكاره وصفاته وأحواله باقية ببقاء الناس ، فالخير الكامل من طبعه ومن مقتضى فطرته أنه يجب انتشار الخير والكمال فى الناس ، والشرير الناقص من طبعه ومن مقتضى فطرته أنه يحب انتشار الشر والنقص فيهم ، فلذا كان لازما لتتميم وصف عباد الرحمن ذكر محبتهم الخير والكمال لغيرهم .

ميزان هذه المناسبة : قد تخفى عليك دخيلة نفس الانسان فيمكنك أن تعرفها بما يجرى به لسانه فاذا جرت كلماته بمحبة انتشار الخير

والكمال فهو من أهلهما واذا جرت بالضد فهو على الضد · فما يحب الانسان انتشاره هو الدليل على صفات نفسه وهو ميزان تزنه به في الشر والخير والنقص والكمال ·

المفردات : الهبة : العطاء من غير عوض ولا تكون على الحقيقة التامة الا من الله فهو الغنى الوهاب ، **من** : ابتدائية فمن ناحية الازواج والذرية تكون قرة الأعين · **الأزواج** : جمع زوج وهو يصدق على الرجل والمـرأة والنساء شقائق الرجال،وهذا الدعاء كما يكون من المؤمنين يكون مـن المؤمنات كما تصدق الآيات المتقدمة على الموصوفين من الصنفين بتلـك الصفات · **الذرية** : ما تناسل منهم من ابنائهم وبناتهم وقرئت بالافراد لاتحادها في أصل النسل وبالجمع لاختلافها في الفروع والانساب · **قرة الأعين** : بردها ان كانت من القر وهو البرد · وسكونها ان كانت من القرور بمعنى الاستقرار **الامام** هو المتبع المقتدى به وافرد لان المراد به الجنس وحسن الافراد من جهة اللفظ لوقوعه فاصلة على وزان ما قبلهـا وما بعدها ومن جهة المعنى أن أئمة الهدى كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم بالسير على الصراط المستقيم واتحاد وجهتهم بالقصد الى الله تعالى وحده ·

التراكيب : قرة أعين تركيب كنائى فاذا كانت القرة من القـر فهو كناية عن السرور لان العين في حالة السرور باردة واذا سالت منها دموع في حالة الفرح كانت باردة واذا كان الانسان فى حالة حزن فالعين تكون سخنة بسبب ثورة النفس وآلامها التى تثير الحرارة فاذا سالت منهـا دموع الحزن كانت سخنة ، ومما يقال على هذا أقر الله عين المحق واسخن عين المبطل وجاء عليه قول أبى تمام :

فاما عيون العاشقين فاسخنت   وأما عيـون الشامتين فقرت

فقرة أعينهم على هذا كناية عن سرورهم بأزواجهم وذريتهم بما يرونهم عليه من الخير والكمال واعانتهم لهم عليهما ، ولذا كانت القرة من القرور فهى كناية عن سكون النفس بحصولها على ما يرضيها من الازواج والذرية· ومعنى هذا أن النفس اذا لم تحصل على ما يرضيها من الازواج والذرية

تعلقت بما عند غيرها وتشوفت اليه فتمتد اليه العين ويطمح اليه البصر واذا حصلت على ما يرضيها زالت عن ذلك التعلق وانكفت عن التشوف فسكنت العين فلم تمتد الى غير ما عندها ولم يطمح البصر اليـه • ولهذا كما كان قرور العين كناية عن رضى النفس وسكونها كان امتداد العـين كناية عن اضطراب النفس وتشوفها وتعلقها وعليه قوله تعالى : « وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » • فقرة أعينهم على هذا كناية عن رضى أنفسهم بما يكون لهم من أزواج وذرية موصوفين بالصفات المرضية من طاعة الله فى القيام بوظائف الدين والدنيا واعانتهم لهم على القيام بها •

المعـنى : ومن صفات عباد الرحمن أنهم يدعون ربهم يسالونـه أن يهب لهم أزواجا وذرية تقر بهم أعينهم بأن يكونوا موصوفين بمثل صفاتهم سائرين على منهاجهم معينين لهم على ما هم عليه ويسالونه أن يكونوا على أكمل حال فى العلم والعمل والاستقامة يقتدى بهم فيها المتقون •

الاحكـــام :

الاول : التزوج وطلب النسل هـو السنة سنـة النبـى صلى الله عليه وآله وسلم وسنة أصحابه عليهم الرضوان وسنة عباد الرحمن وليس من شريعته الحنيفية السمحة الرهبانية والتبتل ، وقد رأى قوم من الزهاد رجحان الانقطاع الى العبادة على الزوج والاشتغال بالسعى على الزوج والذرية فرد عليهم أئمة الدين والفتوى بأن فى التزوج اتباعا للسنة وفى السعى على الاهل ما هو من أعظم العبادة وفى التزوج تكثير سواد الامة والمدافعين عن الملة والقائمين بمصالح الدين والدنيا ، وفى هذا ما فيه من الاجر والمثوبة ، وفى التبتل مخالفة السنة وانقطاع النسل وضعف الامة وتعطيل المصالح وخراب العمران وكفى بهذا كله شرا وفسادا •

الثـانى : سؤال العبد من ربه أن يهب له من الزوج والذرية ما تقر به عينه يقتضى سعيه بقدر استطاعته لتحصيل ذلك فيهما ليقوم بالسببين المشروعين من السعى والدعاء فعليه أن يختار ويجتهد عندما يريد التزوج

وأن يقصد الى ذات الدين وفى اختياره واجتهاده فى جانب الزوجة سعى فى اختيار الولد فان الزوجة الصالحة شأنها أن تربى أولادها على الخير والصلاح ثم عليه أن يقوم بتعليم زوجه وأولاده وتهذيبهم وارشادهم فيكون قد قام بما عليه فى الابتداء والاستمرار مع دوام التضرع الى الله تعالى والابتهال ·

الثالث : ما تقر به الاعين يحصل به الفرح والسرور فالفرح والسرور بما هو خير وطاعة من حيث إنه نعمة من الله وفضل محمود ومشروع ·

الرابع : طلب الرتب العليا فى الخير والكمال والسبق اليها والتقدم فيها مما يدعونا اليه الله ويرغبنا، يمثل هذه الآية فيه كما قال تعالى : « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » . لأن طلب الكمال كمال ولان من كانت غايته الرتب العليا ان لم يصل الى أعلاها لم ينحط عن أدناها وان لم يساو أهلها لم يبعد عنهم ، ومن لم يطلب الكمال بقى فى النقص ومن لم تكن له غاية سامية قصر فى السعى وتوانى فى العمل ، فالمؤمن يطلب أسمى الغايات حتى اذا لم يصل لم يبعد وحتى يكون فى مظنة الوصول بصحة القصد وصدق النية ·

الخامس : من الدين الاقتداء بأهل العلم والعمل والاستقامة فى الهدى والسنة ·

السادس : لا يكون الامام الا تقيا فاق غيره فى التقوى ·

السابع : ان اقتداء المتقين بأئمتهم انما هو في التقوى لانهم ما كانوا أئمة الا بها · فالآية أفادت أن المتقين يقتدون بأئمتهم وأن أئمتهم متقون مثلهم وأكمل منهم فى التقوى وان اقتداءهم بهم فى التقوى لا فى غيرها فمن حاد عنها فلا امامة له ·

تمييز : الخير الكامل المقدم فى الخير والكمال المقتدى به فيهما اذا طلب الامامة من حيث الخير والكمال نفسهما ومن حيث حمل الناس عليهما بالقدوة الصالحة له فيهما لان فعل الخير والاتصاف بالكمال دعوة اليهما بالعمل وهى أبلغ من الدعوة بالقول ومن حيث انتشارهما فى

الناس وسعادة الناس بهما • اذا طلب الامامة من هذه الحيثيات فطلبه مشروع محمود وهو طلب عباد الرحمن المذكور فی الآية ، واذا طلب الإمامة والتقدم لأجل الترأس والتقدم فهذا الطلب مذموم من عمل المتكبرين لا من عمل المتقين ، فعلى الداعی أن يميز هذا التمييز ليخلص القصد فی دعائه ويكون على صواب فيه •

كلمة عظيمة من إمام عظيم : قال مجاهد التابعی الجليل الثقة الثبت المفسر الكبير : (أئمة نقتدی بمن قبلنا ويقتدی بنا من بعدنا) • ذكره البخاری ورواه ابن جرير بسند صحيح • يعنی ان الذين يقتدی بهم الناس من بعدهم هم الذين كانوا يقتدون بسلفهم الصالح من قبلهم ، فالذين أحدثوا فی الدين ما لم يعرفه السلف الصالح لم يقتدوا بمن قبلهم فليسوا أهلا لان يقتدی بهم من بعدهم ، فكل من اخترع وابتدع فی الدين ما لم يعرفه السلف الصالح فهو ساقط عن رتبة الامامة فيه •

سلوك واقتداء : كان الاعرابی الجاهل المشرك يأتی للنبی صلى الله عليه وآله وسلم ، فيؤمن به ويصحبه،يتعلم منه الدين ويأخذ عنه الهدى فيستنير عقله بعقائد الحق وتتزكى نفسه بصفات الفضل وتستقيم أعماله على طريق الهدى فيرجع الى قومه هاديا مهديا إماما يقتدى به ويؤخذ عنه كما اقتدى هو بالنبی صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ عنه • فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك فيحضر مجالس العلم التی تذكره بآيات الله واحاديث رسوله ما يصحح عقيدته ويزكی نفسه ويقوم عمله وليطبق ما يسمعه على نفسه وليجاهد فی تنفيذه على ظاهره وباطنه وليداوم على هذا حتى يبلغ الى ما قدر له من كمال فيه فيرجع وهو قد صار قدوة لغيره فی حاله وسلوكه، وطلبة العلم الذين وهبوا نفوسهم لله وقصروا أعمارهم على طلب العلم لدعوة الخلق الى الله هم المطالبون على الاخص بهذا السلوك ليصلوا الى امامة الحق وهداية الخلق • على أكمل حالة واقرب طريق • فاللهم وفقنا واهدنا الى سنة نبينا اذا اقتدينا واذا اقتدی بنا آمين يا رب العالمين (1) •

(1) الشهاب : ج 6 م 9 ـ محرم 1352 هـ ، ماى 1933 م •

جـزاء عبـاد الرحمـن

« أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً (75) ، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً » (76) .

(سورة الفرقان)

المناسبة وفقهها : لما ذكر فى الآيات المتقدمة صفاتهم واعمالهم ذكـر ما أعد لهم من عظيم الجزاء على تلك الاعمال تنبيها على ما وضعه تعـالى بمشيئته وحكمته ورحمته من الارتباط بين هذه الاعمال وهذا الجـزاء وافضائها اليـه افضاء السبب لمسببه ليسعى الراجون لهـذا الجزاء مـن طـريق هذه الصفات وهذه الاعمال كما يسعى لسائر المسببات من طـريق أسبابها وتؤتى جميع الامور من أبوابها . وفى هذا حث لاهل هذه الاعمال على التمسك بما هم به عاملون وتنبيه لاهل الغرور على بطلان ما هم بـه مغترون « والكيس من دان نفسه وقهرها على الطاعة وحاسبها ، وعمل لمـا بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى » .

المفردات : **يجزون** : يعطون فى مقابلة أعمالهم . **الغرفة** : البيت الاعلى فوق بيت وال فيـه للجنس فيصدق بالمتعدد . **صبروا** : حبسوا نفوسهم والباء فيه سببية . **يلقـون** : من لقى بمعنى يجدون ويلقون من لقى بمعنى تلقيهم الملائكة أى تقابلهم وتتلقاهم . **تحيـة** : دعاء بالحياة . **سلاما** : دعاء بالسلامة . **خالدين** : باقين . **مستقرا** : هو المكان الذى ينتهى اليه من غيره ويثبت فيه . **مقاما** : هو المكان الذى يقام ويمكث فيه .

التراكيب : جمـلة أولئك مستانفة بيانيا فان تلـك الصفات والاعمال تشوق السامع الى معرفة مآلهم وثمرة أعمالهم فيسأل عنهما ، فكانت الجملة

جـوابا لذلك السؤال المقدر وعرف المسند اليـه بالاشارة تنبيها عـلى أن استحقاقه للمسند كان بما تقدم من صفات • وجملة حسنت مستأنفة بيانيا لان من عرف حالتهم من الحياة والسلامة والبقاء يتشوف لمعرفة حال مكان هذه الحياة السالمة الباقية فيسأل عنه فوقعت جملة حسنت موقع الجواب عن هذا السؤال المقدر وهى انشائية أفادت انشاء مدح الغرف بالحسن وتعظيم ذلك الحسن،وقدم المستقر لان أول الحلول استقرار والمقام ببقاء الاستقرار واستمرار المكث •

المعـنى : أولئك الذين ذكرت صفاتهم وأفعالهم يعطون جـزاء أعمالهم البيوت العلالى فى الجنـة بسبب صبرهم وحبسهم لانفسهم عـلى الطاعات والمجاهدات وكفهم لها عـن المعاصى والشهوات وتتلقاهم الملائكـة بالتحية والسلام باقين فى هذا النعيم المقيم وسكنى علالى الجنة التى هى أحسـن مستقر ينتهى اليه الانسان ومقام يمكث فيه •

تطبيق حديث وفقهه : « روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى (ض) ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :«ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الافق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم » قالوا يا رسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم، قال : «بلى ـ والذى نفسى بيده ـ رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» فهذا الحديث بين ان أهل الغرف هم أكمل المؤمنين واعلاهم درجة فى الجنة بهذا المقدار من البعد فهم الموصوفون بالصفات المذكورة فى الآيات المتقدمة على أتمها ومن لم يكن مثلهم فيها لم يكن فى منازلهم التى جوزوا بها عليها وكان على حسب حظـه من الايمان فى منزلة من منازل أهـل الجنة الذين يتراءون أهل الغرف ، فدرجات أهل الجنة فى منازلهم على حسن سلوكهم فى أعمالهم « **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ، سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ،وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** » •

دلالة : دلت الآية على السبب الذى افضى بهم الى هذا الجزاء العظيم وهو أعمالهم ، ودلت على السبب الذى تمكنوا به من القيام بهذه الاعمال وهو الصبر لقوله تـعالى : « **بما صبـروا** » ومن اعظـم الحكمة معرفة الاسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض فـلا ينهض بامتثال المامـورات وتـرك المنهيات الا من صبر ، والصبر خلق من الاخلاق التى تتربى وتنمو بالمران والدوام · فواجب على المكلف ان يجعل تربية نفسه عليه وتعويدها به من أكبر همه اذ لا يقوم بالتكاليف الشرعية الا به،بل ولا يستطيع الحياة فى هذه الدار الدنيا الموضوعة على المحنة والابتلاء الا اذا تمسك بسببه ·

بيان القرآن للقرآن : فى هذه الآية انهم يلقون تحية وسلاما وقد بين من يتلقاهم بذلك فى قوله تـعالى : « **وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** » فالملائكة هم الذين يتلقونهم بالسلام والدعاء لهم بالطيب وهو مما يدخل فى التحية لان من طيبهم طيب حياتهم وما أكثر ما تجد فى القرآن بيان القرآن فاجعله من بالك تهتد ـ ان شاء الله ـ اليه ·

اقتداء ورجاء : هؤلاء هم السالكون وما ذكر من أعمالهم وأحوالهم هو سلوكهم ولما سلكوا الصراط المستقيم بالعمل المستقيم انتهى بهم السير الى أحسن قرار ومقام الى دار النعيم المقيم في جـوار الرحمن الـرحيم · فاذا اشتقت الى نهايتهم فتمسك ببدايتهم وزن أعمـالك بأعمالهـم واحوالـك باحوالهم ، فاذا جعلت ذلك من همك ، وحملت عليه نفسك بصادق عزمك ، وصبرت كما صبروا رجوت أن تظفر بما ظفروا · فاللـه نسأل لنا ولـك وللمسلمين صحة الاقتداء ، وصدق الرجاء ، وحسن الجزاء ، « **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** » (1) ·

---

(1) الشهاب : ج 7 م 9 ـ صفر 1352 هـ جوان 1933 م ·

قيمة العباد عند ربهم
بقدر عبادتهم

« قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا » .

(سورة الفرقان الآية 77)

المناسبة : قد افادت الآيات السابقة كمال حال عباد الرحمن فى نفوسهم وعقولهم واخلاقهم وأعمالهم وأفادت عظيم منزلتهم عند ربهم ورفيع ما اعد لهم من درجاتهم جزاء على صالحاتهم وحسناتهم ، وجاءت هذه الآية تفيد ان ذلك المقام العظيم الذى كان لهم عند ربهم انما هو بسبب عبادتهم ، وتعلن للناس ان عبادتهم هى الشيء الوحيد الذى يكون لهم به قدر وقيمة عند ربهم ، وبدونها لا يكون لهم وزن عند خالقهم ولا يكونون شيئا يبالى به ، وان من كذب وخلع بتكذيبه ربقة العبادة فقد حقت عليه كلمة العذاب وهو واقع به لا محالة .

المفردات : ما يعبا بكم : ما يبالى بكم . العبء هو الثقل فما عبأت به بمعنى ما كان له عندى وزن ولا مقدار وعبأت به كان له عندى وزن ومقدار وعدى بالباء لانه بمعنى ما باليت . **دعاؤكم :** عبادتكم من اطلاق الجزء على الكل . **كذبتم :** كفرتم فلم تعبدوا . **لزاما :** ملازما وأصل اللزام مصدر لازم واختير هنا للتنبيه على أن بين المكذبين والعذاب ملازمة من الطرفين فهم بتكذيبهم قد ألزموا أنفسهم العذاب فلازمهم العذاب .

التراكيب : جواب لولا محذوف لدلالة ما تقدم وتقدير الكلام لولا دعاؤكم ما عبأ بكم وجملة فقد كذبتم واقعة موقع التعليل لكلام مقدر تقديره

ـ والله أعلم ـ لا يعبأ بكم فقد كذبتم أى لانكم قد كذبتم،فالفاء تعليلية ، واما جملة فسوف يكون فمسببة ٠ وضمير يكون عائد على العذاب المفهوم مـن المـقام ٠

المعنى : قل للذين أرسلت اليهم ما يبالى بكم ربى ولا يعبأ بكم ولا يكون لكم عنده وزن لولا ايمانكم وعبادتكم فاذا كذبتم وكفرتم فهم لا يعبأ بـكم وسوف يكون العذاب ملازماً لكم بسبب تكذيبكم ٠

تحرير فى المخاطب : المخاطبون هم الذين كذبوا ثم أن ما لحقهم بسبب التكذيب من العذاب الملازم فهو خاص بهم وبالمكذبين امثالهم ٠ ومـا كان موجها لهم من جهة انهم عباد ـ وهو أن الله لا يعبأ بهم لولا دعاؤهم ـ فهو عام لجميع العباد لماثلتهم لهم فى العبودية لله واستغناء الله عنهم وفرض العبادة عليهم وعدم التقدير لهم الا بها ٠

تفسير اثـرى : أخـرج البخارى فى كتاب التفسـير ، عن عبد اللـه ابن مسعود (ض) قال خمس قد مضين : الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام ٠ ورواه فى مواضع أخرى من صحيحه وعنى بالدخان المذكور فى قوله تعالى : « **يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** » وبالقمر المذكور فى (**وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**) وبالبطشة المذكورة فى (**يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى**) وباللزام المذكور فى هذه الآية ٠ وفسر ابن مسعود البطشة الكبرى بيوم بدر وفسر اللزام به أيضا ، فهى فى الحقيقة اربع وعدها خمسا باعتبار الوصفين البطش والملازمة ٠ وفسر الحسن اللزام بعذاب يـوم القيامة ٠ ومن عـادة السلف أنهم يفسرون اللفظ بما يدخل فى عمومه دون قصد للقصر عليه ولا منافاة حينئذ بين التفسيرين فيكونون قد توعدوا على تكذيبهم بلزوم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ٠

ترهيب : رتب لزوم العذاب على التكذيب فأعظم العذاب لاكمل التكذيب وهـو تكذيب الكفر ثم أصناف العذاب لازمة لتكذيب العصيان بالعـدل والحكمة فى التقسيم والترتيب ٠

استنباط : لما كانت مقادير العباد عند ربهم بحسب عبادتهم فالانبياء ـ عليهم السلام ـ أعلى الناس منزلة عند اللـه هم أعظمهم عبادة للـه وهم أتقاهم له وأشدهم خشية منه • وقد قال النبى (ص) فيما رواه مالك وغيره « والله انى أرجو أن أكون اخشاكم لله واعلمكم بما اتقى » وقال أيضا : « والله انى لاتقاكم لله واعلمكم بحدوده » •

سؤال استطرادى وجوابه : كيف يخشى وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تاخر ؟ أجاب العلماء عن هذا بأجوبة منه أنـه لا يخشى العقاب ولكنـه يخشى العتاب ، ومنها ـ وهو قول الاكثر ـ انه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تاخر بشرط امتثاله لما أمـر بـه • ذكر هذين ابن العربى فى « القبس » ، ومنها أنها خشية الاجلال ومشاهدة عظمة الربوبية وانه لا يجب عليه تعالى شيء • وهذان الحديثان الصحيحان من الادلة الصريحة عند أهل العلم على أن العبادة الشرعية الاسلامية لا تتجرد من الخوف حتى عبادة أفضل الانبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين •

تعلـيل : الانسان مهيأ للكمال بما فيه من الجزء النورانى العلوى وهو روحه ، ومعرض للسقوط والنقصان بما فيه من اخلاط عناصر جزئه الارضى الظلمانى وهو جسده ولا يخلص من كدرات جثمانه ولا ينجو مـن أسباب نقصانه الا بعبادة ربه التى بها صفاء عقله وزكاء نفسه وطهارة بدنه فى ظاهره وباطنه ، فبعبادة ربه يكمل فيرقى فى مراتب الكمال ويدنو من المـلأ الاعلى عند الرب الاعلى ذى الجلال والاكرام ، فالله طيب لا يقبل الا الطيب ، « **وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ** » ، ولا طيب ولا كمال الا للعابدين ، فلا قيمـة ولا قبول لغيرهم عند رب العالمين •

ارشاد وتحذير : قد بين لك الطريق الذى يوصلك الى مولاك ويرقيك فى مراتب كمالك وعلاك ، وما هو الا عبادة ربك ، فكن عبدا له فى اختيارك واضطرارك وفى جميع أحوالك واحـذر أن تعتمد على شيء غـير عبادته ـ واحـذر ان تتوجـه بشيء مـن عبادتك لغـيره ، ومـن عبادتـك ـ بـل

هو مخ عبادتك ـ دعاؤك وسؤالك واستغاثتك ، فاياك اياك أن تتوجه بشيء منه لغيره . فكن دائما عبدا لله وكن دائما عبدا له وحده فذلك حقه عليك وذلك السبب الوحيد الذى ينجيك ويعليك ، والله نسأل أن يقصرنا على عبادته ويديمنا على الاخلاص فى التوجه اليه حتى نلقاه على ملة الاسلام وهدى عباده الصالحين آمين يا رب العالمين (1) .

(1) الشهاب : ج 8 م 9 ـ ربيع الاول 1352 هـ ، جويلية 1933 م .

ملــك النبــوة

مجمع الحق والخير ، ومظهر الجمال والقوة

الآية الاولى وهي 15 من سورة النمـل

« وَلَقَــدْ آتَيْنَا داوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ، وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّــهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ »

تمهيد : النبوة منزلة من الكمال التام البشرى يهيء الله لها من يشاء مـن عباده فيكون بذلك مستعدا لتلقى الـوحى والاتصال بعالم المـلائكة ولتحمل أعباء ما يلقى اليه وتكاليف تبليغه بالقول والعمل وتحمل كل بلاء يلقاه في سبيل ذلك التبليغ ٠

والملك ولاية عـلى المجتمع لحفظ نظامه تقتضى عمـوم النظر وشمول التصرف فى روابط الناس ومعاملاتهم وتصرفاتهم وتسييرهم فى ذلك كله على أصول عادلة توصل كل أحد الى حقه وتكفه عن حق غيره ليعيشوا فى رخاء وسلام ويبلغوا غاية ما يستطيعون من متع الحياة ٠

وقد يتصف الشخص بالنبوة دون الملك فيكون مبلغا عن الله ولا يكون له التنفيذ والادارة والتنظيم وقد يتصف الشخص بالملك دون النبوة وقد وجد الشخصان فى شمويل وطالوت فكان الاول نبيا وكان الثـانى ملكا كما قال تعالى : « **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيئُهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً** » وقد يجمع بينهما مثل داوود وسليمان عليهما السلام ٠ ثم ان الملك قد تكون الاصول التى يستند اليها مستمدة من أوضاع البشر لحفظ مصالحهم فى الحياة الدنيا فيكون ملكا بشريا ٠ وقد تكون تلك الاصول مستمدة من وحى الله بما فيه حفظ مصالح العباد فى الدنيا وتحصيل سعادتهم فيها وفى الاخرى فيكون ملك نبوة ٠

ومن طبيعة ملك النبوة التزام الحق ونصرته حيثما كان باقامة ميزان العدل فى القول والحكم والشهادة بين الناس أجمعين المعادين والموالين كما قال تعالى : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » ، « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » وبالوفاء بالعقود والعهود بين الافراد والجماعات كما قال تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » « وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا » « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » « وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ » وبغير هذا من وجوه التزام الحق ونصرته .

ومن طبيعته بث الخير بين الناس بنشر الهداية والاحسان دون تمييز بين الاجناس والالوان كما قال تعالى : « وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » « وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » .

ومن طبيعته الدعوة الى القوة والتنويه بها وبناء الحياة عليها لكن فى نطاق العدل والرحمة ولدفاع المعتدين كما قال تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » وقبلها « وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » فقوة الحديد لحفظ الكتاب والميزان وحمل الناس عليهما « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » الآيات .

ومن طبيعته الدعوة الى الجمال والتحبيب فيه فى جميع مظاهر الحياة لكن فى نطاق الفضيلة والعفاف كما قال تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي

أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ » « أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى » « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ » « حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ » « فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ » « مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » « الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ » « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » ٠

ومن طبيعة الملك البشرى ـ وان روعيت فى أوضاعه هذه الاصول الاربعة ـ انه لا يقيم ميزان العدل بين أبناء المملكة وغيرهم فتراه يكيل لهؤلاء بمكيال ولهؤلاء بمكيال ولا يرعى من العهود ـ فى الغالب ـ الا ما لا يعارض مصلحته أو تلزمه بمراعاته قوة خصمه ٠

كما أنه يكاد يقصر بره واحسانه على أبناء جلدته ومن كانوا من جنسه ولونه كما أنه يبنى أمره على القوة المطلقة فتندفع مع رغباته الى أقصى ما يمكنها أن تصل اليه فيكون البغي والتسلط والعدوان ٠ كما أنه تستهويه زينة الحياة الدنيا وزخارفها فتمتد يده اليها حيثما وجدها فتتنازعها الايدى بالقوة والحيلة وتذهب فى أمانيها الشهوات بالناس الى النقص والرذيلة ، ثم ان من طبيعة الملك من حيث إنه ملك ـ سواء أكان بشريا أم نبويا ـ مظاهر الابهة والجمال والقوة والفخامة ٠ لما جبل عليه الخلق من اعتبار المظاهر والتأثر بها ، وهذا اذا كان فى الحق فهو محمود مطلوب واذا كان للباطل والبغى والتعظيم النفسى فمذموم متروك ٠ ومن الاول أمر النبى صلى الله عليه وسلم عمه العباس رضى الله عنه أن يحبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى تمر عليه كتائب المسلمين وذلك لادخال الرعب على قلبه بما يرى من النظام والقوة فحبسه العباس فجعلت الكتائب تمر به فيسأل العباس عن كل كتيبة فاذا أخبره قال مالي ولبنى فلان حتى مر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والانصار لا يرى منهم الا الحدق من الحديد فقال من هؤلاء ؟ فقال العباس هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المهاجرين والانصار ، فقال أبو سفيان ما لاحد بهؤلاء قبل ولا طاقة لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ،

قال العباس فقلت له انها النبوة ، فقال فنعم اذن • قصد أبو سفيان عظمة الملك القاهر التي كان يعرفها من الاكاسرة وأمثالهم فنفى ذلك العباس ورده الى النبوة التي هى أصل تلك القوة وذلك الملك النبوى المستند الى الوحى الالهى ولم يرد نفى الملك جملة ، ومنه ما كان من معاوية بالشام ، لما قدم عليه عمر وجده فى أبهة من الجند والعدة فاستنكر ذلك وقال له أكسروية يا معاوية ؟ فاعتذر معاوية بأنهم فى ثغر تجاه العدو وانهم فى حاجة الى مباهاة العدو بزينة الحرب والجهاد ، فسكت عمر وأقره، فذلك المظهر من مظاهر طبيعة الملك من حيث هو ملك وانما أنكره عمر لما خاف فيه من تعظم واستعلاء واعجاب ، فلما كان للحق والمصلحة أقره • ومن أقوى الأدلة على أن تلك المظاهر اذا كانت للحق والمصلحة فهى محمودة مطلوبة ، ما قصه الله علينا فى هذه الآيات عن ملك سليمان نبى الله عليه الصلاة والسلام، نعم فى مسند أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم خير من ان يكون نبيا ملكا أو يكون نبيا عبدا فاختار أن يكون نبيا عبدا • وكان ذلك تواضعا منه • ولا ينفى هذا أنه صلى الله عليه وسلم ، كما كان مبلغا عن الله تبارك وتعالى كان قائما على الحكم والتنفيذ وادارة الشؤون العامة وتنظيم المجتمع مما يسمى ملكا نبويا مستندا الى الوحى الالهى ـ لان التخيير راجع الى حالته الشخصية الكريمة فخير بين أن يكون لشخصه من مظاهر الملك مثل ما كان سليمان أو لا تكون له تلك المظاهر فاختار أن لا تكون وأن يكون مظهره مظهرا عاديا مثل مظهر العبد العادى، كما أن سليمان عليه الصلاة والسلام الذى كان ملكا نبيا لم ينف ذلك عنه العبودية وانما ينفى عنه مظهرها العادى • فهما حالتان للقائمين على الملك جائزتان كان على احداهما سليمان وعلى الاخرى محمد صلى الله عليه وسلم وحالة أفضل النبيين أفضل الحالتين وقد اختار عمر رضى الله عنه الفضلى وأقر معاوية على الفاضلة الاخرى ، ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم جاء بملك النبوة كان القرآن العظيم جامعا للاصول التى ينبنى عليها ذلك الملك وجاء فيه مثل هذه الآيات التى نكتب عليها ليبين صورة من صور ملك النبوة ومظهرا صادقا من مظاهره فيما قصت علينا من ملك سليمان عليه الصلاة والسلام •

وهي ثلاثون آية من الآية الخامسة عشرة من سورة النمل الى الآية الرابعة والاربعين منها ·

الآية الاولى وهي : 15

الالفاظ والتراكيب : علما : نوعا عظيما ممتازا من العلم جمعا به بين الملك والنبوة وقاما بامر الحكم والهداية · وقالا : قولهما متسبب وناشىء عن العلم لكنه لو قيل فقالا بالفاء لما أفاد أن غير القول تسبب منهما عن العلم ولما عطف بالواو دل على أن هنالك أعمالا كثيرة عظيمة كانت منهما فى طاعة الله وشكره نشأت عن العلم وعليها عطف قولهما هذا · **فَضَّلَنَا :** أعطانا ما فقنا به غيرنا على كثير، فهنالك كثير لم يفضلا عليه ممن ساواهما أو فاقهما من عباده المؤمنين · ففضلا بين أهـل الفضل فكانا مـن أفضل الفاضلين وذلك بما أعطيا من النبوة وملكها ·

المعنى : يخبرنا الله تعالى عما أعطى لهذين النبيين الكريمين من هذا الخير العظيم وعما كان منهما من الشكر له ـ والمعرفة بعظيم قدر عطائه ، واظهار السرور به مع الاعتراف لغيرهما بما كان من مثله أو نحوه ومـن اعلانهما ما كان لله عليهما من نعمة التفضيل العظيمة بحمده والثناء عليه ·

تنويه وتاصيل : قد ابتدأ الحديث عن هذا الملك العظيم بذكر العلـم وقدمت النعمة به على سائر النعم تنويها بشأن العلم وتنبيها على أنه هـو الاصل الذى تنبني عليه سعادة الدنيا والاخرى وأنه هو الاساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا وان الممالك انما تبنى عليه وتشاد وان الملك انما ينظم به ويساس ان كل ما لم بين عليه فهو على شفا جرف هار وانه هـو سياج المملكة ودرعها وهو سلاحها الحقيقى وبه دفاعها وان كل مملكة لم تحم به فهى عرضة للانقراض والانقضاض ·

احماض : قال أبو الطيب المتنبى :

اعـلى الممالك ما يبنى عـلى الاسل   والطعـن عنـد محبيهـن كالقبـل

نعم ان محبى الممالك الصادقين فى محبتها والذين تصلح لهم ويصلحون لها هم الذين يستعذبون فى سبيلها الموت ويكون الطعن عندهم مثل القبل على ثغور الحسان،فاما الممالك التى تبنى على السيف فبالسيف تهدم،وما

يشاد على القوة فبالقوة يؤخذ وانما أعلى الممالك وأثبتها ما بنى على العلم وحمى بالسيف وانما يبلغ السيف وطره ويؤثر أثره اذا كان العلم من ورائـــه ٠

ولكن أبـا الطيب شاعر الرجولة والبطولة شاعـر المعـارك والمعامع لا يرى أمامه الا الحرب وآلات الطعن والضرب فلا يمكن أن يقول ـ وقد غمرته لذة الانتصار واستولت نشوة الغلب والظفر على لبه وخياله ـ الا مـا قـــال ٠

فقه وادب : يجوز لمن أنعم الله عليه بنعمه وفضله بفضيلة أن يفرح بتلك النعمة ويظهر فرحه بها في معرض حمد الله عليها ، من حيث أنها كرامة من الله لا من حيث أنها مزية من مزاياه فاق بها سواه ، مثلما فعل هذين النبيين الكريمين وكما قال تعالى : « **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا** » وكثيرا ما يكون التفات المرء الى نفسه حاجبا له عن غيره فيذكر من شأنه ما أفرحه ويسكت عن غيره وفيهم من هو مثله ومن يفوقه فقد يجر هذا الى عجب بنفسه وغمط لحق من عداه ، فلهذا كان من أدب مقام الفرح بنعمة الله وحمده عليها ذكر نعمته العامة عليه وعلى غيره والاشارة الى من فضلوا عليه فيكبح من نفسه بتذكيرها بقصورها ويرضى الله باعترافه لذى الفضل بفضله وحكمة اللــه وعـدله وبوقوفه كواحد ممن أنعم عليهم من عبـــاده ٠

ارشاد واشادة : اذكار الانبياء عليهم الصلاة والسلام من حمد وتسبيح وتهليل وغيرها أفضـل الاذكار وأجمعها وأسلمها وقـد اشتمل الكتاب العزيز على كثير منها ، فعلى المسلم الحريص على الخير بها علما وعملا ٠ فقد رأيت ما يحف باظهار الفرح بنعمة الله من مخاطر اذا لم يتنبه لها ، وقد جاء هذا الحمد النبوى محصلا للقصد سالما من كل خطره بعباراته الموزونة الشاملة التى لا يصدر مثلها الا منهم لكمال علمهم وأدبهم عليهم الصلاة والسـلام (1) ٠

---

(1) الشهاب : ج 2 م 15 ـ صفر 1358 هـ مارس 1939 م ٠

الآيــة الثانية وهي 16 من سورة النمــل

« وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ »

الالفاظ والتراكيب : الارث انتقال ما كان للميت الى الحي فيقوم فيه الوارث مقام الموروث سواء أكان مالا أو ملكا او علما أو مجدا، والمراد هنا الملك والنبوة · **عُلمنا** : أعطينا العلم ولم يذكر المعلم ـ وهو الله ـ للعلم به فان هذا التعليم ليس من معتاد البشر ولا من طرقهم · **منطق الطـير** : نطقها وهــو تصويتها وقد يطلق النطق على كل ما يصوت بــه الحيوان ، فالحيوان ناطــق والجماد صامت · **وأوتينا** : أعطينا والنــون فى الفعلين للعظمة اذ هى حالته التى هو عليها · **من كل شيء** : هو على معنى التكثير أو على معنى العموم الحقيقى فيما تقتضيه تلك العظمة مما يؤتاه الانبيــاء والملوك · **الفضل** : الزيادة · **المبين** : الظاهر الذى لا خفاء به ·

المعنى : قام سليمان مقام أبيه داود عليهما الصلاة والسلام فكان فى بنى اسرائيل من بعد نبيا ملكا · وأراد سليمان أن يشهر نعمة الله عليه وينوه بها ويدعو قومه الى الايمان به وطاعته فدعا الناس وذكر لهم ما خصه الله به من علم منطق الطير وعظائم الامور مما هو خارق للعادة معجز للبشر آية على نبوته وتحداهم بذلك الفضل الذى امتاز به عن جميع الناس وهو مشاهد لهم لا يمكنهم انكاره كما لا تمكنهم معارضته ·

فقه وتحقيق : من ميزة الانبياء عليهم الصلاة والسلام انهم يخرجون من الدنيا دون أن يتعلقوا بشيء منها فلا يورثون دينــارا ولا درهمــا وانمــا

يورثون العلـم • وفى الصحيح « انا معاشر الانبياء لا نـورث ما تـركناه صدقة » فلم يرث سليمان من داود مالا وانما ورث ما نوه به من العلـم والملك وما دل عليه ذلك من النبوة وقد خصصه الله بذلك دون بقية اخوانه.

تفرقة : الشيء الموروث ان كان من أمور الدنيا وأعراضها ومتناولات الابدان ومتصرفاتها فانه ينتقل بذاته من الميت الى الحي وينقطع عنه ملك الميت وما كان من صفات الروح فانه لا يفارق الميت ـ لبقاء الروح ـ وانما يقوم الحي مقام الميت فى أداء ما كان يؤديه الميت من أعمال متصفا بمثل ما كان متصفا به الميت متحليا بمثل حليته فارث سليمان للملك هو من المعنى الاول فداود بعد موته لم يبق ملكا وارثه للعلـم والنبوة هو مـن المعنى الثانى فداود بعد موته على علمه ونبوته •

تفرقة أخرى : اذا كان الموروث مالا فانه يستحق بالقرابة شرعا واذا كان علما أو نبوة أو ملكا فانها لا تستحق بها فلم يرث سليمان من داوود ما ورثه منه لانه ابنه • وانما كان ذلك تفضلا من الله ونعمة ولهذا لما دعا سليمان الناس لم يذكر لهم أبوة داوود وانما ذكر لهم ما كان به أهلا لمقامه مما خصصه الله به من علم وقوة ومظاهر الملك ومعجزة النبوة •

عجائب الخلقة وحكمة العربية : للحيوانات كلها فهم وادراك وأصوات تدل بها على ما فى نفسها وتتفاهم بها أجناسها بعضها عن بعض، ومن تلك الاصوات ما يكون أخفى من أن يصل اليه سمعنا ومنها ما نسمعه، ومما نسمعه ما نفهم مرادها به ومنه ما لا نفهمه فلا نسمع صوت النملة ولكننا نسمع صوت الهرة ـ مثلا ـ ونميز بين صوتها الذى تدل به على غضبها وصوتها الذى تدل به على طلبها • وفى مملكة النمل ومملكة النحل ـ مثلا ـ من النظام والترتيب والتقدير والتدبير ما لا يبقى منه شك فيما لهذه الحيوانات من ادراك وتمييز وما بينها من تفاهم ، بل كثير من الحيوانات تصير بالترويض تفهم عنا كثيرا من العبارات والاشارات وتأتى بالاعمال العجيبة طبق ما يراد منها وتدل عليه • فهذا أصل ما بلغت اليه مـن ادراكها ونطقها اللذين اخبرنا بهما القرآن ، وتلك الغاية من الادراك والنطق لا سبيل لنا اليها لاختلاف الخلقة

وجهل مدلولات الاصوات ، وقد ادركها سليمان (ص) بتعليم من اللـه كرامة له وآية على نبوته ومعجزة للناس ٠

فمن حكمة اللغة العربية الشريفة ان سمت أصوات الحيوانات نطقا كما سمت ـ في المتعارف ـ اللفظ الذى يعبر به عما فى الضمير نطقا ٠ لان الاصوات لغير الانسان تقوم مقام الالفاظ للانسان ، فهى طريق تفاهمها ، وطريق فهم ما يمكن لانسان فهمه عنها ٠ فلله هذه اللغة ما اعمق غورها وما أدق تعبيرها ٠

نظر وايمان : قد شوهد بالعيان فى أنواع من الحيوانات حسن تدبيرها لامر معاشها ودقة سعيها فى جلب منافعها ودفع مضارها فمن الجائز ان يصل ادراكها بالفطرة الى ما وراء ذلك من وجود خالقها ورازقها ٠ وهذا هو الذى اخبرنا به القرآن فى هذه الآيات من أمر النملة وأمر الهدهد الآتيين من بعد ٠ فنحن به مؤمنون لجوازه عقلا وثبوته سمعا ، مثل سائر السمعيـات ٠

تمييز : قد شارك الحيوان الانسان فى الادراك والتمييز وبلغ ادراكه الى معرفة وجود خالقه ورازقه ولكن الانسان يمتاز عنه بقوة التحليل والتركيب لكل ما يصل اليه حسه وادراكه وتطبيق ذلك على كل ما تمتد اليه قدرته ويكون فى متناول يده ، فمن ذلك التركيب والتحليل والتطبيق تغلب على عناصر الطبيعة وتمكن من ناصيتها واستعمل حيوانها وجمادها فى مصلحته ورقى أطوار التقدم فى حياته ولفقد الحيوان غير الانسان هذه القوة بقى فى طور واحد من حياته ومعيشته، فادراك الحيوان فطرى الهامى يعطاه من أول الخلقة والانسان يعطى أصل الادراك الاجمالى، ثم بتلك القوة يتسع أفق ادراكه ويستمر فى درجات التقدم وهذه القوة التى يمتاز بها الانسان هى العقل وهى التى ساد بها هذا العالم الفانى ٠

توجيه : ذكر سليمان عليه الصلاة والسلام منطق الطير وهو قد علم منطق غير الطير أيضا فقد فهم نطق النملة ذلك لان الحيوانات غير الانسان مراتب : الزاحفة ، والماشية والطائرة وأشرفها الطائرة،فاقتصر على الطير تنبيها بالأعلى على الأدنى ٠

تنزيه وتبيين : عبر سليمان عليه الصلاة والسلام عن نفسه بنون العظمة ونوه بذلك الفضل المبين وما كان عليه السلام ليتعظم بسلطان ولا ليتطاول بفضل فالانبياء عليهم الصلاة والسلام أشد الخلق تواضعا لله وأرحمهم بعباده وانما أراد تعظيم نعمة الله فى عيون الناس وتفخيم ملك النبوة فى قلوب الرعية ليملأ نفوسهم بالجلال والهيبة فيدعوهم ذلك الى الايمان والطاعة فينتظم الملك ويهنا العيش وتمتد بهم أسباب السعادة الى خير الدنيا والآخرة ، وهذا هو الذى توخاه سليمان عليه الصلاة والسلام من المصلحة باظهار العظمة ولذا لم يقل : علمت • ولا لى وعندى من كل شيء ولم يقل فضل فهو فضل من علمه وأتاه فضله به عمن سواه •

ترغيب واقتداء : يذكر الله تعالى لنا فى شان هذا النبى الكريم ما أعطاه من علم وما مكنه منه من عظيم الاشياء ترغيبا لنا فى طلب العلم والسعى فى تحصيل كل ما بنا حاجة اليه من أمور الدنيا وتشويقا لنا الى ما فى هذا الكون من عوالم الجماد وعوالم الاحياء وبعثا لهممنا على التحلى بأسباب العظمة من العلم والقوة وحثا لنا على تشييد الملك العظيم الفخم على سنن ملك النبوة،فقد كان سليمان عليه الصلاة والسلام نبيا وما كان ملكه ذلك الا باذن الله ورضاه ، فهو فيما ذكره الله من أمره قدوة وأى قدوة مثل سائر الانبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين •(*)

(*) الشهاب : ج 3 م 15 ـ ربيع الاول 1358 ، افريل 1939 م •

الآيـة الثالثة وهي 17 مـن سورة النمـل

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ »

الالفاظ والتراكيب : الحشر : الجمع من أماكن متفرقة ٠ **جنوده** : هم المنتظمون فى سلك عسكريته فجمعوا له عند الحاجة اليهم فى سفر أراده٠ **يوزعون** : يكفون عن الخروج عن النظام فى السير فيمنع أولهم من سبق آخرهم وآخرهم من التاخر عن سابقهم ويمنعون عن الخروج عن الصفوف الى اليمين أو الشمال لان وزعه عن الشيء معناه كفه عنه،وفى ترتيب الجنود فى الذكر مراعاة الاقوى وأعلاهم فى ذلك الجن ، ثم الانس ثم الطير، وفى عطف الجملة الثانية بالفاء افادة سرعة الانتظام بعد الاجتماع ، وفاعـل حشرهم الاعوان الحاشرون،وفاعل وزع هم الضباط المنظمون ٠

المعنى : كان لسليمان عليه الصلاة والسلام من الجن والانس والطير جنود معينون معروفون يتركب منهم عسكره يكونون متفرقين فاذا عرض أمر جمعهم ، وكان له أعوان يعرفون أولئك الجنود ويعرفون أماكنهم فهم الذين يجمعونهم عند الحاجة اليهم فأراد سليمان أن يسافر فأمر أعوانه بجمع الجنود فجمعوهم له فلما اجتمعوا تولى رؤساؤهم تنظيم أمرهم فساروا مع سليمان فى كثـرة ونظام يتـولى أولئـك الرؤساء تنظيمهم فى سيرهم ويمنعونهم من الخروج عن النظام ٠

تفصيل : كما أن للانس من يعرفهم من أعوان سليمان ومن ينظمهم من رؤسائهم كذلك يكون للجن وكذلك يكون للطير،وسلطة سليمان على الجن

وتسخيره لهم وسلطته على الطير وفهمه لها وفهمها عنه معجزة له وخصوصية ملك لم ينبغ لأحد من بعده ·

تاريخ وقدوة : تفيدنا الآية صورة تامة لنظام الجندية فى ملك سليمان فقد كان الجنود يسرحون من الخدمة ويجمعون عند الحاجة ، وكانت أعيانهم معروفة مضبوطة،وكانت لهم هيئة تعرفهم وتضبطهم وتجمعهم عند الحاجة،وكان لهم ضباط يتولون تنظيمهم،وكان النظام محكما لضبط تلك الكثرة ومنعها من الاضطراب والاختلال والفوضى ·

تعرض علينا الآية هذه الصورة التاريخية الواقعية تعليما لنا وتربية على الجندية المضبوطة المنظمة،ولا شك أن الخلفاء الاولين قد عملوا على ذلك فى تنظيم جيوشهم ، وأن مثل هذه الآية كان له الاثر البليغ السريع فى نفوس العرب لما أسلموا فسرعان ما تحولوا الى جنود منظمة مما لم يكن معروفا عندهم فى الجاهلية،وبقيت الآية على الدهر مذكرة لنا بأن النظام اساس كل مجتمع واجتماع،وأن القوى والكثرة وحدها لا تغنيان بدون نظام،وان النظام لابد له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه وأولئك هم الوازعون ·

طبيعة وشريعة : فى عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان نجد الطبيعة ــ بصنع الله ــ تستخلص الاعلى من الادنى والاقوى من الاضعف فتجد الممتاز فى أصل الخلق وبانتخاب الطبيعة فى هذه العوالم الثلاث كما تجد الذهب.فى المعدن وتجد الزهر والثمر فى النجم والشجر وتجد الملكة من النمل والنحل مثلا فالانسان لم يخرج عن هذا القانون الطبيعى ففيه الممتازون الذين يحتاج اليهم النوع الانسانى فى صلاح حاله ومآله ومنهم الذين يتولون حكمه وتنظيمه فى أممه ومجتمعاته وجماعاته،فالهيئة الحاكمة والافراد المنظمون والقادة المسيرون من ضروريات المجتمع الانسانى ومقررات الشرع الاسلامى مثل ما فى هذه الآية من أمر الوازعين ، ولما ولى الحسن البصرى القضاء قال لابد للسلطان من وزعة أى أعوان يكفون الناس عن الشر والفساد ويتولون تربيتهم وتنظيمهم · وفى رواية : لابد للناس من وازع أى كاف يكف بعضهم عن بعض وهو الحاكم وأعوانه ،

وفي حديث ذكره أهل الغريب : «من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن» ومعناه : أن من يكفهم عن الشر خوف السلطان وعقابه الدنيوى أكثر ممن يكفهم عن الشر الوعد والوعيد فى القرآن وقد قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » ·

الآيــة الرابعة وهى 18 من سورة النمــل

« حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

الالفاظ والتراكيب : أتوا على واد النمل : هبطوا اليه من مكان أعلى منه وهو بالشام أو الحجاز لم تتوقف العبرة على تعيينه فلم يعين · وأضيف للنمل لكثرته فيه · **نملة :** لفظها مؤنث ومعناها محتمل مثل شاة وحمامة · **مساكنكم :** هى قرى النمل التى يسكنها تحت وجه الارض المحكمة الوضع والتركيب والتقسيم ، ولذلك قيــل فيها مساكـــن ولم يقــل غــيران · **لا يحطمنكم :** لا يكسرنكم بالحوافر والاقــدام · **لا يشعرون :** لا يحســون بوجودكم ·

الاتيان باذا وجوابها لافادة أن قولها كان بسبب اتيانهم عند أول ما أتوا · لايحطمنكم نهتهم عن أن يحطمهم والحطم ليس من فعلهم حتى ينهوا عنه وانما المعنى لا تكونوا خارج مساكنكم فيحطمكم فنهتهم عن المسبب والمراد النهى عن السبب لما فى ذلك من الايجاز المناسب لسرعة الانـــذار وسرعة النجاة · ولما فى ذكر المسبب وهو الحطم من التخويف الحامل على الاسراع الى الدخول · والجملة مؤكدة للاولى فكانها قالت ادخلوا مساكنكم لا تبقوا خارجها ونظير التركيب فى التعبير بالمسبب عن السبب لا أرينك ههنا أى لا تكن هنا فاراك ·

المعنى : سار سليمان عليه الصلاة والسلام فى تلك الجنود العظيمة يحيط به الانس والجن وتظلهم الطير حتى هبطوا على وادى النمل فرآتهم كبيرة النمل وقائدته فصاحت فى بنى جنسها فنادتهم للتنبيه وارشدتهم الى طريق النجاة بأمرهم بالدخول فى مساكنهم وحذرتهم من الهلاك بحطم سليمان وجنوده لهم عن غير شعور منهم، فلا يكون اللوم عليهم وانما اللوم على النمل اذا لم يسرع بالدخول ٠

عبـرة وتعليم : عاطفة الجنسية غريزة طبيعية فهـذه النملة لم تهتم بنفسها فتنجـو بمفردها ولم ينسها هـول ما رات من عظمة ذلك الجند انذار بنى جنسها اذ كانت بفطرتها أن لا حياة لها بدونهم ولا نجاة لها اذا لم تنج معهم ، فانذرتهم فى أشد ساعات الخطر أبلـغ الانذار ، ولم ينسها الخوف على نفسها وعلى بنى جنسها من الخطر الداهم أن تذكر عذر سليمان وجنـــــده ٠

فهذا يعلمنا أن لا حياة للشخص الا بحياة قومه ولا نجاة له الا بنجاتهم وأن لا خير لهم فيه الا اذا شعر بانه جزء منهم ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها.

واجب القائد والزعيم : هذه النملة هى كبيرة النمل فقد كان عندها من قوة الاحساس ما أدركت به الخطر قبل غيرها فبادرت بالانذار فلا يصلح لقيادة الامم وزعامتها الا من كان عنده من بعد النظـر وصـدق الحدس وصائب الفراسة وقوة الادراك للامـور قبل وقوعها ما يمتاز به عن غيره ويكون سريع الانذار بما يحس وما يتوقع ٠

عظة بالغـة : هذه نملة وفـت لقومها وأدت نحوهم واجبها ، فكيف بالانسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه ! هذه عظة بالغة لمن لا يهتـم بامور قومه ولا يؤدى الواجب نحوهم ولمن يرى الخطر داهما لقومه فيسكت ويتعامى ولمن يقود الخطر اليهم ويصبه بيده عليهم ، آه ما أحوجنا ـ معشر المسلمين الى أمثال هذه النملة !

الآيـة الخامسة وهي 19 من سورة النمـل

« فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّـنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيَ أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّالِحِينَ » .

الالفاظ والتراكيب : التبسم : انفراج الشفتين عن الانسان وقد يكون للغضب وقد يكون للسخرية وقد يكون للضحك وهو الاكثر وهو بدايته، ولهذا قيد بضاحكا . **اوزعني ان اشكر** : الهمني شكر نعمتك وتحقيقه في اللغة والتصريف انك تقول : وزعت الشيء أي كففته واوزعني الله الشيء أي جعلني ازع ذلك الشيء أي أكفه كما تقول ركبت الفرس وأركبني زيد الفرس اى جعلني اركبه، فاوزعني شكر نعمتك أي اجعلني ازع اى أكـف شكر نعمتك اى أمنعه من أن يذهب عني وينفلت مني، فالمقصود اجعلني ملازما لشكرك فلا انفك لك شاكرا . **نعمتك** : عام يشمل كل نعمـة لله عليه وعلى والديه . **وأن اعمل** : معطوف على أن أشكر فيقدر مثل تقديره كما تقدم . **ترضاه** : وصف مـؤكد وقد يكون للتقييد عـلى ما سيأتي لان العمل الصالح مرضى عنه الله وانما ذكر الوصف ليفيـــد ان رضى الله مقصود بالعمل الصالح . **أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّالِحِينَ** : اجعلني معهم ، وأكمل الصالحين الانبياء المرسلون صلى الله عليهم أجمعين وتحقيقه أن الصالحين بما امتازوا به من كمال صاروا كأنهم في حمى خاص بهـم لا يدخل عليهم فيه الا من كان مثلهم، فلهم مقامهم في الرفيق الاعلى، ولهم منازلهم في الجنة، ولهم ذكرهم الطيب عند الله وعند العباد، وهذه المنازل والمقامات لا يدخلها العبد الا برحمة من الله بتيسير لأسبابها وتفضل عظيم.

المعنـى : لما سمع سليمان عليه الصـلاة والسلام كلام النملة تبســم تبسم السرور والتعجب من قولها وطلب من ربه تعالى أن يلهمه شكر ما أنعم به عليه وعلى والديه وأن يلهمه عملا صالحا ينال به رضاه، وطلب منه تعالى أن يجعله في الصالحين بأن يثبت اسمه بينهم ويقرن ذكره بذكرهم ويلحقه بهم ويسكنه الجنة معهم بما يغمره به من رحمته وفضله واحسانه .

توجيه : صدور ذلك الانذار البليغ من مثل تلك النملة في ضعفها وصغرها طريف مستظرف ككل شيء يصدر من حيث لا ينتظر صدوره ، فهذا مبعث تعجب سليمان عليه الصلاة والسلام، وشهادة النملة له ولجنوده بأنهم لو وطئوا النمل لوطئوه عن غير شعور، فهم لرحمتهم وشفقتهم وارتباطهم بزمام التقوى وأخذهم بالعدل لا يتعمدون التعدى على أضعف المخلوقات العجماء ·

هذه الشهادة أدخلت السرور على سليمان عليه الصلاة والسلام لما دلت عليه من ثبوت هذا الوصف العظيم له ولجنده وظهوره منهم واشتهارهم به كما بعث سروره شعوره بما آتاه الله من الملك العظيم والعلم الذى لم يؤته غيره حتى فهم به ما همست به النملة وهى من الحكم الذى ليس له صوت يستبان فى حال من الاحوال ·

أدب من سرته النعمة : نعم الله على العبد تدخل عليه السرور بجبلة الفطرة،والفرح بنعمة الله من الاعتراف بفضله والاكبار لنواله،ومن أدب العبد حينئذ أن يسأل الله التوفيق بشكر تلك النعمة بصرفها فى الطاعة والتوفيق لشكرها بما يقوم به من أعمال صالحة فى رضى الله،كما فعل سليمان عليه الصلاة والسلام ·

النعمة المزدوجة : اذا أنعم الله على الابوين بنعمة الايمان والصلاح فهى نعمة على ولدهما اذا اتبعهما وتكون تلك النعمة من الله عليهما سيما فى حسن تربيتهما له وتوجيهه فى الوجهة الصالحة كما أن نعمة الله على الولد هى نعمة على والديه فهو من أثرهما ومثل حسناته فى ميزانهما لانهما أصل ذلك وسببه،ويدعو له الناس فيدعون لهما،ويدعو هو لهما،وقد يؤذن له فيشفع لهما ، فالنعمة على الوالد أو على الولد هى نعمة مزدوجة بينهما،ولهذا ذكر سليمان عليه الصلاة والسلام نعمة الله على والديه مع نعمته عليه ·

الغاية المطلوبة : ان شعور العبد برضى الله عنه هو أعظم لذة روحية تعجز عن تصويرها الالسن،واحلال الرضوان على أهل الجنة أكبر من كل ما فى الجنة من نعيم · فالغاية التى يسعى اليها الساعون ويعمل لها

العاملون هى رضى الله فالعمل الصالح ترتضيه العقول وتستعذبه الفطر ، ولكنه لا يفيد صاحبه اذا لم يبلغ به مرضاة الله ولهذا قال سليمان عليه الصلاة والسلام : ترضاه ٠

جمع وتحقيق : قال الله تعالى : « أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » فأفاد أن الاعمال سبب فى دخول الجنة ٠ وفى هذه الآية « وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ » فأفاد ان الدخول بالرحمة ولا منافاة ما بينهما فالاعمال سبب شرعى لدخول الجنة والهداية اليه والتوفيق فيه وقبوله هو رحمة من الله ٠ والعمل من حيث ذاته لا يستحق على الله جزاء لانه لا ينتفع به اذ هو الغنى عن خلقه وانما تفضل فجعله سببا فى نيل ثوابه ٠ ثم تفضل فجعل الجزاء مضاعفا الى عشر الى أضعاف كثيرة الى الموفى للصابرين بغير حساب ٠

دقيقة روحية : ان الارواح النورانية الطاهرة السامية لا لذة لها حقيقية فى هذا العالم الفانى المادى المنحط ، وانما لذتها الحقيقية فى عالمها العالى الأقدس، وفى الرفيق الاعلى الاطهر، وفى معاشرة امثالها من النفوس الطيبة الزكية ٠ فى ذلك القدس الاسنى ٠ فهى دائمة الشوق اليه والانجذاب نحوه، ولذا كان من دعوات الانبياء عليهم الصلاة والسلام الدخول فى الصالحين واللحوق بهم، مثل قول سليمان هنا وقول ابراهيم : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » ٠ وقول يوسف : « تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » ٠

وفقنا الله لشكر ما من به من سابق النعمة وللقيام فيما بقى من العمر بواجب الخدمة وختم لنا باللحوق بعباده الصالحين ٠

الشهاب : ج 4 م 15 ـ ربيع الثانى 1358 هـ ماى 1939 م ٠

الآيـة السادسة وهى 20 من سورة النمـل

«وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ»

الالفاظ والتراكيب : تفقـد : التفقد تطلبك ما فقـدته وغاب عنـك وتعرفك أحواله . **لا أرى :** لا أبصر . **الهدهد :** هو « تبيب » وهو طائر صغير الجرم منتن الريح ليس من كرام الطير ولا من سباعها . **مالى لا أرى :** استفهم عما حصل له فمنعه من الرؤية حيث ظن أولا أن الهدهد كان حاضرا وانما هو لم يره . **أم كان من الغائبين :** استفهم عن غيبته حيث ظن ثانيا أنه غائب فاستفهم عن صحة ما ظن ، فكلمة أم فيها اضراب وفيها استفهام فاضرب اضراب انتقال من ظن الى ظن . كان من الغائبين . تعريض بقبح فعله لما انحط عن شرف الحضور وكان من الغائبين .

المعنى : تطلب سليمان عليه السلام معرفة ما غاب عنه من أحوال الطير فلم ير الهدهد وأخذ يتساءل فظن أن شيئا ستره عنه فلم يره ، ولما لم يكن شيء من ذلك ظن أنه كان غائبا غير حاضر وذلك هو الظن الاخير الذى حصل بـه اليقـين .

تعليم وقدوة : من حق الرعية على راعيها أن يتفقدها ويتعرف أحوالها اذ هـو مسؤول عـن الجليل والدقيق منها ، يباشر بنفسه مـا استطاع مباشرته منها ويضع الوسائل التى تطلعه عـلى ما غاب عليه منها وينيط بأهل الخبرة والمقدرة والامانة تفقد أحوالها حتى تكون أحوال كل ناحية معروفة مباشرة لمن كلف بها . فهذا سليمان على عظمة ملكه واتساع جيشه وكثرة أتباعه قد تولى التفقد بنفسه،ولم يهمل أمر الهدهد على صغره وصغر

مكانه ، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لو أن سخلة بشاطىء الفرات ياخذها الذئب ليسأل عنها عمر. وهذا التفقد والتعرف هو على كل راع فى الامم والجماعات والاسر والرفاق وكل من كانت له رعية ۰

تعليل وتحليل : تفقد سليمان جنس ما معه من الطير للتعرف كما ذكرنا وذكر الطير لانه هو الذى تعلقت به القصة وليس فى السكوت عن غير الطير ما يدل على أنه لم يتفقده،فالتفقد لم يكن للهدهد بخصوصه،وانما لما تفقد جنس الطير فقده ولم يجده فقال ما قال ، فلا وجه لسؤال من سال : كيف تفقد الهدهد من بين سائر الطير ؟

تدقيق لغوى وغوص علمي : سال سليمان عن حال نفسه فقال : ما لى لا أرى الهدهد ولم يسال عن حال الهدهد فيقل ما للهدهد لا أراه فذكر حال نفسه قبل أن ينكر حال غيره ۰ فنقل الحافظ الامام ابن العربى عن الامام عبد الكريم بن هوازن القشيرى شيخ الصوفية فى زمانه قال : « انما قال ما لى لا أرى لانه اعتبر حال نفسه ذا علم أنه أوتى الملك العظيم وسخر له الخلق فقد لزمه حق الشكر باقامة الطاعة وادامة العمل ، فلما فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصر فى حق الشكر فلأجله سلبها فجعل يتفقد نفسه فقال:ما لي ۰ وكذلك تفعل شيوخ الصوفية اذا فقدوا آمالهم ، تفقدوا أعمالهم هذا فى الآداب فكيف بنا اليوم ونحن نقصر فى الفرائض ۰

توجيه : مثل هذه المعانى الدقيقة القرآنية الجليلة النفسية من مثل هذا الامام الجليل من أجل علوم القرآن وذخائره،اذ هى معانى صحيحة فى نفسها،ومأخوذة من التركيب القرآني أخذا عربيا صحيحا،ولها ما يشهد لها من أدلة الشرع ۰ وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح مقبول ۰ ومنه فهم عمر وابن عباس رضى الله عنهما أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة النصر ۰ أما ما لم تتوفر فيه الشروط المذكورة وخصوصا الاول والثاني ـ فهو الذى لا يجوز فى تفسير كلام الله وهو كثير فى التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية كتفسير ابن عبد الرحمن السلمى من المتقدمين والتفسير المنسوب لابن عربى من المتاخرين ۰

الآيــة السابعة وهي 21 من سورة النمــل

« لَأُعَذِّبَنَّهُ عَـذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِـــينٍ »

الالفاظ والتراكيب : عذابا شديدا : بنتف ريشه هكذا فسره ابن عباس وجماعة من التابعين • **بسلطان مبين** : بحجة قاطعة توضح عذره في غيبته ، سميت الحجة سلطانا لما لها من السلطة على العقل في اخضاعه افادت أو ان المحلوف على حصوله هو أحد الثلاثة فاذا حصلت الحجة فلا تعذيـــب ولا ذبح ولو لم تحصل لفعل أحدهما وقدم التعذيب لانه أشد من القتل وحالة الغضب تقتضى تقديم الاشد •

المعـــنى : يقسم سليمان على معاقبة الهدهد ـ وقد تحقق غيبته ـ بالتعذيب أو بالذبح اذا لم ياته بالحجة التى تبين عذره فى تلك الغيبـة ولا يستثنى للعفو ولا يجعل سببا لسلامته من العقوبة الا الحجة •

توجيه واستنباط : ليس فى الآية ما يفهم خصوص نتف الريش من لفظ العذاب الشديد ، وانما فهم ابن عباس رضى الله عنهما وأئمة مـن التابعين ذلك بالنظر العقلى والاعتبار فان نتف ريشه يعطل خاصية الطيران فيه فيتحول من حياة الطير الى حياة دواب الارض وذلك نوع من المسخ وقد علم أن المسخ فى القرآن اشنع عقوبة فى الدنيا،فلهذا فسروا العـــذاب الشديد بنتف الريش،والانسان خاصيته التفكير فى أفق العلم الواسـع الرحيب،فمن حرم انسانا ـ فردا أو جماعة ـ من العلم فقد حرمه مـــن خصوصيته ـ الانسانية وحوله الى عيشة العجماوات وذلك نوع من المسخ فهو عذاب شديد وأى عذاب شديد ؟ •

صرامة الجندية : كان هذا الهدهد من جنود سليمان ، التى حشرت له وقد كان فى مكانه الذى عين له واقيم فيه فلما فارق وترك الفرجة فى صفه وأوقع الخلل فى جنسه استحق العقاب الصارم الذى لا هوادة فيه ، وهذا اصل فى صرامة أحكام الجندية وشدتها لعظيم المسؤولية التى تحملتها

وتوقف سلامة الجميع على قيامها بها ، وعظم الخطر الذى يعم الجميع اذا اخلت بها ·

تقدير العقوبة : جرم الهدهد صغير وما كلف الا بما يستطيعه من الوقوف فى مكانه والبقاء فى مركزه ، ولكن جرمه باخلاله بهذا الواجب كان جرما كبيرا،فان الخلل الصغير مجلبة للخلل الكبير،فقدرت عقوبته على حسب كبر ذنبه لا على حسب صغر ذاته ·

تنبيه وارشاد : كل واحد فى قومه أو فى جماعته هو المسؤول عنهم من ناحيته مما يقوم به من عمل حسب كفاءته واستطاعته فعليه أن يحفظ مركزه ولا يدع الخطر يدخل ولا الخلل يقع من جهته فانه اذا قصر فى ذلك وترك مكانه فتح ثغرة الفساد على قومه وجماعته وأوجد السبيل لتسرب الهلاك اليهم · وزوال حجر صغير من السد المقام لصد السيل يفضى الى خراب السد بتمامه،فاخلال أى أحد بمركزه ولو كان أصغر المراكز مؤد الى الضرر العام · وثبات كل واحد فى مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر النظام والتضامن وهما أساس القوة ·

الحق فوق كل أحد : لقد أغضب سليمان غياب الهدهد فلذا توعده هذا الوعيد واكده هذا التأكيد · ولكن سلطان سليمان فى قوته وملكه ومكانته يجب ان يخضع لسلطان آخر هو اعظم من سلطانه : هو سلطان الحق ، والحق فوق كل أحد · وملك سليمان ملك حق فلابد له من الخضوع لسلطان الحجة ليقيم ميزان العدل ، والعدل أساس الملك وسياج العمران (1) ·

---

(1) الشهاب ــ ج 5 ، م· 15 ــ جمادى الاولى 1358 هـ ــ جوان 1939 م ·

الآيــة الثامنة وهى 22 من ســورة النمـل

« فَمَكُثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ »

الالفاظ والتراكيب : مكث : أقام ، وقرأ عاصم بفتح الكاف • **غـير** : صفة زمان محذوف • فالتقدير زمان غير بعيد فاعل مكث هو الهدهد مثل فاعل قال الآتى • **احطت** : الاحاطة بالشىء ، عقليا هى العلم به من جميع نواحيه • **سبا** : اسم مدينة باليمن سميت باسم سبا جد العرب اليمانية حمير وغيرها وصرفه الجمهور على اعتبار المكان ومنعه من الصرف المكـى والبصرى على اعتبار البلدة • **بنبإ** : النبا ، الخبر الذى له شان وخطورة • **واليقين** : المحقق جعله نفس اليقين مبالغة فى تحققه • وفى الكلام ايجاز بالحذف اذ المعنى فجاء الهدهد فساله سليمان عليه الصلاة والسلام عن سبب مغيبه فقال •

المعنى : لم تطل غيبة الهدهد عن مركزه فى جنود سليمان فلم يلبث فى غيبته الا زمانا قصيرا • وكان سؤال سليمان له عن غيبته فور رجوعه فاسرع بالجواب والاعتذار عن الغيبة والدفاع عن نفسه فقال : اطلعت على شىء لم تطلع أنت عليه وعرفته من جميع نواحيه،وقد أتيتك من بلـــدة سبأ بخبر خطير ذى شان عظيم تيقنته غاية اليقين •

توجيه واستنباط : كان فى جواب الهدهد حجة بينة لسبب غيابه • وذلك لانه لم يذهب عابثا ولا لغرض خـاص بـه ، وانما ذهـب مستطلعا مكتشفا فحصل علما وجاء بخبر عظيم فى زمن قصير، فرجحت هذه الفوائد العظيمة بتركه لمركزه فى الجند فسقطت عنه المؤاخذة • فان قيل ان أصل مفارقته لمركـزه دون استئذان كان مخالفـة يستوجب عليها المقـوبة •

فالجواب ان هذه المخالفة كانت لقصد حسن وهو الاستطلاع وأثمرت خيرا فاستحق العفو عن تلك المخالفة التى كانت عن نظر ولم تكن عن تهاون وانتهاك للحرمة ·

فان قيل ما الذى أوقع فى نفس الهدهد رغبته فى طلب ما طلب ؟ فالجواب انه يجوز ان يكون شاهد عمران اليمن من مكان بعيد ببصره الحاد فرغب في المعرفة أو أن يكون قد مر باليمن من قبل ولم يتحقق من حالها فاراد أن يتحقق · وهذه الآية مأخذ من مآخذ الاصل القائل : ان المخالف للامر عن غير انتهاك للحرمة لا يؤاخذ بتلك المخالفة · ومن فروع هذا الاصل سقوط الكفارة عمن أفطر فى رمضان متعمدا متأولا تأويلا قريبا ·

عزة العلم وسلطانه : ابتدأ الهدهد جوابه معتزا بما أحاط به من العلم متجملا بما حصل منه مظهرا لارتفاع منزلته به متحصنا به من العقاب · ولم تمنعه عظمة سليمان عليه الصلاة والسلام من اظهار علمه واعلان اختصاصه به دون سليمان ·

أدب واقتداء : قد سمع سليمان هذا ، من الهدهد واقره عليه فللصغير أن يقول للكبير وللحقير أن يقول للجليل علمت ما لم تعلم وعندى ما ليس عندك اذا كان من ذلك على يقين وكان لقصد صحيح · ومن أدب من قيل له ذلك ولو كان كبيرا جليلا أن يتقبل ذلك ولا يبادر برده وعليه أن ينظر فيه ليعرف مقدار صدق قائله فيقبله أو يرده بعد النظر والتأمل اذ قد يكون فى أصغر مخلوقات الله تعالى وأحقرها من يحيط علما بما لم يحط مثل سليمان عليه الصلاة والسلام فى علمه وحكمته واتساع مدركاته · وكفى بمثل هذا زاجرا لكل ذى علم عن الاعجاب بعلمه والاغترار بسعة اطلاعه والترفع عن الاستفادة ممن دونه ·

مدرك عقيدة : لا يعلم أحد من الانبياء عليهم الصلاة والسلام شيئا مما غاب عنه الا باعلام الله فليس لهم كشف عام عن جميع ما فى الكون وانما يعلمون منه ما أطلعهم الله عليه · ومن مدارك ذلك هذه القصة فان سليمان عليه الصلاة والسلام لم يكن يعلم من مملكة سبأ شيئا حتى اطلعه

الله عليه بواسطة الهدهد،واذا كان هذا حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام فغيرهم من عباد الله الصالحين من باب أحرى وأولى ٠

تحقيق تاريخي : رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة ومعظمها من الاسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير مما تلقي من غير تثبيت ولا تمحيص من روايات كعب الاحبار ووهب ابن منبه. وروى شيئا من ذلك الحاكم في مستدركه، وصرح الذهبي ببطلانه ومن هذه المبالغات الباطلة أنه ملك الارض كلها مشارقها ومغاربها فهذه مملكة عظيمة بسبا كانت مستقلة عنه ومجهولة لديه على قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمته بالشام ٠ (*)

(*) الشهاب : ج 6 م 15 ـ جمادى الثانية 1358 هـ ، جويلية 1939 م ٠

الآيـة التاسعة وهي 23 من سورة النمـل

« إِنِّى وَجَدْتُ امْـرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُـلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ »

الالفاظ والتراكيب : وجدت : أصبت · **امرأة :** هـي بلقيس باجماع المفسرين والمؤرخين · **تملكهم :** تتولى أمرهم ملكـة عليهم وعبر بالمضارع تصويرا للحال العجيب وهو أن تتولى ملكهم امرأة · وعاد الضمير على سبأ ضمير جمع مذكر على معنى القوم · اذ كانوا يسمون باسم أبيهم فـذكر لفظ سبأ أولا بمعنى المدينة وأعيد عليه الضمير بمعنى القوم على أسلوب الاستخدام · **من كل شيء :** لفظ عام أريد به كل ما تحتاج اليه من أشياء الملك والسلطان والقوة والعمران · **عرش :** هو سرير الملك الذى تجلس عليه · **عظيم :** في كبره وقوته وحسنه ·

المعنى : يقول الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام مبينا الخبر العظيم الذى جاء به : انى وجدت أولئك القوم الذين يسكنون تلك المدينة قـد جعلوا امراة ملكة عليهم وقد أعطيت تلك الملكة كل ما تحتاج اليه في نظام ملكها وعظمته ومن مظاهر تلك العظمة السرير العظيم الذى تجلس عليه بين أهل مملكتها ·

عظمـة المملكة العربية اليمنية : كانت بلقيس ملكـة عـلى اليمن في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد وقد كانت ملكة عظيمة على مملكة عظيمة راقية ، والهدهد الذى شاهد ملـك سليمان وعظمته قـد استعظم ملكها وعرشها وعظمة العرش عنوان عظمة الملك فلذا خصصه الهدهد بالذكر ورغب سليمان في الاتيان به ·

تفوق العرب على الاسرائيليين : كل ذلك الرقي وتلك العظمة بلغتهما المملكة العربية بنفسها من تفكيرها وعملها مـن قرون بعيدة · فأما الاسرائيليون

وهم اذ ذاك فى القرن الخامس من تاريخهم ـ فانهم لم يبلغوا فى ذلك العهد الى شيء من ذلك. وما كان لسليمان من بناءات ومنشآت فهو مما صنعته له الجن والشياطين كما جاء في آيات من القرآن عديدة، ولم يترك بنو اسرائيل من الآثار ما يدل على شيء ذى بال من الفن والقوة، فأما ما تركته اليمن فهو شيء كثير قائم مشاهد، والاكتشافات ما زالت تظهر منه شيئا فشيئا .

ولاية المرأة الملك : ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » قاله لما بلغه أن الفرس ملكوا عليهم امرأة . فاقتضى هذا أن لا تلي المرأة ولاية ولا أمارة ولا قضاء، وأيدت هذا النص الصحيح السنة العملية فأخذ بـه جمهور أئمـة المسلمين وجاءت روايات عليلة عن بعضهم لم يلتفت اليها ولم يعمل بها .

تعليل : لا تصلح المرأة للولاية من ناحية خلقتها النفسية فقد اعطيت مـن الرقـة والعطف والرأفة ما أضعف فيها الحـزم والصرامة اللازمين للولاية . وفى اشتغالها بالولاية اخلال بوظيفتها الطبيعية الاجتماعية التى لا يقوم مقامها فيها سواها وهى القيام عـلى مملكة البيت وتدبـير شؤونه وحفظ النسل بالاعتناء بالحمل والولادة وتربية الاولاد .

دفع اعتراض : فى تواريخ الامم نساء تولين الملك ومن المشهورات فى الامم الاسلامية شجرة الدر فى العصر الايوبى، ومنهن من قضت آخر حياتها فى الملك وازدهر ملك قومها فى عهدها ، فما معنى نفى الفلاح عمن ولوا أمرهم امرأة .

هذا الاعتراض بامر واقع ولكنه لا يرد علينا ، لان الفلاح المنفى هـو الفلاح فى لسان الشرع وهو تحصيل خير الدنيا والآخرة، ولا يلزم من ازدهار الملك أن يكون القوم فى مرضاة الله ومن لم يكن فى طاعة الله فليس من المفلحين ولو كان فى احسن حال فيما يبدو من أمر دنياه على أن أكثر من ولوا أمرهم امرأة من الامم اذا قابلهم مثلهم كانت عاقبتهم أن يغلبوا .

الآيـة العاشرة وهي 24 من سورة النمـل

« وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ ٱللَّـهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ »

الالفاظ والتراكيب : من دون اللـه : تجاوزوا عبادة اللـه الى عبادة الشمس . **زيـن :** حسن · **اعمالهم :** سجودهم للشمس وغيره مـن أعمال كفرهم · **فصدهم :** صرفهم صرفا شديدا · **السبيل :** هو الطريق الوحيد المعهود للنجاة وهو توحيد اللـه · **لا يهتدون :** لا يكون منهـم سلوك في طريق الحق والسداد ·

جملة وجدتها مستأنفة للبيان جوابا على تقدير سؤال فالكلام السابق بين حالتها من ناحية الدنيا فتتشوف نفس السامع الى معرفة حالتها من ناحية الدين عدم اهتدائهم مسبب عن صد الشيطان لهم وصده مسبب عن تزيينه لاعمالهم لهم ، هذا ما تفيده الفاء ·

المعنـى : وجدتها وقومها مجوسا يعبدون الشمس فيسجدون لها ولا يسجدون لله ، وقد تمكن الشيطان منهم فحسن في أعينهم أعمالهم فصرفهم عن عبادة الله وتوحيده مع ظهور الدلائل ووضوح الآيات، فثبتوا على ضلالهم لا يكون منهم اهتداء لطريق النجاة الظاهر في حال من الاحوال ·

سلاح الشيطان وأصل الضلال : محبة الانسان نفسه غريزة من غرائزه وهو محتاج اليها ليجلب لنفسها حاجتها ويدفع عنها ما يضربها ويسعى في تكميلها · هذه هي الناحية النافعة والمفيدة من هذه الغريزة،ولكنها مـن جهة أخرى هي مدخل من أعظم مداخل الشيطان على الانسان فيحسن لـه أعماله وهو لمحبة نفسه يحب أعماله ويغتر بها فيذهب مع هواه في تلـك الاعمال على غير هدى ولا بيان فيهلك هلاكا بعيدا فاستحسان المرء لاعماله هو أصل ضلاله وتزيين الشيطان لتلك الاعمال هو احد سلاح للشيطان ·

الوقايـة : فعلى المرء أن يتهم نفسه في كل ما تدعوه اليه وأن يـزن جميع أعماله بميزان الشرع الدقيق خصوصا ما تشتد رغبته فيـه ويعظم حسنه في عينه ·

الآيـة الحادية عشرة وهى 25 من سورة النمـل

« أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ »

الالفاظ والتراكيب : ألا يسجـدوا : عـدم سجودهم فأن مصدرية ولا نافية وهو بدل بعض من أعمالهم خصص بالذكر لانـه أصل كفرهم ومبعث فساد أعمالهم · **الخبء :** الشيء المخبوء فعل بمعنى مفعول يقال خبات الشيء اخبؤه خبأ بمعنى سترته عن العيون ، فالخبء يشمل كل ما احتوته السموات والارض مما يبرزه الله للخلق لمنفتعهم فتشاهده العيون مثل المطر والنبات أو تدركه العقول مثل بـدائع الخلق ودقائق الصنع ، ومنه ما يكشفه اللـه لعلماء الاكوان من أسرار الخلقة عنـدما يستعملون عقولهم ووسائلهم العلمية فيأتون بما فيه نفـع للعباد ورقـى للعمران · **ما يخفون :** ما يكتمون فى أنفسهم أو عن غيرهم . **ويعلنون :** يظهرون للناس.

المعنى : زين لهم الشيطان من أعمالهم على الخصوص عدم سجودهم لله الذى أقام عليهم الحجة بما يخرجه لهم من الخيرات المخبئات من السموات والارض من أمطار السماء ونبات الارض مما يدل على عظيم قدرته ولطف علمه الذى أحاط بما ببواطن الاشياء وظواهرها وبما تنطوى عليه السرائر او تواريه الستائر وبما هو ظاهر للعموم ·

استدلال وتوجيهه : السجود مظهـر لغاية الذل والخضوع والانقياد والاستسلام وتلك أصل العبادة ولا يستحقها من العبد الا من هو ـ حقيقة ـ المنعم الغنى الكامل القوى ، وما هو الا خالقه،فاستدل على استحقاق اللـه للسجود دون غيره بما ذكر من اخراجه الخبء،ويشمل علمه لما خفى وما علن، وذلك متضمن لكماله وانعامه وشمول علمه وعموم سلطانه ·

حكم وانبناؤه : أنبنى على أن السجود عبادة ولا يستحقها الا الخالق تحريم السجود للمخلوق فلا يجوز أن يعظم به أحد أحدا ولو لم يقصد به العبادة،أما اذا قصد به العبادة فهو الكفر البواح ·

تحـذير : كثيرا ما رأينا في الرسوم التي تنشرها الصحف أناسا من المسلمين راكعين أو مقاربين للسجود لذى سلطان · فعلى المسلم أن يحذر من ذلك فلا يفعله ولا ينحني لاحد من الخلق وأن ينكره اذا رآه ·

تشويق القرآن الى علـوم الاكوان : من أساليب الهداية القرآنية الى العلوم الكونية أن يعرض علينا القرآن صورا من العالم العلوى والسفلى في بيان بديع جذاب يشوقنا الى التأمل فيها والتعمق في أسرارها، وهنا يذكر لنا ما خبأه في السموات والارض لنشتاق اليه · وننبعث في البحث عنـه واستجلاء حقائقه ومنافعه بـدافع غريزة حـب الاستطلاع ومعـرفة المجهول · وبمثل هذا انبعث اسلافنا في خدمة العلم واستثمار ما في الكون الى أقصى ما استطاعوا ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم، ولن نعز عزهم الا اذا فهمنا الدين فهمهم وخدمنا العلم خدمتهم ·

ترتيب في الاستدلال : اخراج الخبء لا يكون الا من العالم بذلك الخبء الذى أحاط علمه به في حال ستره وفي حال ظهوره فيدل ذلك على شمول علمه لما ظهر وما بطن ومنه ما يخفون وما يعلنون ولذلك عطفه عليه لترتبه عليه ترتب المدلول على دليله ·

الآيــة الثانية عشرة وهى 26 من سورة النمـل

« ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ »

الالفاظ والتراكيب : **العرش** : مخلوق عظيم من عالم الغيب أعظم من السموات والارض ·

المعنـى : الموصوف بتلك الصفات والمنعـم بتلك الانعامات المستحق للسجود منهم وقد زين لهم الشيطان عدم السجود لـه ـ هـو اللـه الذى لا معبود غيره ولا يستحق العبادة سواه خالق المخلوقات كلها والمالك لها والمدبر لامرها والمتصرف فيها من اصغر مخلوق الى أعظم مخلوق وهـــو عرشه العظيم الذى فاق كل ما نرى من عالم الشهادة ·

توجيه الترتيب : لما ذكر استحقاقه للعبادة بكمالاته وانعاماته ذكر أن لا مستحق للعبادة غيره اذ لا يشاركه في تلك الكمالات والانعامات سواه،

فكان الجملة كالنتيجة لما قبلها ، ولما ذكر وحدانيته في الالوهية فلا يعبد سواه ذكـر وحدانيته في الربوبية بانفراده في الخلق والملك والتصرف والتدبر لهذا المخلوق العظيم ونبه به على ما دونه من المخلوقات ، ولما كان الحديث على عظمة ملك العباد ملك النبوة وغيره ذكر عظمة ملك الله الذى تصغر ازاءها كل عظمة ٠

بيان مراد : قد يتماثلان اللفظان ولكن يجب أن يعبر كل واحد بمعنى لائق بالمقام الذى قيل فيه،فلقد جاء فى حق سليمان (ص) « **وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** » ووصف الهدهد بلقيس بأنها أوتيت من كـل شيء ولما كان المتحدث عنه أولا هو سليمان فكل شيء يعم ما يحتاج اليه من أمر النبوة وملك النبوة ٠ كما أنه قد قيل عنها « **وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** » وقال عن اللـه « **رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** » فعرش عظيـم بين عروش الملـوك ، وعرش اللـه عظمته أعظم من السموات والارض وهكذا لابد من اعتبار المقام فى فهـم الكـــلام ٠

للعبرة والقدوة : قد ألهم اللـه الحيوانات الى ما قد يخفى عن بعض العقلاء،ومضى منا كلام عن هذا فيما تقدم من هذه الآيات الكريمة،وهذا الهدهد بين الهداهد،فلهـم الهام خاص يقتضيه تخصيصه بهـذا المـوقف واتصاله بسليمان (ص) وزمن الانبياء زمن خرق العوائد وظهور الآيات ، وقد كان في حسن بيانه وترتيب أخباره وبديع تهديه عبارة بالغة لاولى الالباب ، فقد تحصن بالعلم ونوه بالنبإ المتيقن وفصل النبأ فشرح حاليها الدنيوية والدينية وتنقل من تشويق الى تشويق أبلغ منه فكان متثبتا فيما أخبر بارعا فيما صور مستدلا فيما قرر وفيما أنكر بصيرا بكيد الشيطان للانسان متفطنا لانبناء الضلالات بعضها على بعض خبيرا بترتيب الادلة وحســن الاستنتاج ٠ وفيما ذكر اللـه لنا من هذه العبر البالغة من هذا الحيوان الاعجم حث لنا على أن نسلك عندما نخبر ونبين أو نبحث وننظر أو نستدل ونرتب ونعلل ـ أن نسلك هذا المسلك ـ

واذا كان الله تعالى قد بعث غرابا ليتعلم منه ابن آدم كيف يوارى سوءة أخيه فكذلك ذكر لنا أمر هذا الهدهد الممتاز بين الهداهد لنقتدى به تنبيها

لنا على أخذ العلم من كل أحد والاستفادة من كل مخلوق والشعور دائما بالنقص للسلامة من شر أدواء الانسان : العجب والكبر والغرور ... « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ » .

لمحة نفسية : الظواهر دلائل البواطن فالمرء يعرف من سبحات وجهه وفلتات لسانه وكثيرا ما تدل كلماته على مهنته أو فكرته وعقيدته ، كما تدل هيئته أو لبسته وشمائله .

وما يباشره المرء تنطبع به نفسه ويصطبغ خياله فيجرى على لسانه فى تشبيهاته وتمثيلاته وفنون قوله ، فقد تختلف العبارات عن شىء واحد فى وقت واحد باختلاف نفسيات المتكلمين عليه، وقد عرف الهدهد بين الطيور بثقوب البصر والاهتداء الى الماء فى جوف الارض خصوصا هدهد سليمان الممتاز بين الهداهد، فلما استدل ذكر من صنع الله ما هو أقرب اليه واغلب عليه وهو اخراج الخبء الذى منه الماء المخبوء فى جوف الارض .

اشارة علمية : دلالة الصنعة على الصانع دلالة فطرية عقلية قطعية فكل ذى صنعة فى مكنته أن يستدل بصنعته على وجود خالق هذا العالم وكماله . يشاهد أن صنعته ما كانت الا به وبما له من قدرة فيها وعلم بها فيهديه ذلك الى أن هذا العالم ما كان الا من خالق قادر عالم . فالهدهد ذكر ما هو من عمله فى الاستدلال على وجود الخالق تعالى ووحدانيته ومثله كل ذى صنعة .

وفى كل شىء له آيةٌ — تدل على أنه واحدٌ (1)

(1) الشهاب : ج 7 م 15 — رجب 1358 هـ ، 1939 م .

المرسل والرسالة والرسول والمرسل اليهم

« يَسٓ » .

(سورة يس ، الآية 1)

تمهيد : مثل هذا اللفظ مما افتتحت به بعض سور القرآن للعلماء فيه طـريقتان :

الاولى أنه لفظ لـه معنى يعلمه اللـه فهو من المتشابه الذى لا يعلمه الراسخون ، وانما يؤمنون به ويردون علمه الى عالمه .

سؤال وجوابه : القرآن انزل للبيان ولا بيان الا بالافهام ، فكيف يكون فى القرآن لفظ لا يفهم له معنى ؟ والجواب ان عدم فهم معنى من بعض عشرة كلمة افتتحت بها بعض السور لا يخل ببيان القرآن لما انزل لبيانه من عقائد وآداب وأحكام وغيرها من مقاصد القرآن .

توجيه وتنظير : ان الله تعالى اعطانا العقل الذى به ندرك الآيات التى نصبها لنا لنستدل بها عـلى وجوده ووحدانيته وقدرته وعلمـه وحكمته ولطفه ورحمته . وبالنظر فى هذه الآيات نصل ـ بتيسير الله ـ بعقولنا الى ادراك بدائع عجيبة ، واسرار غريبة ما تزال تتجلى لنا ما دمنا نتأمل فيها ونعتبر بها . وما يزال الانسان يكتشف منها حقائق مضت عليه ازمان وهو يعدها من المحال ، ويجتنى منها فوائد ما كانت تخطر له فى أحقابه الماضية على بال .

لطف الله فى جعل حد لعقل الانسان : غير أن استجلاء هذه الحقائق واستحصال هذه الفوائد من الآيات الكونية ـ على نفاستها وعظيم نفعها ـ محفوف بخطر الاعجاب بذلك العقل حتى يحسب انه محيط بالحقائق كلها ، وان مدركاتها يقينيات باسرها فيؤديه حسبانه الاول الى الفتنة بالمدركات فيحسب أنه لا شيء بعدها فقد يخرج الى انكار خالقها ، ويؤديه حسبانه

الثانى الى الذهاب فى ظنونه وأوهامه وفرضياته الى غايات لا نسب بين اليقين وبينها • فكان من لطف الله بالانسان أن جعل لعقله حدا يقف عنده وينتهى اليه ليسلم من هذا الخطر، خطر الاعجاب بالعقل • ففى آيات الله الكونية حقائق كثيرة تقف العقول حيارى أمامها، وقد تشهد آثارها ولا تستطيع أن تعرف كنهها ، كحقيقة الكهرباء فى الكون ، وحقيقة الروح والعقل فى الانسان • فمثل هذه الحقائق المنغلقة التى يرتد عقل الانسان اليه عنها خاسئا وهو حسير هى التى تعرفه بقدره وبعظمة هذا الكون وفخامة أمره • فيقف بعقله عند حد النظر والاعتبار والاستدلال ببديع الصنعة وعظيم النعمة على حكمة الله البالغة ومنته السابغة • دون خلط للاوهام بالحقائق ولا فتنة بالمخلوق عن الخالق •

خفاء بعض حكم الاحكام ووجهه : هذه الحقائق التى خفيت عن العقل البشرى فلم يدرك كنهها لم تقدح فى دلالة آيات الاكوان على ما دلت عليه من وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته وفضله واحسانه ورحمته، فكذلك لم يقدح فى بيان القرآن ودلالة آياته خفاء معانى بضع عشرة كلمة من كلماته ، وكما كان خفاء تلك الحقائق فى الآيات الكونية ايقافا للعقل عند حده • وتعريفا له بقدره • وتنبيها له على عظم آيات ربه ـ كذلك كان خفاء هذه المعانى فى الآيات القرآنية لمثل ذلك • ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية فى هذا الجلاء العام والخفاء الخاص جملة من الاحكام كعدد الصلوات والركعات والسجدات التى خفيت على العقول حكمتها ، وقد ظهرت الحكم الكثيرة الجلية فى سائر أحكام الشريعة غيرها • ولم يقدح فى حكمة الشريعة فى أحكامها ، خفاء ما خفى فى بعضها ، كما لم يقدح خفاء ما خفى من حقائق الآيات الكونية ومعانى الآيات الكلامية فى دلالتها وبيانها • والحكمة هنا فى هذه الاحكام هى الحكمة المتقدمة فيهما •

ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية والاحكام الشرعية فى هذا الخفاء الجزئى تصرفات الله فى خلقه بمجارى اقداره ، فقد تظهر حكم الله فيها وقد تخفى ، وقد تخفى دهرا وتظهر بعد مدة • وقد نبهنا الله على هذه الحقيقة بما قص علينا فى قصة يوسف عليه السلام وما كان

مجهولا من حكم قدر الله فى مبدا أمره وما ظهر من تلك الحكم الباهرة للقدرفى آخر أمره · وبما قصه علينا فى قصة أم موسى لما أوحى اليها بقذفه فى اليم وعدم الخوف عليه وما كان من عواقب أمره · وكما لا ينفى الحكمة عن تدبير الله عدم ظهورها كذلك لا ينفى الحكمة عن شرعه عدم فهمها ولا يقدح فى دلالة الآيات وبيانها عدم ادراك كنهها أو عدم فهم معناها ·

قيام الحجة على الانسان مما عرفه : ففى خلق الله وفى شرع الله وفى قدر الله وفى كلام الله ما يخفى على العقول ادراك حقيقته أو حكمته ، أو معناه·لطفا من الله بالانسان له·وقد قامت الحجة عليه فيما جهل بما عرف· وتجلت له بدائع الخلقة وجلائل النعمة فيما ظهر ، فآمن بوجود مثلها فيما خفى اذ الرب الحكيم الرحيم لا ييكون منه الا ما هو حكمة وفيه نعمة، فكان الانسان فى القسم الاول مدركا مستدلا معتبرا ، قد استعمل عقله فاداه الى الايمان واليقين فيما ظهر · وكان فى القسم الثانى مصدقا مذعنا لربه صاغرا ، قد ادرك الحجة فآمن بالغيب فيما استتر فجمع بين النظر والاستدلال ، والتسليم والاذعان ·

فهذا توجيه وجود لفظ لا نفهم معناه من كتاب الله ـ عند من يقول به ـ ببيان حكمته ، مع تنظيره بمثله فى خلق الله وشرعه وقدره ·

بناء العمل على هذا العلم : قد رأيت كيف يقف العقل عاجزا امام بعض اسرار الخلق والقدر والشرع ، والقرآن مع يقينه بما علم منها أن ما عجز عن ادراكه ما هو الا مثل ما عرف فى الحق والحكمة والنعمة،اذ الجميع ـ ما عرف وما عجز عنه ـ من اله واحد حكيم خبير رحمن رحيم ·

فليذكر الناظر فى خلق الله وقدره وشرعه وكلامه دائما هذه الحقيقة : وهى ثبوت الحق والحكمة والنعمة فى جميعها ، وامكان عجز عقله فى بعض المواضع والاحوال عن ادراكها فيكون عمله فى خلق الله هو النظر والبحث والتحليل والاكتشاف واستجلاء الحقائق الكونية واستخراج الفوائد العلمية والعملية الى أقصى حد توصله اليه معلوماته وآلاته ، حتى اذا انتهى الى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه ، ولم يرتكب من الاوهام والفروض

البعيدة ما يكسو الحقيقة ظلمة ، ويوقع الباحث من بعده فى ضلالة أو حيرة · فكثيرا ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيات سببا فى صد العقول عن النظر وطول أمد الخطإ والجهل · ويكون عمله فى قدر الله هو الاعتبار فى تصاريف القدر ، والاتعاظ بأحوال البشر ، واستحصال قواعد الحياة من سير الحياة ، فاذا راى من تصاريف القدر ما لم يعرف وجهه ولم يتبين له ما فيه من عدل وحكمة واحسان ورحمة · فليذكر عجزه،وليذكر ظهور ما خفي عنه من مثل ذلك فى وقت ثم ظهر له فيوقن أن هذا مثله وانه اذا طالت به الايام قد يظهر له من وجهه ما خفى منه فيتلقاه الآن بالتسليم والتنزيه · رادًّا علمه الى الله تعالى مفوضا أمره اليه ويكون عمله فى شرع الله هو الفهم لنصوص الآيات والاحاديث ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف وتحصيل الاحكام وحكمها والعقائد وأدلتها والآداب وفوائدها والمفاسد واضرارها ، حتى اذا بلغ الى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدر علته ذكر عجزه فوقف عنده · فلم يكن من المرتابين ولا من المتكلفين ، ولم يمنعه عجزه عن تعليل،وتبين وجه ذلك القليل عن المضى فى التفهم والتدبر لما بقى له من الكثير · ويكون عمله فى كتاب الله هو التفهم والتدبر لآياته والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالاته واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب فى منظومها ومنثورها ، وما جاء من التفاسير المأثورة ، وما نقل من فهوم الائمة الموثوق بعلمهم وامانتهم،المشهود لهم بذلك من أمثالهم · فاذا وقف أمام المتشابه رده الى المحكم ، واذا انتهى الى فواتح السور ذكر عجزه فآمن بما لها من معنى وقال : الله به أعلم · فهذا السير النظرى والعمل العلمى المبنى على اليقين بعدل الخالق جل جلاله وحكمته ورحمته فى خلقه وقدره وشرعه وكلامه ومعرفة العبد بقدره ومقامه يزداد السائر على مقتضاه ايمانا وعلما وفوائد جمة ويسلم من الغرور والاوهام والفتنة · وهو سبيل الراسخين الذين يقولون فيما لا يفهمونه :

« آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ » ·

الثانية : فى فواتح السور،وذهبت جماعة من أهل العلم من السلف والخلف الى أن هذه الفواتح قد فهمت العرب المراد منها ولذلك لم تعترض

على البيان بها ولا طعنت في عربيته بعدم فهمها وان كنا لا نجد في كلامها ما نعرف به المعنى الذى فهمته منها • وممن ذهب الى ذلك الامام أبو بكر ابن العربى فقال في كتاب « القبس على موطا مالك بن أنس » : « وليست من المتشابه الذى لا يعلمه الا الله ، فان محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لو خاطب الكفار منها بما لا يفهم لكان ذلك أقوى أسبابها في الطعن عليه ، وكانوا يقولون : هذا يتكلم بما لا نفهم وهو يدعى انه بلسان عربي مبين • وما حمعسق في اللسان ؟ وما كهيعص في الكلام ؟ فدل انهم فهموا الغرض وعرفوا المقصود » •

اختلاف المتأولين : منهم طائفة تكلمت على كل لفظ من ألفاظ الفواتح وذكرت له معنى واختلفوا في تلك المعانى التى ذكروها وهى كما ذكر الامام ابن العربى : « لا سبيل الى تمييز واحد منها بدليل لانه معدوم ، ولا باثر لانه غير منقول » ولا تطمئن الى شيء منها القلوب التى عاشت على اليقين ، ولا تسلم واحدا منها العقول التى اعتادت تقفو العلم على نور الدليل •

ومنهم طائفة اخذتها كلها بوجه واحد فقال بعض:انها حروف تنبيه تقرع الاسماع فتلفت السامعين الى الاستماع والتدبر لما اشتملت عليه السورة من الاحكام والعقائد والآداب وغيرها من مقاصد القرآن ، فهى نظير الا والهاء في مالوف الاستعمال • وقال بعضهم انها حروف تعجيز وافحام وتقريع لان القرآن الذى عجزوا عن معارضته ، من هذه الحروف واخواتها تركبت كلماته،فكانما يقال لهم : ما هذا الذى عجزتم عنه الا كلام من جنس كلامكم • وما ركبت كلماته الا مما ركبت منه كلماتكم • وهذا لعجزهم أفضح • ولتقريعهم أوجع • ومما يؤيد هذا ان أكثر هذه الفواتح ذكر بعده الكتاب المعجز وصفاته مثل قوله تعالى : « الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ » «الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ» الآية • «الٓمٓصٓ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ » • « الٓر تِلْكَ آيَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ » • « الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ آيَٰتُهُۥ » « الٓر تِلْكَ آيَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ » « طسٓمٓ تِلْكَ آيَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ » « الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » « حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » وغيرها •

الفائدة العملية : قد افتتحت هذه السور من القرآن العظيم بكلمات التنبيه وجاءت أول سورة منه بعد الفاتحة مفتتحة به ، فلتكن عند قراءته في انتباه ، واقبال على استيعاب لفظه وتفهم معناه ، فان القارىء للقرآن والسامع له في حضرة الرب · على بساط القرب ، والغفلة في هذا المقام من قلة الآداب ، ومن قل أدبه في مقام الاحسان والكرامة استوجب اضعاف ما يستوجبه غيره من العتب والملامة وتعرض لموجبات الحسرة والندامة · فالله نسأل أن يجعلنا من قرائه على انتباه واستحضار، آناء الليل واطراف النهار ، العاملين به بالعشي والإبكار · انه الجواد الكريم الستار ·

« وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) » ·

(سورة يس)

بيان المفردات : الحكيم : هو الموصوف بالحكمة ، وأصل اللفظ من حكم ، بمعنى أمسك ، فالحكمة هي العلم الصحيح الذي يمسك صاحبه عن الجهالات ، والضلالات ، والسفالات ، فيكون ذا ادراك للحقائق قويم ، وخلق كريم ، وعمل مستقيم ، لا يحكم الا عن تفكير ، ولا يقول الا عن علم ، ولا يفعل الا عن بصيرة فاذا نظر أصاب ، واذا فعل أطاب ، واذا نطق أتى بفصل الخطاب · ووصف القرآن بالحكيم لانه هو العلم الصحيح المثمر لهذا كله · **والصراط المستقيم :** هو دين الاسلام ، الذي جاء به جميع المرسلين ، قبل النبي ـ صلى الله عليه وعليهم وسلم ـ · **تنزيل :** بمعنى منزل ، وهو الصراط المستقيم · **العزيز :** القوى الغالب المنيع الذي لا نظير له · **الرحيم :** المنعم الدائم الانعام والإحسان · **الانذار :** الاعلام بوقوع ما يخاف منه وهو الهلاك والعذاب العاجل والآجل · **والغافل عن الشيء :** التارك له المعرض عنه ، مع حضوره لديه لاشتغال باله بسواه ·

المعنى : أقسم الله تعالى بالقرآن الحكيم على ان محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ـ من المرسلين ردا على من قالوا له : لست مرسلا ، في حال أنه على دين الاسلام الذى بعثه الله به ثابتا عليه في عقده ، وقوله ، وفعله وجميع أمره · واخبر تعالى ان هذا الاسلام الذى جاء به النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نزله عليه الله القوى الغالب ، الذى لا يغالب ، العديم الشبيه والنظير، والمنعم الدائم الانعام المستمر الاحسان · وبين تعالى انه كان من المسلمين لينذر الامة العربية ويعلمها سوء عاقبة ما هى عليه من الشرك والضلال ، تلك الامة التى ما أنذر آباؤها فهى مشتغلة بما توارثته من آبائها من عبادة الاوثان ، وارتكاب الاثم والعدوان ، وأنواع الضلال والخسران ، معرضة عن توحيد خالق الارض والسموات،وعن النظر فيما نصب للدلالة عليه من الآيات ، طال عليها امد الجهالة ، واستولت عليها أسباب الضلالة ، فتمكنت منها الغفلة ، التمكن التام ، فذهبت فى أوديتها البعيدة المدى ، كالانعام أو أضل من الانعام ·

أصل المعرفة والسلوك من هذه الآيات الكريمة :

تمهيد : خلق الله الخلق حنفاء موحدين ، فاتتهم الشياطين فاضلتهم عن سواء السبيل ، فمن رحمته تعالى بهم ، أن ارسل اليهم ، رجالا منهم لهدايتهم ، وانزل عليهم كتبا منه ، لدلالتهم · فالله هو المرسل وتلك الكتب هى رسائله ، وأولئك الرجال هم رسله ، والخلق هم المرسل اليهم ·

المعرفة : فللمرسل العلو والكمال ، وله الخلق ، والامر ، ومنه الرحمة والعدل ، والاحسان ، والفضل ، وله الربوبية ، والالوهية ، دون شريك ولا مثال ·

وفى تلك الوسائل الحق ، والحكمة ، والنور المخرج من كل ظلمة والفرقان فى كل شبهة ، والفعل فى كل خصومة ، بها تفتح البصائر ، وتطهر الضمائر ، وتعرف طريق الحق والهدى ، من طرائق الباطل والضلال ·

ولأولئك الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أكمل ما يمكن للانسان من كمال ، واكمل المعرفة بالمرسل - تعالى - وأعظم الخشية واكمل الرحمة بالخلق ، واشد الشفقة عليهم ، وأكمل العلم بما جاءوا به وأعظم التمسك به ، واكثر الاتباع له ، فلا كمال الا بالاقتداء بهم ، ولا نجاة الا باتباعهم ، ولا وصول الى الله تعالى الا باقتفاء آثارهم • وللمرسل اليهم عجز المخلوق وضعفه امام خالقه ، وحاجته وافتقاره اليه وعليه حق عبادته ، وطاعته والرجاء لفضله ، والخوف من عقابه ، والفكر في آياته ، ومخلوقاته والنهوض للعمل في مرضاته ، واستثمار أنواع نعمائه ، والشكر له على جميع آلائه • فبمعرفة هذه الاربعة حق معرفتها ومعرفة مقام كل واحد منها ، وما له فيه كمال الانسان العلمي الذي هو اصل كماله العملي ، والشرط اللازم فيه •

وقد اشتملت هذه الآيات على هذه الاربعة في حق الامة المحمدية فالمرسل هو « العزيز الرحيم » والرسالة هي « القرآن الحكيم » والرسول هو « محمد » - صلى الله عليه وآله وسلم - المخاطب بـ «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» والمرسل اليهم هم العرب الذين « مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ » •

تمهيد : لما ضل الخلق عن طريق الحق ، والكمال ، الذي يوصلهم اليه : الى مرضاته والفوز بما لديه ، أرسل اليهم الرسل ليعرفوهم بأن ذلك الطريق هو الاسلام ، ويكونوا ادلتهم في السير وقادتهم الى الغاية ، وأنزل عليهم الكتب لينيروا لهم بها الطريق ، ويقودوهم على بصيرة ، ويتركوهم على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يهلك عليها الا من ظلم نفسه ، فحاد عن السواء ، أو تخلف عن القافلة فكان من الهالكين • فالقافلة هم الخلق ، والطريق هو الاسلام ، والادلة هم الرسل ، والمصابيح هي الكتب ، والغاية هو الله جل جلاله •

السلوك : فعلى مريد النجاة من المهالك والفوز بأسمى المطالب وأعلى المراتب - ان ينضم الى القافلة الربانية يتعاون مع أفرادها ويقوم بحق الرفقة فيها ، ويعد نفسه جزءا منها لا سلامة له الا بسلامتها فهو يحب لكل واحد منها ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لها ويهديه الى ما يهديها

اليه من خير ويقيه مما يقيها منه من سوء · وان يطيع أولئك الادلة ويقتفى آثارهم وينزل بنزولهم ، ويرتحل بارتحالهم وان يرجع فى معرفة وجوه السير ، واصنافه ، وأوقاته ، ومراحله ومنازله ، اليهم دون أدنى اعتراض، ولا مخالفة ، ويقابل ما يتحملونه من مشاق الدلالة ، ومتاعب القيادة بغاية ما يستطيع من الادب معهم ، والتعظيم ، والانقياد لهم والمحبة فيهم ، وحسن الثناء عليهم ، وطلب عظيم الجزاء ، من الله تعالى لهم على عظيم احسانهم ، وان يلتزم ذلك الطريق ويسير فى سوائه غير مائل الى جنباته ، ولا ذاهب فى بنياته،لا مفرطا فى السير يسبق الرفقة فينفر بلا دليل ، ولا مفرطا فيه ، فيتخلف عنها بلا معين نمطا وسطا مع الجماعة لا من الغلاة ولا من المقصرين · وان يستنير بما رفعه أولئك الأدلة من مصابيح الهدايـــة ، وان يسير تحت أنوارها الساطعة ، مفتح البصر ، للاستضاءة بها غير مغلق الاجفان عنها ، متعرفا بها أديم الارض ومواقع قدمه منها وان يعرف عظم الغاية التى هو سائر اليها ، فيقصر همه كله فى الوصول اليها ويحضرها قلبه فى كل لحظات سيره ليسرع مع الرفقة اليها ، وتخف عليه مشـــاق الطريق واتعابها ويعذب لديه كل ألم فى الانتهاء اليها ·

فبسلوك هذا الطريق القويم ، بدلالة الرسول الكريم وأنوار الكتاب المبين ، الى رب العالمين الرحمن الرحيم ، كمال الانسان العملى المبنى عـلى الكمال العلمى · وقد اشتملت هذه الآيات على ذكـــر السالكين ، وهــم المنذرون وعلى الدليل وهو الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وعـلى الطريق وهو الصراط المستقيم المنزل من الله ، وعلى ما بين الطريق وهو القرآن الحكيم ·

الحكمة فى هذه الآية : قال ابن وهب : سمعت مالك رضى الله عنـه يقول : « الحكمة : الفقه فى دين الله والعمل به » ففى الفقه فى ديـن الله الكمال العلمى وفى العمل به الكمال العملى ، وهذه الآيات ـ عـــلى ايجازها ـ قد استعملت على اصول ما به كمال الانسان العلمى وكمالـه العملى اللذان بهما كماله الروحى والبدنى ونعيمه الدنيوى ، والاخـروى وما كماله العلمى ، وكماله العملى،الا بالمعرفة الصحيحة والسلوك المستقيم

وهما اللذان تقدم في الفصل السابق بيانهما ، وفسر مالك الحكمة بهما اذ الفقه في دين الله هو المعرفة الصحيحة . والعمل به ، هو السلوك المستقيم ، وهما الحكمة التي وصف به ، في الآية الاولى القرآن العظيم ، لانه كتاب العلم . والعمل اللذين لا يكون بدونهما حكيم . فكما اشتملت هذه الآيات على أصول الحكمة،دلت على أصلها ، ومأخذها ، وما يكون الانسان بعلمه والعمل بما فيه من أهلها ، وهو القرآن الحكيم .

توجيه القسم في الآيات : أقسم الله بالقرآن الحكيم على أن محمدا من المرسلين ، لينذر الغافلين حال انه على صراط عظيم مستقيم منزل من العزيز الرحيم ، لان القرآن هو كتاب محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي كان يتخلق به ويهتدى بما فيه وينذر به ويدعو اليه ويبينه للناس بقوله ، وفعله ، وهو برهانه ، وحجته وآيته ، ومعجزته .

كما أنه كتاب الاسلام ، الذي هو الصراط المستقيم ، فيه حجته ودلائله ، فيه أحكامه وحكمه ، فيه آدابه وشمائله ، فيه بيان حقيقته وما هو منه ونفي ما ليس منه عنه ، فيه بيان تاريخه ، وتاريخ الانسانية معه فيه ذكر أوليائه ، وحسن بلائهم في سبيله ، وحسن أثره فيهم ، والعود بالعاقبة المحمودة عليهم ، وذكر أعدائه وجهدهم في مقاومته وسقوط شبههم أمام حجته وذهاب باطلهم أمام حقه ، وشدة أخذه لهم ، على ظلمهم ، ونزول نقمته بهم ، وحلول دائرة السوء عليهم ، فيه الاسلام كله ، فمن طلبه فيه ، وجده ، ونجا به ، ومن طلبه في غيره ظل وكان من الهالكين .

عقائد وادلتها من هذه الآيات :

العقيدة الاولى : محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ .

دليلها الاول : القرآن الحكيم الذي جاء به رجل أمي ما قرأ ولا كتب ولا دارس العلماء ولا عرف الكتب .

ودليلها الثاني : موافقة دعوته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لدعوة المرسلين ـ صلوات الله عليهم ـ الى عبادة الله وحده وتصديق ما جاءهم به من عنده دون ان يسالهم على ذلك اجرا وهذا من قوله : « لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ »

فهو من المرسلين من جهة ارساله لانه منهم فى أقواله وأفعاله نظير قوله تعالى : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ » وقوله : « بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ» وقوله : «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ».

ودليلها الثالث : هذا الدين الكامل الجامع الذى هدى به النوع الانسانى أفرادا وجماعات الى ما فيه سعادته ، فاطلق فكره وسدد نظرة وقوم عقائده وهذب أخلاقه ونظم اجتماعه ووضع له قواعد الحياة والعمران على العدل والاحسان ووجههم الى خالقهم وما أعد لهم عنده ـ **ان آمنوا وعملوا الصالحات** ـ من النعيم المقيم والرضوان التام ٠

ودليلها الرابع : سلوكه هو فى حياته على هذا الصراط المستقيم من يوم عرف الدنيا حتى فارقها ، فكان يمثله على أكمل وجه لا يخل بشىء منه ، ثابتا عليه لا يحيد قيد شعرة عنه دون أن تحفظ عنه زلة ٠ ولا تعرف منه فى القيام به والدعوة اليه فترة ، ولا تقف أمامه قوة ، ولا ترد له حادثة عزمة ولا تحمله على هوادة فيه رغبة ولا رهبة ، ولا تبدل حاله رخاء ولا شدة فكان فى كرم خلقه وتمام زهده وعظيم تالهه وتوجهه لربه بعد ما فتح الله له الفتح المبين ودخل الناس أفواجا فى الدين كما كان أيام كان وحيدا بين أعظم أعدائه من المشركين،وما هذا من شان البشر وطبعهم لولا عصمة وتأييد رب العالمين ٠

العقيدة الثانية : القرآن كلام الله ووحيه ، ودليلها أنه حكيم فما فيه من العلم وأصول العمل ، لا يمكن أن يكون الا من عند الله فى عقائده ودلائلها واحكامه وحكمها وآدابه وفوائدها ، الى ما فيه من حقائق كونية كانت مجهولة عند جميع البشر،وما عرفت لهم الا فى هذا العصر الاخير ، ومن اشهرها مسالة الزوجية الموجودة فى جميع هذا الكون حتى أصغر جزء منه وهو الجوهر الفرد المركب من قوتين موجبة وسالبة ، جاءت هذه المسألة فى آيات كثيرة منها ٠ قوله تعالى : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ٠ ومنها مسالة حياة النبات التى جاءت فى مثل قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » ومنها مسالة تلاقح النباتات بواسطة الرياح التى تنقل مادة التكوين من الذكر الى الانثى ، جاءت فى آيات كثيرة منها

قوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ » فهذه حقائق علمية كونية اجمع علماء العصر أنها من المكشفات الحديثة ولم تكن معلومة عند أحد من الخلق قبل اكتشافها ولا كانت عندهم الآلات الموصلة الى معرفتها • وكفى بهذا القل من الكثر دليلا على أن هذا القرآن ما كان الا من عند اللـه الذى خلق الاشياء ويعلم حقائقها •

العقيدة الثالثة : الاسلام ديـن اللـــه الذى شرعه وارتضاه ودليلها مستفاد من وصفه بانه صراط مستقيم ، فهو تشريع تام عام لجميع أعمال الانسان، أعمال قلبه وأعمال لسانه وأعمال جوارحه وجميع معاملاته الخاصة والعامة بين أفراده وأممه، ولا تخرج كلية من كلياته ولا جزئية من جزئياته عن هذا الاصل العام المتجلى فى جميع الاحكام وهو « الحق والعدل والخير والاحسان » • وقد وضع عقلاء الامم شرائع فى بعض نواحى أعمال الانسان ولكنها باجماع المتشرعين لا تخلو من نقص واعوجاج واضطراب ، فهم ما يفتأون يتبعونها بالتكميل والتقويم والتعديل على ممر الايام ولو عرضت كل حكم من أحكامه عـلى الاصل العـام الذى ذكرناه لوجدته منطبقا عليه ظاهرا فيه حتى ما خفى وجهه على الامم الاجنبية عن الاسلام ايام تأخرها ، قد ظهر لها فضله ونفعه أيام تقدمها ، فجاء كبـراء عقـلائها يعترفون فيها بصواب ما شرعه فيها الاسلام ، ثم هـم يعجزون عن تطبيقها عـلى أممهم للعادة الغالبة والوارثة القديمة ، منها مسألة الطلاق وتـــعدد الـزوجات وتحريم الربا تحريما باتا ، فكم من عالم غير مسلم صرح بأن الحق والعدل والخير للانسانية فى هذه المسائل هو ما شرعه الاسلام على الوجه الذى شرعه الاسلام• بهذه الاستقامة التامة العامة المطردة فى شرع جاء به رجل أمى من أمة أمية جاهلية يجزم كل عاقل بانه ليس من وضع العباد وانما هو من وضع خالق العباد •(*)

(*) الشهاب : ج 2 م 10 ـ شوال 1352 هـ جانفى 1934 م •

الوحي مصدر الاسلام

جملة « تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » بينت وجه استقامة ذلك الصراط الذى هو الاسلام بانه تنزيل العزيز الرحيم ٠ وأفادت أن جميع هذا الدين وحي من الله منزل على نبيه (ص) وهذا لأن مرجع الاسلام فى أصوله وفروعه الى القرآن وهو وحي من الله الى السنة النبوية وهى وحي أيضا لقوله تعالى : «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى» وكل دليل من أدلة الشريعة فانه يرجع الى هذين الاصلين ولا يقبل الا اذا قبلاه ودلا عليه ٠ وكل شىء ينسب للاسلام ولا أصل له فيهما فهو مردود على قائله ٠ وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من احدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ٠

الاسلام دين العز والرحمة : ذكر من اسمائه تعالى فى هذا الموطن **العزيز الرحيم** للتنبيه على أن هذا الدين الذى نزله الرب الموصوف بالعزة والرحمة هو دين عزة ورحمة ٠

ومن مقتضى العزة القوة والمنعة والرفعة،ومن مقتضى الرحمة الفضل والخير والمصلحة،وهذه كلها متجلية فى أحكام الاسلام ٠ والعدل والاحسان اللذان أمر الله بهما وانبنت أحكام الاسلام عليهما لا يكونان الا عن العزة والرحمة،فالذليل لا ينهض بالحكم ولا يقيم ميزان العدل،والقاسى لا يكون منه إحسان ٠

اهتداء واقتداء : فالمسلم المتحقق بالاسلام المهتدى بهدايته لا يكون الا عزيزا رحيما فالذلة من المسلم نقص فى اسلامه والقساوة مثلها نقص فيه،وقد ذكر الله تعالى سادات المسلمين فى عزتهم فقال : «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » ٠ وذكرهم فى رحمتهم فقال : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » ونعم القدوة هم لجميع المسلمين ٠

النذارة ثمرة الرسالة : كان من المرسلين لينذر الغافلين فالاول كمال والثاني تكميل،وقد فطر اللـه رسله (ص) على الرحمة وحب الخير فكانوا احرص الناس عـلى نجاة الناس وكمالهم وسعادتهم فصبروا عـلى تكذيبهم واذايتهم حتى أدوا أمانة الله اليهم وأقاموا حجته عليهم وكان الله ينجيهم ومن آمن بهم وينزل عقوبته بالمكذبين لهم وينصرهم عليهم فأعلم محمدا (ص) ـ بانه من المرسلين لينذر ـ ليأتسى بهم ويصبر صبرهم ويرجو من نصر الله له واهلاك أعدائه ما كان منه تعالى لهم ٠

اقتداء : العلماء ورثة الانبياء وما ورث الانبياء دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم ، والعلم مستمد من الرسالة،فعلى أهله واجب التبليغ والنذارة والصبر على ما في طريق ذلـك مـن الأذى والبلايا ، والعطف على الخلـق والرحمة وقد قال الله تعالى : « **فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** » ٠

التدريج في الانذار : ارسل الله محمـدا صلى اللـه عليه وآله وسلم للعالمين بشيرا ونذيرا ، ودرّجه في النذارة على مقتضى الحكمة من القريب الى البعيد فأمره بانذار عشيرته بقوله تعالى : « **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** » فصعد الصفا فنادى بطـون قريش حتى نادى العباس عمـه وصفية عمته وفاطمة ابنته وقال لهم اشتروا أنفسكم لا اغنى عنكم من الله شيئا ، وأمره بانذار من حول مكة من العرب بقوله تعالى : « **لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** » على الوجه الاقرب في معنى « **وَمَنْ حَوْلَهَا** » المؤيد بصدر الكلام وهو قوله : « **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** » ، ومثلها في انـذار العـرب ما في هذه الآية وهو قوله : « **لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** » ، فكان يعرض نفسه عـلى قبائل العرب في المواسم ٠ وامره بتعميم الانذار بمثل قـوله تعالى : « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** » ، فارسل رسله الى الامم تحمل كتبه الى ملوكها بالدعوة الى الاسلام وكان ذلك هو الانذار العام.

اندفاع اشكال : قد كان النبي يرسل الى قومه خاصة وارسل نبينا (ص) الى الناس عامة بمثل قوله : « **لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** » اى بالقرآن كـل من بلغه القـرآن ولا يشكل على ذلك مثل ما تقدم من الآيات في انـذار

عشيرته الاقربين وقومه العرب لانه ابتدأ بهما لحكمة التدريج وحق القريب لا للتخصيص بدليل ما جاء من آيات التعميم ٠

اقتداء : هكذا على المرء أن يبدأ فى الارشاد والهداية باقرب الناس اليه ثم من بعدهم على التدريج ، وعندما يقوم كل واحد منا بارشاد أهله واقرب الناس اليه لا نلبث ان نرى الخير قد انتشر فى الجميع ٠ فمن الاسر تتركب الامة فعندما يعنى كل واحد باسرته ترتقى الامة كلها بارتقاء اسرها كارتقاء اى كل بارتقاء أجزائه فيكون المعتنى بأسرته فى الوقت نفسه معتنيا بأمته وعندما يقصد بخدمة أسرته خدمة أمته يثاب ثواب خادم الجميع ، أسرته بالفعل وأمته بالقصد أو أسرته مباشرة وأمته بواسطة وكل هذا مما يثاب المرء شرعا عليه ٠

استطراد واستنباط : لما كان العرب لم يأتهم نذير قبل النبى صلى الله عليه وآله وسلم بنص هذه الآية وغيرها فهم فى فترتهم ناجون لقوله تعالى : « **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** » و « **أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ** » وغيرهما، وكلها آيات قواطع فى نجاة اهل الفترة ولا يستثنى من ذلك الا من جاء فيهم نص ثابت خاص كعمر بن لحى أول من سيب السوائب وبدل فى شريعة ابراهيم وغير وحلل للعرب وحرم ، فأبوا النبى (ص) ناجيان بعموم هذه الادلة ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس (ض) « ان رجلا قال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم يا رسول الله أين أبى ؟ قال : فى النار، فلما قفا الرجل دعاه فقال ان أبى وأباك فى النار » لأنه خبر آحاد فلا يعارض القواطع وهو قابل للتاويل بحمل الاب على العم مجازا يحسنه المشاكلة اللفظية ومناسبته لجبر خاطر الرجل وذلك من رحمته (ص) وكريم اخلاقه ٠

سبب الغفلة ودواؤها : أفادت الفاء فى قوله تعالى : « **فَهُمْ غَافِلُونَ** » ان غفلتهم تسببت عن عدم انذارهم ٠ فكل أمة انقطع عنها الانذار وترك فيها التذكير واقعة فى الغفلة لا محالة ٠ ولما كان ترك الانذار والتذكير موقعا فى الغفلة ، فالانذار والتذكير يزيلانها ، فقد عرفتنا الآية الكريمة بسبب الغفلة وبعلاجها لنحذر سببها ونعالج أنفسنا وغيرنا بعلاجها ٠

تطبيق : كان الناس منذ زمن قريب لا يسمعون ولا يسمع منهم لفظ الاهتداء بهداية القرآن العظيم والاقتداء بهدى الرسول الكريم (ص) والسير بسيرة السلف الصالح في النهوض باعباء الدنيا والدين وهم ـ الا قليلا ـ عن هذا غافلون ، أما اليوم بعد أن نهض العلماء المصلحون بواجبهم ونشروا دعـــوة الحق في قومهم فقد أصبح ذلك معروفا عند أكثر الناس وعناية طلاب العلم ومناط رغبتهم وفي متناول الناس بجمع طلقاتهم.وانا لنرجو من فضل الله المزيد . ونشاهد ذلك ـ والحمد لله ـ كل يوم يزيد فالحمد لله على ما علم وألهم وبصر ويسر . نساله دوام التفويق والتسديد يا رب العـالمـــين (1) .

(1) الشهاب : ج 3 م 10 ـ ذو القعدة 1352 هـ فيفري 1934 م .

لا يؤمن من سبق فى علم الله عدم إيمانه

« لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

(سورة يس ، الآية 7)

المناسبة : علم الله ان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يقوم بالنذارة لقومه ويبذل غاية جهده فى تنبيههم من الغفلة ، وانقاذهم من الهلكة . وعلم انهم لا يؤمن به الا أقلهم وعلم ان ذلك يكون من أعظم ما يؤلم النبى (ص) لشدة حرصه على ايمانهم ، وعظيم شفقته عليهم . ولعدم ظهور ثمرة ما بذله من جهد فى هدايتهم ، فاراد ـ تعالى ـ ان يقوى قلب نبيه (ص) على تحمل ذلك باعلامه به من أول الامر اذ ليس المؤلم المتوقع كالمؤلم الذى يصدم عن مفاجاة،واعظم منه الذى يصدم مع توقع ضده كما هنا فان المتوقع منهم بعد الانذار البالغ بالبرهان الساطع هو ايمان أكثرهم لا كفره .

المفردات : حق : وجب وثبت . **القول :** ـ قول الله فيهم بما سبق فى علمه انهم لا يؤمنون ـ **فهم** : أى أكثرهم .

التراكيب : نفى الايمان عنهم نفيا مؤكدا بالاخبار عن ضميرهم بجملة لا يؤمنون . وقرنت الجملة بالفاء السببية لتفيد ان من سبق فى علم الله عدم ايمانه لا يرجى ايمانه بحال فارتباط الثانى بالاول ارتباط لا انفكاك له.

المعنى : لقد وجب وثبت ما سبق فى علم الله فى أكثرهم وما كان من قوله بعدم ايمانهم فلا يرجى من ذلك الاكثر الذى سبق فى علم الله عدم ايمانه ايمان .

سؤال : ما مات النبي (ص) حتى عم الاسلام جزيرة العرب ودخل الناس في دين الله افواجا ولا شك ان الذين ماتوا على الكفر هم الاقل بالنسبة لمن آمنوا فما معنى قوله تعالى : « **حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ** » ٠

جوابه : الذين قام النبي (ص) بانذارهم وأقام بين ظهرانيهم مكررا للنذارة عليهم صباح مساء مدة ثلاث عشرة سنة هم أهل مكة ٠ فهم الذين تتعين ارادتهم من الضمير في قوله تعالى : « **اكثرهم** » ولا شك ان أكثر من انذرهم النبي (ص) من أهل مكة ماتوا على الكفر ٠

سؤال على هذا الجواب : هذا يقتضي ان المراد بلفظة « **قوما** » المتقدمة أهل مكة مع ان المفسرين فسروها بالعرب ٠

جوابه : نسلم هذا ويكون تفسير « **قوما** » بالعرب نظرا لمماثلتهم لاهل مكة في وجوب انذارهم باعتبار مشاركتهم لهم في الوصف وهو غفلتهم لعدم انذار آبائهم ٠

لا حجة لمن مات على كفره بما سبق من علم الله فيه : قامت حجة اللـه على خلقه بما ركب فيهم من عقل وما مكنهم من اختيار ، وما نصب لهم من آيات ومشاهدات، وما أرسل اليهم من رسل بآيات بينات، وهذه كلها أمور معلومة لديهم ضرورية عندهم لا يستطيعون ان ينكروا شيئا منها،فلا يمكنهم ان يجحدوا ما عندهم من عقل ومن اختيار ، ولا ان ينفوا ما يشاهدونه من الآيات في المخلوقات ، ولا ان ينكروا مجيء الرسل اليهم وما تلوا عليهم من آيات ٠ وبهذه الاشياء قامت حجة اللـه عليهم وكان جزاؤهم على ما اختاروه بعدها لانفسهم فاما ما سبق من علم الله فيهم فهو أمر مغيب عنهم غير مؤثر فيهم ـ لان العلم ليس من صفات التأثير ـ ولا دافع لهم ٠ فليس لهم أن يحتجوا به لانفسهم لانهم لم يعملوا لاجله ، كيف وهو مغيب عنهم ٠ وانما عملوا باختيارهم الذي يجدونه بالضرورة من أنفسهم ٠

توجيه للترتيب : تقوم حجة اللـه على العبد أولا ويعمل هو ـ كاسبا ومكتسبا ـ باختياره ثانيا ويظهر لنا ما سبق من علـم اللـه فيه بعد ان

اختار ما اختار ثالثا • ولهذا قدمت النذارة وما يرتبط بها على هذه الآية التى فيها بيان ما سبق من علم الله فيهم •

تقريب : قد يكون لرجل ولدان هو عالم بنفسيتهما واخلاقهما وسيرتهما ثم يأمرهما بأمر فيه الخير لهما وهو يعلم ـ بما علم من أحدهما ـ انــه يمتثل ، ويعلم ـ بما علم من الآخر ـ انه يخالف ويقول لاهل بيته ان فلانا سيمتثل ، وان فلانا سيخالف • فيظهر ما قاله وما علمه فى كل واحد منهما فجازى الممتثل على طاعته وجازى المخالف على عصيانه • فلا شك ان هـذا الرجل قد احسن الى ولديه بما أمرهما به من خير،وفعل ما تقتضيه أبوته من النصح والارشاد ولا يقدح فى ذلك علمه بما سيكون منهما • كما ان هذين الولدين قد نال كل واحد منهما ما يستحق دون ان يكون للمخالف منهما حجة على مخالفته بما كان يعلمه منه أبوه •

للـه المثـل الأعـلى،فقد أحاط بكـل شيء علما،فعلـم من سيطيعه ومن سيعصى • ولكنه الحكم العدل فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم الذى لا دخل لهم فيه بل جعـل جزاءهم بعد اقامة الحجة عليهم بما يكون مـن اختيارهم ليكون جزاؤهم على ما عملوا وما قدمت ايديهم،ومالهم دخل فيه بالكسب والاكتساب •

تعليم : ارايت كيف ان الله تعالى لم يجاز الخلق على مقتضى علمه فيهم وهو العلم الذى لا يتخلف،وانما جعل جزاءهم على اعمالهم ، فهذا تعليم لنا كيف تكون معاملتنا بعضنا لبعض فلا نجازى على مجرد الظن بل ولا عـلى مجرد اليقين وانما تكون المجازاة بعد صدور الاعمال • فرب شخص قدرت فيه الخير أو الشر ففعـل ضد ما قدرت فلو جازيته قبل الفعل لما طابـق جزاؤك موضعه ولنال كـل ما لا يستحقه،فالحكمة والعدل والمصلحة فى ربط المجازاة بالاعمال وهذا ما كان من الله فى مجازاة خلقه وهذا ما ينبغى ان نربط به المجازاة بيننا •

تمثيل حال المعرضين عن الحق المعاندين فيه

« إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » .

(سورة يس ، الآية : 8 ـ 9)

المناسبة : لما ذكر عدم ايمانهم وكان مبدأ ذلك باعراضهم عن الحق واختيارهم الكفر على الايمان ذكر ما عاقبهم الله به من منعهم عن الخير ودوام الاعراض عنه .

المفردات : الغل : ما يجعل فى العنق محيطا به . **الذقن :** مجمع اللحيين ، ملتقى عظميهما تحت الفم . **مقمحون :** رافعون رؤوسهم، يقال قمح البعير قموحا اذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع عن الشرب . ويقال اقمحه الغل اذا ترك رأسه مرفوعا لضيقه . **السد :** الحاجز بين الشيئين . **فاغشيناهم :** جعلنا عليهم غشاء أى غطاء ، أحاط بجمع الذات فمنع العيون من الابصار .

التراكيب : فهي الى الاذقان أى الاغلال منتهية من أسفل الأعناق الى الاذقان . وهذا كناية عن عرضها ولذا فرع عليه فهم مقمحون . فرع عدم إبصارهم على جعل سد أمامهم وسد خلفهم لالتزاق السدين بهم وضغطهما عليهم فكما لا يستطيعون معهما تحركا لا يستطيعون إبصارا، وكيف يبصر من وجهه ملتزق بالحائط مثلا .

المعنى : انا جعلنا فى اعناق هؤلاء الذين لا يؤمنون أغلالا ضيقة عريضة تركتهم رافعين رؤوسهم عن مناهل الايمان لا يستطيعون ان يطاطئوا رؤوسهم اليها فيرتووا . وجعلنا أمامهم حجابا وخلفهم حجابا محيطين وملتزقين بهم ومغطيين لجميع ذواتهم فلا يستطيعون معهما تحركا ولا إبصارا .

توجيه التمثيل : دعوا الى الايمان والتوحيد ومكارم الاخلاق وهـذه امور مدرك حسنها بالفطرة السليمة فهي كالماء الذى تقبل عليه الحيوانات بفطرتها فلما اعرضوا عنها شبهوا بالابل المقمحة عن الماء · ثم ان هذه الامور كما يدرك حسنها بالفطرة السليمة تدرك باستعمال النظر فيما بين يدى الانسان من الآيات التي يراها ويشاهدها وما خلفه من أيام اللـــه فى الامم التى بلغته أخبارها وانباؤها فلما اعرضوا عما يرون وما قد سمعوا شبهوا بمن جعل بين سدين ملتزقين ومحيطين به فجمد فى مكانه فلا هو يتحرك الى ناحية ولا هو يبصر شيئا ·

ترهيب : كل ما دعا اليه الاسلام من عقائد واخلاق وأعمال فهو مما تقبله الفطر السليمة وتدركه العقول بالنظر الصحيح فمن قابـل دعـوة الاسلام بالاعراض والعناد وخالف فطرته وعاكس عقله كان حقيقا بهذا العقاب الشديد من طمس البصيرة والطبع على القلب فذكر اللـه لنا هذه العقوبة بهـذا التمثيل البليغ الـذى صورها فى ابشع وافظع صـورة ، ليحذرنا من الاعراض عن الحق والعناد له ويخوفنا بعاقبة ذلك على أهله ·

تعليم : لكل انسان فطرته وعقله فعلينا اذا دعينا الى شيء أن نعرضه عليهما راجعين الى الفطرة الانسانية والى العقـل البشرى منزهين عـــن الاغراض والاهواء والاوهام والشبهات · فاذا كان هلاك هؤلاء بعـــدم الاستفادة منهما فان النجاة عندما تعرض الامور بالرجوع اليهما ، وتجد القرآن العظيم يخاطب العقل والفطرة ليعلمنا الرجوع اليهما والاستفادة منهمـــــا ·

من استوى عنده الإنذار وعدم الإنذار لا يرجى منه إيمان

« وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ » ·

(سورة يس ، الآية 10)

المناسبة : لما ذكر ـ تعالى ـ عدم ايمانهم لما سبق من علم الله فيهم ذكر هنا سببا آخر لذلك ، وهو استواء الانذار وعدمه لديهم ·

الترتيب : ذكر هذا السبب اثر ما تقدم من وصف حالهم في شدة الاعراض للتنبيه على ان من فسدت فطرته وانطمس عقله يستوي عنده الانذار وعدمه فلا يكون منه ايمان على كل حال .

المفردات والتراكيب : سواء : بمعنى مستو . والهمزة الاولى أصلها للاستفهام وليس مرادا هنا،وتسمى في مثل هذا التركيب همزة التسوية لوقوعها بعد لفظها ودخولها على الاول من أمرين يراد التسوية ما بينهما . وهي حينئذ من أدوات السبك ولذا يكون تاويل الكلام هكذا:سواء عليهم انذارك وعدم انذارك .

المعنى : ان أكثر أهل مكة الذين حكم الله بعدم ايمانهم بلغوا من شدة الاعراض والعناد الى حيث استوى عندهم الضدان:الانذار وعدم الانذار فمحقق منهم عدم الإيمان ومأيوس من صدوره من ناحيتهم .

تحذير : يذكر الله تعالى حالة هؤلاء الذين استوى عندهم الشيء وضده يحذرنا منها ومما يؤدي اليها من اهمال الفطرة وترك النظر . فان الانسان انما يمتاز على بقية الحيوان بتمييزه بين الحقائق بالفطرة والفكرة ، وادراكه الفوارق ما بينها . فاذا سلب هذه المزية التحق بالعجماوات بل كانت العجماوات خيرا منه لبقاء فطرتها سليمة لادراك ما فيها استعداد لإدراكه .

تجديد الإنذار للمنتفعين به وتبشيرهم

« إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ » .

(سورة يس ، الآية 11)

المناسبة : لما ذكر تعالى المأيوس من انتفاعهم بانذار النبي (ص) ذكر الذين ينتفعون به تانيسا له بهم وتقوية له بظهور ثمرة انذاره فيهم .

المفردات والتراكيب : الذكر : القرآن · وهو من اسمائه التى تكررت فى التنزيل · وال فيه للعهد · **الغيب** : الخلوة عندما يغيب الانسان عن عيون البشر · **التبشير** : الاخبار بما يسر · **المغفرة** : سترة الذنب بالتجاوز عنه وعدم المؤاخذة به · **الاجر** : الجزاء على العمل · **الكريم** : الطيب الشريف فى نفسه النافع فى اثره الذى لا يشوب ذاته نقص ، ولا منفعته ضرر · وأفاد المضارع فى تنذر تجديد الانذار للمتبعين وذكر اسم الرحمن ليفيد التركيب انهم يخشونه مع العلم برحمته وذلك يقتضى جمعهم بين الخوف والرجاء ·

الترتيب : ذكر المنتفعين بعد المأيوس من انتفاعهم ترقيا من الادنى الى الاعلى ، ولانهم كالزبدة التى يحصل عليها بعد طرح غيرها ، ولإراحة القلب من أولئك لتتوجه العناية التامة الى هؤلاء · وذكرت الخشية بعد الاتباع لانها لا تحصل الا به · وجيء بعد بالتبشير مقرونا بالفاء لانه انما يكون لاهل الاتباع والخشية بسبب اتباعهم وخشيتهم ، وذكر الاجر بعد المغفرة لان التحلية بعد التخلية والتزين بعد ازالة الاردان ·

المعنى : انما يتجدد انذارك وينتفع به الذين آمنوا وهم الذين اتبعوا القرآن وخافوا الله فى خلواتهم لصدق ايمانهم خاشين نقمته راجين رحمته وهؤلاء كما تنذرهم وينتفعون بانذارك بشرهم على اتباعهم للقرآن وخشيتهم بالغيب للرحمن بمغفرة ذنوبهم وجزاء شريف رفيع طيب نافع لا نقص فيه ولا تنغيص ـ على أعمالهم ·

دفع إشكال : أمر النبى (ص) بالإنذار العام ، ثم كان ممن أنذرهم قوم مأيوس منهم ، وهؤلاء هم المراد بقوله تعالى : « **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ** » الآيات ، وهم الذين جاء فيهم قوله تعالى : « **فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا** » الآية اذ لا فائدة من انذارهم ، وكان قوم آخرون آمنوا وهؤلاء هم المرادون بقوله : « **إِنَّمَا تُنْذِرُ** » الآية ، فلا منافاة بين قوله تعالى : « **لِتُنْذِرَ قَوْمًا** » الذى يقتضى التعميم وقوله : « **إِنَّمَا تُنْذِرُ** » الذى يقتضى التخصيص لان الاول فى مقام الانذار العام والثانى فى مقام تجديد الانذار والانتفاع به · واما الاعراض فلا يكون الا عن المأيوس منه من الكافرين ·

ارشاد : طريق السلوك الشرعي انما هي اتباع القرآن واكمل أحوال العبد ان يخشى الله ويرجو رحمته وأهل الاتباع والخشية لا يستغنون عن تجديد الانذار وذلك بدوام التذكير المشروع في الاسلام • وتذكير المؤمنين بانذارهم وتبشيرهم فلا يؤمنون من عذاب الله ولا يقنطون من رحمته •

صفة المؤمن من هذه الآيات : المؤمن الكامل هـو من سلمت فطرته ، وصـح ادراكه ، واتبع القرآن في عقده وخلقه وعمله ، واستـوت خلـوته وجلوته وسره وعلنه ، وعبد الله راجيا رحمته خائفا عذابه ، يخوفه الانذار وترجيه البشري بالمغفرة والاجر الكريم •

ثبتنا الله والمسلمين على الايمان مع هذه الصفات الى الممات آمين يا رب العـالمـين (1) •

---

(1) الشهاب : ج 5 م 10 ـ محرم 1353 هـ افريل 1934 م •

الحيـاة بعـد المـوت

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ... » .

(سورة يس ، الآية 12)

المناسبة : اشتملت الآيات المتقدمة على ذكر الرسول وصفته ، ورسالته التي جاء بها ــ وهي القرآن ــ ووصفها ، والمرسل وهو العـزيز الرحيم ، والمرسل اليهم وتعميمهم بالنذارة وانقسامهم الى معرضين معاندين ومقبلين متبعين • فجاءت هذه الآية مشتملة على ما تكون فيه نتيجة ذلك وثمرتـه وهو يوم القيامة • ووجه آخـر وهو ان أمهات أصـول العقائد ثـلاثة : الايمان بالله والايمان برسول الله والايمان باليوم الآخر • وقد انتظمت الآيات المتقدمة تقرير الاصل الثاني بالقسم عليه على ما تقدم من البيان وانتظمت الاصل الاول ضمنا بذكر العزيز الرحيم،فجاءت هذه الآية لتقرير الاصـل الثالـث •

سؤال : كيف لم يذكر الاصل الاول وهو الاصل الاول ــ الا بما ذكر به من الذكر الضمني ؟

الجـواب : ذلك لأمرين :

الاول : ان هذه الاصول الثلاثة تذكر في أكثر السور غير ان بعض السور تخصص بالحديث على بعض الاصول أكثر من غيره ولا يذكر فيها غيره الا ضمنا كما هنا •

الثاني : ان تقرير الاصل الثاني هو تقرير للاصل الاول اذ جميـع دلائل النبوة دلائل على وجود الخالق وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته •

المفردات : الاحياء : ايجاد الحياة فى الجسم ولا يكون الا من الله .
والميت : الجسم الذى يقبل الحياة ولا حياة فيه سواء أكانت فيه وزالت، أم لم تكن فيه بعد كالجنين قبل نفخ الروح فيه .

التراكيب : أكدت الجملة (بـأن) لأن الخطاب مـع منكـرى البعث والنشور . وأكد اسم ان بنحن ليفيد الاختصاص فهو المحيى دون غيره وعبر بنحيى فعلا مضارعا ليفيد تجديد الإحياء واستمراره، فيشمل احياءه للأجنة فى الدنيا وإحياءه الإحياء الثانى فى الأخروى، وكثيرا ما جاء فى القرآن الاستدلال على الإحياء الثانى بالإحياء الاول، فتكون كلمة نحيي قد اشتملت على العقيدة وهى الإحياء الثانى ودليلها وهو الإحياء الاول .

المعنى : يعرف اللـه تعالى عباده بانه هو الذى يحيى الموتى دون غيره ويذكرهم بما يشاهدونه من ذلك فيهم وهم أجنة فى بطون أمهاتهم فيؤمنون بانه يحييهم كذلك بعد موتهم ، فيستعدون من حياتهم الاولى لحياتهم الثانية.

إحصاء الأعمال المباشرة وغير المباشرة

« وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ... » .

المناسبة : لما اعلم الخلق بانهم يحيون بعد الموت اعلمهم بان أعمالهم المباشرة وغـير المباشرة مكتوبة عليهم لان حياتهم بعد الموت لنيل جزاء ما كتب عليهم من أعمالهم .

المفردات : قدم الشيء : جعله قدامه واعمال المرء التى يباشرها قدمها قبله فى طريقه الى الآخرة فهى محفوظة حتى يلحقها . **والاثر** : ما يحصل من العمل كالذى يحصل على وجه التراب من وضع الاقدام ويبقى بعـد رفعها فآثار الانسان ما يحصل من أعماله التى باشرها .

التراكيب : عبر بنكتب مضارعا ليفيد التجدد والاستمرار فما مـن عمل أو أثر يتجدد الا ويكتب . واسند الكتابة اليه والكاتبون الملائكة لانهم بأمره يكتبون .

المعنى : يعلم الله تعالى عباده بانه يكتب كل أعمالهم التى يعملونها ويباشرونها بانفسهم ويكتب كذلك ما يعمله غيرهم اذا كان متسببا عن أعمالهم واثرا لها .

تنظير : مثل هذه الآية فى الدلالة على أن العبد مؤاخذ بما عمل مباشرة وما عمله غيره وكان من آثار عمله ـ قوله تعالى : « يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » فالذى أخره هو اثره المذكور فى هذه الآية .

تاييد وبيان : فى صحيح مسلم من طريق جابر بن عبد الله (ض) قال: جاء ناس من الاعراب الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم الصوف فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة فحث الناس على الصدقة فابطأوا عنه حتى رؤى ذلك فى وجهه قال : ثم إن رجلا من الانصار جاء بصرة من ورق ثم جاء آخر ثم تتابعوا حتى عرف السرور فى وجهه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من سن فى الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن فى الاسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء » .

وفيه من طريق أبى هريرة (ض) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا . ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

فتأيد بهذين الحديثين فهم المعنى المتقدم من الآية وهو ان العبد له وعليه من آثار أعماله مما لم يباشره بنفسه مثل ما له وعليه من أعماله التى باشرها .

وبين الحديث الاول ان ما تسبب عن عمل المرء يعد اثرا لعمله عندما يعمل به فى حياته مثلما يعمل به بعد مماته . اذ الذى جاء بالصرة أولاً قد تسبب عن مجيئه مجيء من بعده على اثره . والحديث سبق فى شأنهم فتكون حالتهم أول ما يشمل كما بين الحديث الثانى ان اثر القول كاثر

الفعل اذ الكل عمل. وبين الحديثان أن نيل المرء جزاء عمله الذى لم يباشره لا ينقص من جزاء العامل المباشر شيئا .

تنبيه : من سورة الواقعة التى ورد فيها الحديث الاول علمنا أن المراد بـ : «من سن سنة حسنة او سيئة» هو من ابتدأ طريقا من الخير فى أعمال البر والاحسان وما ينتفع به الناس من شؤون الحياة . ولا يشمل ذلك ما يحدثه المحدثون من البدع فى العبادات من الزيادات والاختراعات اذ الزيادة على ما وضعه الشرع من العبادات وحدده افتيات عليه واستنقاص له وهذه هى البدعة التى قال فيها النبى صلى الله عليه وآله وسلم : (كل بدعة ضلالة) (وكل ضلالة فى النار) .

تحذير : على العاقل وقد علم انه محاسب عن أفعاله وعلى آثار أقواله ان لا يفعل فعلا ولا يقول قولا حتى ينظر فى عواقبه فقد تكون تلك العواقب أضر عليه من اصل القول وأصل الفعل . فقد يقول القول مرة ويفعل الفعل مرة ثم يقتدى به فيه آلاف عديدة فى ازمنة متطاولة . حقا ان هذا الشىء تنخلع منه القلوب وترتعد منه الفرائص ، وصدق القائل من السلف (ض) « السعيد من ماتت معه سيئاته » .

الإحصاء العام، فى الكتاب الإمام

« وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » .

المناسبة : لما اعلم العباد بانه يكتب لهم وعليهم اعمالهم اعلمهم بانه تعالى قد كتب كل الاشياء لا خصوص اعمالهم تعميما بعد تخصيص .

المفردات : **الاحصاء** : تحصيل الشىء بالعد وضبطه والاحاطة به . **الامام** : ما يؤتم ويقتدى به . والكتاب إمام لأنه يتبع فيؤخذ بما فيه ويعتمد عليه . **والمبين** : المظهر لما فيه فكل ما فيه ظاهر فيه .

التراكيب : اصل الكلام : احصينا كل شىء احصيناه فحذف احصينا الاول لدلالة الثانى فكان هذا أقوى فى ثبوت الاحصاء ووقوعه على كل شىء .

المعنى : يعلم الله عباده بانه حصل كل شيء من ذوات وأقوال وأفعال وجميع ما كان في العالم وما يكون واثبته فردا فردا في كتاب امام معتمد مظهر للاشياء التي فيه فهي فيه ثابتة ظاهرة جلية .

اعتبار : قد أحاط الله بكل شيء علما فهو غني بعلمه عن هذه الكتابة ولكنه جعل هذا الكتاب اظهارا لعظمة ملكه وليعلم عباده الضبط والاحصاء في جميع أمورهم وليبالغوا في محاسبة أنفسهم وليعلموا ان ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وما اخطأهم لم يكن ليصيبهم . فيزول من قلوبهم الخوف من الحوادث والمخلوقات وتعظم ثقتهم بالله وفي ذلك أعظم قوة في هذه الحياة وأكبر راحة للقلب في صروفها .

نسأل الله ان يقوي قلوبنا بالايمان ، وان يريحنا باليقين ، وان يعيذنا من الخوف الا منه ، ومن الخضوع الا له آمين يا رب العالمين (1) .

---

(1) الشهاب : ج 6 م ـ 10 صفر 1353 هـ ماي 1934 م .

الفــــرار الى اللــه

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) ، وَالْأَرْضَ
فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) ، فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
مُبِينٌ (50) ، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
مُبِينٌ (51) » .

(سورة الذاريات)

تمهيد : المقصود الاساسي من الآيات هـو تحذير الخلق من الهلاك وترغيبهم في النجاة ، ولا سبيل الى ذلك الا بالفرار الى الله فمهد لذلك بالآيات الثلاث الاولى للترغيب، وختم بالخامسة لبيان الفرار الصحيح المنجي عنـد اللـــه .

الآيــة الاولى :

الالفاظ والتراكيب : السماء : هى الجرم الاعظم الذى أحاط بالاجرام السابحة في الفضاء كلها وعلا عليها . **بنيناها :** ضممنا أجزاءها بعضها الى بعض بغاية الدقة والاحكام فكانت كالقبة فوق الجميع . **بأييْد :** بقوة . **لموسعون :** لمقتدرون ومطيقون على احتمال أن يكون من الوسع بمعنى القدرة والطاقة . أو لموسعون ومبعدون بين أرجائها على احتمال أن يكون مـن السعة . وقدمت السماء لانها المشاهد المحسوس الذى تقوم به الحجة . وليقع البناء عليها مرتين على لفظها وعـلى ضميرها،لان الأصـل ، وبنينا السماء بنيناها لتحقيق انها مبنية وأن بناءها لم يكن الا من اللـه القادر الحكيم ، ولذلك علق بالفعل قوله بأييْد ، والجملة الحالية تـدل عـلى أن

الايساع ثابت له عند البناء فذلك البناء العظيم لم ينقص من قدرته أو لم يمنع من توسيعه ·

المعنى : ان هذه القبة التى احاطت بكم من جميع الارجاء نحن بنيناها بقدرتنا ذلك البناء المحكم المتقن بنيناها ونحن على قوتنا وقدرتنا نقدر على بناء أعظم منها لو شئنا · أو نحن على قدرتنا وطاقتنا فى افاضة الخيرات والبركات منها عليكم ـ هذا على أنه من الوسع ـ أو بنيناها وقد وسعنا أديمها حتى أحاطت بهذه الاجرام السابحة التى منها ما لا يكون معه جرم الكرة الارضية الا كحمصة فوق مائدة كبيرة ـ هذا على أنه من السعة ـ ·

تحقيق آية كونية من الآيات القرآنية : السماء فى اللغة : هى كل ما علاك فكل ما علا الارض من سحب وطبقات هواء وكواكب تسبح فى الفضاء وما وراء ذلك من القبة المحيطة الكبرى هو للارض سماء ، وكل هذه متقنة الصنع محكمة الوضع متلاحمة الأجزاء ، مرتبط بعضها ببعض ارتباطا مقدرا بالمسافات المدققة التي لا يكون معها تصادم ولا ارتخاء ، ووضعها على هذه الصورة المنظمة المحكمة هو البناء وعليها كلها ينبغى أن يحمل لفظة السماء فى الآية المتقدمة ·

وقد جاء لفظ السماء فى القرآن مرادا به القبة المحيطة فى مثل « **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ** »،« **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ** » · وجاء مرادا به السحاب فى مثل : « **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ** » وجاء مرادا به طبقات الجو فى مثل : « **وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ** » والبرد يتكور فى طبقات الجو والمتتبع لمواقع لفظة السماء من الكتاب العزيز يتحقق هذا ·

الآيـــة الثـانية :

الالفاظ والتراكيب : الارض : هى هذه الكـرة التى نعيش عليها ، **فرشناها :** بسطناها بزينتها ومنافعها · **الماهدون :** من مهد الشيء وضمه وسواه وهياه للنوم والجلوس والراحة · ويجرى فى تقديم الارض ما تقدم فى تقديم السماء ، ومن يسير على هذا البساط المفروش ويطلع على ما هى

فيه من أسباب الحياة لكل ما فيه مـن حيوان لا يتمالك أن ينطق بالمدح والثناء على من هيأ هذه التهيئة ومهد هذا التمهيد ، ولذا قرنت الجملة الاخيرة بالفاء فقيل فنعم الماهدون ولا يغنى فرش الارض عن مهدها لان المهد يتضمن ما حصل فيها من مرافق ومواد واسباب للعيش على أديمها والتنعم بخيراتها ·

المعنى : ان الارض التى انتم متمكنون من الوجود على ظهرها والسير فى مناكبها والانتفاع بخيراتها نحن فرشناها لكم وهيانا لكم أسباب الحيـاة والسعادة فيها على أكمل وجه وأنفعه وأبدعه مما نستحق به منكم الحمد والثنـــاء ·

دقيقة كونيـة فى الآيـة القرآنية : شان الفراش أن يكـون ما تحته لا يصلح للجلوس والنوم عليه وما تحت وجه الارض هو كذلك لا يصلح للحياة فيه فان تحت القشرة العليا من الارض المواد المصهورة والمياه المعدنية والابخرة الحارة مما تنطق به البراكين المنتشرة على وجه الارض فى اماكن عديدة فكانت القشرة العليا مثل الفراش تماما ·

الآيـــة الثـالثـة :

الالفاظ والتراكيب : **ومن كل شيء** : من كل جنس مـن الاجناس · **خلقنا** : كونا · **زوجـين** : فردان متباينان يكمل أحدهما الآخر فى عالـم الحيوان وعالم النبات وعالـم الجماد · **تذكرون** : تذكرون ما أودع فى فطرتكم من المعرفة لما تنظرون بعقولكم فى عجائب الخلق فتتذكرون ما له جل جلاله من الالوهية والربوبية والوحدانية، وقدم من كل شيء لان الاشياء هى المستدل بها ولبعث الهمم على النظر فيها ·

المعنى : انا خلقنا الاشياء التى تشاهدونها على الزوجية والتركيب من شيئين متضادين لتكونوا بحيث يرجى منكم ان تعلموا أن النقص والعجز عم المخلوقات كلها لحاجة كل شيء منها الى ضده وقصوره بنفسه فالقدرة والكمال للخالق وحده فلا يستحق العبادة سواه فاعبدوه ووحدوه ·

توسع فى التذكر : النظر فى الازواج مفض للعلم بما ذكرنا وللعلـم بأن الخلق غير صادر عن طبيعة الاشياء ، فان النار ـــ مثلا ـــ لا يصدر عنها

التبريد والتسخين لان السبب لا ينتج الضدين ، فالمخلوقات كلها صادرة بطريق الخلق عن فاعل مختار . وللعلم بوجوه كثيرة من احاطة علمه وشمول حكمته وعموم نعمته .

حقيقة نفسية في نكتة بلاغية : اذا نظر العاقل في هذه الازواج وفكر انكشفت له وجوه سر دلائل الربوبية والالوهية والتوحيد ، واذا حصل الانكشاف الاول تبعته انكشافات فاذا حصل منه التذكر أفضى به الى تلك الوجوه الكثيرة ، ولهذا نزل الفعل منزلة اللازم الذى لا يراد منه الا حصول الحدث .

آية كونية في الآية القرآنية : من الازواج ما هو ظاهر مشاهد معلوم من قديم مثل السماء والارض والليل والنهار والحر والبرد والذكر والانثى فى الحيوان وبعض النبات ، ومنها ما كشفه العلم بما مهد الله له من اسباب كالجزء الموجب والجزء السالب في القوة الكهربائية وفي الذرة التى هى أصل التكوين ، فلا فردية الا لخالق هذه الازواج كلها الذى انبأنا بها قبل أن تصل الى تمام معرفتها العقول ، فكان من معجزات القرآن العلمية التى يفسرها الزمان بتقدم الانسان فى العلم والعمران .

بلاغة التنويع والتنزيل : لما كانت السماء متلاحمة الاجزاء فى العلاء ثابتة على حالة مستمرة فى هذه الدنيا على البقاء ناسبها لفظ البناء ، ولما كانت مظهر العظمة والجلال ناسبها لفظ القوة ، ولما كانت الارض يطرأ عليها التبديل والتغيير بما ينقص البحر من أطرافها وبما قد يتحول من سهولها وجبالها وبما يتعاقب عليها من حرث وغراسة وخصب وجدب ناسبها لفظ الفراش الذى يبسط ويطوى ويبدل ويغير . ولما كانت أسباب الانتفاع الميسرة ضرورية للحياة عليها وكلها مهيأة وكثير منها مشاهد وغيره معد يتوصل اليه بالبحث والاستنباط ـ ناسب ذكر التمهيد ، ولما كانت الازواج مكونا بعضها من بعض ناسبها لفظ الخلق ، ولما كان النظر فى الزوجين هو نظر فى أساس التكوين لتلك المذكورات السابقة وهو محصل للعلم الذى يحصل من النظر فيها قرن بلفظ التذكر .

الآيـــة الــرابعة :

الالفاظ والتراكيب : الفاء للترتيب لان ما قبلها على ما فيه من عظمة وكمال وجمال فهى مخلوقة موسومة بسمة العجز والنقصان فلا يصلح شيء منها للتعويل عليه فلم يبق الا الخالق القادر ذو الجلال والاكرام ، فهو الذى يفر اليه دون جميع المخلوقات • **فـروا :** اهربوا • **النـذير :** المعلم بما فيه هلاك لتجنب الاسباب المؤدية اليـه • **المبـين :** الذى يوضح ما أنذر منه والاسباب المؤدية اليه والوسائل المنجية منه مع اقامة الحجة عـلى صدقه ونصحه • وقـدم لكم ليفيد اهتمامه بهم وذلك يجلبهم اليه فيستمعوا لنصحه وبعده منـه ليبين مصدر رسالته وذلك ليبين لهم أنـه مأمور فلا يستكبروا عن قبول دعوته ، وأكد الجملة لانهم في مقام التردد أو الانكـــار •

المعنى : هذه المخلوقات كلها عاجزة فى نفسها مفتقرة ـ ابتداء ودواما ـ الى خالقها ، فاهربوا مـن شرها الى خالقها فهو الـذى ينجيكم من شرها ويهديكم الى خيرها ولا تغتروا بشيء منها فانها لا تملك حفظا لنفسها فكيف تملكه لغيرها ، اننى أحذركم الهلاك اذا اغتررتم بها وقطعتكم عن خالقها ولم تهربوا الى الله منها وقد أبنت لكم مصدر الهلاك وطريق النجاة •

نكتة التنويع : جاءت الثلاث الآيات الاول كما يكون قولها من اللـه، وجاءت هذه الآية كما يكون قولها من النبـى صلى اللـه عليه وآله وسلم تنويعا للخطاب وتفننا ، فانه لما كان ما فى هذه الآية هو المقصود حـول أسلوب الكلام من الاخبار الى الامر تجديدا لنشاط السامع وبعثا لاهتمام المخاطبين وحثا لهم وتوكيدا عليهم ، وفيه تنبيه على أن ما يقوله النبى صلى الله عليه وسلم مثل ما يقوله الله فى وجوب الايمان والامتثال •

بيان وتوحيد : هذا العالم بسمائه وارضه وازواجه هو فتنة للانسان بما فيه من لذائذ ومن جمال وما فيه من قوة وما فيه من سلطان . وقـد ركبت فى الانسان شهواته وأهواؤه وسلط عليه الشيطان يغويه ويـزين له ، فكل هذا العالم اذا ذهب فيه الانسان مع أهوائه وشهواته تحت اغراء الشيطان وتزيينه فانه ينحط الى أسفل السافلين ويصير عبدا لأهوائـه

وشهواته وشيطانه ولكل ما فتنه من العالم وذهب بلبه وقد ينتهى به ذلك الى عبادته من دون خالقه • فالعالم بهذا الاعتبار شر وبلاء وهلاك يجب الفرار والهروب منه ، ولا يكون هذا الفرار منه الا الى خالقه بالايمان به والتصديق لرسله والدخول تحت شرعه ، فبذلك يعرف الانسان كيف يجعل حدا لأهوائه وشهواته ، وكيف يضبطها بنطاق الشرع وزمامه ، وكيف يدفع عنه كيد شيطانه ، وكيف يتناول سماء العالم وارضه وازواجه بيد الشرع ، فيعرف ما فيها من نعمة وحكمة فيستغلها بهداية الشرع مفرقا علميا وعمليا بين منافعها ومضارها ، فيعظم بها انتفاعه ، ويزداد فيها اطلاعه واكتشافه ، فتتضاعف عليه منها الخيرات والبركات ، ويزداد علمه وعرفانه ، ويقوى يقينه وايمانه ، ويعظم لله بره وشكرانه فيكون له ذلك العالم جنة الدنيا وقنطرة لجنة الاخرى ويفوز من الدارين بالمبتغى ، كل هذا بفراره من المخلوقات الى خالقها فسلم من شرها وفاز بخيرها ، فمن هرب من المخلوقات الى خالقها نجا ، ومن فر من الخالق الى شيء من مخلوقاته كان من الهالكين •

ارشاد وتعميم : كل ما يصيب الانسان من محن الدنيا ومصائبها وأمراضها وخصوماتها ومن جميع بلائها لا ينجيه من شيء منه الا فراره الى الله ، ففي العدالة الشرعية ما يقطع كل نزاع ، وفى المواعظ الدينية ما يهون كل مصاب ، وفى الهداية القرآنية والسيرة النبوية ما ينير كل سبيل من سبل النجاة والسعادة فى الحياة ، يعرف ذلك الفقهاء القرآنيون السنيون ، واسالوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون •

تنبيه على وهم : ليس الفرار من الامراض بمعالجتها ومن المصائب بمقاومتها فرارا من الله لان الامراض هو قدرها والادوية هو وضعها ودعا الى استعمالها والتعالج بها ، وكذلك المصائب وما شرع من اسباب مقاومتها فكلها منه بقدره ، والانسان مامور منه بأن يعالج ويقاوم ، فما فر من قدره الا الى قدره • ولهذا لما قال أبو عبيدة لعمر رضى الله عنهما فى قصة الوباء : أفرارا من قدر الله يا عمر ؟ قال عمر نعم : نفر من قدر الله الى قدر الله

وفي الحقيقة كان الفرار من شر في مخلوق الى الله يرجـــو منه الخـير في غـــيره ·

تحذير من جهالة : ليس المقصود الفرار من الدنيا ترك السعي والعمل وتعاطي الاسباب المشروعة لتحصيل القوت ورغد العيش وتوسيع العمران وتشييد المدنية،بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها، وتناول ذلك كله على الوجه المشروع هو من الفرار اليه والدخول تحت شرعه كما قدمناه، وقد ضل قوم فزعموا ذلك طاعة وعبادة فعطلوا الاسباب وخالفوا الشريعة وحادوا عما ثبت من السنة ، وفيهم سئل امـام الحديث والسنة أحمـد ابن حنبل رحمه الله سئل عن القائل: اجلس لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي ، فقال : « هذا رجل جهل العلم أما سمع قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ان اللــه جعل رزقي تحت ظل رمحي » · وقوله : « تغدو خماصا وتروح بطانا » وكان الصحابة يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم وبهم القدوة » ·

تطبيق : اذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعتا ، فأما احداهما فالتجأت الى السلطان تستغيثه وتستعين به وتحطب في حبله فاغاثها وانتقم لها وأمدها وقربها وأدناها ، وأما الاخرى فلم تستغث الا بالله ولم تستنصر الا به ولم تعتمد الا عليه ولم تعمل الا فيما يرضيه من نشر هداية الاسلام وما فيها من خير عام لجميع الانام وتحملت في سبيل ذلك كل ما تسببت لها فيه الطائفة الاخرى ، ومـن تولته وهربت اليـه ـ اذا رأينا هاتـين الطائفتين عرفنا منها ـ يقينا ـ الفارة من الله والفارة اليه فكنا ـ ان كنا مؤمنين ـ مع من فر الى اللـه ·

الآيــة الخامسـة :

الالفاظ والتراكيب : ولا تجعلوا : ولا تضعوا من عند انفسكم ما لا وجود له · **الهـا** : معبودا تخضعون له وترجون منه التصرف في الكون ليجلب لكم النفع ويدفع عنكم الضر ، وتقدمت الفاظ آخر الآية ·

المعنى : ولا تجعلوا في فراركم الى اللـه شيئا معـه مـن مخلوقات تعتمدون عليه وتلتجئون اليه فتكونوا قد أشركتم به سواه فاني أحذركم

ما فى ذلكم من هلاككم بالشرك الذى لا يقبل الله معه من عمل ، واننى قد أبنت لكم لزوم توحيده فى الفرار اليه كما بينت لكم لزو ذلك الفرار .

نكتة التكرير : أعاد « انى لكم منه نذير مبين » مع الآية الخامسة ليبين لهم أن عبادة الله مع الاشراك به كتعطيل عبادته ، فهلاك المشرك كهلاك الجاحد . والنجاة أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا لا فى ربوبيته ولا فى ألـوهيته .

تنبيه وتحذير : جاء فى الحديث فيما رواه أصحاب السنن أن الدعاء هو العبادة ، فمن دعا غير الله فقد عبده ، ومن دعا مخلوقا مع الخالق فقد أشرك ، فاذا دعوت ، فادع ربـك ولا تدع معه أحـدا ، وكيف تدعو من لا يملك لنفسه نفعـا ولا ضرا ؟ واذا توسلت فتوسل بأعمالك بايمانـك وتوحيدك وباتباعك لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ومحبتك فيه واعتقادك ما له عند الله من عظيم المنزلة وسمو المقام عليه وعلى آله الصلاة والسلام .

بيان نبوى قـولى : قال عليه الصلاة والسلام فيما يقال عند النـوم : « لا ملجأ ولا منجى منك الا اليـك » والملجأ هو المهرب الذى يهرب اليـه والمنجى هو مكان النجاة/فبين لنا أنه لا يكون الهرب الا الى الله ولا تكون النجاة الا بالهرب اليه ، فمن هرب لغيره كان من الهالكين . كما بين لنا أن كل ما يجرى فى هذا العالم فهو بخلقه بقدره فلا مهرب ولا نجاة مما خلق وقدر الا اليه .

بيان نبـوى عملى : روى أحمد وابن جرير عن حذيفة بن اليمـان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حَزَبَه أمر صلى وفزع للصلاة يعنى اذا نزل به مهم أو أصابه غم فزع للصلاة . فبين لنا بالفعل أن الفرار الى الله بالتلبس بطاعته وصدق التوجه اليه والدعاء والتضرع والخشوع له والاستسلام لدينه وشرعه والاخلاص فى عبادته والاعتماد عليه ، وذلك كله موجود على أكمله فى الصلاة التى هى عمود الدين ومظهر كماله .

جعلنا الله والمسلمين من الفارين اليه والمقبولين لديه آمين (1) .

---

(1) الشهاب : ج 1 م 15 ـ محرم 1358 هـ 1939 م .

خلاصة تفسير المعوذتين

من درس الاستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس

الذى ختم به تفسير القرآن

كلمة بين يدى التلخيص :

أكمل طرائق المتقدمين من علماء هذه الملة فى تلقين العلوم ــ طريقة الاملاء • والاملاء نتيجة لاستحكام الملكة فى العلم واستقلال الفكر فيه ، أو سعة المحفوظ ورحابة آفاق الحافظة • واستحكام الملكة واستقلال الفكرة وقوة الحافظة مزايا تكاد تكون خالصة لعلماء سلف هذه الامة لم يبلغ علماء الامم الاخرى مد أحدهم فيها ولا نصيبه •

وكانت وظيفة السامعين كتابة ما يملى عليهم كله أو خلاصته ، وكانت المحابر والاقلام والاوراق هى الادوات اللازمة لرواد مجالس العلم الا فى مقامات مقابلة الاصول وضبطها • فهنا لابد من احضار النسخ الكاملة من الكتب •

ومن ثمرات تلك الطريقة المثلى فى التلقين والتلقى كتب الامالى فى الحديث واللغة والادب ، وفى تراجم المحدثين والادباء الشىء الكثير من ذلك ، وان لم يبق لنا الدهر منها الا الاقل من القليل •

ولما انتهى عصر الرواية بجمع روايات السلف فى التفسير ، ورواياتهم للاحاديث والسنن ، ودونت أصول اللغة والادب والعلوم المتفرعة عنها ، وجاء دور الاستغلال لها ــ نشأت عوامل الانحطاط فى العلوم الاسلامية ، وكان من أظهر مظاهرها جفاف القرائح ، وجدب الافكار ، وضعف القوى الحافظة ، وانحطت طرائق التلقين تبعا لذلك ، وانحصرت فى الطريقة

الشائعة الى اليوم • وهى التزام كتاب تتعدد نسخه بتعدد المتلقين لـه ، يحل الشيخ عباراته ، ويشرح معانيه • وانحطت وظيفة السامعين من الكتابة والتقييد الى الاستماع المجرد • ولسنا نعيب طريقة التزام الكتب وشرح معانيها بالكلام ، فذلك فى حقيقته نوع قاصر من الاملاء • وانما ننعى على السامعين اهمالهم لكتابة ما يسمعون ، فتضيع عليهم الفوائد التى يلقيها الاستاذ ، وقد تكون قيمة ، كما تضيع فى عصرنا هذا الخطب والمحاضرات المرتجلة التى لا يكتبها ملقيها ولا متلقيها •

ولسنا بصـدد التاريخ لهـذه الطرائق والمقارنة بينها وبيان وجـوه النقص والكمال فيها ، وانما ننبه في هذا المقام الى أن أسـوأ أثر لهـذه الطريقة الشائعة اليوم هو القضاء على الملكة العلمية ، لانها شغلت المعلم والمتعلم معا بالكتاب عـن العلم ، اذ أصبـح همهما كله مصروفا الى تحليل الكتاب ، وفك عباراته ، والقيام على اصطلاحاته الخاصة ، وفى بعض هذا ما يستغرق الوقت ولا يبقى سعة لادراك قواعد العلم وتطبيق جزئياته على كلياته ، وبعيد جدا على من يدرس علما على هذه الطريقة أن تستحكم ملكته فيه ، وكيف تستحكم ملكة الفقه مثلا لمن يقرأه من مثل مختصر خليل على هذه الطريقة فيمضى وقته في تحليل عباراته وتراكيبه المعقدة التى ذهب الاختصار بكثير من اجزائها ، وفى بيان التقديم والتأخير فى الالفاظ وربط المعمولات بالعوامـل البعيدة ، وارجاع الضمائـر المختلفة الى مراجعها ، والطفرة بالذهن من مذكور الى مقدر ، وهذا هو كل ما يشغل وقت المعلم والمتعلم ، وهم فى الحقيقة لا يدرسون علم الفقه ، وانما يدرسون كتابا فى الفقـه ، ودراسة الكتب لذاتها أصبحت اليوم فنـا كماليا مـن التاريخ ، لا أصلا فى تعلم العلوم •

والدارس لتاريخ العلوم الاسلامية يتجلى له هذا فى تراجم علماء تلك العلوم ، اذ يجـد فيها دائما أشباه هذه العبارة : كان أقوم الناس عـلى كتاب الجمل للخونجى ، أو على كتاب التهذيب للبرادعى ، أو على كتاب الشامل لابن الصباغ ، كان نافذا فى اقراء المحصل للرازى • كان سديد

البحث في مختصر ابن الحاجب الاصلي ، كثير المناقشة لعباراته · وأين سداد البحث وكثرة المناقشة فى عبارة كتاب من تحصيل الملكة فى علم ؟

ان الاصولى الحقيقى هو الذى ينفق مما عنده أو يقرأه من أى كتاب كان ، ولا يفتتن بكتاب معين هذا الافتتان ، وأن الفقيه الحقيقى هو الذى يفهم الفقه ، لا الذى يفهم كتابا فى الفقه ، وفى وقتنا هذا نسمع علمـاء المعاهد المشهورة يتمدحون بمثل هذا ، ويصفون من يحسن اقراء التنقيح للقرافي على هذه الطريقة بالاصولى المحقق ·

ولقد حاول جماعة من العلماء الحفاظ في القرون الآخيرة اصلاح هذه الحالة ، واحياء طريقة الامالى فلم ينجحوا لافتتان جمهور المتعلمين بالكتب وانصرافهم عن العلم الى كتب فى العلم ، حاول ذلك الحافظ بن حجر ، وهو أهل لذلك ، ولكن أهل زمنه لم يكونوا أهـــلا له ، ونعى معاصره ابن خلدون المؤرخ طرق التلقين فى زمنه وكثرة المؤلفات والمختصرات فى العلم وعدها عائقة عن التحصيل ، وحـاول ذلك بعـد ابن حجـر تلميذ الحافظ السيوطى وهو أهل لذلك على ما فيه من تبجح واستطالة ، وقـد شكا فى بعض رسائله اخفاقه فى هذه المحاولة بعبارة مرة ، ووصـــف انصراف الجمهور عنها بأنه من غلبة الجهل وكلال الهمم وضعف العزائم ·

نجمت فى هذه العهود الاخيرة ناجمة اضطراب وتبرم من طرائق التعليم المتبعة وكتبه الملتزمة وارتفعت الاصوات بالشكوى من اضرارها وســـوء عواقبها · وكان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده أعلى الحكماء صوتـا بلزوم اصحها ، وأبلغهم بيانا لاضرارها وسوءاتها ومعايبها ، وأسدهم رأيا فى تغييرها بما هو أجدى منها وانفع ، وأكثرهم عملا جديا فى ذلك ·

وكان من اصلاحاته العملية في هذا الباب درسه لكتاب الله بأسلوب حكيم لم يسبقه اليه سابق ، وكان ــ رحمه الله ــ وهو من هو فى استقلال الفكر واستنكار الطرائق الجامدة ، يجارى الطريقة الازهرية بعض المجاراة لاعتبارات خاصة ، ومن هذه المجاراة السطحية انه كان يلتزم فى تلـك الدروس العامرة بالحكم العليا تفسير الجلالين ويستهلها بقراءة عبارته ·

ولكن السامعين لتلك الدروس على كثرتهم وجلالة اقدارهم في العلم والمعرفة وتساويهم في الاعتقاد بأن تلك الدروس فيض من الهام الله اجراه على قلب ذلك الامام وعلى لسانه ، وانها مما لم تنطو عليه حنايا عالـــم ولا صحائف كتاب ـ لم تتسابق اقلامهم لتقييد تلك الدروس الا قليلا ، ولو أنهم فعلوا لما ضاع من كلام ذلك الامام حرف واحد • ولو لم يقيض الله محمد رشيد رضا لهذا العمل الجليل لضاع كله ، ولكن الله وفقـه لحفظ معاني تلك الدروس ، وسدد قلمه في ادائها ، ثم نهج نهجه بعـد موته وسار على شعاع هديه في تفسير كلام الله ، فأبقى لهذه الامة تلك الاسفار القيمة المعروفة بتفسير المنار •

مدت حركة الاصلاح العلمي مدها بعد موت الامـــام ، وانتشرت في الاقطار الاسلامية ، واسفرت عن اصلاح حقيقي لاساليب التعليم في المعاهد الحرة ، وعن اصلاح صوري في المعاهد الرسمية • ولا تزال الحرب قائمة في هذه المعاهد بين طلاب الاصلاح وبين أنصار الجمود ، وستكون العاقبة للمصلحين باذن الله • ولقد كان من حسن حظ الجزائر أن باعث النهضة العلمية فيها الاستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قد وضع أساس هذه النهضة على قواعد صحيحة من أول يوم ، فسلك في درس كلام الله أسلوبا سلفي النزعة والمادة ، عصري الاسلوب والمرمى ، مستمدا من آيات القرآن واسرارها أكثر مما هو مستمد من التفاسير واسفارها وقد قرأنا له في بعض افتتاحيات (مجلة الشهاب) أنه يعتمد في هذه الدروس على تفاسير مخصوصة في مواضع مخصوصة ، كالطبري في المأثور ، والكشاف في اسرار الاعجاز ، وذلك صحيح ومفيد لمن يجعـل فهـوم الرجال مقاييس لفهمه ، ولا يعطيها أكثر من أنها فهوم تصيب وتخطىء ، أما المعنى الصحيح لكيتاب الله فيستجليه من البيان العربي ، والشرح النبوي ، ومن مقاصد الدين ، واسرار التشريع ، ومن عجائب الكون ، وسنن الله فيه ، ومن احكام الاجتماع الانساني ، ومن تصاريف الزمن ، ونتائج العقول ،وثمرات العلوم التجريبية •

واذا كان من دواعي الغبطة ختم تفسير القرآن على هذه الطريقة في القطر الجزائري فان من دواعي الاسف أنه لم ينتدب من مستمعي هـذه

الدروس من بقيدها بالكتابة ، ولو وجد من يفعل ذلك لربحت هذه الامة ذخرا لا يقوم بمال ، ولاضلع هذا الجيل يعمل يباهى بـه جميع الاجيال ، ولتمخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حجة هذا القرن على القرون الآتية • ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة فى الشهاب باسم مجالس التذكير علم اى علم ضاع واى كنز غطى عليه الاهمال •

ولما كان اليوم المشهود بختم هذه الدروس جمع احد الحاضرين(1) ما وعته ذاكرته وأمكنه تقيده من معنى درس الختم فى تفسير المعوذتين ، وتصرف فى الفاظه بما لا يخرج عن معانيه ، اذ لم يكن من الميسور أن يلتقط الالفاظ كلها • فجاء بهذه الخلاصة التى ننشرها على الناس فى هذا العدد (الخاص بالاحتفال) لافتين انظارهم الى أن هذه الخلاصة محيطة بمعانى الدرس مع تصرف ضرورى اقتضته مساوقة ما كتب لما قيل •

استهل الاستاذ الدرس بعـــد الاستعاذة والتسمية بالتحميد المأثور : الحمد لله إن الحمد لله • نحمده ونشكره ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا • من يضلل الله فلا هادى له ، ومن يهد فما له من مضل ، ونشهد أن لا اله الا الله ونشهد أن محمدا عبده ورسوله•

ثم عقب بما ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبدأ بـه خطبه • وجرت عادة المحدثين والمفسرين ان يفتتحوا به مجالس التحديث والتفسير وان اختلفت الروايات فى ألفاظه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : اما بعد فان أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الامور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالـــة •

ثم قال توطئة للدخول فى تفسير المعوذتين ما معناه مع تصرف وتوضيح بنى هذا الكون الدنيوى على أن يقترن فيه الخير بالشر ، وان يتصلا وان يشتبها وان يحيطا بالانسان من جميع جهاته فتكون أعماله الكسبية فى الحياة مكتنفة بهما، دائرة بينهما، موصوفة بأحدهما، ولابد ذلك من قدر

(1) ش• هو الاستاذ البشير الابراهيمى كاتب التلخيص •

الله ومن سننه العامة فى هذا العالم الانسانى . وحكمته المبنية فى وحيه هى ابتلاء خلقه ليجازوا على ما يكون من كسبهم وسلوكهم بعد أن وهبهم العقل والتمييز وأكمل عليهم نعمته بهداية الدين ، عدلا منه تعالى ورحمة ـ وحكمة أخرى وهى تمرين هذا الانسان فى حياته العلمية والعملية وتدريب فكره على اختيار الانفع على النافع ، والنافع على الضار ، ثم سوق الجوارح الى العمل على ذلك الترتيب وترويضها عليه ٠

والانسان يكتسب القوة والدربة بتمرسه على ما يلقاه من الخير والشر بعمله وبفكره ، وللفكر الانسانى عمل سابق لاعمال الجوارح المجترحة وسائق لها ومهيء لما يظهر أنه من بدواتها ٠

وهذا العمل الفكرى تظهر قوته فى نواح منها ـ وهو اهمها ـ التمييز بين الخيرو الشر ، وادق منه التمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ٠ فان الخير درجات وأنواع . والشر كذلك دركات وأنواع ٠

والانسان فى هذا الخضم الذى تلاطمت أمواجه ، وفى هذا الفضاء الذى تشابهت افواجه ، محتاج الى معونة الهية فى تمييز الخير من الشر ٠ وقد أمده الله بهذه المعونة من دينه الحق ، ومحتاج الى تاييد الهى يعصمه من الشر ويقيه من الوقوع فيه عن جهالة أو عمد ٠ وقد هداه الله الى اسبابه ووسائله بما شرع له من المنبهات عند طروق الغفلة ٠ والمبصرات عند عروض الشبهة والمعوذات المحصنات عند المام لمة الشيطان وطواف طائفه ٠ ومن هذه المعوذات عقائد تدفع عن صاحبها الشكوك وهى شر ، وحقائق تقى صاحبها الوهم وهو شر ، وعبادات تربى مقيمها على الخير وتنهاه عن الفحشاء والمنكر ٠ واعمال تثبت فاعلها على الحق ٠ وأقوال يمليها القلب العامر بتقوى الله والخوف من مقامه على الالسنة لتكون شهادة لها وعنوانا عليها ٠ والالسنة تراجمة القلوب فكان مما شرع الله لنا فى كتابه وعلى لسان نبيه التعوذ باللسان من الشر والباطل . وانزل الله عليه هاتين السورتين وفيهما الاستعاذة بالله من أنواع من الشرور هن أمهات لما عداهن ٠ وكان نبينا عليه السلام يكثر التعوذ باسم الله وكلماته من أنواع أخرى من الشرور مفصلة فى صحاح السنة ٠

اما السورتان فيكفى فى فضلهما ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن عقبة ابن عامر الجهنى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألم تر آيات انزلت الليلة لم ير خير منهن قط: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) . وفى رواية أخرى فى مسلم عنه تسميتهما بالمعوذتين ، وفى رواية أبى أسامة فى مسلم أيضا وصف عقبة بن عامر بانه كان من رفعاء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . فتسمية هاتين السورتين بالمعوذتين تسمية نبوية مأثورة كأسماء جميع سور القرآن . وقد يقال المعوذات ويراد بها ما يشمل سورة الاخلاص . وكفى بما فيها من أصول العقائد معاذا من الشرك وهو أصل الشرور كلها ...

وحديث مسلم هو أصح ما ورد فى نزولهما . وأما ما يذكر في نزولهما فى قصة سحر النبى صلى الله عليه وسلم فان ذلك لم يصح سببا لنزولها . وان كان لقصة السحر وصاحبها لبيد بن الاعصم أصل ثابت فى الصحيح وقد تساهل كثير من المفسرين فى حشر هذا السبب فى تفسيرهما وفى حشر كثير مما لم يصح فى فضائلهما ولنا فيما صح غنية عما لم يصح .

وهذه الخيرية التى اثبتها لهما حديث عقبة عند مسلم هى خيرية نسبية فى ناحية مخصوصة . وهى ناحية التعوذ بهما من الشرور العامة والخاصة المذكورة فيها . ودليل هذه النسبية ما اخرجه النسائى فى سننه عن ابن عباس الجهنى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : (يابن عباس الا ادلك أو الا اخبرك بافضل ما يتعوذ به المتعوذون ؟ قال بلى يا رسول الله ، قال : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ هاتين السورتين .

فبين صلى الله عليه وسلم ان خيريتهما وافضليتهما من جهة ما تشتملان عليه من معنى التعوذ وهو من المعانى الداخلة فى دائرة ما كلفنا الله به .

ولهاتين السورتين خصوصية غير المناسبات التى يذكرونها فى ارتباط بعض السور بالبعض ، ويستخرجون منها بالتدبر ما لا يحصى من الانواع وهذه الخصوصية هى ختم القرآن بهما ، وهما كالسورة الواحدة . فما هى الحكمة من ختم القرآن بهما ؟ وترتيب السور توقيفى ليس من صنيع جامعى المصحف ، كما ذكره السيوطى فى الاتقان وجماعة .

يستطيع ممارس القرآن ومتدبره ومتلقيه بالذهن المشرق والقريحة الصافية ان يستخرج من الحكم فى هذا الختم بهما إنواعا ، ولكن اجلاها واوضحها أنهما ختم على كنوز القرآن فى نفس المؤمن • وتحصين لهذه النعم المنثالة من القرآن عليه أن يكدرها عليه كيد كائد أو حسد حاسد ، فان من أوتى الشىء الكريم ورزق النعمة الهنية هو الذى تمتد اليه أيــدى الاشرار والسنتهم بالسوء ، وتقذفه عيونهم بالشرر ، وتتطلع اليه نفوسهم بالحسد والبغضاء ، ويشتد عليه تكالبهم سعيا فى سلبه منه او تكديره عليه وبقدر النعمة يكون الحسد ، وعلى مقدار نفاسة ما تملك تكون هدفا لكائد الكائدين ، وتأتيك البلايا من حيث تدرى ولا تدرى ، ومن أوتى القرآن فقد طوى الوحى بين جنبيه وأوتى الخير الكثير ، فهو لذلك مرمى أعين الحاسدين ، ومهوى افئدة الكائدين • فكان حقيقا وقد ختم القرآن حفظا او مدارسة أو تلاوة أن يلتجىء الى الله طالبا منه الحفظ والتحصين من شر كل كيد وحسد يصيبه على هذا الخير العظيم الذى كمل له ، وهــذه النعمة الشاملة التى تمت عليه • هذه حكمة •

والأخرى وهى أن من أوتى القرآن وتفقه فيه فقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، واحاط بالعلم من اطرافه ، وملك كنزه الذى لا ينفد • وان من آفات العلم اغترار صاحبه به ، وقد يتمادى به الغرور حتى يسول له ان ما اوتيه من العلم كاف فى وقايته من الاضرار ، ونجاته من الاشرار فكان من رحمة الله بصاحب القرآن ولطف تاديبه له وحسن عنايته به ان ختم بهاتين السورتين كتابه لتكونا آخر ما يستوقف القارىء المتفقه ، وينبهه الى أن فى العلم والحكمة مسالة لم يتعلمها الا الآن • وهى إنه مهما امتد فى العلم باعه واشتد بالحكمة اضطلاعه فانه لا يستغنى عن الله ، ولابد له من الالتجاء اليه، والاعتصام به، يستدفع به شر الاشرار وحسد الحاسدين، وكفى بهذه التربية قامعا للغرور • وانه لشر الشرور •

هذه هى المناسبة العامة بين جميع القرآن مرتبا ترتيبه التوفيقى وبين هاتين السورتين فى اتحاد موضوعهما •

واما المناسبة الخاصة بين السورتين وبين سورة الاخلاص فهى ان سورة الاخلاص قد عرفت الخلق بخالقهم بما فيها من التوحيد والتنزيه والتمجيد• فاذا قرأت القرآن وتدبرته على ترتيبه ، ووجدت توحيـــد الله منبثا فى آياته وسوره ، متجليا ذلك التجلى الباهر بمعارضه وصوره ، سادا ببراهينه على النفوس كل ثنية وكل مطلع ـ كانت آخر مرحلة يقطعها فكرك مـن مراحل التوحيد فى القرآن هذه السورة المعجزة على قصرها ، فكأنهـــا توكيد لما امتلأت به نفسك من معانى التوحيد ، وكأنها وصية مودع مشفق بمهم يخشى عليك نسيانه • فليعمد فيها من الكلام الى ما قل ودل ولم يمل•

ومن صدقك فى توحيدك لله فى ربوبيته والهيته أن تنقطع عن هذا الكون وتكون منه وكأنك لست منه بصدق معاملتك لله واخلاص توحيدك اياه • فانت وقد آمنت وصدقت وخرجت من سورة الاخلاص متشبعـا بمعانيها ، ومنها معنى الصمد ـ تستشعران العالم كله عجز وقصور ، وان خيراته مكدرة بالشرور • وان لا ملجأ الا ذلك الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد • فتجىء المعوذتان بعد الاخلاص مبينتين لذلك الالتجاء الذى هو من تمام التوحيد •

ولاجل هذه المناسبة والارتباط بين السور الثلاث جمع بينهـــن فى التسمية ، ففى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينفث عن نفسه بالمعوذات وسياق النسائى لحديث عقبة بن عامر المتقدم ان رسول الله قرأ وقرأت معه الاخلاص ثم قل أعوذ برب الفلـق وقل أعوذ برب الناس فلما ختمهن قال : ما تعوذ بمثلهن أحد • وكمـا جمع صلى الله عليه وسلم بينهن فى التسمية والتعوذ جمع بينهن عمليا فى قراءة الوتر •

هذا اجمال المناسبة الخاصة بين السور الثلاث •

ســـورة الفلـــق

« قُــلْ أَعُــوذُ بِــرَبِّ ٱلْفَلَــقِ ... » .

(سورة الفلق ـ الآيات : 1 ـ 2)

الامر المفرد للنبى عليه السلام . ومن حسن الادب فى مقدرات القرآن ان تقدر فى مثل هذا الامر أيها الرسول أو أيها النبى ، لانهما الوصفان اللذان نطق بهما القرآن فى نداء النبى عليه السلام ، وان لا تقدر يا محمد كما هو جار على الالسنة وفى التصانيف،فان القرآن لم يخاطبه باسمـــه والامر لنبينا أمر لنا لاننا المقصودون بالتكليف ، ولا دليل على الخصوصية، فهو فى قوة : قل أنت ، وقل لامتك يقولون .

وأعــوذ : استجير والتجيء ويتعدى هو وجميع تصاريفه بالبـــاء ، كاستجير . والعوذ والعياذ مصدران منه كالصوم والصيام ، وفى القرآن مما جاء على المعنى اللغوى : «**يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ**» ومن كلام العــرب : (قد استعذت بمعاذ) .

والــرب : الخالق المكون المربى ، ومواقع استعمال هذه الكلمــة فى القرآن هى التى تكشف كل الكشف عن معناها الكامل .

والفلــق : الفجر المفلوق المفرى . ومن لطائف هذه اللغة الشريفة ان الفتح والفلح والفجر والفلق والفرق والفتق والفرى والفا والفقا والفقه كلها ذات دلالات واحدة ، وتخصيصها بمتعلقاتها باب من فقه اللغة عظيم .

ومما وصف به ربنا نفسه فى القرآن **فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ** ، **وَفَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ** ، فهما من اسمائه تعالى .

ومواقع هذه الالفاظ التى تضاف الى كلمة رب فى القرآن كمواقـــع أسماء المخلوقات التى أقسم بها الله ، كلاهما عجيب معجز ، فكل لفظـة

تستعمل في المقام الذي يناسبه وتناسبه ، وكل لفظة تبعث في الاسلوب الذي وقعت فيه متانة وقوة وفي معناه وضوحا وجلاء ، وسر اضافة الفلق الى رب هنا أن الفجر بمعناه العرفي هو تشقق الظلمة عن النور ، فان الليل يكون مجتمع الظلمات عن النور مسدود الارواق · فاذا جاء الصبح حصل الانفلاق · والذى يبقى بعد ذلك الانفلاق هو النور الذى نفي الظلمة · ولا ينفي ظلمات الشر والضلال والباطل الا أنوار الخير والهدى والحق من خالقها ، وفالق أنوارها · وكما أضيف الفلق ، بمعنى الفجر ، الى كلمة رب هنا اقسم به في آية أخرى وهي قوله تعالى : وَالْفَجْرِ ·

« مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » ·

من كل مخلوق فيه شر ، فلا يدخل في عمومه الا كل شرير من أى العوالم كان ، كما يدخل في عموم الناطق كل ذي نطق ، أو من شر كل مخلوق · ومن مخلوقات الله ما هو خير محض كالانبياء والملائكة · ومعلوم ان المخلوقات كلها خلقت بحق ولحكمة فهي في نفسها خير ، فان كان لا ينشأ من اعمالها أو آثارها الا الخير فهي الخير المحض ، وان كان ينشأ عنها شر أحيانا أو دائما فعملها هو الشر وهو المستعاذ منه · وتصح نسبة هذا القسم الى الله من حيث الخلق والحكمة ، ونسبة أعماله اليه من حيث التقدير والتكوين لا من حيث الرضى والتكليف ، فالله لا يرضى بالشر ولا يكلف به ، وقصارى ابليس ـ وهو مادة الشر في هذا الوجود ـ ان يزين الشر ويلبسه بالخير · فالشر بيد الله خلقة وحكمة لا رضا وتكليفا ، والخير بيد الله خلقة وحكمة ونعمة وامرا ·

وقد يكون الشر ذاتيا لا ينفك ، وقد يكون نسبيا باعتبار حالة تعرض وتجاه يقصد ونعم الله على عباده قد تنقلب عليهم شرا وبلاء بسبب سوء تصرفهم فيها ، كالمال الذي سماه الله خيرا في القرآن ـ يكسبه صاحبه من الوجوه الشرعية وينفقه في الوجوه المشروعة · ويتحرى رضا الله في جمعه وتفريقه فيكون خيرا بذاته وبعمل صاحبه · ويتصرف فيه بعكس ذلك فيكون شرا لا من ذاته بل من عمل صاحبه ·

وهذا العالم الانسانى المكلف هو الذى يتجلى الخير والشر فى اعماله . ويتصلان بحياته اتصالا وثيقا . وانما عيب عليه الشر وقبح منه لانــه قادر على تمييزه واجتنابه ومكلف بذلك . وقد وضع له الدين قوانين ثابتة للخير والشر ، ووضح له أن الخير ما نفع وأن الشر ما أضر . ولكنه وان اوتى قوة التمييز لم يؤت قوة الاستعصام ابتلاء من الله . فأما المخذول فياتى الشر عامدا متعمدا وهو يعلم أنه شر . وأما الموفق فيواقع الشر فى مواقف يشتبه عليه فيها الخير بالشر ويعسر التمييز ، والخــير والشر لا يوزنان بميزان حتى يستوى الناس كلهم فى ادراكه ، وقد تدق الفوارق بينهما حتى تخفى ، وفي هذه المواقف يجب الالتجاء الى الله ليرينا الخير خيرا ويكشف لبصائرنا عن حقائق الشر فلا يلتبس علينا بشىء ، وبعد ان يوجه الاضطرار نفوسنا هذا التوجيه الصحيح تندفع ألسنتنا ونقول : « أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » .

وبهذا تظهر المناسبة الدقيقة بين رب والفلق ، فان رب الناس ومربيهم وسائقهم الى ما يكمل وجودهم هو الذى تنكشف لعلمه سرائرهم ، والفلق نور يكشف للعيان كل المبصرات فترى على حقائقها ومقاديرها ، لا يزيــغ البصر فى شىء منها ولا يطغى ، والانسان مهما يكن عالما فقد تخفى عليه حقائق المعقولات فيزيغ فكره ويطغى .

ومناسبة أخرى : وهى ان الشر ظلام ، وقد أجرى الله فى فطر البشر تصور الشر كالظلام وأجرى على ألسنتهم تشبيه الشر بالظلام ، ذلك أن ما يلابس احساسهم من الانس بالنور والبشاشة له هو عين ما يلابسه من الانس والبشاشة للخير ، وان ما يضايقهم من وحشة الظلام وتوقع الهلاك فيه هو عين ما يضايقهم من ذلك فى الشر .

هذا كله فى الشر على عمومه . ثم خصص تعالى من هذا ثلاثة أنواع من الشر لشدة تعلقها بحياة الانسان وكثرة عروضها له ، ويجىء أكثرها من أخيه الانسان ، ورتبها ترتيبا بديعا لا يستغرب فى جنب بلاغة القــرآن ودقته فى رعاية المراتب وتنسيقها فى العرض على الاذهان .

هذه الثلاثة هي : **الغاسق اذا وقب ، والنفاثات في العقد ، والحاسد اذا حسد** • **والغاسق** : الليل المظلم ، والمراد هنا المصيبة تطرق ليلا وعلى غرة • **ووقب** : دخل في الوقب وهـو النقرة في الشيء • **والنفاثات** : السواحر ينفثن الريق واللفظ ، جمع نفاثة ، كثيرة النفث • **والعقد** : جمع عقدة ، بيان لعادة السواحر المعروفة من عقد الخيوط ونفث الريق عليها •

والجامع بين الثلاثة هو اشتراكها في الخفاء ، فان الغاسق ظلام تخفى فيه الشرور ، والنفاثات مبنى أمرهن على الاخفاء تخييلا وايهاما ، والحسد داء دفين • فالثلاثة كما ترون شرها خفي ، وكل شر يخفى عمله أو يخفى أثره يجل خطبه ويعظم خطره • فيعسر التوقي منه والاحتياط له • لأنك تتقي ما يظهر ويستعلن لا ما يخفى ويستتر • لا جرم كانت الثلاثة جديرة بالتخصيص ، أما نكتة الترتيب فان الليل ليس شرا في نفسه ولا الشر من عمله ، وانما هو ظرف للشرور ، والعلاقة بين الشيء وظرفه مكينة في النفوس قوية في الاعتبار مسببة للحكم على أحدهما بحكم الآخر ، بخلاف النفاثات والحساد فان الشر من عملهما ومن وصفهما ، ولانطباعهما عليه صار ذاتيا لهما • ولا شك أن الشر الذاتي أمكن من العرضي ، كما ان بين الاثنين تفاوتا في ذاتية الشر وقوته وعسر التوقي منه • فالنفاثات وان كن يتحرين اخفاء عملهن ولكنه مما يمكن ظهوره وافتضاحه بخلاف الحاسد فانه يخفي شره ويبالغ فيظهر بمظهر الخير فشره أشد والتوقي منه أعسر ، ففي الترتيب بين الثلاثة ترق من الاخف الى الاشد • ومن جهة أخرى نجد التناسب ظاهرا بين الثلاثة : الغاسق والنفاثات والحاسد ، فان الجميع ظلام ، ظلام الزمن وظلام السحر وظلام الحسد • وفي تقييد الغاسق بالوقوب احتمالان كلاهما صحيح مفيد للمراد • **الاول** : أن وقوب الغاسق عبارة عن اعتكار الظلم وتكاثفها ، فكأن بعض اجزائها يدخل بعضا والظلام يبدأ خفيفا مشوبا باسفار من الشفق أو من طبيعة الارض، ثم يشتد ويحلولك حتى يغطي على كل شيء ، فتلك التغطية هي الوقوب • والوقوب على هذا الاحتمال منظور فيه الى ظرفه الزماني • وفائدة القيد حينئذ ان تلك الحالة المصورة بهذه الجملة هي التي تقع فيها الشرور من الآدميين

وغيرهم · فالطارق يطرق والسارق يسرق والحيات تنتهش ، والضوارى تفترس · وظلام الليل يستر ذلك كله ويعين عليه ويعوق عن الاستسراخ والاستنجاد · والعرب تقول فى ما يشير الى هذا : الليل اخفى للويل ·

فالمستعاذ منه على هذا الاحتمال شر يقع فى زمان · **والاحتمال الثانى :** أن الوقوب فى حقيقته هو دخول شىء فى شىء دخولا حسيا فيقتضى ظرفا مكانيا ، وما هذا الظرف الا الابنية والمساكن ، وللظلام حين يهجم يدخل المساكن فيملأها ويكون دخوله فيها أبين مــن دخوله فى الفضاء وملــؤه اياها أشد ، فالوقوب على هذا منظور فيه الى ظرفه المكانى ، لان الشرور التى ترتكب فى البيوت حــين يغمرها الظلام اكثر مما يرتكب منها فى الفضاء ، خصوصا من الآدميين والمستعاذ منه شر يقــع فى مكان ، وعــلى الاحتمالين لما كان الليل معوانا لذوى الشر على شرهم أضيف الشر اليه واستعيذ بالله منه · **النفاثات :** صفة اما للنفوس فتشمل الرجال والنساء وتكون الاستعاذة من شر كل من يتعاطى هذا الفعل رجلا كان أو امــرأة ، واما للنساء وخصصن بذلك لان وقوع هذا الفعل منهن أكثر ، وهن بــه أشهر · والنفث اخراج الهواء من الفم مدفوعا بالنفس بدون بصاق ، أو مع قليل منه تتطاير ذراته وهو دون التفل ، والنفث وان كان عاما لكنه اشتهر فيما يفعله السحرة ، يعقدون خيطا ويتمتمون عليه برقى معروفة عندهم وينفثون على كل عقدة منه بقصد ايصال الشر من نفوسهم الخبيثة الى نفس المسحور · «وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ»· وما آمرنا الله بالاستعاذة من شره الا لانه يؤثر فى بعض النفوس القابلة للتأثر به ، حاشا النفوس المعصومة كنفوس الانبياء ، فــان شرور الــدنيا واسوأها لا تعدو أبدانهم الى أرواحهم · ولا يتعاصى على هذه القاعدة ما ورد فى سحر لبيد بن الاعصم اليهودى لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وما يوهمه لفظ الرواية فان ذلك كله لا يخرج عن التأثر البدنى · ونحن نعتقد دينا أن تاثير المؤثرات هو من وضع الله وحده · ونقطع علما وتجربة أن للقوى النفسية تاثيرا أعظم من تاثير القوى الجسمانية ، وان من مظاهر هذا التاثير النفسانى تاثير العين فى المعيون وتاثير التنويم فى المنوم ، وان

التاثير والتاثر النفسانيين يختلفان باختلاف النفوس الفاعلة والمنفعلة قوة وضعفا ، وان تاثير العين ليس من ذاتها وانما هو من النفس التى من وراء العين ، ولو كان التاثير من ذات العين لكانت كل عين ناظرة تحدث ذلك الاثر ، وان هذا التاثير لون من الوان النفس ، فان كانت خيرة كان تاثيرها خيرا وان كانت شريرة كان شرا .

فالنفث المذكور فى الآية ان اثر فانما يؤثر بالقوة النفسية التى من وراءه ، والساحر لا ينفث من نفسه الخبيثة الا نفث الشر ، لان الشر هو صفته الطبيعية ، كالحية لا تنفث الترياق وانما تنفث السم . وكالعدو يلقاك بطعم الاسل ، لا بطعم العسل ، اذ كان ذلك من طبيعة العداوة .

هذا نفث الشر من النفوس الشريرة كنفوس السحرة ، وأما النفوس الخيرة الطيبة كنفوس المؤمنين فانها تنفث الخير للخير . وفي الصحيح عن عائشة رضى الله عنها : ان النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان اذا أوى الى فراشه جمع بين كفيه ثم نفث فيهما وهو يقرأ المعوذتين ثم مسح بهما ما استطاع من بدنه ، يبدأ برأسه ووجهه يفعل ذلك ثلاث مرات ، فهذا نفث الخير من خير نفس خلقها الله ، ثم قالت فى تمامه : فلما اشتكى كان يامرنى أن افعل ذلك . وفى رواية : كان يقرأ بالمعوذات ، فلما ثقل كنت انفث عليه بهذا وامسح بيد نفسه رجاء بركتها . وفي رواية مسلم عنها : انه كان يفعل ذلك اذا مرض احد أهله .

فهذه الاحاديث ـ وهى ثابتة صحيحة ـ تثبت أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان يقرأ المعوذات وينفث حين القراءة نفث الخير قطعا . وتبين لنا أن كل نفس تنفث ما وقر فيها . وان النفث ايصال للقوة الروحانية الى ما يراد وصول الاثر اليه وهى دليلنا على ما أسلفنا من أن فى النفث خيرا وشرا ، ولولاها لما كان النفث الا من فعل السحرة . والنفوس اذا استفزها شىء من ملابستها تتفشى فيها الروحانية وتضطرب فكأنها بذلك النفث تنفض جزءا من روحانيتها على نفس اخرى أو على بدن ، وكأن تحريك اللسان بقراءة أو غيرها اثارة لتلك الروحانية واستدعاء لها حتى تتصل بالريق الذي ينفث كما يتصل السيال الكهربائى بشىء

مادي ـ وقد علمنا أن السحرة لا ينفثون نفثا مجردا بل يغمغمون برقى شيطانية وأسماء أرواح خبيثة • ومن الشواهد لنفث الريق ما أخرجه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان اذا اشتكى الانسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح قال النبي باصبعه هكذا : « تعني وضعها على الارض كما فسرها سفيان بالعمل » ثم رفعها وقال : « بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ـ ليشفى به سقيمنا باذن ربنا » •

« بعد رواية الاستاذ لهذا الحديث سكت لحظة كمن يستجمع خواطره ثم اندفع فقال ما معناه بتوسع » :

ان القرآن كتاب الـدهر ومعجزته الخالدة فلا يستقل بتفسـيره الا الزمن ، وكذلك كلام نبينا ـ صلي الله عليه وآله وسلم ـ المبين له ، فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة فى معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تفهم اسرارها ومغزاها الا بتعاقب الازمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله فى الكون ، وكم فسرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث ، واظهـرت منها للمتأخرين ما لم يظهـر للمتقدمين ، وارتنا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم فى وصف القرآن : « لا تنقضى عجائبه » •

والعلماء القوامون على كتاب اللـه وسنة رسـوله لا يتلقونها بالفكر الخامد والفهم الجامد ، وانما يترقبون من سنن الله فى الكون وتدبيره فى الاجتماع ما يكشف لهم من حقائقهما ، ويكلون الى الزمن واطواره تفسير ما عجزت عنه افهامهم ، وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم فى بعض هذه الآيات ، لم يات مصداقها أو تاويلها بعد ، يعنون أنه آت وان الآتي به حوادث الزمان ووقائع الاكوان وكل عالم بعدهم فانما يعطى صورة زمنـه بعد ان يكيف بها نفسه • ولو أننا عرضنا حديث التربـة والريقة على طائفة من الناس مختلفة الاذواق متقسمة الحظوظ فى العلـم وسالناهم : أية علاقة بين الشفاء وبين ما تعاطاه النبى ـ صلى اللـه عليه وآله وسلم ـ من أسبابه فى هذا الحديث ؟ فماذا تقولهم يقولون ؟

يقول المتخلف القاصر : تربة المدينة بريق النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ شفاء ما بعده شفاء ٠

ويقول الطبيب المستغرب : هـذا محال في التـراب مكروب ٠ وفي الريق مكروب ٠ فاني يشفيان مريضا أو ينفسان عن مكروب ٠

ويقول الكيماوي : ها هنا تفاعـل بين عنصرين ، ودعـوا التعليل ، فالقول ما يقول التحليل ٠

ويقول ذوو المنازع القومية والوطنية ، ولو كانوا يدينون بالوثنية : آمنا بأن محمدا رسول الله ٠ فقد علم الناس من قبل أربعة عشر قرنا ان تربة الوطن معجونة بريق أبنائه تشفي من القروح والجروح ٠ ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقدا من المحبة والاخلاص له ٠ وليؤكد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به وليقرر لهم من متن الوطن منة كانوا عنها غافلين ٠ فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة ان تربة الوطن تغذي وتروي ، فجاءهم من علم النبوة انها تشفي ، فليس هذا الحديث ارشادا لمعنى طبي ولكنـه درس في الوطنية عظيم ٠ ولو أنصف المحدثون لما وضعوه في باب الرقى والطب فانه بباب حب الوطن أشبه ، وما نرى رافع العقيرة بقوله :

الا ليت شعري هـل ابيتن ليلـة بـواد وحـولي اذخـر وجليـل
وهـل أردن يـوما ميـاه مجنـة وهـل تبدون لي شامـة وطفيـل

الا منائرا على شعاعه ، وما نرى ذلك الغريب المريض الـذي سئـل : فيم شفاؤك ؟ فقال : شمة من تربة اصطخر ٠ وشربة من ما نهاوند إلا من تلامذة هذا الدرس ، ولقد زادنا ايمانا به بعد ايمان انه يقول : « تربـة أرضنا بريقة بعضنا» ولم يقل : تربة الارض بريق بني آدم، فليس السر في تربة ، وريق ومرض ٠ ولكن السر في أرضنا وبعضنا ومريضنا ـ فهذه ـ والله ربنا ـ صخرة الاساس في بناء الوطنية والقومية لا ما يتبجح بـه المفتـونـون ٠

ويقول الروحانيون : ان هناك روحا طاهرة تتصل بتربة الارض التي خلق المريض منها وتغذى بنباتها ومائها ٠ وتنفس كبده في جوها وهوائها

من ريقة منفوثة نفث الخير من نفس مؤمنة قوية الروحانية طيبتها ، فيكمل التكوين بين الريق والتربة مع اسم الله الذى قامت به السموات والارض وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة • فيحصل الشفاء بهذا العمل النفسانى • واذا تجلت النفس بعجائبها لم يبق فى الوجود عجيب •

ويقول غير هؤلاء ما يقول ، وهذه المتون كاسمها متون ، وهذه الاصول كاسمها اصـول •

وهكذا تأتى بعض المتون من كلام الله وكلام رسوله معجزة للعقول ، فتتطاير من حولها الفهوم والآراء تطاير الشعراء ، ويظن كل عقل أن حرفته آلة لتفسير تلك المتون ، والعلوم حرف العقول • والزمان من وراء الكل يصيح ان انتظروا •

« وَمِـنْ شَرِّ حَاسِـدٍ إِذَا حَسَـدَ » .

الحاسد : الذى قامت به صفة الحسد • وهو الذى يحب أن تسلب النعم من غيره،وقد تلج به هذه الصفة الذميمة فتزين له سلب النعم حتى من نفسه اذا توقف على ذلك سلبها من غيره ، فهو لا يحب الخير لاحـــد ويتمنى أن لا يبقى على وجه الارض منعم عليه • وانما ينشأ الحسد مـن العجب وحب الذات فتسول له نفسه أن غيره ليس أهلا لنعم الله ، وكفى بهذا محادة للمنعم • والحسد شر تلازمه شرور ، العجب والاحتقار والكبر ، وقد جمع ابليس هذه الشرور كلها، حسد آدم عجبا بنفسه : فـ « **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ** » ورآه لا يستحق السجـود احتقارا لـه فقال : « **هَـٰذَا الَّـذِي كَرَّمْـتَ عَـلَيَّ** » ثم تكبر ولم يسجد ورضي باللعنة والخزى ، ولا أشنع من صفة يكون ابليس فيها اماما • والحسد شر على صاحبه قبل غـيره لانـه يأكل قلبه ويؤرق جفنه ويقض مضجعه ، ولا يكون شرا على غـيره الا اذا ظهرت آثاره بان كان قادرا على الاضرار أو ساعيا فيه ، ولهذا قال تعالى : « **اذا حسد** » • والمتمنى للشيء لا يمنعه من اتيانه الا العجز • واعظم ما ينمى الحسد ويغذيه امتداد العين الى ما متع الله به عباده من متاع المال والبنين ، ونعمة العافية والعلم ، والجاه والحكم وقد نهى الله نبيه عن مد

العين الى ما عند الغير فقال : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ »

وفي هذه الآية مع النهي ارشاد الى علاج الحسد . فان الحسد مرض نفساني معضل ، ولكنه كغيره من الامراض النفسية يعالج ، وقد وصف الحكماء له أنواعا من العلاج فصلتها كتب السنة وكتب الفقه النفسي ككتاب الاحياء للغزالي (1) .

(1) الشهاب : ج 4و 5 م 14 ـ ربيع الثاني وجمادى الاولى 1357 هـ جوان وجوليت 1938 م .

ســـورة النـــاس

« قُــلْ أَعُــوذُ بِـرَبِّ النَّـاسِ ... » .

(سورة الناس ، الآيات 1 ـ 6)

قد علمنا أن الصفة الجامعة بين هذه السورة وبين التي قبلها (هي المعوذتان) وعلمنا أنها تسمية نبوية ، وقد جرت هذه الصفة مجرى الاسم لهما . أما الاسم الخاص بهذه السورة فهو **الناس** ، كما ان الاسم الخاص بالسورة الاولى **الفلق** . والمناسبة بين السورتين يرشد اليها اشتراكهما في الوصف وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما ، وفي السـورة الاولى الاستعاذة من الشر العام ومن ثلاثة أنواع منه ذكرنا الحكمة في تخصيصها بالذكر . وفي هذه السورة الاستعاذة من شر واحد لكنه سبب في شرور كثيرة .

والمناسبة القريبة بين السورتين هي أن النفوس الشريرة ثلاثة أقسام : قسـم يصدر عنـه الضرر ويعمله ، وقسم لا يريد الخير فيسعى في سلبه وانتزاعه ، وهو شر من الاول . وقسم يعمل الى ايصال الشر الى سلطان الجوارح ومالك هديها . وهو المضغة التي اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله . فهو يحسن له الاشياء القبيحة ويأتيه من جميع النواحي على وجه النصح وارادة الخير ، ويزين للانسان كل ما يريده من القبائح ويأتيه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، قريبا منه متصلا بهواه ، وهذا القسم الاخير هو الذي يوسوس بكلمة السوء مزينة الظاهر مغطاة القبح حتى تستنزل صاحبها الى الهلاك . ولما كان هذا القسم الثالث أعظم خطرا وأكثر شرا واخسر عاقبة خصص التعوذ منه بسورة كاملـــة .

رب الناس : هو مربيهم ومعطيهم فى كل مرتبة من مراتب الوجود ما يحتاجون اليه لحفظها ، وهاديهم لاستعمال ما من به عليهم فيما ينفعهم ؛ « رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ » ، وأصله من ربه يربه ربا ، اذا قام على انشائه وتعاهده فى جميع أطواره الى التمام والكمال ٠ ولفظه لفظ المصدر ولكن معناه معنى اسم الفاعل كالعدل يراد به العادل ٠

ومالك الناس : هو الذى يملك أمر موتهم وحياتهم ، ويشرع لهم من الدين ومن الاحكام ما يوافق حياتهم الدنيوية والاخروية ٠ **واله الناس** : هو الذى يدينون له بالعبادة والعبودية ٠

وبلاغة الترتيب انما تظهر جلية عند استعراض أطوار الوجود الانسانى ، فالاول : طور التربية والاعداد ، وهما من مظاهر الربوبية ، والثانى : طور القوة والتدبير ، وهما من مظاهر الملك ، والثالث : طور الكمال والقيام بوظائف العبودية ، وهو من مظاهر الالوهية ٠ والمستعاذ منه تارة يوسوس للانسان بما يفسد عليه صلته بربه ، وتارة بما يفسد عليه تدبيره وما شرع له لمنفعته وصلاحه ٠ وتارة بما يفسد عليه عبوديته له وهى اشرف علائقه به وأقوى صلاته ، وجماع ذلك أن يبعده عن الله بالوسوسة بواحدة من هذه أو بكلها أو بما يتفرع عنها مما تضمنته الآيات المبينة لافعال أصل هذه القوة الموسوسة ، مثل قوله تعالى : « ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ » أو لذلك الشأن الجارى مجرى الحوار بين ابليس وخالقه كقوله تعالى : « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » ، وكقوله تعالى : « قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا » ، وكقوله تعالى : « وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ » فهو جاهد فى أن يبعد الناس عن الله بافساد العقيدة الصحيحة فيه ، أو بالصرف عن شرع الله ، أو بالحمل على عبادة غيره ، فلذلك كله جاء الترتيب على هذا النمط المذكور بتلك العلائق القوية التى يريد الشيطان أن يقطعها ٠ والرب رب الناس وغيرهم ، بل رب العالمين ، وانما خص الناس بالذكر لانهم هم هدفه ومرمى وسوسته ٠ ولانهم هم المامورون بالاستعاذة منه ٠

ولان عالم التكليف أشرف ، فاليهم يوجه الخطاب واليهم يساق التحذير ، وهذه الوسوسة نتيجة للعداوة بين أصليهما ، فأمر الله بالاستعاذة منها هو تسليح الهى لبنى آدم لتثبيت سنة التعمير التى هى حكمة اللـه مـن وجـودهـم •

ونكتة أخرى فى تخصيص الناس بالذكر دون بقية أفراد المربوبين وهى أنهم هم الذين ينطبق عليهم ناموس الهداية والضلال • وقد ضلوا بالفعل فى ربوبية اللـه وفى ألـوهيته •• ضلوا فى الربوبية باتخاذ المشرعـين ليشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ويصدوهم بذلك عما شرع الله • وضلوا فى الالوهية بعبادة غير الله بما لا يعبد به أحد غيره كالدعاء •

واختير لفظ الناس من بين الالفاظ المشاركة لـه فى الدلالة كالبشر والبرية لانه ينوس ويضطرب وينساق وهى صفات يلزمها التوجه ويسهل التوجيه فلا غنى لصاحبها عن توفيق الله للوجهة الصالحة والتسديد فيها ما دام لا يملك لنفسه ذلك وما دام محاسبا عليه وما دامت هناك قـوة مسلطة تنزع به الى الشر •

ففى تخصص الناس بالذكر تنبيه الى أنهم احوج المربوبين الى تأييد الله واحقهم بطلب ذلك منه ، وقد أرشدهم الى ذلك وله الحمد •

ولو تفقه الناس فى معنى اسمهم واشتقاقه لعلموا بفطرتهم أنهـم مخلوقات ضعيفة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ولأيقنـوا أنه لابد لهم من رب يربيهم ويحميهم ومالك يدبر أمورهم واله يعبدونه ويتخذون العبودية له جنة من استعباد الاقوياء •

ويجوز ـ اذا راعينا الادب وكمال التنزيه فى حمل الالفاظ التى تضاف الى كلمة رب على أشرف معانيها ـ أن تحمل كلمة (الناس) على معنى أخص مما يتناوله عموم الجنس • وهو الاماثل والاخيار منهم الجامعون لمعـانى الانسانية الفاضلة ، وهذا المعنى تعرفه العرب فانهم كثيرا ما يطلقون اسم الجنس على الفرد أو الافراد الكاملين فى حقيقته • وان كان هذا من المجاز فى كلامهم وقد حملوا على هذا المعنى قوله تعالى : « **آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ** »

ونكتة الاعادة والاظهار للفظ الناس ، توضيح المعنى والفات النفس اليه وايقاظ شعورها به والتسجيل على الناس بان لهم ربا هو مالكم والههم . « **من شر الوسواس** » ـ الوسواس هنا صفة الموسوس وان خالف المعهود فى ابنية الصفات ، أو هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال والزلزلة ، وأصل هذه الكلمة دائر على معنى الخفاء . والعرب تسمى حركة الحلى وسواسا ، وهذا المعنى واضح فى المراد هنا فان الموسوس من الجن فى نهاية الخفاء هو وعمله ، والموسوس من الانس يتحرى الاخفاء ما استطاع ويحكم الحيلة فى ذلك ولا يرمى رميته الا فى الخلوات . وان الناس ليعرفون عرفانا ضروريا من الفرق بين المصلحين والمفسدين ان الاولين يصدعون بكلمة الحق مجلجلة ويرسلون صيحته داوية ويعملون أعمالهم فى وضح النهار ومحافل الخلق وان الآخرين يتهامسون اذا قالوا ويستترون اذا فعلوا ويعمدون الى الغمز والاشارة والتعمية ولو وجدوا السبيل لكانت لهم لغة غير اللغات . ولكان الزمن كله ظلمات ، والارض كلها مغارات .

والخناس : وصف مبالغة فى الخناس من الخنوس وهو التاخر بعد التقدم ومن ملابسات هذا المعنى ومكملاته فى المحسوس أنه يذهب ويجىء ويظهر ويختفى اغراقا فى الكيد وتقصيا فى التطور حتى يبلغ مراده . فالله تعالى يرشدنا بوصفه بهذه الصفة الى أن له فى عمله كرا وفرا وهجوما وانتهازا واستطرادا على التصوير الذى صوره ابليس فى ما حكى الله عنه : « **ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ** » . يرشدنا بذلك لنعد لكل حالة من حالاته عدتها . ولنضيق عليه المسالك التى يسلكها ، كما ان وصفه بهذه الصفة يشعر بانه ضعيف الكيد لان الخنوس ليس من صفات الشجاع المقدام . وانما هو كالذباب تذبه بذكر الله من ناحية فياتيك من ناحية ثم دواليك حتى تمل أو يمل ، وأما التهويل فى وصفه بما ياتى بعد فهو مبالغة فى التحذير منه لأن وصفه بالضعف مظنة لاحتقاره والتساهل فى أمره .

« ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ » .

قال يوسوس بالمضارع اشعارا بعد اشعار بتجدد الوسوسة منه وعدم انقطاعها . وقال : **فى صدور الناس** . والصدر ملتقى حنايا الأضلع ومستودع القوى التى كان الانسان انسانا بها ومجمع المضغ التي تحمل تلك القوى . والقلب واحد منها ، فالقلب غير الصدر ، وانما هو فيه ولذلك قال : « **وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ** » . ومواقع استعمال القرآن لكلمة الصدر مفردا وجمعا والحكم عليها بالشرح والحرج والضيق والشفاء والاخفاء والاكنان ــ ترشدنا الى أنه ليس المراد منه الصورة المادية ولا أجزاها المادية وانما المراد القوى النفسية المستودعة فيه ، وان الوسواس الخناس يوجه كيده ووسوسته دائما الى هذه القلعة التى هى الصدر لانها مجمع القوى .

وقال : « **فى صدور الناس** » ولم يقل فى قلوب الناس ، لان القلب مجلى العقل ومقر الإيمان ، وقد يكون محصنا بالايمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره ولا يستطيع له نقبا .

« مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ » .

الجنة : جماعة الجن وهم خلاف الانس، والمراد هنا أشرار ذلك الجنس لان منهم المسلمين ومنهم القاسطين . واستعمل لفظ الجنة فى القرآن بمعنى المصدر الذى هو الجنون فى قوله تعالى : « **مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ** » ولما كان الموسوسون فريقين متعاونين على الشر ذكرهما الله تعالى فى مقام الاستعاذة من شر الوسوسة ليلتئم طرفا الكلام ويحصل التقصى الوصفى فى المستعاذ به والمستعاذ منه .

وقد قسم القرآن الشياطين ، وهم القائمون بوظيفة الوسوسة ، الى قسمين : شياطين الانس وشياطين الجن ، وذكر أن بعضهم يوحى الى بعض زخرف القول ، وشيطان الجن ميسر للشر فكل من يعمل عمله من الانس فهو مثله . ومن شياطين الانس بطانة السوء وقرين السوء .

وورد فی الآثار ان لكل انسان قرينا من الجن ، وقال تعالى : « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » وقال : « وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ » وهو من باب توزيع الجمع على الجمع ، أى لكل واحد قرين ، فهذا الانسان الضعيف يلازمه قرين من الجن ثم لا يخلو من قرين أو قرناء من الانس يزينون له ما بين يديه وما خلفه ويصدونه عن ذكر الله فماذا يصنع ؟

ما عليه الا أن يلتجىء الى الله ويستعيذ به ويتذكر فانه لا يؤخذ وهو ذاكر مستيقظ وانما يؤخذ اذا كان غافلا ، قال تعالى : « وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » وقال تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » ٠

ومن دقائق القرآن ولطائفه فی البلاغة أنه يقدم أحد الاسمين المتلازمين فی آية لسر من أسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام ، ثم يؤخر ذلك المقدم فی آية أخرى لسر آخر ، فيقدم السماء على الارض فی مقام ويؤخرها عليها فی مقام آخر ، ومن هذا الباب تقديم الانس على الجن فی آية الانعام لان معرض الكلام فی عداوتهم للانبياء وهی من الانس اظهر ودواعيها من التكذيب والايذاء أوضح ٠ وفی آية (الناس) قدم الجنة على الناس لان الحديث عن الوسوسة وهی من شياطين الجن أخفى وأدق وان كانت من شياطين الانس أعظم وأخطر وأدهى وأمر ٠ فشيطان الجن يستخدم شيطان الانس للشر والافساد فيربى عليه ويكون شرا منه لانه بمثابة السلاح الذی يفتك به ، ورب كلمة واحدة صغيرة يوحيها جنی لانسی ويوسوس اليه بتنفيذها ، فتتولد منها فتن ويتمادى شرها من قرن الى قرن ومن جيل الى جيل ، وهذا النوع الانسانی المهيأ لقابلية الخير وقابلية الشر ، اذا انحط وتسفل كان شرا محضا ، واذا ترقى وتعالى شارف أفق الملأ الاعلى وأوشك ان يكون خيرا محضا لولا أن العصمة لم تكتب الا لطائفة منه وهم الانبياء عليهم الصلاة والسلام ٠

فالانسان اذا انحط يكون شرا من الشيطان ، واذا ارتقى يكون افضل من الملك ـ اعني جنس الانسان ـ ومن هذا الجنس كان محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أكمل الخلق الذی ليس لمخلوق رتبة مثله فی الكمال ٠

انتهى تلخيص الدرس وقد حرصنا على ما وعته الذاكرة من معانيه وقيده القلم من ألفاظه ثم تصرفنا فى المواضيع التى طرقها الاستاذ بما لا يخرج عن مراده ولا يخالف طريقته فى تفسير كلام الله والله ينفعنا بالقرآن ويوفقنا الى خدمته (1) ·

---

(1) الشهاب : ج 4 و 5 م 14 ـ غرة ربيع الثانى وجمادى الاولى 1357 هـ جوان وجوليت 1938 م ·

لـــــواحـق

رأينا من الخير أن نلحق بالكتاب موضوعات لها صلة وثيقة به وبصاحبه اتماما للفائدة وهي :

أ) العرب في القرآن ؛ وهـي محاضرة ارتجلها الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس في نادى الترقى بالعاصمة ، تنـاول فيها تاريخ العـرب ومدنيتهم وخصائصهم الطبيعية وسراختيارهم للرسالة العامة، كل ذلك في ضوء القرآن الكريم .

ب) مقال رد به الشيخ عبد الحميد بن باديس في مجلة الشهاب ، على الشيخ محمد بن يوسف المفتي الحنفي بعنوان :
« حول كلمات لاستاذ كبير في تفسير آيات الزينة والستـر » .

جـ) شذرات ممـا جادت بـه قرائـح الخطبـاء والشعراء في الاحتفال بختم تفسير القرآن الكريم

ـ تصوير وصفي للاحتفال : للاستاذ الابراهيمي
ـ قصيدة الشاعر الاستاذ محمد العيد خليفة
ـ خطبة الاختتام للاستاذ الابراهيمي
ـ كلمة المحتفل به
ـ كلمة عن الجامع الاخضر

د) ترجمة الامام الشيخ ابن باديس

هـ) رسالة الاذن بطبع الكتاب .

العـــرب فـى القـــرآن

— 1 —

« الخطاب الذى ارتجله الاستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى اجتماعها العـام بنادى الترقى لهذه السنة • وموضوعه « العرب فى القرآن » وقـد حافظنا على معانيه وعلى الكثير من الفاظه ، وهيهات هيهات لما نود من نقله للقراء بألفاظه وجمله، فانه خطاب عظيم فى موضوع خطير لا يضطلع به غير الاستاذ فى علمه بفنون القرآن وغوصه على مغازيه البعيدة ونفاذه فى معانيه العالية •

وعلى كـل فاننا نرجو اننا قـدمنا الموضوع للقراء كامل المعانى وحسبنا هذا » •

حق على كل من يدين بالاسلام ويهتدى بهدى القرآن أن يعتنى بتاريخ العرب ومدنيتهم وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الاسلام ، ذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الاسلام ولعناية القرآن بهم ، ولاختيار الله لهم لتبليـغ دين الاسلام وما فيه من آداب وحكم وفضائل الى أمم الارض ، فأما أنهم قد ارتبط تاريخهم بالاسلام فلان العرب هيؤا تاريخيا لاجل ان ينهضوا باعباء هذه الرسالة الاسلامية العالمية ، ولأن الله الحكم العدل الذى يضع الاشياء فى مواضعها بحكمة ويأمرنا ان ننـزل الناس منازلهم فى شريعته ـ ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة ، اذ لا ينهض بالجليل من الاعمال الا الجليل من الامم والرجال • ولا يقوم بالعظائم الا العظام من النـــاس •

واما عنايـة القرآن بالعرب فلأجـل تربيتهم لانهم هم الذين هيئـوا لتبليغ الرسالة ، فيجب ان يأخذوا حظهم كاملا مـن التربية قبـل الناس

كلهم ، ولهذا نجد كثيرا من الآيات القرآنية فى مراميها البعيدة اصلاحا لحال العرب وتطهيرا لمجتمعهم واثارة لمعانى العزة والشرف فى نفوسهم ، ومن هذا الباب الآيات التى يذكر بها العرب ان القرآن انزل بلسانهم مثل: « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » والذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم هم العرب ، ومن أول القصد الى العرب والعناية بلسانهم وتنبيههم الى ان القرآن انزل بلسانهم دون جميع الالسنة ـ جلبالهم حتى يعلموا انه انزل لهم وفيهم قبل الناس كلهم ٠

ان العرب قوم يعتزون بقوميتهم وهم قوم ذو وعزة واباء ـ خصوصا فى الجاهلية ـ فكان من حكمة القرآن ان يجلب نافرهم ويقرب بعيدهم بأن هذا القرآن انزل بلسانهم ٠

ومن هذا الباب توسعة اللـه فى قراءة القرآن على سبعة احرف وهى اللهجات التى تجتمع على صميم العربية وتختلف فى غير ذلك ٠ وسع عليهم فى ذلك لتشعر كل قبيلة ان هذا القرآن قرآنها ٠ لان اللسان الذى نزل بـه لسانها ٠ وهذا هو ما يقصده القرآن ٠ ومن هذا الباب ايضا اشعارهم بان صاحب الرسالة منهم ٠ « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » الآيـة ٠

فمن الطبيعة العربية الخالصة انها لا تخضع للاجنبى فى شىء لا فى لغتها ولا في شيء من مقوماتها ٠ ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف ويحدثها كثيرا عن أمـة اليهود التى لا يناديها الا بيا بنى اسرائيل تذكيرا لها بمجدها الذى هو مناط فخرها ، كل ذلك لانها أمة تحيا بالشرف والسمو والعلـو ـ ويذكرها بالذكر ـ وهـو فى لسانها الشهـرة الطائرة والثناء المستفيض ٠ يقول تعالى لنبيه وهو يعنى القرآن : « فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » والانبياء لم يبعثوا الا فى مناسب الشرف ومنابع القوة ومنابت العزة ليبنى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من احساب الامة وانسابها وشرفها وعـزتها ، وما كان لها من مناقب تلتئم مع اصول الدين ٠ فقوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » يعنى انه شرف لكم ٠ وقومه هم العرب لا محالة ٠

ويقول بعد ذلك : « وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » ليشعرهم ان عليهم من الواجبات في مقابلة هذا الشرف الذى اعطوه ما ليس على غيرهم ولاشك ان ثمن المجد غال ·

وهذا الشرط الذى ذكره الله وذكر به العرب هو شرط واجب الاعتبار والتنفيذ ·

لان الامة التى لا تؤدى ثمن المجد لا تحافظ عليه · ثم هى أمة لا يعتد عليها فى النهوض بنفسها ولا بغيرها · وانما ذكرهم الله بذلك لينهضوا بالامم على ذلك الاساس وهو احياء الشرف الانسانى فى نفوسها وليعاملوها على ذلك الاساس بالعدل والرحمة والتكريم ، وما ذكر القرآن العرب بتكريم بنى آدم وخلقهم فى أحسن تقويم الا ليعاملوهم على هذه القاعدة التى وضعها الخالق · وأن أعداء البشرية اليوم وقبل اليوم يعمدون الى قتل الشرف من النفوس ليستذلوا من هذا النوع ما اعز الله ويهينوا منه ما كرم الله ·

والخلاصة ، أن عناية القرآن باحياء الشرف فى نفوس العرب ضرورية لاعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر ، وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة فى اختيار الله للعرب للنهوض بهذه الرسالة الاسلامية العالمية ، واصطفائه اياهم لانقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل · وهذا السر هو انهم ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذى هيأهم لذلك ولو كانوا أذلاء لما تهيأوا لذلك العمل العظيم ·

وانظروا واعتبروا ذلك بحال أمة هى أقرب أمة الى العرب ، وهى أمة اسرائيل ، فانها لم تكن مهيأة لانقاذ غيرها · وانما هيئت لانقاذ نفسها فقط لان مقوماتها النفسية لم تصل بها الى تلك الدرجة العليا · ولذلك عانى موسى معها ما عانى مما قصه القرآن علينا لنعتبر به فى الحكم على الامم ·

ولا حاجة الى التطويل فى الحديث عن بنى اسرائيل فان القرآن قد فصل لنا شؤونهم تفصيلا ، وانما أنبهكم على هذا الفارق الجوهرى بين الامتين · وقد تقولون ان بنى اسرائيل اختارهم الله وفضلهم على العالمين· والجواب الذى يشهد له الواقع انه اختارهم لينقذوا أنفسهم من استعباد

فرعون ، وليكونوا مظهرا للنبوة والدين في أول أطوارهما ، وأضيق أدوارهما ، وهذا هو الواقع ، فان الامة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله ، وأن تظهر دين الله على الدين كله ، وأما بنو اسرائيل فانهم ما استطاعوا أن ينهضوا حتى بأنفسهم ، وانما نهض بهم موسى نهضة قائمة على الخوارق ، وما نهضوا بأنفسهم الا بعد موسى بزمن مع اتصال حبل النبوة فيهم ومغاداة الوحي الالهى ومراوحته لهم .

فالامتان العربية والاسرائيلية متمايزتان بالاثر ومتمايزتان بحديث القرآن عنهما ، واذا تلمسنا الحكمة المقصودة من اختيار الله لبنى اسرائيل، مع أنهم غير مستعدين للقيام بنهضة عالمية عامة ، وجدنا تلك الحكمة فى القرآن مجلوة فى أبلغ بيان ، فى قوله تعالى : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » .

فالسر المتجلى من هذه الآية هو أن الله أراد بما صنع لبنى اسرائيل وبما قال لهم أن يعلم هذا العالم الانسانى من سنن الله فى كونه ما لم يكن يعلم ، وهو اخراج الضد من الضد ، واخراج الحى من الميت ، وانقاذ الامة الضعيفة التى لا تملك شيئا من وسائل القوة الروحية ولا من وسائل القوة المادية — من استعباد الاقوياء المتالهين . فهو مثل عملى ضربه الله لخلاص اضعف الضعفاء من مخالب أقوى الاقوياء ، وجعل المستضعفين أئمة وارثين وسادة غالبين ، والتمكين لهم فى الارض واراءة الاقوياء المستغلين فى الارض عاقبة باطلهم لكيلا ييأس المستضعفون فى الارض من روح الله ، وقد قال موسى لبنى اسرائيل تمكينا لهذا المعنى فى نفوسهم : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ».

والى هذا المثل العملى تشير الآية : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » .

وأما العرب فانهم اختيروا لوظيفة عالمية عامة لما فيهم من شرف متاصل واستعداد كامل وصفات مهياة . ولهذا كان منبع الرسالة . بمكة ، وشأنها

عند العرب هو شأنها ، فهم مجمعون على تقديسها ، ولانها في وسط الجزيرة وصميمها ، ووسط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات الخارجية في الطباع والالسنة، تلك المؤثرات التى يجلبها الاحتكاك بالاجانب والاختلاط بهم، وكل أطراف الجزيرة لم تخل من لوثة في الطباع وعجمة في الالسنة جاءت من الاختلاط بالاجنبي ، ولا أضر على مقومات الامم من العروق الدساسة ٠ فاليمن دخلتها الدخائل الاجنبية من الحبشة والفرس على طباع اهلها والسنتهم ٠ والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاستعجام ، والعراق والجزيرة لم يسلما من التأثر بالطباع الفارسية ، فكانت هذه الاطراف تنطوى على عروبة مزعزعة المقومات ، ولم يحافظ على الطبع العربى الصميم، الا صميم الجزيرة ومنه مكة التى ظهر فيها الاسلام ، وهذا الوسط وان كان عريقا في الصفات التى تسمى العصر لاجلها جاهليا ٠ ولكنه بعيدا عن الذل الذى يقتل العزة والشرف من النفوس ، والجاهل يمكن أن تعلمه، والجافى يمكن أن تهذبه ٠ ولكن الذليل الذى نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس فى نفسه الذليلة المهينة عزة واباء وشهامة تلحقه بالرجال٠

هذا توجيه موجز مقرب لاختيار الله تعالى العرب للنهوض بالرسالة العامة ٠ وشيء آخر يرتبط بهذا وهو أن الله كما اختار العرب للنهوض بالعالم كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة وترجمان هذه النهضة ٠ ولا عجب فى هذا فاللسان الذى اتسع للوحى الالهى لا يضيق أبدا بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها وهذا جانب لا اتحدث عنه فقد كفانا مؤنته اخونا الاستاذ محمد البشير الابراهيمى فى محاضرته التى سمعتموها بالامس (1) ٠

— 2 —

أيها الاخوان ،

جعلنا عنوان الخطاب « العرب فى القرآن » وقلنا فى أول كلمة منه أن العناية بالعرب حق على كل مسلم لارتباط تاريخهم بتاريخ الاسلام ٠ فما

---

(1) الشهاب ــ ج 1، م٠ 15 ــ محرم 1358 هـ ــ فيفرى 1939 م ٠ ص 21٠

هو حظ العرب من القرآن من الناحية التاريخية بعد أن سمعتم هـــذه التوجيهات العامة ٠

العرب مظلومون فى التاريخ ، فان الناس يعتقدون ويعرفون ان العرب كانوا همجا لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الاسلام فاهتدوا به فاخرجهم من الظلمات الى النور ٠

هكذا يتخيل الناس العرب بهذه الصورة المشوهة ، ويزيد هذا التخيل رسوخا ما هو مستفيض فى آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العرب ليحذرنا من جاهلية أخرى بعد جاهليتهم ٠

والحقيقة التى يجب أن اذيعها فى هذا الموقف هى أن القرآن وحـده هو الذى انصف العرب ٠ والناس بعد نزول القرآن قصروا فى نظرتهم التاريخية الى العرب ، فنشأ ذلك التخيل الجائر عن القصد ٠

والتاريخ يجب ان لا ينظر من جهة واحدة بل ينظر من جهات متعددة ، وفى العرب نواح تجتبى ونواح تجتنب ، وجهات تذم وتقبح وجهات يثنى عليها وتمدح ٠ وهذه هى طريقة القرآن بعينها ٠ فهو يعيب من العـــرب رذائلهم النفسية كالوثنية ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل ٠

وينوه بصفاتهم الانسانية التى شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات ٠

ولنذكر عادا فهى أمة عربية ذات تاريخ قديم ومدنية باذخة ذكرهـا القرآن فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب،ونعى عليها الصفات الذميمة التى تنشأ عن القوة وقال تعالى : « **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ٠ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُـــوَّةً** » ٠

فالنظرة التاريخية المجردة فى هذه الآية وفيما ورد فى موضوعها ترينا أن عادا بلغت من القوة والعظمة مبلغا لم تبلغه أمة من أمـــم الارض فى زمنها ، حتى إن الله جل شأنه لم يتحد قولهم : « **مَنْ أَشَـــدُّ مِنَّا قُـــوَّةً** » الا بقوته الالهية التى يذعن اليها كل مخلوق ، ولو كانت فى أمم الارض

اذ ذاك أمة أقوى منهم لكان الابلغ أن يتحداهم بها ، وان أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها لهى أمة معتدة بقوتها وعظمتها .

ومن هذه الآية وحدها نستفيد أن عادا كانت أشد الامم قوة وانها ما بلغت هذه الدرجة من القوة الا بمؤهلات جنسية طبيعية للملك وتعمير الارض ، وان تلك المؤهلات فيها وفى غيرها من شعوب العرب هى التى اعدتهم للنهوض بالرسالة الالهية .

وان القرآن لا ينكر عليهم هذه المؤهلات ، وانما ينكر عليهم لوازمها ولا ينكر عليهم القوة والعظمة ، وانما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغى ومحادة الله بدليل قوله لهذه الامة : « وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ » . فهو يضمن لهم انهم ان آمنوا وعملوا الصالحات يزيد قوتهم تمكينا وبقاء ، ومحال أن ينكر القرآن على الناس القوة وهو الداعى اليها والمنفر من الضعف وانما شرع القرآن بجنب الدعوة الى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل .

وكذلك قوله تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ » ، فان هذه الآية ــ زيادة عن افادتها لمعنى ما قدمناه ــ تكشف لنا نواحى من تاريخ هذه الامة العربية ومبلغ مدنيتها وتعميرها ، فهى تدل على انهم كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والابنية ، وهو علم لا يستحكم الا باستحكام الحضارة فى الامة وماخذ هذا من قوله : « بِكُلِّ رِيعٍ » .

والآية فى قوله « آيَةً » هى بناء شامخ يدل على قوتهم ، أو هى آية هادية للسائرين ، وهى على كل حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم ، وما زالت عظمة البناء تدل على عظمة البانى ولم ينكر عليهم نبيهم نفس البناء الذى هو مظهر القوة . وانما انكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ . فمحط الانكار قوله « تَعْبَثُونَ » ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة فهو عبث ولهو وباطل .

والمصانع يقول المفسرون انها مجارى المياه أو هى القصور ، وعلى القولين فهى دليل على معرفتهم بفن التعمير علما وعملا وبلوغهم فيه مبلغا عظيما ، فهى من شواهدنا على ما سقنا الحديث اليه .

ولكن ليت شعرى ما الذى صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظي الاشتقاقى • والذى افهمه ولا اعدل عنه هو أن المصانع جمع مصنع من الصنع كالمعامل من العمل وانها مصانع حقيقية للادوات التى تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران • وهل كثير على أمة توصف بما وصفت فيه فى الآية ـ أن تكون لها مصانع بمعناها العرفى عندنا ؟ بلى وأن المصانع لاول لازم من لوازم العمران وأول نتيجة من نتائجه •

ولا اغرب من تفسير هؤلاء المفسرين للمصانع لا تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات. والحق ان السائحين هم الرحالون والرواد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار والقرآن الذى يحث على السير فى الارض والنظر فى آثار الامم الخالية حقيق بان يحشر السائحين فى زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين فربما كانت فائدة السياحة اتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود • ولا يقولن قائل اذا كانت المصانع ما فهمتم فلماذا يقبحها لهم وينكرها عليهم فانه لم ينكرها عليهم لذاتها وانما انكر عليهم غاياتها وثمراتها ، فان المصانع التى تشيد على القسوة والقسوة لا تحمد فى مبدا ولا غاية ، وأى عاقل يرتاب فى أن المصانع اليوم هى أدوات عذاب لا رحمة ووسائل تدمير لا تعمير فهل يحمدها على عمومها ، وان دلائل حضارة ومدنية كانت •

ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم ، ومن لوازم ذلك أن تراعى فيها حقوق العامل على اساس أنه انسان لا آلة •

« وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » لابد لكل أمة تسود وتقوى من بطش ولكن البطش فيه ما هو حق بان يكون انتصافا وقصاصا واقامة لقسطاس العدل بين الناس ، وفيه ما هو بطش الجبارين ، والجبار هو الذى يجبرك على ان تعمل بارادته لا بارادتك ، فبطشه انما يكون انتقاما لكبريائه وجبروته ، وارضاء لظلمه وعتوه ، وتنفيذا لارادته الجائرة التى لا تبنى على شورة وانما تبنى على التشهى وهوى النفس، لذلك لم ينقم منهم البطش لانه بطش وانما نقم منهم بطش الجبابرة الذى كله ظلم • وفى القرآن

ما هو كالتتمة لبحثنا عن حضارة العرب وكالعلاقة لحضارة عاد بعينها وهي حكاية عاد ارم ذات العماد ٠

فهذا الوصف البليغ الذي نقرؤه في سورة الفجر صريح بالفاظه ومعانيه في انه وصف لحضارة عمرانية لا نظير لها ، فالعماد لا تكون الا في القصور والابنية الباذخة والمدن المخططة على نظام محكم ، وقد قال تعالى ، وهو العالم بكل شيء ، انه « لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ » ومدينة هذا وصفها لا تشيدها الا أمة لا نظير لها في القوة ٠ وآثار الحضارة يتبع بعضها بعضا في الضخامة والعظم ٠ والوصف القرآني لها وإن سبق للاتعاظ بعاقبتهم يدل الباحث التاريخي على انهم بلغوا في الحضارة غاية لا وراءها ٠ وهم أمة عربية ٠ فهذه المدينة شيدت في جزيرة العرب لا محالة وان الاقرب في التذكير بهم والاتعاظ بمصيرهم ان تكون الرؤية في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ » علمية لان التذكير عام لمن تتيسر له رؤية العين ولمن لا تتيسر له ، ولو ائتمرت الامم الاسلامية بأوامر القرآن لنشأ فيها رواد يرودون الجزيرة ويجوبون مجاهلها ولو فعلوا لامكن ان يعثروا على آثار هذه المدينة في أرض عاد وهي معروفة ، ويجمعوا بين الرؤية البصرية والرؤية العلمية وبين العلم والاتعاظ ٠ واننا لا نعبأ في مقام البحث العلمي بما حف هذه الحكاية من اساطير ولا بما وقع فيه شيخ المؤرخين ابن خلدون حين تعرض لنقض تلك الاساطير (1) ٠

— 3 —

وامة اخرى من الامم العربية وهي ثمود : وهي أمة عربية نلعنها بلعن القرآن لها ، ولكننا نذكرها بما ذكرها به القرآن من قوة وتعمير وحضارة ، فصالح رسول هذه الامة يقول في دعوتها الى الله وتعريفها بنعمه : « هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » ، فامة اية امة لا تعمر الارض الا اذا ملكت وسائل التعمير وهي كثيرة ومجموعها هو ما نسميه الحضارة أو المدنية ٠

(1) الشهاب ـ ج 2، م٠ 15 ـ صفر 1358 هـ ـ مارس 1939 م ٠

وقد كشفت لنا عن هذا الاستعمار الثمودى عدة آيات بليغة الوصف ، ولكن أبلغها وصفا وأدقها تصويرا قوله تعالى : « **أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ** » .

أما المغزى الذى سيقت هذه الآية لاجله فهــو **النفى عليهم** . كيف يستعينون بنعم الله التى يسرها لهم على الكفر به وانذارهم أن الكفـــر بها وبمؤتيها سيكون سببا فى زوالها وفي ضمن هذا عرفنا حالتهم التى كانوا عليها فى تعمير الارض . وهى حالة أمة بلغت النهاية فى الحضارة المادية وفنونها من زرع الارض وتلوينها بأصناف الشجر منظمة ، وتقسيم المياه على تلك الغروس الى ما يستلزمها ، كل ذلك من علم بحال الارض وطبائعها،واحوال الاشجار المغترسة وطبائعها،وأحوال الفصول الزمنيـة واحوال الجو وأحوال التلقيح والآبار والجنى ، وعلـم بأصناف التمتـع من مناظر ومجالس ومقامات ومآكل . ثم القيام على حفظ ذلك العمران من إفساد الايدى السارقة ، وكل هذا مما يستلزمه وصف القرآن لحالهم لاجل تذكيرهم والتذكير بهم ، وقد ذكرهم القرآن فى مواضع باتقانهـــم لنحت الحجر والشجر والحجر آيتـا الحضارة المبصرتان . ومــن يعــرف الحضارة الرومانية بهذا الوطن يعرف أنها ما قامت الا على نحت الحجر وغرس الشجر .

وان نحت الحجر ليستدعى حاسة فنية خاصة ويستدعى مع ذلك قوة بدنية . وقد نعتهم القرآن فى نحتهم للحجر بحالة ملابسة ، فوصفهم مرة بأنهم آمنون ، ومرة بأنهم فرهون ، والفاره هو الذى يعمل بنشاط وخفة ولا يأتيه ذلك الا مـــن خبرته بما يعمل ، وعلمـه بدقائقه واعتياده لـه . ومعنى هــذا أن أصول هذه الصناعة التى أشتهر بها المصريون القدمـاء ، والرومان قد رسخت فيهم ، ولكن التاريخ المنقول ظلم العرب وبخسهم حقهم كما قلت لكم فى طالعة الخطاب .

هاتان أمتان من الامم العربية اثبت القرآن حالهما ، فكان لنا مصدرا تاريخيا معصوما فى اثبات حضارة الشعوب العربية التى برزت فيها الامم .

ولننتقل الآن الى ناحية أخرى من نواحى الجزيرة وهى اليمن التى عرفها اليونان وغيرهم ، وعرفوا المدنيات التى قامت فيها ، فسموها بالعربيـــة السعيدة ، واننا اذا انتقلنا الى هذه الناحية من الجزيرة نجد العز القدموس والمجد الباذج والماضى الزاهر لهذه الامة التى نفتخر بالانتساب اليها وباهى الامم بمدنياتها بالحق والبرهان .

واننا فى حديثنا عن اليمن لا نخرج عن شواهد القرآن .

قال تعالى : « **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجَـــازَى إِلَّا الْكَفُورُ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُـــمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** » .

ليس المقام مقام تبسط فى وجوه البلاغة المعجزة التى تنطوى عليها هذه الآيات ، فقد استوعبت تاريخ أمة فى سطور . وصورت لنا أطوارا اجتماعية كاملة فى جمل قليلة أبدع تصوير ، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة فى جمل جامعة لا اظن غير اللسان العربى يتسع لحملها كقوله : « **قُرًى ظَاهِرَةً** »، وكقوله : « **وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ** »، وكقوله : « **بَاعِدْ بَـيْنَ أَسْفَارِنَا** » حتى اذا وصل القارىء الى مصير هذه الامة التى سمع ما ماله من وصفها واجهه قوله تعالى : « **فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ** » وادركه الغرق فى لجج البلاغة الزاخرة .

اللهم ان السلامة فى الساحل واننا لا نعدو موضوعنا وهو تصـــور حضارة العرب مما يحكيه القرآن عنها فى معرض بيان مصائرها حين كفرت بأنعم الله وبرسله .

الآيات صريحة فى أن مدنية سبا كانت مدنية زاهرة مستكملة الادوات، ومن قرأ القرآن بعقله فهم ما نفهم من آياته وعلم كما نعلم أن مدن سبا كانت عامرة بالبساتين عن يمين وشمال . ويمين من ؟ وشمال من ؟ انه

لا شك يمين السائر فى تلك المدن أو الاراضى وشماله • ومعنى هذا أن طرق السير كانت منظمة تبعا لتنظيم الغروس عـن يمينها وشمالهـا ، والاكتشافات الاثرية اليوم التى كان لليمن حظ ضئيل منها وان كان على غير يد أهلها ــ تشهد بان أمم الحضارات اليمنية كانوا من أسبق الامـم الى بناء السدود المنيعة لحصر المياه والانتفاع بها فى تعمير الارض • واقامة السدود لا تتم بالفكر البدوى والعمل اليدوى ، بل تتوقف على علوم فكرية منها الهندسة ، والهندسة تتوقف ثمراتها على علوم كثيرة ، وعلوم العمران كعروق البدن يمد بعضها بعضا ، فهى مترابطة متماسكة متلاحمة ، فمـا يكون السبأيون بلغوا فى الهندسة مبلغا أقاموا به سد مأرب حتى يبلغوا فى غيره من علوم العمران ذلك المبلغ •

ولكن لما كفروا بأنعم الله ، واستعملوها فى ما يسخطه ، سلط اللـه عليهم من الاسباب ما خرب عمرانهم وأباد حضاراتهم ، وذلك قوله تعالى : « فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ••• الخ » •

ويقول فى وصف عمرانهم : « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً » يعنى ان عمرانهم لم يكن محدودا وانما كان متصـلا بعضه ببعضه ، فالقرى والمدن يظهر بعضها من بعضها لقربها وتلاحمهـا فلا يكاد المسافر يبرح مدينة حتى تبدو له اعلام الاخرى ، ولا يكون هذا الا اذا كان العمران متصلا • وهذا هو معنى الظهور فى الآية ، فهو ظهور خاص • وتقدير السير هو أن يكون منظما ومن لوازمه أن تكون الاوقات مضبوطة بالساعات ، والطرق محدودة بالعلامات ، التى تضبط المسافة ، وقوله تعالى : « سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ » يرشدنا الى امتداد العمران مسافات الليالى والايام ، وان الامن كان مادا رواقه على هذا العمران • ولا يتم العمران الا بالامن ، ولكن فات القوم أن يحصنوا هذه المدنية الزاخرة بسياج الايمان والشكر والفضيلة والعدل • وكل مدنية لم تحصن بهؤلاء فمصيرها الى الخراب ، والناس من قديم مفتونون بعظمة المظاهر يحسبون أنها خالدة بعظمتها باقية بذاتها ، فالقرآن يذكر لنا الكثير من مصائـــر الامم حتى لا نغتر بمظاهرها ، وحتى نعلم أن سنة الله لا تتخلف فى مدنية الآخرين كما لم تتخلف فى الاولين •

وأما قوله تعالى : « قَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » فان المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره واى عاقل يطلب بعد الاسفار ؟

والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بالسنتهم وانما هو نتيجة أعمالهم ، ومن عمل عملا يفضى الى نتيجة لازمة فان العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله ، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة ·

ولا زال الناس ـ على عاميتهم ـ يقولون فيمن عمل عملا يستحق عليه الضرب أو القتل : انه يقول أقتلنى أو أضربنى : وهو لم يقل ذلك وانما أعماله هى التى تدعو الى ذلك . فالمعنى أن أعمالهم هى التى طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم ، والدال بالمدلول فكأن السنتهم قالت ذلك · ويؤيد هذا فى القرآن كثير ومنه قوله تعالى : « سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » لان الجزاء أثر للفعل فهو مرتبط به ولا يقولن قائل : ان القول يقع مدلوله فى القلب حالا ولا كذلك العمل فقد يتأخر جزاؤه طويلا ـ لان الجزاء اذا كان محقق الوقوع يصير كانه حاصل بالفعل ، وكل عاقل يقطع بانه اذا وقع الظلم من الظالم فقد استحق عليه الجزاء ، ولا يلاحظ مسافة ما بين الظلم وجزائه ·

أما المباعدة بين أسفارهم التى اقتضاها كفرهم بانعم الله ، فهى كناية عن محو العمران وخراب القرى التى كانت ظاهرة متقاربة حتى لا يبقى منها الا القليل فيتباعد ذلك القليل بالطبع بخراب الكثير ·

وأين العمران المتلاحم الذى يرتاح فيه المسافر لضبط المسافة وتعدد المشاهد من الخراب الذى يوحش النفس فيزيد المسافة بعدا على بعد · وملكة سبا وعرشها العظيم وملكها وما قصه القرآن من نبئها أعظم وأروع· فمخبر سليمان عليه السلام يقول عنها : « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » وما وصف عرش ملكة سبا بالعظيم عند سليمان نبى الله الذى سخر له الجن والريح ـ الا وهو فى نفسه عظيم ·

أيها الاخوان :

ان فى قصة ملكة سبا فى القرآن لدرسا تتفجر منه ينابيع العظة والعبرة ، وارشادا الى ما تقوم به الامم ، ولولا ان هذا الخطاب قد طال

لآثرنا منها العبر وأثرنا بها العبر ، ولكن لا يفوتنا أن نختلس منها اشارات وما عليكم بعد ذلك الا ان تتدبروا الآية ففيها نظام الشورى صريحا لا مواربة فيه ، وفيها ان بناء الامم انما يعتمد على القوة ، وقد تكون مؤنثة فلابد ان يسندها بأس شديد • وفيها أن الملأ هم الاشراف وأهل الرأى وهم أعضاء المجالس الشورية ، ولعلهم كانوا بالانتخاب العرفى ، وهو نظام مـدنى ، ولعلهم كانوا بالانتخاب الطبيعى أو الوراثى ، وهو لا يكون الا فى الامم التى شبت عن طريق البداوة •

ولعل كاتبا من كتابنا يتناول هذا البحث بحث الانتخاب فى الاسلام ولئن استرشد القرآن فى هذا الباب ليرشدنه •

أيهـا الاخـــوان :

هذه مدنيات ضخمة غبرت فى هذه الامة التى أهلها الله لحمل الرسالة الالهية الى العالم • وهذه بعض خصائص هذه الامة التى هياها للنهـوض بالعالم وانقاذه من شرور الوثنية وبنياتها ومن ضلال العبودية بجميـــع أصنافها وان القومية العربية موضوع مترامى الاطراف ، وليس من الممكن الاحاطة به فى مثل هذا الخطاب • وحسبى أن أكون قد خدمتها من هذه الناحية التى هى خدمة للاسلام والقرآن • وعليكم السلام (1) •

---

(1) الشهاب ــ ج 3، م• 15 ــ ربيع الاول 1358 هـ ــ افريل 1939 م •

حـول كلمـات لاستـاذ كبـير
في تفسـير آيـات الـزينة والستـر

— 1 —

نشرت جريدة « الزهرة » الغراء حديثا لفضيلة العلامـة الكبير الشيخ محمد بن يوسف المفتي الحنفي بحاضرة تونس- افضى به لاحد محرري جريدة « اللواء التونسي » فرأينا في بعض ما قاله الاستاذ نظرا لا ينبغي السكوت عليه فكتبنا عليه ما يـلي :

قال المحرر : « ثم تلا – الاستاذ – قوله تعالى « **يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ قُـلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ** » الآية · يقال للمرأة اذا زال ثوبها عن وجهها : أدني عليك من ثوبك أي استري وجهك· وتلا قوله تعالى : « **وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ** » الآية · قلت – المحرر – وما المراد من الزينة ؟ قـال الزينة هي الوجه اذ الوجه هو مناط جمال المرأة » ·

فظاهر من مساق تلاوة الاستاذ للآية انه يستشهد بها على وجوب ستر الوجه ، وظاهر من السؤال انه عن المراد بلفظ الزينة من : « **ولا يبدين زينتهن** » وظاهر من الجواب انه فسر الزينة بالوجه في قوله : « **زينتهن** »·

ولو ذهبنا على هذا الرأى في الاستشهاد والجواب لكان تقدير الآية هكذا ، ولا يبدين وجوههن الا ما ظهر من وجوههن · وهـذا لا قائل بـه وتكاد لا تكون فائدة لمعناه ·

والصواب ان الذي فسر بالوجه والكفين – لا بالوجه فقط – هو لفظة « ما » في قوله : « **إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** » وهي واقعة على الزينة الظاهرة · اذ الزينة منها باطن كالسوار للذراع والدملج للعضد والقرط للاذن والقلادة

للنحر والخلخال للساق ، ومنها ظاهر كالكحل للعين والخاتم للاصبع .
والزينة فى الحقيقة هى هاته الاشياء المتزين بها ونحوها . فتعلق بها هذا الخطاب باعتبار محالها فالمقصود محالها بدليل انها اذا لم تكن فى محالها لا يتعلق بها هذا الخطاب . وقد جاء تفسير الزينة الظاهرة عن السلف مرة بالوجه والكف ومرة بالكحل والخاتم والثانى راجع للاول لان الوجه محل الكحل والكف محل الخاتم فالثانى فسر على حقيقة اللفظ والاول على المراد.

ولما قال الله تعالى : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ » عم اللفظ الباطنة والظاهرة. ولما قال : « إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا » خص الظاهرة فجاز ابداؤها وبقيت الباطنة على المنع . وافادت الآية منع كشف العنق والصدر والساق والذراع وجميع الباطن وأباحت كشف الظاهر وهو الوجه والكفان اذ هما ليسا بعورة من المراة باجماع .

فبان بهذا بطلان تفسير الاستاذ الزينة من « زِينَتَهُنَّ » بالوجه ، وبطلان استدلاله بالآية على وجوب ستره اذ هى بالعكس دالة على جواز ابدائه بحكم الاستثناء الصريح .

ونرى ان نزيد المقام تقديرا وتوضيحا بما ننقله عن امامين كبيرين فى الحديث والفتوى : الامام الجصاص الحنفى والقاضى عياض المالكى . ثم عن امام دار الهجرة .

قال الجصاص : وهو يريد : « إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا » ـ « وقال اصحابنا : المراد الوجه والكفان لان الكحل زينة الوجه والخضاب والخاتم زينة الكف ، فاذ قد اباح النظر الى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك لا محالة اباحة النظر الى الوجه والكفين . ويدل على ان الوجه والكفين من المراة ليسا بعورة أيضا أنها تصلى مكشوفة الوجه واليدين فلو كانا عورة لكان عليها سترهما كما عليها ستر ما هو عورة . واذا كان كذلك جاز للاجنبى ان ينظر من المراة الى وجهها ويديها بغير شهوة » .

وقال عياض « فى هذا كله ـ وهو يعنى حديث نظر الفجاة ـ عند العلماء حجة انه ليس بواجب ان تستر المراة وجهها وانما ذلك استحباب وسنة لها . وعلى الرجل غض بصره عنها الى ان قال : ولا خلاف ان فرض ستر

الوجه مما اختص به ازواج النبى صلى الله عليه وسلم ۰ اهـ ۰ من الاكمال بنقل المواق ۰ ونقل صدره النووى وأقره ۰

وفى الموطا : « سئل مالك هل تآكل المرأة مع غير ذى محرم منها أو مع غلامها ؟ فقال ليس بذلك بأس ۰ اذا كان على وجه ما يعرف للمرأة ان تآكل معه من الرجال ۰ قال وقد تاكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله أو مع أخيها على مثل ذلك » ۰

فمالك يرى جواز مواكلة المرأة للاجنبى اذا لم تكن فى خلوة معه ، بان كان ذلك بحضرة زوجها أو أخيها مثلا ۰ وهى تقتضى ابداء وجهها وكفيها للاجنبى اذ ذلك لازم عند المواكلة كما قاله الباجى وأقره ۰

فهذه النقول كلها مفيدة لما دلت عليه الآية من أن الوجه والكفين ليسا بعورة وانه لا يجب على المرأة سترهما ۰ نعم نص اكثر الفقهاء المتأخرين من جميع المذاهب على ان المرأة يجب عليها ستر وجهها اذا خشيت منها الفتنة وهذا حكم عارض معلل بهذه العلة فيدور معها وجودا وعدما ۰ ولذا لما كنا نتحقق الفساد بسفور نساء المدن والقرى ـ وحالتنا هى حالتنا ـ لا نرى لهن جواز السفور ما دامت هاته الحال ، ونعرف نساء جهات فى بادية قطرنا لا يسترن وجوههن وليس بهن فساد ولم تقع بهن من فتنة ، فلما سئلنا عن سفورهن اجبنا بتركهن على حالهن أخذا بأصل الجواز ۰

اننا بما كتبنا اردنا اعتراض عبارة الاستاذ وبيان الحكم الاصلى لستر الوجه والكفين والحكم العارض وقد بينا ذلك حسب المستطاع ۰ وبقى الكلام على آية الادناء التى ربما تظن معارضتها لآية الابداء المتقدمة وسنتكلم عليها فى العدد الآتى ان شاء الله (1) ۰

— 2 —

نعيد اليوم ـ وقد عدنا الى تمام هذا الموضوع ـ ما كنا صرحنا به فى القسم الاول من قولنا : « ۰۰۰ فهذه النقول كلها مفيدة لما دلت عليه الآية من ان الوجه والكفين ليسا بعورة وانه لا يجب على المرأة سترهما ۰ نعم

---

(1) الشهاب ـ ج 2 ، م۰ 5 ـ غرة شوال 1347 هـ ـ مارس 1929 م ۰

نص أكثر الفقهاء المتأخرين مع جميع المذاهب على أن المرأة يجب عليها ستر وجهها اذا خشيت منها الفتنة • وهذا حكم عارض معلل بهذه العلة فيدور معها وجودا وعدما • ولذا لما كنا نتحقق الفساد بسفور نساء المدن والقرى ـ وحالتنا هي حالتنا ـ لا نرى لهن جواز السفور ما دامت هاته الحال • ونعرف نساء جهات في بادية قطرنا لا يسترن وجوههن وليس بهن فساد ولم تقع بهن من فتنة • سئلنا عن سفورهن اجبنا بتركهن على حالهن اخذا باصل الجواز » • نعيد هذا ليتقرر ما نريده عند قارئنا بجلاء تـــام •

قد عرفنا في القسم الاول من الكلام على آية الابداء وهي آية قوله تعالى : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ » ونريد ان نتكلم في هذا القسم على آية الادناء وهي قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» وفي هذه الآية تفسيران أخذ الاستاذ باحدهما وهو مرجوح في نظرنا بما نقيمه من الادلة على مرجوحيته • وسنتكلم على الآية في ثلاثة مباحث •

المبحـــث الاول

في معنى الإدناء والجلابيب

الادناء من الدنو وهو القرب فالادناء التقريب ، فيدنين عليهن مـــن جلابيبهن بمعنى يقربن عليهن • وأصل فعل دنا ان يتعدى بمن ، تقول : دنوت وادنيته منه وانما يتعدى بعلى اذا كان في الكلام معنى الارخاء أو الضم كما في قوله تعالى : « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا » وكما في «يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ» •

والجلباب ـ على اختلاف عبارات اللغويين في تفسيره هو الثوب الاعلى الذي تجعله المرأة فوق رأسها وترسله على بدنها كالملحفة ونحوها •

و « من » للتبعيض لان الذي تدنيه عليها من ناحية وجهها انما هـو بعض جلبابها •

فافادت الآية طلب تقريب المرأة بعض جلبابها وارخائها وضمه عليها من ناحية وجهها ، وهذا محتمل لان يكون بتغطية جميع الوجه وبتغطيـة

بعضه • واختلاف المفسرين من السلف فى معنى الآية دليل على وجود هذا الاحتمال • وما نقله الاستاذ بالمعنى من تفسير الزمخشرى هو احد الوجهين المحتملين • واجود ما نقل عن أئمة العربية فى تفسير الآية قول الكسائى « يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهن » قال الزمخشرى « أراد بالانضمام معنى الادناء » والتقنع لا يقتضى ستر الوجه كله •

المبحـــث الثـــانى

فى اختلاف المفسرين من السلف

فى الآية قولان لهم نقلهما ابن جرير فى تفسيره الشهير :

الاول : هو ان يغطين وجوههن ورؤوسهن فلا يبدين منهن الا عينا واحدة وهذا قول عبيدة وقول ابن عباس من طريق أبى صالح •

الثـانى : أمرن ان يشددنجلابيبهن على جباههن وهو قول قتادة وقول ابن عباس من طريق محمد بن سعد •

المبحـــث الثـالـث

فى الترجيـــح

قد مضت آية الابداء مفيدة جواز ابداء الوجه والكفين عـــلى مقتضى ما تقدم من البيان ، وجاءت بعدها هذه آية الادناء محتملة لطلب ستـــر الوجه كله كما فى القول الاول • وتكون عليه معارضة لآية الابداء المتقدمة، تلك تبيح كشف الوجه وهذه تحظره ــ ومحتملة لطلب الارخاء والضم لبعض الجلباب على بعض الوجه وهو الجبين كما فى القول الثانى ولا تكون حينئذ معارضة لآية الابداء •

وحملها على ما تكون به معارضة بين الآيتين ــ وهو الوجه الثانى ــ ارجح وأولى ان لم يكن متعينا •

ثم ان قوله تعالى : « ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ » يفيد ان علة طلب الادناء هى تمييزهن عن الاماء اللاتى كن يمشين حاسرات او بقناع مفرد فيتعرض لهن أهل الشطارة والسفهاء ، وفى الادناء على الوجه الثانى فى

الآية تحصيل لهذا المقصود من التمييز . فحملها عليه مناسب للعلة وسالم من المعارضة فهو المختار ·

وبهذا التقرير تكون كل آية مفيدة معنى غير الذى افادته الاخرى ، فآية الابداء افادت طلب ستر الاعضاء الا الوجه والكفين ، وآية الادناء افادت طلب الستر الاعلى الذى يحيط بالثياب ويعم الرأس وما والاه من الوجه وهو الجبين وينضم على البدن ليحصل به تمييز الحرائر بالمبالغة فى التستر والاحتشام · وهذا هو المناسب لجوامع كلم القرآن ·

والله أعلم (1)

(1) الشهاب ـ ج 3 ، م· 5 ـ غرة ذى القعدة 1347 هـ ـ ابريل 1929 م ·

كلمـــة فـــي الاحتفـــالات
وتصوير وصفي للاحتفال العظيم
بختـــم القـــرآن العظيـــم

بقلم : الاستاذ محمد البشير الابراهيمي

الاحتفالات ــ بنظامها العصري ــ مجامــع مفيــدة من جميع جهاتها ، لجميع روادها، فهي بالنظر العام أدوات تعارف وتواصل وربط بين من لم تتهيأ لهم اسباب الاجتماع الا في هذه الاحتفالات ، واسواق بضائعهــا الخطب والمراجعات القولية ، وأرباحها الايجابية آداب الاجتماع ، وتلاقح الافكـــار واقتباس الكلمات واستيقاظ الهمم واستعجال الآراء وانتشال التفكير من المستوى العام الغث ، وصقل الاذهان وتمكن مجموعـــة في الملكات منها ملكة استعراض الآراء وملكة استجماع الخواطر وأرباحهـــا السلبية زوال الدهشة من لقـــاء النـــاس والاستيحاش منهـم وغشيـــة الاضطراب والارتباك ، والبرء من آفة العي والحصر ، وهي ــ لعمرك ــ نقائص ، حظ مجتمعنا ــ على الخصوص ــ منها عظيم .

وهي للدعاة ميادين دعاية يجدون فيها متسعا رحبا لنشر آرائهم بدون كلفة وبدون نفقة لانها تحشد لهم طبقات من الناس ما كانوا ليستطيعوا جمعهـــا .

وهي للمرشدين والمربين الاجتماعيين فرص لبث الارشاد بين الجمهور وتوجيهه للخير والمنفعة .

وهي للخطباء وأصحاب اللسن ذرائع تمرين وارتياض على الكلام وتوسع في وجوه القول وتمرس بمكافحة الجموع ، وهذه كلها فوائد لا يستهان بها في باب التربية .

ان هذه الاحتفالات بمثابة دروس تطبيقية معظم تلامذتها من الدهماء الذين حرموا المدارس والدروس النظامية واذا كان هذا الصنف كثيرا فى الامم فمن الرحمة به وحسن الرعية له ، ومن الحكمة في استصلاحه وتربيته أن يوسع له فى هذه الاحتفالات ويكثر له منها ، وان تبتكر له المناسبات لاقامتها ٠

وان أكثـر الناس استفادة مـن الاحتفالات وأبلغهم افادة فيهـــا وأثقلهم عهـدا فى توجيهها الى الصالح النافع أو الى الفاسد الضار ، هم الخطباء ، فعليهم وحدهم يتوقف اصلاحها أو افسادها ، وليست خصوصية الاسباب ولا تحديد النظم بمانعة للخطباء من بلوغ غرضهم ما دام باب المناسب والاستطرادات واسعا رحـب الجوانب ، وما دام وجود الخطباء فى الاحتفال جزءا ضروريا بحيث لو خلا من عنصرهم ، فى هذا العصر ، احتفال لكان زردة ، متمدنة مظلومة فى اسمها ، فوجودهـم هو الفـارق الجوهرى بين مسمى ، « احتفال » ومسمى « زردة » ٠



تتفاوت الاحتفالات بتفاوتها فى سمو المعانى التى تقام لاجلها ، فبقدر سمو السبب وعموميته تكون قيمة الاحتفال ، ثم تنزل تلك القيمة وترخص كلما تفه السبب أو خص حتى تصل الى درجة الساقط الذى لا وزن له ، ولا يدخل فى هذا الباب الا بضرب من التوسع والتساهل ٠

فأسمى هذه الاسباب ما يذكر الجمهور بأمجاده التاريخية ومفاخره القومية وفيه نخوة أماتها الضيم وفحولة قضى عليها التأنث، وذكرى أخنت عليها الغفلة والنسيان ، واصالة خبثتها الاعراق الدسيسة ، وعزيمة أطفاتها طباع الضعف والفسولة ، وأريحية غطى عليها اللوم المخزى والشح المطاع ٠ وشواعر خدرتها تهدئة الدخيل وزمزمة الحاوى وهيمنة الواغل ٠

ثم ما يخلو عليه حقيقة دينية أو علمية غشيتها الاوهام والخرافات ، ثم ما يحقق له مصلحة فى الحياة كانت مجهولة أو حقا فيها ضائعا ، ثم ما يكشف له عن وجوه الاصلاح الاجتماعى ليعملوا له ، وعن وجوه الفساد فيه ليتقوه ٠٠٠

ثم ٠٠ لا ثم ٠٠٠

هذا من جهة الاسباب والبواعث .. فاما من جهة الاشكال والصور فاعلى ما فيها أن ينساق اليها الجمهور بسائق الوجدان ، واخس ما فيها ان يساق اليها سوقا أو أن يخدع فيها عن وجدانه بالمرغبات الخادعـــة .

☆ ☆

لكل أمة أسباب طارئة وبواعث تاريخية تدعوها الى اقامة الاحتفالات. وقد تنبهت الامم الحية الى ما فيها من الفوائد فجعلت الاحتفال بها جزءا من حياتها ، ومادة من قوانينها الاجتماعية ، وان الامة الاسلامية لاغنى الامم من هذه البواعث التاريخية . وكلها من ذلك الطراز العالى الذى أشرنا اليه، ومعظمها بواعث دورية يفضى الباعث فيها الى باعث فلا تفتأ الامة مستعرضة ماضيها كله ولا تزال في غمرة من المنبهات المنعشة .

عندنا معشر المسلمين ليلـة الميلاد النبـوى ، وعندنا يـوم الهجـرة ، وراس السنة الهجرية ، ويوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم فتح مكة ، وغـير ذلك من الاحداث التى وقعت في عهد النبوة ، ولكل واحد من هذه الاحداث مغزى سام وأثر بالغ فى تاريخنا ، وهلم الى ما بعد ذلك من الوقائـــع الشهيرة الفاصلة حتى تنتهى الى فتح صقلية ، ومواقع الحروب الصليبية، وفتح القسطنطينية وهلم ما يخصنا معشر الافارقة كبناء القيروان ، واستواء طارق على الجبل ، وهلم ما تقتضيه المناسبات فى بعض الاوقات ، كفتح خيبر ، ودخول عمر لبيت المقدس . وتعال الى القواد والفاتحين والاجواد والعلماء والحكماء والفلاسفة والشعراء ، ولا تعد من الدر الا كباره ، تجد ما زخرفه التاريخ وفاضت به العصور . ومع هذه المفاخر فقل أن تجد قطرا اسلاميا سن أهله سنة صالحة في احياء هذه الذكريات واحياء الامة بها الا فى القليل المشوه الذى لا ينقع غلة ولا يصيب مرمى .

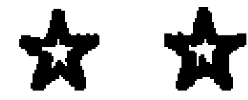
ان غفلتنا عن احياء ذكريات أمجادنا التاريخية هى التى أزهقت فى الامم الاسلامية روح التأسي فافقرتها من الرجال وجعلت تاريخها الحديث خلوا من المثل العليا . حتى اندس هذا العرق الخبيث فى آدابنا ، فترانا اذا التمسنا مثلا فى الجود طوينا تاريخ الاسلام كله كأنه صفحة مغسولة وجئنا من العصر الجاهلى بحاتم ، وقل مثل ذلك فى عنتر ، والسموأل ، فاذا قصرنا الخطوة وقاربنا النجعة وقفنا عند العصر الاول للاسلام . فهل خلت العصور التى بعدهم من مثل كاملة ومن مفاخر خالدة ؟ لا . فقد تأسى عصر بعصر وجيل بجيل، فجاءت عصور زاهرة وأجيال عامرة. فلما جهل التاريـخ

وانقطعت العلائق الواصلة بين عصوره ضعفت روح التاسي ثم تلاشت وصرنا الى هذا الفقر الشائن فى المثل ، وهذا الخواء المزرى فى التاريخ ٠

وقد زادتنا أضاليل الغاشين امعانا فى الغفلة واغراقا فى الركود ٠ ففقهاء هذه العصور الجرداء يعدون التاريخ علما لا ينفع وجهالة لا تضر ، والاجانب يعيروننا بأننا أمة تعيش فى الماضى ويغشون سفهاءنا فى معرض التنصح بأمثال هذه الكلمات ليا بالسنتهم وتزهيدا فى هذا الماضى ، زيادة على زهدنا فيه ٠ وهم يعلمون أننا نعيش بلا حاضر ويوجسون خيفة من أن يلم بنا طيف من ذلك الماضى الزاهر فنبنى عليه حاضرا من جنسه أكمل منه ٠

الا أنهم ، من افكهم ، ليقولون : دعوا ماضيكم فهل تركوا هم ماضيهم ؟ اننا نراهم أحرص الناس على الاعتداد به والاستمداد منه والامتداد معه الى عصور الخرافات والاساطير ٠

وما لنا وللغاش والناصح ! ان لنا لماضيا عبقريا حسدتنا عليه الامم التوالى بعد أن جرضت به الامم الخوالى ٠ فمن مصلحتنا وحدنا أن نحيى ذكرياته فى نفوسنا وأن نستمد منه قوة لارواحنا وأن نربى ناشئتنا على احتذاء مثله وعبقرياته ، وان اقامة الاحتفالات لتلك البواعث لطريق قاصد الى ما نريد من ذلك ٠



سنت مجلة « الرسالة » الغراء نوعا من الاحتفاء ببعض هذه البواعث فجرت على اصدار عدد ممتاز للسنة الهجرية وجلا كتابها الكرام علينا عبرا كانت مخبوءة وأثاروا فى نفوسنا ذكريات كانت منسية ٠ ورأينا من بركات هذه السنة التي سنها الاستاذ الزيات ، أمتع الله به ٠ ان اقلاما عربية متينة كانت متنكرة للاسلام وتاريخيه تعفر وجههما الصبوح بالغبار وتمج فى مشرعهما الصافى السمام المنقع ، وقد أصبحت تفتن فى ابانة حقائقهما واظهار معالمهما بما أوتيت من قوة بيان ونصاعة برهان ، ثم كتب الاستاذ صاحب الرسالة مرة أو مرتين ، لا اذكر ـ فى ذكرى يوم بدر ، وكأنه حفظه الله ـ يريد بهذا الصنيع أن يجعله منبهة للامم الاسلامية الى ما وراءه من خير ، ولكن لم يكن على منهاجه الا القليل ٠

ومنذ سنوات احتفلت عصابة من احياء القلوب والشواعر بموقعة حطين وهى من المواقع الفاصلة فى الحروب الصليبية ، ومن الصفحات المشرقة فى تاريخ صلاح الدين وتكلم فيها جماعة من رجال الاسلام ونشرت كلماتهم فى كتيب وقرأناه فاذا هو احتفال يثير رواكد الهمم . ويكاد ينفخ الحياة فى الرمم . ولقد ، والله اشجانى وأبكانى ـ وما زال يشجينى ويبكينى كلما ذكرته ، قول صديقنا الاستاذ خير الدين الزركلى فى انشودة حطين :

لكل أمر حين خل البكا حينا
هاتى صلاح الدين ثانية فينا
الشامخ العرنين عزا و تمكينا
وجددى حطين أو شبه حطينا

لك الله أيها الشاعر . وهل يأتيك بصلاح الدين الا أمتك ؟ وهل يجدد لك حطين إلا قومك الذين بدأوها . ولكن هل أمتك مستعدة لان تأتيك بصلاح الدين مرة أخرى ؟ وهل قومك أهل لان يجددوا موقعة حطين ... وفيهم أمثال عبد الله ..؟

قد خلت الاجام من رابض فيها

أخي فى أمتك وقومك خلق التأسى بمن قلت فيه :

فصاح : لا عدوان لا بغى لا ارهاق
قد فرض الايمان مكارم الاخلاق

وانا الضمين بانهما يأتيانك بجمع من صلاح الدين ويجددان لك حطين واشباه حطين .

لا نريد للمسلمين أن يعكفوا على تلك الاحتفالات المولدية الشائعة التى يقتصر فيها على تلاوة القصص المشوهة . فان ذلك الطراز لا يتفق مع

شرف الذكرى وجلالها · وأن القصص المولدية الحشوية والخطب المنبرية الرائجة هما سبب تنويم هذه الامة وأصل بلائها ·

ولا أن نعكف على ذلك النوع الشائع في مصر كمولدى البدوى والرفاعي وغيرهما فان ذلك النوع ـ زيادة على افساده للدين والاخلاق ـ لا يثير فى النفوس ذكريات ماجدة ولا معانى شريفة وانما يمكن فيها للتخريف والدجل ·

ولا ذلك النوع الشائع فى الاوساط الشيعية من احتفالهم يوم عاشوراء بذكرى مقتل الحسين عليه السلام فانه فضلا عما يقع فيه من المنكـــرات المخجلة ـ لا يثير الا الحفائظ والإحن ولا يثمر الا توسيع شقة الخلاف · ولقد حضرت احتفالهم مرة واحدة في دمشق فى تربة تعرف بأرسلان فعجبت كيف تصدر تلك الشناعات من مسلم وعلمت لاول مرة : الى أى حد ينتهى التعصب والغلو ، ثم ذاكرت عالـم الشيعة بدمشق الشيخ عبد المحســن العاملى وهو عالم فاضل أديب معتدل فى ذلك فانكر ما انكرت بالقول واعتذر عن الانكار بما فوق ذلك بما يعتذر به علماء الدين فى كل مكان ·

لا نرضى للمسلمين بهذا الطراز البالى من الاحتفالات التى ذكرنا بعض انواعها ، فقد عكفوا عليها قرونا فما زادتهم الا خبالا وانحطاطا ، وانما نريد منهم محوها واستبدالها بما هو خير ·

وقد تتابع السواد الاعظم من اخواننا المصريين فى هذا النوع السخيف مثل ما تتابع الفريق المثقف منهم فى تقليد الغربيين فى هذا الباب بلا تحفظ ولا استمساك فبينما سواد الامة وعديدها الاكثر عاكف على الاضرحـــة يقيم حولها احتفالات الموالد ويرجو منها الامداد وعلماء الدين يمدونهم فى الغى بسكوتهم ، ومشيخة الازهر تزكى أعمالهم بتقبيل شيخها لمقود جمل المحل ـ نرى الطرف الآخر يتهالك على تقليد الغربيين فى ولائمهـم واحتفالاتهم السخيفة بالتوافـه والسفاسف ، ويستهتر فى هذا التقليـد حتى تطغى احتفالات الغرب الدينية والقومية حتى على المواسم الشرقيـة الدينية ، وهذه جرائدهم ومجلاتهم تشهد ـ فى ضجر وعتب أو فى رضى

واعتاب ـ بأن هذه الطائفة ـ وهم عمار الحواضر يحيون ليلة الميلاد المسيحي وعيد راس السنة المسيحية ولا يأبهون لعيد الفطر ولعيد الاضحى .

ولعمري ان هذا لهو الاستعمار الروحي الذى لا يعد الاستعمار المادي معه شيئا مذكورا !

أولم يكن لهم آية ان شوقي رحمه الله يقول على لسان كليوباطرة ملكة مصر تخاطب خدم قصرها :

لا تسيروا على ولائم روما سرفا فى الفسوق واستهتارا
مصر ان أولمت سمت بالاغاني درجات وأسمت الاشعارا

فهذه كليوباطرة وهى كما يقولون . أنثى افنت العمر فى الهوى .

أنفت (أو انف لها شوقى) أن تسير ولائمها على ولائم روما . فلئن كان هذا الكلام مما الم معناه بخاطر كليوباطرة وجرى لها لفظه على لسانها فهى أصدق وطنية وأنبل نزعة من هؤلاء المقلدين وان كان انما تخيلها شوقى كذلك فما أراد الا عظة هؤلاء وما عنى الا اياهم ، وما وجه الخطاب الا اليهم . وليس شيء من ذلك بمستنكر على شوقى .

ويا ليت اخواننا هؤلاء استبدلوا غربا بغرب فقلدونا نحن ـ ما دام التقليد مبلغ جهدهم ـ فى كثير من هذه المعانى التى يقلدون فيها الغربيين ، ألسنا مغاربة ! ألسنا أحق باسم الغرب بالنسبة الى مصر ؟ وانما أوروبا شمالى مصر . وقد شرع لهم حافظ هذه التسمية فى قوله :

فدعونا نشم ريح الشمال

أم يقولون : اننا برابرة ومتوحشون : فنعم وكرامة عين ولكننا مع ذلك شداد فى الاستمساك بحبال الشرقية فى كثير من مناحى الحياة ، ولقد صاحبنا الاستعمار أكثر من قرن فما استطاع لنا هضما .

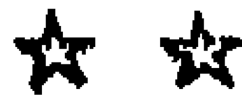
خالفنا الاتجاه قليلا ولمسنا ببعض العتب علاقة عزيزة علينا وعزيزا علينا أن نراها مسرفة فى التقليد غالية فى المتابعة على غير هدى ، على حين نأتم بها ونعدها لامامة الشرق كله ، فليهنأ اخواننا اننا تلامذتهم ولكن فى غير ما هم فيه تلامذة الغرب .



لم تعرف الجزائر فى ماضيها من الاحتفالات الا تلك الصور العادية ، الساذجة فى العيدين الدينيين والا الزرد الموسمية فى بعض الجهات ۰ والا نوعا آخر هو أقرب الى الاحتفال المنظم لو خلا من المحظورات الدينية ۰ وحلا بالمشارب القومية والفوائد الاجتماعية ۰ والعامة تطلق على هذا النوع اسم « الاركاب » وهم يعنون جمع ركب بسكون الكاف كأركاب خالـــد ابن سنان بصحراء بسكرة ، وركب عامر لقبر عطية ، قرب قلعة بنى حماد، وركب قسنطينة لقبر ابن عبد الرحمن بالجزائر ۰ وركب البليدة لقبر الشيخ أبى مدين بتلمسان ، وكلها من شد الرحال غير المشروع ، وكلها قريبة من النوع الذى نعيناه على المصريين وان كانت أقل منه فسادا أو افسادا ۰

وعرفت الحواضر الجزائرية شبه احتفال بالمولد النبوى يقتصر فيه على التجمير والتقصير وتلاوة قصة من القصص الحشوية الشائعة ۰ ولقـد حضرت ـ منذ سنوات ـ حفلة مولدية من هذا النوع بحاضرة الجزائـــر وسمعت عالما أزهريا يقرأ على الناس قصة مولدية ـ لعلها مولدية المناوى ـ فسمعت من بعض ما كان يقول قوله : ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يرى من أمام كما يرى من خلف بعينين خلقهما الله فى قفاه ۰۰۰ وكان بجنبى فقيه مقرىء خفيف الروح سلفى النزعة فتغامزنا بالانكار ولـــم نستطع جهزة اذ كان ذلك قبل انتشار الحركة الاصلاحية ، ثم أسر الى على سبيل الدعابة قوله : أبى الله الا أن نكون أسبق منكم لكل شىء ، فعندنا من هذه « المباركة » من العلماء من يقول ويكتب : ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يولد من السبيل المعتاد ۰۰۰

ولبثت الجزائر محرومة من هذا النوع المفيد الذى يغرس المعـــانى السامية فى النفوس بأسبابه وبواعثه ، ويزرع المبادىء العالية والمعارف والآداب فى العقول بما يقال فيه ، الى أن كان عهدها الاخير ۰ وكانـت نهضتها العلمية الدينية ، فلاوائل هذه النهضة شعرت بما للاحتفالات من أثر صالح فى النهضات ، فالتفتت اليها وجعلتها احدى ذرائعها لتعضيد الاعمال والمشاريع ، ونشر المبادىء الصالحة ، وبث الافكار النافعة ، وترقت بها مع الزمن حيث النظام واختيار المناسبات ، حتى اصبحت تنافس أرقى ما عرف من نوعها عند الامم الاخرى ۰



لعل أروع احتفال شهدته الجزائر في عهدها هذا هو الاحتفال بفتح مدرسة « دار الحديث » بتلمسان في أواخر شهر سبتمبر من السنة الخالية. فقد كان بدعا من الاحتفالات في نظامه • وفي ضخامة العمل الباعث عليه • وفي جلال المناسبة والذكرى ، وفي احتشاد الامة له ، وفي علو الطبقة التي شهدته وتكلمت فيه من العلماء والشعراء • وقد وصفته الجرائد في حينه، وانما جلبته هنا مناسبة الحديث عن الاحتفالات •

ثم جاء الاحتفال بختم الاستاذ عبد الحميد بن باديس لدروس التفسير بالجامع الاخضر بقسنطينة • وهو الذي ألهمنا كتابة هذه الكلمة ـ فكان شاهدا لما ذكرناه ، قريبا من تطور هذه الامة في هذه الناحية • ودليلا على أن نظام الاحتفالات بلغ في هذا القطر كماله ، وعلى أن روح التأسي في الصالحات حييت في هذه الامة وانتعشت ، وانها اصبحت تهتبل الفرص المواتية فتحسن الاختيار •

أذكر أننا كنا في جماعة من الرفقاء الاوفياء ـ تذاكرنا مرة في اقامة حفلة تكريم لرفيقنا الاستاذ بن باديس تنويها ببعض حقه على العلم وشكرا لاعماله الجليلة وآثاره الحميدة في التعليم بهذا الوطن • واعترافا بكونه واضع أسس النهضة . وانصافا لكونه اسبقنا الى التعليم واشدنا اضطلاعا به وأكثرنا انتاجا وتخريجا فيه ••• وذهبنا في تقدير الفوائد التي تجنى من هذا الاحتفال مذاهب لا غلو فيها ولا اسراف ، ثم فاتحنا أخانا الاستاذ بهذه الفكرة ، فكان الجواب قوله : دعوا هذا حتى نختم دروس التفسير • ـ وبيننا يومئذ وبين الختم سنوات ـ كأنه يرى أن عمله في التفسير هو أجل اعماله في التعليم ، وأنه باتمامه لهذا العمل يستكمل مزية الاستحقاق للتكريم والاجلال من أمته ، اذ يكون قدم لها عملا تاما ناضجا ، وصورة كاملة من مجهوداته ، زيادة على ما خرج لها من رجال ••• كأنه ـ حفظه الله ـ كان معلق البال بهذا العمل ويخشى أن تقطعه قواطع الدهر •

واراد الله فحقق للاستاذ أمنيته من ختم التفسير ، وللامة رجاءها في تسجيل هذه المفخرة للجزائر ، ولانصار السلفية غرضهم من تثبيت أركانهم بمدارسة كتاب الله كاملا ، وبدت مخائل الختم من أواخر السنة

الخالية : فكثر الحديث في الاسمار وفي المنتديات عن الاحتفال ، وصورت منه الخواطر احتفالا ملء الامل ، وكذلك كان • والحمد لله •

تالفت لجنة تنظيم بمركز الاحتفال (قسنطينة) واعدت للاحتفال برنامجا محيطا ومحكما ، وجعلت شعاره كله (القرآن) • فالوفود وفود القرآن ، والضيوف ضيوف القرآن ، وأذاعت توقيت الاحتفال باليومين الرابع والخامس من شهر ربيع الثاني ، ثم عدلت عنهما الى الثاني عشر والثالث عشر منه لعوارض قاهرة لا يملك معها الخيار • وأضر تاخير ذلك الاسبوع بطوائف من الامة كانت تسابق بالاحتفال أشغال الصيف وتكاليف الفلاحة • وهي تكاليف لا يملك معها الخيار أيضا •••

انهالت الوفود القريبة الدار على قسنطينة يوم الجمعة وتلاحقت الامداد يوم السبت ، وشعر الناس شعورا عاما أن الجامع الاخضر لا يسع الوافدين اذا انهال سيلهم ، وان محلا ما من المحلات العامة لا يسعهم أيضا • فالهموا من غير تواطؤ ـ العمل بقاعدة التمثيل فارسلت كل بلدة وفدا محدود العدد يمثلها ، فلم تبق بلدة من عمالة قسنطينة كبيرة أو صغيرة الا ومثلها وفد في مهرجان القرآن • فرأينا هناك وفود البلدان الساحلية من بجاية الى الحدود التونسية ، ووفود مناطق التلول من سطيف الى سوق أهراس ، ووفود المناطق الصحراوية من بسكرة الى سوف ، وتكاملت عقود هذه الوفود بوفد عاصمة الجزائر الضخم المؤلف من مائة وثلاثين شخصا ، ثم وفد تلمسان وهو أقصى الوفود دارا عن قسنطينة ، فبينهما ما يزيد عن الف ميل ، ولكن جاذبية القرآن هونت عليه النصب واللغوب •

رأى الوفد التلمساني أن يقطع الطريق من الجزائر الى قسنطينة في سيارة أوتوبيس ذات أربعين مقعدا ليجمع بين الفائدة والنزهة ، وعمل بالاتفاق مع الوفد الجزائري على أن يخرج الوفدان من الجزائر معا ، ويدخلا قسنطينة مساء السبت معا •

وبلغ أهالي سطيف أن الوفدين يمران ببلدتهم ، فابى عليهم كرمهم الا أن يقيموا لهما حفلة شاي فاخرة • وارسلوا للوفدين استدعاء مع رسول خاص مبالغة منهم في البر والاحتفاء ، وخرج الوفدان من العاصمة

على الساعة السادسة من صباح السبت فى قطار من السيارات الضخمة يتكون منها منظر ساحر خلاب ، ووصلوا سطيف على الثالثة بعد الزوال فتلقاهم اخوانهم السطيفيون على بضعة أميال من المدينة بباقات الزهر ، وطيب التحية ، واجتمع الجميع على مائدة الشاى الحافلة ٠

ثم استقل قسم من وفد سطيف سيارة ذات خمسين مقعدا ، وخرج الجميع آمين قسنطينة ، وقد زاد الموكب كمالا وجمالا ٠

خرج اعضاء لجنة الاحتفال من قسنطينة فى بضع سيارات للقاء موكب الوفود على خمسة وعشرين ميلا ابلاغا فى المبرة ، فتهللت الاسارير عند اللقـاء ، وطفحت الوجـوه بالبشر وانطلقت الالسنة بالتحيات المباركات ، وتصافحت القلـوب قبـل أن تتصافح الايدي ، وامتزج شماس الاصيل بشعاع الوجوه المستبشرة ٠ فكان منظرا سحريا أخاذا لا يستقل بوصفه الا شاعر ٠ ولست بشاعر ٠ ثم انتظمت السيارات موكبا بديعا وزحفت الى قسنطينة فدخلتها بعد المغرب ٠ وليس وصف مشهد دخول هذا الموكب الى قسنطينة وانغماس الضيوف والمضيفين فى غمرة من نشوة الفـرح البالغ الى حد الذهول ـ بالذى يسعه بيانى وان وسعه ادراكى وعيانى ٠

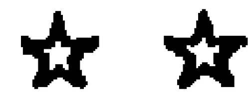
اجتمعت وفود الغرب بوفود الشرق فى مدرسة التربية والتعليم التى أعدت مكاتبها وطبقاتها وقاعاتها لهم أحسن اعداد ، وبعد أداء فريضـة العشاء انصرفوا الى موائد المضيفين على تقسيم عجيب ومزج غريب يرجع الفضل والشكر فيه الى لجنة الاحتفال ٠

وقد تبارى كرام القسنطينيين ـ أحسن الله اليهم ـ فى اكرام الوافدين، وهزتهم الاريحية هزة بعد العهد بمثلها ، وتجلت الضيافة العربية الباذخة فى أجلى صورها ، يزينها نظام دقيق دفع هجنة الفوضى ووصمة الاختلال التى تصاحب الاحتشاد والكثرة ٠ فلم يتخلف مضيف عن ميعاد ٠ ولـم تختل لضيف وجبة ٠ ولم يفترق للمجتمعين فى منزل شمل ٠ وتضاعفت الوفود صباح الاحد فتضاعفت الحفاوة والبشر ، وتجلى الاستعداد الهائل ، واتسعت الصدور فاتسعت المنـازل وتنوعت صنوف البر حتى وسعـت تلك الوفود الزاخرة ، سكنا مرفها ، وأكلا مترفا فى أيام الاحتفال ولياليها٠

وارتفعت الكلف بين كل نزيل ، وابى مثواه حتى لتحسبهم اخوة رحم أو عشراء دهـــر ٠

ثم تلطفوا فخصوا الوفود التى لم تسبق لها زيارة قسنطينة بنوع من التكريم وهو الطواف بهم فى أوقات الفراغ على معالمها ، وقناطرها العجيبة، وواديها المدهش ، ومناظرها الساحرة ، وغمروهم بفيض من الرقة واللطف أسرت البابهم وانطقتهم ببليغ الشكر ، فانقلبوا الى أهليهم يحملـــون الاعجاب والاكبار ويضمرون المحبة الصادقة والولاء المحض ٠

هذه هى الاجتماعات التى كنا ننشدها فلا نجدها ، هذه الاجتماعات التى تثمر التعارف الحقيقى وتجمع أفراد الامة على الدين والخير والعلم ، وقد زادها اخواننا القسنطينيون تمكينا ، وشرعوا من آداب الضيافة مناهج سيحتذيها المترسمون ويذكرونها لهم بالجميل ٠ وما ظن الذين يفترون علينا الكذب ويتقولون علينا الاقاويل ! أفى مثل هذا الاحتفال من اعمالنا شائبة نقد أو رائحة اضرار بأحد ؟



كان من المتوقع ـ على بعد ـ أن تسمح الادارة بوقوع الختم فى الجامع الاعظم لاتساعه لاضعاف ما يتسع له الجامع الاخضر ـ وقد طلب منها ذلك واتخذت وسائله ، فابت ٠ فما كان من لجنة الاحتفال وكرام القسنطينيين الا ان قرروا أن يفسحوا فى المجالس للوافدين وأن لا يزاحموهم فى مقاعد الجامع الاخضر ساعة الدرس ؛ ونفذوا هذه الخطة على أن تكون مكافاتهم من الاستاذ اعادة درس الختم فى ليلة أخرى بعد انحسار الوفود عـــن قسنطينة ٠

وما كادت تشرق شمس يوم الاحد حتى اكتظ الجامع الاخضر بالوفود، فلم يبق فيه متنفس ٠ وشمل الخشوع تلك الصفوف المتراصة حتى لا حركة ولا ضوضاء ٠ وتجلى جلال كلام الله فى بيت الله فكان مشهدا يستنزل الرحمات ٠ ويتكفل باستجابة الدعوات ٠ وصعد الاستاذ المفسر منبـــر الدرس فشخصت العيون ، وخفتت الانفاس ، واستهل بتلاوة المعوذتين ، وشرع فى تفسيرهما بما هـــو معهود منه ، فلا يحتاج الى نعـــت ولا الى اطـــــراء (1) ٠

---

(1) وتقرأ ملخص الدرس فى غير هذا الموضع ٠

استغرق الدرس ما يقرب من ساعة ونصف أخذ الناس فيها على نفوسهم وجللتهم سحابة من الخشية والسكينة • وكذلك المؤمنون الذين يخشون ربهم بالغيب تقشعر جلودهم عند سماع كلامه ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر اللـه •

وختم الاستاذ المفسر الدرس بأدعية قرآنية وابتهالات ماثورة ثم طلب من الحاضرين أن يسالوا الله الرحمة والمغفرة لاخيهم حسين باى مؤسس الجامع الاخضر • ومحبسه فى سبيل العلم واقام الصلاة وذكر الله كما هو منقوش على رخامة فى المسجد • وذكر أن من علامات اخلاص هـذا الرجل فى عمله وحسن نيته أن يسر الله ختم تفسير كلامه من أوله الى آخره فى مدة خمسة وعشرين عاما بهذا المسجد ، فانطلقت الالسنة بالدعاء والترحم ، وافترقوا على مثل ما اجتمعوا عليه ، بقلوب خاشعة ، ونفوس متراحمة والسنة رطبة بحمد الله وشكره على ما وفق اليه من الخير وأعان •

وكان هذا اليوم مقصورا على درس التفسير حرصا على كلام الله أن يستقل تأثيره بالنفوس وأسره للافئدة • وعلى عظاته أن تتصل بشغف القلوب • وخص سائر اليوم لاستراحة الوافدين ووقوفهم على معالم المدينة ومناظرها بعد أن أذنت لجنة الاحتفال فيهم باحتفالات الغد وأعماله •



كان يوم الاثنين الموالى ليوم الختم موعدا لاقامة حفلة تكريم للاستاذ المفسر ، وهى الحفلة التى سبقت الاشارة اليها فى كلامنا • وكان لها حظ من تصميمنا واعتزامنا فسخر الله أسبابها فى هذا اليوم • وقد تلطفت لجنة الاحتفال فأسندت رئاستها الى كاتب هذه السطور • وكان موضع الاحتفال قاعة « كلية الشعب » الفسيحة •

اهطعت (1) الوفود الى كلية الشعب قبل الساعة المقررة بساعات ولم يثنهم طول الانتظار ولا اكتظاظ القاعة حرصا على ضمان المقاعد • وصنع القسنطينيون فى هذا اليوم صنيعهم بالامس ففسحوا فى مجالس كليـة الشعب كما فسحوا فى الجامع الاخضر اكراما للوفود • وأبت الوفود الا ان يكون لها شرك فى معنى التكريم وان يكون لاسمائها وبلدانها دخل فى

(1) اهطعت : اسرعت • وفى القرآن (مهطعين الى الداعى) •

عداد المكرمين • فكان التكريم باسم العلماء زملاء الاستاذ وشركائه في العمل وباسم تلامذته وباسم هذه الوفود الحاشدة •

ودقت الساعة التاسعة فتصدرت هيئة جمعية العلماء سدة القاعة واكتنفهم خطباء الحفلة وشعراؤها من تلامذة الاستاذ عن اليمين والشمال وتقدم رئيس الحفلة فقدم مقرئا أسمع الناس آيات من كلام الله ثم فتح الرئيس باب الخطابة بارتجال كلمات • ثم قدم الخطباء على مراتبهم ثم الشعراء كذلك وسيرى القارىء في آخر هذا العدد تلك الخطب والقصائد منشورة •

ولما كانت ساعات الاحتفال محدودة لا تتسع لجميع الخطباء ولا للقليل منهم وكان التلامذة يمثلون طبقات تمتد من أوائل النهضة الى الآن ، فقد رؤى حرصا على الوقت والفائدة الاقتصار على من يمثل تلك الطبقات ، فتقدم من يمثل المتخرجين في أوائل الحركة • ثم من يمثلون وسط الحركة واستفحالها • ثم من يمثلون الطبقة المباشرة للتعليم في السنوات الاخيرة ، ثم من يمثلون الطبقة النازحة الى جامع الزيتونة ، ثم من يمثل الطبقة المستقلة بالتعليم ، ثم من يمثل تلاميذ التلاميذ • وبعد انتهاء الخطباء أعلن الرئيس استراحة ربع ساعة ثم الرجوع لسماع الشعراء •

ولما انتهى دور الخطباء والشعراء المقررين في منهاج الحفلة • وقف كاتب هذه السطور وارتجل خطابا تغنى فيه بجمال يوم القرآن وهو يوم الختم وبفوائد الخير التي سيعود بها على الامة الجزائرية ، وقد حاول كاتبان من كتاب الحفلة أن يلتقطاه عند الالقاء ففاتهما منه الكثير • وتقدم الى الحريصون على تخليد الحفلة كاملة ان اكتب ما علق بالذاكرة من الفاظها ومعانيها فكتبت ما يقرؤه القارىء في آخر الخطب • وانا أبرأ من ادعاء محاذاته كما القي ارتجالا • في الفاظه ومعانيه •

وبعد خطبة الرئيس قام الاستاذ المحتفل به وارتجل خطبة ضافية نستغني عن وصفها ها هنا بتلخيص معانيها ونشرها مع الخطب •

وانفض الاحتفال على الساعة الثانية الا ربع الساعة بعد الزوال •

ومن لطائف الاتفاق أنه خطر لبعض الهيئات تقديم هدية تذكارية للاستاذ ولم تعلم هيئة بما اعتزمت عليه الاخرى من نوع الهدية • فلما قدمت الهدايا أمام الجمهور بعد انتهاء الخطابة كان تناسقها مفاجأة مدهشة • وهي محفظة كتب عربية ثمينة قدمها وفد تلمسان ، وقلم تحبير ثمين معه قلم رصاص قدمتها هيئة جمعية التربية والتعليم ، ونسخة من تفسير المنار قدمتها هيئة جمعية العلماء ، ونسخة من كتاب فتح البارى قدمتها لجنة الاحتفال •

وكما كانت هذه الهدايا لطيفة فى معناها التذكارى وفى رمزها العلمى وفى تناسقها ، فقد كان سرور الاستاذ بها عظيما ، ووقعها فى نفسه لطيفا • ثم تم التناسق ولطف الذوق فى حفلة المساء حين قدم له تلامذة كشافة الرجاء مصباحا كهربائيا ظريفا •

وقدم له تلامذة الشباب الفنى (زربية) سجادة صلاة •

وفى مساء الثلاثاء اشتركت ثلاث جمعيات علمية وفنية ورياضية فى اقامة احتفال زاهر فخم فى كلية الشعب ابتهاجا بضيوف القرآن •

اما الجمعيات فهى جمعية التربية والتعليم وجمعية الشباب الفنى الفنية وجمعية كشافة الرجاء الرياضية •

وأما الاحتفال فكان ناجحا الى أقصى حدود النجاح • مؤثرا الى ابعد غايات التاثير ـ ظهرت فيه جمعية « الشباب الفنى ـ على حداثة عهدها ـ بمظهر الكفاءة والتجديد وسلامة الذوق والانسجام بين العازفين فى المظهر وبين القطع فى المخبر • وقد عزفوا قطعا مشجية وترنم عليها التلامذة باناشيد أشجى ، حتى لقد رايت كثيرا من عمار الصفوف الامامية يبكون تأثرا ـ وان انس فلا أنس التلميذين اللذين أنشدا نشيد الترحيب عزف البيانى • انهما لطراز عال فى رخامة الصوت وسلامة الاداء وجمال المنطق، حفظهما الله واقر بهما أعين الامة التى تعلق رجاءها على امثالهما •

ان التطويل فى وصف هذه الحفلة يفضى الى التقصير • وخلاصة القول فيها انها كانت زادا روحيا قدمته قسنطينة لوفودها بعد ان جاوزت

الغاية فيما قدمته لهم من أطايب الغذاء البدني . وان سرها وسحرها ليسا آتيين من الاطراب في العزف والاطراف في الاناشيد والاجادة في التمثيل والاتزان في الحركات وانما هما أتيان من شيء آخر وراء هذا كله ، هو أمل الامة في أبنائها . كان صورة في الاذهان ، ومخيلة في الادمغة ، فرأت منه في هذه الليلة نموذجا عمليا يبشر بتحققه كله - ان الزمان باحداثه يستطيع أن يمحو من نفوس الوافدين كل ما رأوا وما سمعوا ولكنه لن يستطيع محو شيئين درس القرآن وهذه الحفلة . وان الوافدين ليستطيعون ان يقابلوا كل اكرام لقوه من اخوانهم القسنطينيين بمثله أو باحسن منه الا اكرامهم بمثل هذه الحفلة .

وانفض هذا الاحتفال في نهاية الساعة الواحدة بعد نصف الليل ، بعد أن ختمه الاستاذ بن باديس بكلمة توديع .



من المظاهر التي شاهدها الناس كلهم في هذا الاحتفال بسوابقه ولواحقه - الهدوء الشامل ، فلم تحدث أية حادثة ولو بسيطة على كثرة الاحتشاد وشدة الازدحام واختناق التماريج في المدينة . وليس مرجع ذلك الى التنظيم الآلي . ففي أدون من هذا الاحتفال نرى الفوضى تطغى على النظام . وطباع السوء لا تنهنه بالزجر ، وانما مرجع ذلك الى التنظيم النفسي ، والى أدب القرآن ، وقد ملك أزمة النفوس .

وان هذا النوع من التربية الدينية هو الذى نريده للامة . وهي تربية كثيرة الفوائد قليلة التكاليف . وقد جربت فصحت . فهل من معين لنا على تثبيتها وتعميمها ؟ وكان ادارة الامن العام بقسنطينة ادركت ذلك فلم نر منها مظاهر الاستعدادات الاستثنائية التي كنا نراها في مثل هذه المشاهد ، وحسنا فعلت (1) .

---

(1) الشهاب - ج 4 ، م 14 - ربيع الثاني وجمادى الاولى 1357 هـ ، جوان - جوليت 1938 م .

قصيدة الشاعر محمد العيد

في حفل تكريم الامام

كانت قصيدة الشاعر النابغة الاستاذ محمد العيد هي الخامسة في ترتيب الشعراء ، وقد قدم لها الاستاذ الابراهيمي بالكلمة القيمة التالية :

الاستاذ محمد العيد ، شاعر الشباب ، وشاعر الجزائر الفتاة ؛ بل شاعر الشمال الافريقي بلا منازع ، شاعر مستكمل الادوات ، خصيب الذهن ، رحب الخيال ، متسع جوانب الفكر ، طائر اللمحة ، مشرق الديباجة ، متين التركيب ، فحل الاسلوب ، فخم الالفاظ ، محكم النسج ملتحمه ، مترقرق القوافي ، لبق في تصريف الالفاظ وتنزيلها في مواضعها ، بصير بدقائق استعمالات البلغاء ، فقيه محقق في مفردات اللغة علما وعملا ، وقـاف عند حدود القواعد العملية ، محترم للاوضاع الصحيحة في علوم اللغة كلها ، لا تقف في شعره ـ على كثرته ـ على شذوذ أو رخصة أو تمسح في قياس ، أو تعقيد في تركيب ، أو معاظلة في أسلوب . بارع الصنعة في الجناس والطباق وارسال المثل والترصيع بالنكت الادبية والقصص التاريخية .

ومن يعرف محمد العيد ويعرف ايمانه وتقواه وتدينه وتخلقه بالفضائل الاسلامية يعرف ان روح الصدق المتفشية في شعره ، انما هي من آثار صدق الايمان وصحة التخلق، ويعلم انه من هذه الناحية بدع في الشعراء

رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها ، وله في كل ناحية من نواحيها ، وفي كلّ طور من أطوارها ، وفي كل أثر من آثارها ـ القصائد الغر ، والمقاطيع الخالدة . فشعره ـ لو جمع ـ سجل صادق لهذه النهضة وعرض رائع لاطوارها .

وقد سمت نفسه في العهد الاخير الى الشعر الفلسفي ، ونظم فيه عدة مقطوعات لزومية رائعة نشر القليل منها .

واذا كان في النهضة العلمية الادبية بالجزائر نواحي نقص فمنها ان يبقى شعر محمد العيد غير مجموع ولا مطبوع (*) .

بمثلك تعتز البلاد وتفخر ... وتزهر بالعلم المنير وتزخر
طبعت على العلم النفوس نواشئا ... بمخبر صدق لا يدانيه مخبر
نهجت لها في العلم نهج بلاغة ... ونهج مفاداة كأنك حيدر
حبتك عمالات الجزائر حرمة ... مشرفة عظمى بها أنت أجدر
ففي كل وفد راشد لك دعوة ... وفي كل حفل حاشد لك منبر
يراعك في التحرير أمضى من الظبى ... وأفضى من الاحكام آيتان يشهر
ودرسك في التفسير أشهى من الجنى ... وأبهى من الروض النظير وابهر
ختمت كتاب الله ختمة دارس ... بصير له حل العويص ميسر
فكم لك في القرآن فهم موفق ... وكم لك في القرآن قول محرر
قبست من القرآن مشعل حكمة ... ينار به السر اللطيف ويبصر
وبينت بالقرآن فضل حضارة ... أقر لها كسرى واذعن قيصر
حكيت (جمال الدين) في نظراته ... كأن (جمال الدين) فيك مصور
وأشبهت في فقه الشريعة (عبده) ... فهل كنته أم (عبده) فيك ينشر
أعد يا بن باديس الحديث وأبديه ... بانعمك التي بها أنت تؤثر
قسنطينة اعتزت بأن وفودها ... على الخير فيها والهدى تتجمهر
وفود سلام لا وفود خصومة ... تبشر فيها بالرضى وتبشر
وتهدى الى عبد الحميد تحية ... كزهر الربى او انها منه أعطر
وتهنئة منها بختم مفسر ... من القول لا يسمو عليه مفسر
فواصل غر كالنجوم مطالعا ... بها يهتدى للحق من يتحير
وصحف من الله الكريم كريمة ... مطهرة فيها كلام مطهر
أقام لنا (عبد الحميد) أدلة ... على علمها الجم الذى ليس يحصر

(*) ليهنأ الاستاذ المرحوم في قبره ، فان شعر محمد العيد قد جمع جله وطبع ، والبقية في الطريق ان شاء الله .

ابان الهدى فيها لمن يَبتغى الهدى ... وساق بها الذكرى لمن يتذكر
لقد ناهز الخمسين فى العمر دائبا ... على الجد لا يشكو ولا يتضجر
قضى ربْع قرن ينشر العلم صابرا ... على عَقبات ما عليهن يُصْبَر
ورُبّيَ فى ظل. السعادة مقبلاً ... على العلم يُرْمى شخصُه ويقدَّر
بدوحة عزٍ (للمعز) رفيعةٍ ... على الدوح صُلب فرعها ليس يُكسَر
قسنطينة اهتزى سروراً وغبطة ... بانك ثغر للصناديد يُثغَر
وأنكِ مَنحىً للمكارم ينتحى ... وانكِ دارٌ للعلوم تديَّر
وانكِ مجلى للطبيعة يُجْتلى ... ومَنظَرَة منها الى الكون يُنظر
نباتُكِ ريحان وتربكِ فضةٌ ... وصخركِ مرجانٌ وماؤكِ كوثَر
على طودكِ الاسمى قناطر ضخمة ... بها يُقطَع الوادى اليك ويُعْبَر
وفى دوركِ العظمى مآثر جمة ... اذا هُدَّ منها ماثر جدّ ماثَر
وفى ظللكِ الأحمى معابدُ فخمةٌ ... معظَّمة فيها الشعائرُ تكبَر
فيا جامعا مثلَ المنارة لامعاً ... تنوّر فيه الحق من يتنور
ويا مسجدًا للعلم اسِّس والتُّقى ... وبالوعظ والارشاد ما زال يُعْمَر
وبيتاً يُعزُّ اللهُ مَن بفنائه ... يُذِلُّ ويُخزى اللهُ من يتكبَّر
أبِنْ عن جمان فيك يُنظم خالصا ... ودُرٍ كريم فى رحابك ينثَر
هَمىَ بك غيثٌ لِإبن باديس هاطلٌ ... فانت به ريانُ كاسمك (أَخْضَرُ)
أرى «الازهر »المعمورَ فيك مجدَّدا ... كما كان يحميه (المعزّ) و (جوهَرُ)
كأنك يوم الختم فى الارض جَنَّة ... مفتَّحة انهارُها تتفجَّر
سلام على العلم الذى فيك يُبتغى ... سلام على المجد الذى فيك يذكَر
سلام على الدرس الذى فيك يغتدى ... اليه من الفج العميق ويحضَر
سلام على الناس الذين به أهتدوا ... الى آية « النَّاس » التى فيه تظهَر
سلام على ثانى الربيعيْن انه ... كأوله فى أشهر العام أنوَر
سلام على « كلية الشعب » انها ... تحَف بأنصار السلام وتخفَر
سلام على شِيبٍ على الخير تلتقى ... بها وشباب للمبرة يسهَر
فيا محفلا ما مثله اليوم محفل ... حوى معشرا ما مثله اليوم معشَر
به حُلَلٌ بيض وسُود كثيرة ... وفيه رؤوس كاسيات وحسَّر
نظيرك يرقى بالبلاد ويعتلى ... ومثلك يحظَى بالمراد ويظفَر

أُفيدُك بالقول الذى ليس يُفتَرَى ... وأمحضك النصحَ الذى ليس ينكَر
صلِ العَرَبَ العرباء واحْمِ لسانَهم ... فانـك مـن أصـلابهم تتحـدَّر
وسر فى طريق الراشدين على هدى ... فكل طريق غـيرها لـك معثَـر
فهم أسـوة الخلق التى يقتدى بها ... وهم صفوة الله التى لا تكـدَّر
وهم مُثُـلى العليا الذين بفضلهم ... أتيـهُ عـلى كـل الأنـام وافخَـر
تـدبَّرْ كتابَ اللـه ان كنت أهلَـه ... فاهـلُ كتاب اللـه مـن يتدبَّـر
تغـنَّ به واجلب بـه الأنس مزهرا ... من الخلد لا يحكيه فى الارض مزهَر
تعاهـد مع القرآن وأْبَ تغـيرا ... ألست تـرى القرآن لا يتغـيَّر ؟
فأعرض عن الخُلْق الذى فيه يُزدرَى ... وأَقبل على الخُلْق الذى فيه يشكَر
واقـدم على خـير المساعى مضحيا ... ولا تـك فيهـا خائفـاً تتحـذَّر
اذا كنت حزب الله سرا وجهـرة ... فثـق أن حزب اللـه لابد ينصَـر
وثـق ان للاسلام غابا كثـيرة ... اذا غـاب منها قسـور ناب قسوَر
وثـق أن فى أرض الجزائـر أمـةً ... تُيسِّر سعيـا للعـلى وتسـيِّر
وثـق أن للتاريـخ حكماً مؤخـرا ... وكم نسخ الاحكامَ حكـمٌ مؤخَّـر
وثـق أن ملـك الارض غـير ممهد ... لمـن بـات فيهـا بالهـوى يتـأمَّر
فمن سامها بالجـور هاج عبادها ... ولـم يحمِـه منهـم سـلاح وعسكر
ومن ساسها بالعدل ساد بلادهـا ... كما ساد ذو القـرنين أو بختنصر
فيا شعـب لا يحزنك أنك تبتـلى ... وانـك تقصى عـن عـلاك وتقصر
فنحن الأساطـين التى بـك تعتـلى ... ونحن الاساطيـلُ التى بك تمخـر
ونحن الرجال الثابتون عقيـدة ... عـلى المبـدإ الاسمى الى حين نقبر
نقودك مأمـونَ المسالك سالمـا ... الى حيـث لا تشـقى ولا تتضرر.
ونطلب بالقول الصريح حقوقنـا ... ولكننا فى القـول لا نتهـوَّر
ونرضى بحكـم اللـه فى كل موقف ... فلا نكثـر الشكـوى ولا نتطـير
فثابر على الحـق الـذى أنت طالبٌ ... فانك فى تضييعه لسـت تعـذَر
ولا تـؤذِ من آذاك فالحكـم مـورد ... هنيء مرىء لم يسـؤ منـه مصدر
وكـن مستميتـا فى جهـادك ثابتاً ... وان كنت بالجـلى الرصيدة تنـذَر
وان تكـن الجـلى عليـك كبـيرة ... فحسبك فيها اللـه، واللـه أكبَرُ

محمد العيد آل خليفة

خطبة الأستاذ الإبراهيمى
التى ختم بها حفلة التكريم
للأستاذ ابن باديس فى كلية الشعب

ارتجل الاستاذ خطبته هذه فلم تصطد اقلام الكاتبين من الفاظها الا قليلا مشوشا لم يحفظ ترابط المعانى بين اجزائها ، فالح جماعة من السامعين المعجبين على الاستاذ ان يكتب ما علق بذاكرته من الفاظها ، ويضيف اليها بقلمه ما يربط معانيها ، حرصا على تخليدها فى خطب الاحتفال ، فحقق رغبتهم بكتابة ما يراه القارىء منشورا بعد هذا :

أيها المـلأ الكريـم :

ما اشرقت شمس فى الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالامس ، ولقد مضى بجلاله وروعته ولم ينطق فى وصفه لسان بكلمة ، ولا اختلجت فى نعته شفتان بحرف ، لا زهدا فيه ، ولا عدم عرفان لحقه ، ولا غبنا لحقيقته، كيوم شوقى الذى قال فيه :

غبنت حقيقته ومـات جمالهـا   بـاع الخيال المبقـرى الملهم

وانما هو كلام الله وبيت الله عقدا الالسنة بجلالهما ، وحبسا النفوس على جمالهما ، فجاء اليوم ، وجاءت كلية الشعب يقضيان من ذلك حقـا غير مغفـل .

ان يوم أمس من أيام الامم ، ولايام الامم غرر لوامع فى تاريخها ، ويد صناع فى بناء مجدها ، وصلة لا تنضب بتكوين أسباب بقائها وعظمتها ، كما انها شهود ناطقة بما فى الامة من معانى العز والعظمة .

لسنا نعنى بأيام الامم ، هذه الايام المتعاقبة التى يجمعها نسق الاسبوع، وتعرف بالاعلام ، وتمتاز بمراتبها العددية فى الشهر ، فقد تمر الآلاف منها على الامم من غير ان تجمعهم جمعها على مأثرة تكسبهم عزا ، ومن غير ان توحدهم آحادها على عمل يرفع لهم ذكرا ، ثم لا تكون زيادتها الا نقصا فى اعمار الافراد ، وابلاء للجديد من حياة المجموع .

انما نعنى هذه الايام التى هى لمع فى الدهور ، وشيات فى غرر العصور، هذه الايام التى تعرف بما يقع فيها من الاعمال ، لا بما يوضع لها من الاعلام وتذكر بآثارها فى الامم ، لا بمواقعها من الاسبوع أو الشهر ، هذه الايام التى تطول وتتسع حتى تستغرق القرون ، وتستوعب الاجيال ، على حين يبقى غيرها محدودا بمطلع الشمس ومغربها .

ان احدا من المسلمين لا يجهل يوم بدر ، ولا يجهل ـ وان كان عاميا ـ أثره فى ظهور التوحيد على الشرك ، ولكن قليلا منهم من يعرف ان اسمه يوم كذا ، وان نسبته من الشهر كذا ، وقد غربت شمس يوم بدر منذ مئات الآلاف من الايام ، وجر عليه الفلك أذيال عشرات الآلاف من شركائه فى الاسم ، فلم يعف له رسما ، ولم يطمس له أثرا ، ومات معناه الزمنى المحدود ، ولكن معناه التاريخى النفسى لم يمت بل هو باق ما بقى الاسلام، طويل العمر ما طال ، واسع المعنى ما اتسع .

ولقد علمتنا لغة العرب فنا فى مصاص الاشياء فقهنا منه ان من النساء عقائل ، وان فى الاموال كرائم ، وان فى الجواهر فرائد ، وان فى النجوم درارى ، وان فى الشعر عيونا ، وان فى الذخائر اعلاقا الى آخر ما يجرى على هذا النسق . حتى اذا وصلنا الى الايام ، وهذا أشد من كل شىء ارتباطا بشؤوننا ، لم نجد لمصاصها فى اللغة الا اوصافا يتعاورها اشتراك الموصوفات ، ويتجاذبها اختلاف الاعتبارات ، ثم يذيلها شيوع الاتصاف وتبذل الاستعمال حتى تقصر على التادية ، خصوصا حين يفيض الوصف التاريخى على الوصف اللغوى ، وان من معجزات القرآن تسميته ليوم بدر بيوم الفرقان .

ولكن يسلينا ان ما قصرت فيه اللغة فلم تات فيه بوصف يليق بجمالها وجلال هذه الايام قد وفى به التاريخ ، فلم نحفظ من أيام الامم الكثيرة الا أياما قليلة ، فكان ذلك منه تعبيرا فصيحا على ان هذه الايام هى الخوالد من بين الايام البائدة ، وهى الغرر فى الكثرة البهيمة ، وهى المشهودات وغيرها غفل ، وكان ذلك منه وضعا تاريخيا يخصص الاوضاع اللغوية ٠ فاذا قلنا هذا يوم خالد ، ويوم اغر ، ويوم مشهود ، اطمانت النفوس الى تمام التأدية بمراعاة الوضعين التاريخي واللغوى ٠

أيها الاخـوان ،

ان يومكم الذى نتحدث منه هو اليوم الاغر المحجل فى تاريخ الجزائر الحديث ، ولا أبعد اذا قلت انه اليوم الاغر فى قرون من تاريخ الاسلام ٠

هذا هـو اليوم الذى يجب أن نؤرخ لـه فى الطور الجديد من اطوار نهضتنا العلمية الدينية ، ونؤرخ به لمبدا ازدهارها واثمارها ، ونمـوها وابـدارها ٠

هذا هو اليوم الذى التفت فيه الامة حول دينها ولغتها ، فاثبتت أنها أمة مسلمة عربية يابى لها دينها أن تلين فيه للعاجم ، وتأبى لها عربيتها ان تدين فيها للاعاجم ٠

هذا هو اليوم الذى تعلن فيه هذه الامة انابتها الى ربها ، وتكفيرها عن ذنبها ، ورجوعها الى الله رجوع عبد أوبقته جرائره ، وافتضحت سرائره ، وانقطعت أواصره ، وعز مغيثه وناصره ، وظن ان لاملجا من الله الا اليه ، فرجع على الطريق التى منها هرب ، فان هروب هذه الامـة من اللـه هو تفلتها من كتابه ، وبعدها عن هدايته ، والتماسها الوصول اليه عن غير طريقه ، فضلت وتاهت قرونا ، وها هى ذى تفيء الى الله على طريق كتابه وسنة اصحابه ، وعسى هادى الحائرين ان يعود عليها بعوائد بره واحسانه ٠

هذا هو اليوم الذى يختم فيه امام سلفى تفسير كتاب اللـه تفسيرا سلفيا ليرجع المسلمون الى فهمه فهما سلفيا — فى وقت طغت فيه المادة على الروح ، ولعب فيه الهوى بالفكر ، وهفت فيه العاطفة بالعقل ، ودخلت فيه

على المسلم دخائل الزيغ فى عقائده واخلاقه وافكاره ، وفى أمة تقطعت صلاتها بالسلف ، وضعف تقديرها للقرآن ، فاصبح ملهاة آذان ، ومشغلة لسان ، واصبح حفاظها يقرءونه للتبرك أو يتجرون به فى المقابر ، وعوامها ينزلونه منزلة البصل والكراث فسيتشفون بحروفه مـن أمراض سببتها الحرارة أو جلبتها البرودة ، وعلماؤها يدرسونه بلغة المصطلحات العرفية ويتناولونه باذهان حشيت بالافكار الطائفيـة ، والتعصبات المـذهبية ، والمحامل الجـدلية ، والتوجيهات اللفظية • وبكتب ملئـت بالاسرائليات المصنوعة ، والآثار الموضوعة ، والنظريات - والطلبة ـ وهم صرعى هذه الفتن ـ يتلقونه بالسنة جافت البيان العربى وصرفتها العجمة فى منهاج غير منهاج العرب ، ففسد الذوق واختل التصور ـ وبافكار غطـى عليها الجمود ، وسد عليها منافذ التفكير ـ وبنفوس ركبها الملل والسأم ، فرضيت بسماع ما لا يفهم ، وتلقى ما لا يعقل ، وهان الزمان فى حسابها فاصبحت تنفق منه جزاءا ، واختل تقدير الاشياء عندها فاصبح كل مقروء علما ، وكل قارىء عالما •

واشهد ، لقد كنت ضيفا بتونس منذ سبع عشرة سنة ، فقيل لى عـن عالم من مشائخ جامع الزيتونة ومن ابعدهم صيتا فى علم التدريس : انه يقرىء التفسير ، فشهدت يوما درسه لاكون فكرة عن دراسة التفسير فى ذلك المعهد الجليل ، وكنت معنيا بهذا البحث ، وجلست اليه أكثر مـن نصف ساعة ، فو الذى نفسى بيده ما سمعت منه كلمة واحدة من الآيـة التى هى موضوع الدرس ، ولا لمحت امارة ولا اشارة تدل على ان الدرس فى التفسير ، وما كان كل الذى سمعت الا حكاية لجدل عنيف ، وتمثيـلا لمعركة مستعرة بين السيد الجرجانى وعبد الحكيم حول عبارة لعلها لمفسر من المفسرين الاصطلاحيين ، ثم انقضت الحصة ، وقـام الطلبة المساكين يتعثرون تبدو عليهم سيماء التعب والملل والخيبة ، وقمت أنا مستيقنا ان هذه الطريقة فى التفسير هى أكبر الحجب التى حجبت المسلمين عن فهـم كتاب الله ، ثم زهدتهم فيه وصدتهم عن موارده •

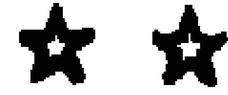
أيها الاخـوان ،

ان الامـة الاسلامية التى يقـرأ الناس اخبارها فى التاريخ فيقرءون المدهش المعجب ، ويرى الناس آثارها فى العلم والتشريع ، والادب والحكمة فيرون الطراز العالى البارع ، فيستوى المحب والمبغض فى الاعتراف بـأن امة هذه أخبارها ، وهذه آثارها ، لهى الامة حق الامة ـ ان تلك الامة ما كانت أمة بذلك المعنى وتلك الاوصاف الا بالقرآن .

فالقرآن هو الذى رباها وأدبها وزكى منها النفوس ، وصفى القرائح ، وأذكى الفطن ، وجلا المواهب ، وارهف العزائم ، وهذب الافكار ، وأعلى الهمم ، واستفز الشراعر ، واستثار القوى ، وصقل الملكات ، وقـوى الارادات ، ومكن للخير فى النفوس ، وغرس الايمان فى الافئدة ، ومـلأ القلوب بالرحمة ، وحفز الايدى للعمل النافع ، والارجل للسعى المثمـر ـ ثم ساق هذه القوى على ما فى الارض من شر وباطل وفساد فطهرها منه تطهيرا ، وعمرها بالخير والحق والصلاح تعميرا .

أيها الاخـوان ،

قارنوا بين هذه الامة الاسلامية المطوية فى بطن الارض وفى بطـون الكتب ـ وبين هذه الامة الاسلامية التى تدب على وجه الارض تجدوا الفرق بعيدا جدا ، ووجوه الشبه مفقودة البتة ، مع وجود الاشتراك فى الاسـم والنسبة ، ثـم التمسوا السبب تجدوه قريبا منكم ، ـ وما هـو الا هذا القرآن ، أقامه الاولون وجمعوا عليه قلوبهم ، وراضوا نفوسهم على أخلاقه فعلمها الايمان والامان والاحسان ، واتخذه الآخرون مهجورا فحقت عليهم كلمة الله فى امثالهم . فمن لى بمن يرسلها فى مسلمى الدعوى والعصبية صيحة داوية : يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا الْقُرْآنَ !؟



أيها الاخـوان :

ان هذه البسيطة لم تشهد منذ دحاها الله صلاحا عاما وسعادة شاملة كالذى جاءها به القرآن يوم انزله الله على قلب نبيه محمد صلى الله عليه

وسلم ، فانذر به العالمين ، ونشره ورثته الامناء من بعده نقي الجوهر ناصع الحجـة ٠

وان هذا العالم الانساني لم يشهد منذ براه اللـه على ظهرها افسادا عاما وشرا مستحكما وطاعونا اخلاقيا جارما الا مرتين ـ على كثرة ما شهد من الطواعين الجسمانية ٠

اما احداهما فكانت قبل الاسلام ، يوم كان العالم الانساني كله فريسة للاثرة والاستعباد ، والاستبداد والفساد والافساد ، ويـوم كان بحـرا متلاطم الامواج بالرذائل ، ويوم كان العقل عبدا للهوى ، والفكر عبـدا للوهم ، والحقيقة أمـة للخرافة ، والفطرة رهنية الاعتلال والاختلال ٠ ويوم كان هذا العالم كله خاضعا لشهوات مضطرمة ، وحيوانية عارمة ، ووثنية متغلغلة ٠

ولكن الله جلت قدرته ، تداركه ـ وبه رمق ـ بالاسلام دين الاسلام ، وكتابه القرآن ، كتاب العـدل والاحسان ، وبرسوله الامين يحمل منـه للعالم المثخن،الدواء الشافي ، ويمسح على مواقع الالم منه بالكف الكافي ٠ فما هي الا فترة حتى اصبح العالم يمرح في السعادة ويسبح في النعيم ، وينعم بالاخوة والتسامح ، ويتقلب في اعطاف العدل ٠

واما الثانية فهي في عهدكم هذا ٠

ولو انكم تستشهدون التاريخ : اية المرتين كانت اشر وأشر ، وأدهى وأمر ، لقال لكـم غير متجانف لاثم لقال لكـم : ان شر المرتين آخرتهما ! ولساق لكم من الحجج ما لا تستطيعون له دفعا ـ فان الشر الاول كان من بعض دعاويه الجهل ، اما هذا فكل دواعيه العلم ٠ وقد كان الشر يعرض على الناس باسمه وفي ثوبه الحقيقي فاصبح يعرض عليهم باسم الخير وفي ثوب الخير ٠ وقد كان العالم متباعد الاجزاء متقطع الاوصال ، وفي تباعد الاجزاء تقليل من بواعث الشر ، فاصبح العالم مزدحما حتى ليكاد يلتحم ٠ ومن ازدحامه والتحامه نشات معضلته الاجتماعية الكبرى وهـي مشكلة الاغنياء والفقراء التي لم يفلح في حلها علم العلماء ، ولا حكمة الحكماء ، ولا قوة الاقوياء ، ولا دهاء الدهاة ٠ والتي تفاقم خطبها واضطرم لهيبها

حتى اصبح بنو آدم المتآخون فى نسبه فريقين مضطغنين يتربص كل فريق بأخيه دائرة السوء ، ويا ويل هذه الارض اذا انفجرت الاحقاد بين ابنائها !

وقد عرفنا التاريخ أن أصل البلاء بين البشر جاء من عصبياتهم المختلفة، وكان مما يهون تلك العصبيات انها محدودة ، وانها تعالج بعصبيات أخرى، فيخف ضررها، وتتلاشى قوتها ـ ولكن مشكلة اليوم ان تلك العصبيات التى كانت تنفع حيناً وتضر أحيانا ذابت كلها فى عصبيتين جامحتين كلتاهما ضرر ، وكلتاهما شر ·

ان رحمة الارض آتية من السماء، وقد جاءت أديان السماء فعلمت الفقير كيف يرضى ويصبر ، وعلمت الغنى كيف يحسن ويرحم ، فلماذا لا يرجع بنو الارض الى حكم السماء ورحمته ؟ ولماذا لا يلتمسون مثل الاحسان الكاملة فى القرآن ؟

أيها الاخوان :

هذا داء العالم البشرى فأين دواؤه ؟ وهذا مرضه العضال فأين طبيبه ؟ وهل يتداركه الله بلطفه فيهدى البشر الى اتباع ما جاء به القرآن من تسامح وتعاون على الخير ؟

فيا أيها المشفقون على العالم الانسانى ان ياكل بعضه بعضا ـ انصحوه بالرجوع الى الاسلام وكتابه ، يجد فيهما ظلال السلم ، وبرد الرحمة ، وعز القناعة ، وشرف التقوى ، ويتمتع من كل ذلك بنعمة السلام ·

ويا أيها المسلمون : انتم أطباء هذه المعضلات ولكنكم جاهلون ، وانتم الحكم المرضى فى هذه المشكلات ولكنكم غائبون ، ولو كنتم حاضرين حضور سلفكم لمشاهد العالم ومنازعاته العامة لوقفتم ـ كما وقفوا ـ بعقائدهم وسطا بين التناهي والتقصير ، وبزكاتكم المرضية حكما بين الغنى والفقير ، وبرحمة الاسلام سدا بين الآجر والاجير ، واذا لزرعتم فى طول العالم وعرضه الخير والرحمة ، وكشفتم عن أقويائه وضعفائه كل كرب وغمة ، واذا لرفعتم عن العالم هذه الاصار والاغلال ، وفزتم من بين حكمائه وعلمائه بتحقيق نقطة الاشكال ·

ان العالم فى عذاب وعندكم كنز الرحمة ، وان العالم فى احتراب وعندكم منبع السلم ، وان العالم فى غمة من الشك وعندكم مشرق اليقين ، فهل يجمل بكم ان تعطلوه فلا تنتفعوا به ولا تنفعوا ٠

طبقوا على انفسكم جزئية واحدة من اصلاحاته كالزكاة ، واظهروا بها للعالم على صورتها العملية الكاملة ، وحقيقتها العلمية العليا ، ثم قفوا بين الصفين ــ لا كموقف عمرو بمصاحفه يوم صفين ــ واشربوا نفوسهم ما اشربت نفوسكم من معنى قوله تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » ٠ ومن معنى قوله تعالى : « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » ، وانا الضمين لكم انهما يتحاجزان ويتسامحان فى طرفة عين ٠ ان دينكم دين اصلاح ، وسبب اصلاح ، ومظهر اصلاح ٠ وكما أوجب عليكم الاصلاح بين المؤمنين مدح الاصلاح بين الناس ٠

أحيوا قرآنكم تحيوا به ، حققوه يتحقق وجودكم به ، افيضوا من اسراره على سرائركم ، ومن آدابه على نفوسكم ، ومن حكمه على عقولكم ، تكونوا به اطباء ، ويكن بكم دواء ٠



« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ٠

هذه الآية هى دستور الاسلام العام ، وهذه الآية هى التى نواجه بها كل من رمانا بالتعصب او بالظلم أو بالانانية أو بالقسوة ٠ وصدى هذه الآية هو الذى سمعه الناس مرددا فى الجامع الاخضر خمسا وعشرين سنة آخرها أمس ٠

أيها الاخوان :

تكلم الخطباء والشعراء فى المعنى الذى أقيمت لاجله الحفلة ، وهو تكريم أخينا الاستاذ عبد الحميد بن باديس وتمجيد اعماله فى خدمة الدين والعربية والعلم ، وشغلتهم حقوق هذه الحفلة عن حقوق يوم أمس

المشهود ، وأوشكنا ان نضيع واجبه ، وان يمر فلا يتغنى باوصافه لسان ٠ ولعل الاقلام تجفوه تبعا لذلك فلا يجرى فى وصفه قلم ٠

وقد توزعتني الخواطر حين قمت : أاسلك ما سلكه الخطباء والشعراء من تمجيد أخينا بما هو أهله ؟ ولو انى جريت فى هذا المضمار وأسلس لى الكلام قيادة ـ كان في ذلك الوفاء لاخينا المبجل ، والجفاء ليومنا الاعز المحجل ، وان انا قمت بما يوجبه الوفاء ليوم القرآن ، قصرت فى حـق أخ أعتقد ان ما قاله الشعراء والخطباء في حقه قليل ، وكيف نفى حفلة مثل هذه محدودة الساعات بتمجيد رجل طوقت هذا الوطن مننه !

فان قمت ببعض ما يجب للقرآن وليـوم القرآن فحسبى فى التنويه باعمال أخى الاستاذ ان هذا اليوم بعض حسناته (*) ٠

محمد البشير الابراهيمى

(*) الشهـاب : ج 4 ـ م 14 ـ ربيـع الثانى وجمـادى الاولى 1357 هـ جوان ـ جويلية 1938 م ٠

كلمة المحتفل به

ختم الاستاذ عبد الحميد بن باديس حفلة تكريمه بكلمة بليغة شكر بها الوفود الحاضرة، وعاد بهم الى الماضي فوزع معاني التمجيد والتكريم التي تجلت عنها الحفلة ـ على الاصول التي كونته • فكانت كلمته درسا في التواضع وعرفان الجميل عرف منه الحاضرون ناحية نفسية من أخلاق الاستاذ المحتفل به • وقد حافظنا ما استطمنا على معاني تلك الكلمة اذ فاتنا أن ننقل الفاظها ، قال حفظه الله :

أيها الاخوان :

أنتم ضيوف القرآن • وهذا اليوم يوم القرآن • وما أنا الا خادم القرآن •

فاجتماعكم على تنائي الديار وتباعد الاقطار هو في نفسه تنويه بفضل القرآن ودعوة جهيرة الى القرآن في وقت نحن أحوج ما نكون الى دعوة المسلمين الى قرآنهم • فهل علمتم أنكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات اهونها ما سميتموه احتفالا بشخصي •

ان أقوال خطبائكم وشعرائكم كلها في الحقيقة اشادة بيوم القرآن ووفود القرآن وكل ما لي من فضل في هذا فهو أنني كنت السبب فيه •

أيها الاخوان :

أنا رجل أشعر بكل ما له أثر في حياتي • وبكل من له يد في تكويني• وان الانصاف الذي هو خير ما ربى عليه امرؤ نفسه ـ ليدعوني أن اذكر في هذا الموقف التاريخي العظيم بالتمجيد والتكريم كل العناصر التي كان لها الاثر في تكويني حتى تأخذ حظها مستوفى من كل ما افرغتم على شخصي الضعيف من ثناء ومدح بالقول والفعل • فاني اشهد الله انكم بالغتم في التحفي بي والتنويه باعمالي ، وأشهد أن هذا التحفي عسير على جزاؤه

ثقيل علي حمله ، فلعلي اذا ذكرت هذه العناصر ووفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التنويه وتقاضت حقوقها من الثناء الذى أثقلتم به كاهلي • فأكون بذلك قد أرضيت ضميرى وخففت عن نفسي •

أن الفضل يرجع أولا الى والدى الذى رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة • ورضي لى العلم طريقة اتبعها، ومشربا أرده، وقاتني واعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا • وكفاني كلف الحياة، فلأشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر ، ولأكِل ما عجزت عنه من ذلك لله الذى لا يضيع جزاء العاملين •

ثم لمشائخي الذين علموني العلم وخطوا لى مناهج العمل فى الحياة ولم يبخسوا استعدادى حقه ، وأذكر منهم رجلين كان لهما الاثر البليغ فى تربيتي وفى حياتي العملية ، وهما من بين مشائخي اللذان تجاوزا بى حد التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي — الى التربية والتثقيف والاخذ باليد الى الغايات المثلى فى الحياة •

أحد الرجلين الشيخ حمدان الونيسى القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها ، وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله •

واني لأذكر للأول وصية أوصاني بها وعهدا عهد بى الي، وأذكر ذلك العهد فى نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مدينا لهذا الرجل بمنه لا يقوم بها الشكر ، فقد أوصاني وشدد علي أن لا أقرب الوظيفة ولا ارضاها ما حييت، ولا اتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي فى ذلك الوقت •

وأذكر للثاني كلمة لا يقل أثرها فى ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية فى ناحيتي العملية، وذلك انني كنت متبرما بأساليب المفسرين وادخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية فى كلام الله ، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن ، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى فى دين الله وكتاب الله • فذاكرت يوما الشيخ النخلي فيما أجده فى نفسي من التبرم والقلق

فقال لى : اجعل ذهنك مصفاة لهذه الاساليب المعقدة وهذه الاقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبق الصحيح وتستريح .

فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهنى آفاقا واسعة لا عهد له بها.

ثم لإخوانى العلماء الأفاضل الذين وازونى فى العمل من فجر النهضة الى الآن ، فمن حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التى تتيه بها على الاقطار انه لم يجتمع فى بلد من بلدان الاسلام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم مؤتلفة القصد والاتجاه مخلصة النية متينة العزائم متجابة فى الحق مجتمعة القلوب على الاسلام والعربية قد الف بينها العلم والعمل ـ مثل ما اجتمع للجزائر فى علمائها الابرار فهؤلاء هم الذين ورى بهم زنادى وتأثل بطارفهم تلادى ، أطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم .

ثم لهذه الأمة الكريمة المعوانة على الخير ، المنطوية على أصول الكمال ، ذات النسب العريق فى الفضائل، والحسب الطويل العريض فى المحامد .

هذه الامة التى ما عملت يوما ـ علم الله ـ لارضائها لذاتها،وانما عملت وما أزال أعمل لارضاء الله بخدمة دينها ولغتها،ولكن الله سددها فى الفهم وأرشدها الى صواب الرأى فتبينت قصدى على وجهه وأعمالى على حقيقتها فاعانت ونشطت باقوالها واموالها وبفلذات أكبادها . فكان لها بذلك كله من الفضل فى تكوينى العملى اضعاف ما كان لتلك العناصر فى تكوينى العلمـــى .

ثم الفضل أولا واخيرا لله ولكتابه الذى هدانا لفهمه والتفقه فى أسراره والتأدب بآدابه . وان القرآن الذى كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا فى الخلف لو احسن فهمه وتدبره وحملت الانفس على منهاجه.

أيها الاخـــوان :

اذا لم يكن لى فى حياتى العلمية من لافت للقرآن الا تلك الكلمة التى سمعتها من الشيخ النخلى ، وقد فعلت فعلها فى نفسى وأوصلتنى فى فهمى الى الدرجة التى تحمدونها اليوم،فاننا ـ والحمد لله ـ نربى تلامذتنـا على القرآن من أول يوم،ونوجه نفوسهم الى القرآن فى كل يوم،وغايتنـا

التى ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم،وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الامة آمالها،وفى سبيل تكوينهم تلتقى جهودنا وجهودها • وان أعز ما وصلنا اليه هو تبين الغاية وتلاقى الجهود •

وفقنا الله واياكم للاعمال الصالحة ، ورزقنا الاخلاص فيها ، والثبات عليها ، انه سميع مجيب (*) •

(*) الشهاب : ج 4 ، م 14 – ربيع الثانى – جمادى الاولى 1357 هـ جوان – جوليت 1938 م •

كلمـة عن الجامع الاخضر
عمـره اللـه

بقلم الامام عبد الحميد بن باديس

الجامع الاخضر أحـد الجوامع الثلاث الجمعية الباقية بعد الاحتلال الفرنسي بقسنطينة ·

امـا مؤسسه فهو حسين بك بن حسين 1149 ـ 1167 هـ ـ 1754 م فحكم البلاد 17 عاما مقتفيا أثر سلفه في سياسة التعمير والانشاء فنظم المدينة وخطط شوارعها وأنشأ منازل رفيعة وبناءات ضخمة لكامل أعيان البلد · وحافظ على توطيد الامن طيلـة مدة حكمه · وكما كان لـه ولـع بالعمارة كانت له عناية فائقة بالعلم ، فقد وجد في المحفوظات الكتابية اذن صدر منه لعائلة ابن وادفل في تأسيس مدرسة عليا للحقوق بالمسجد الذى امرهم بتأسيسه في عين فوا · وبنى الجامع الاخضر للتعليم كما هو منقوش فوق مدخل بيت الصلاة وهذا نصه :

« أمر بتأسيس هذا المسجد العظيم ، وتشييد بنائه للصلاة والتسبيح والتعليم ، ذو القدر العلي والتدبير الكامل وحسن الراى ، أميرنا وسيدنا حسين باى أدام الله أيامه · وكان تمام بنائه أواخر شهر شعبان سنة ست وخمسين ومائة وألف » · ودفـن مؤسسه ـ رحمه اللـه ـ في التـربة المجاورة للجامع مع عائلته وبعض العلماء رحمهم الله اجمعين ·

والجامع لهذا العهـد ليس لـه مدرس رسمي امـا في العهد المـاضي فلا شك أنه كان به من يدرس العلم ، اذ لا شك ان مؤسسه ـ وقد كان مشهورا بنشر العلم وبنى مسجده للتعليـم ـ لابد ان يكـون أوقف أوقافا للتعليم فيه فاستولت عليها السلطة كما استولت على سائر الاوقاف ·

اما بداية تعليمى فيه فقد كانت أوائل جمادى الاولى 1232 هـ ، وكان ذلك بسعى من سيدي أبى لدى الحكومة فأذنت لى بالتعليم فيه بعدما كانت منعتنى من التعليم بالجامع الكبير بسعى المفتى فى ذلك العهد الشيخ المولود ابن الموهوب ٠

وقد يسر الله لنا بفضله القيام بالتعليم فيه الى اليوم ، والله نسأل ان يجازى كل من اعاننا فيما قمنا به كل خير ، وان ييسر لنا القيام بخدمة العلم فيما بقى من العمر ٠ وان يختم لنا بخاتمة السعادة اجمعين آمين ، والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين (1) ٠

(1) الشهاب : ج 4 م 14 ، ربيع الثانى وجمادى الاولى 1357 هـ ـ جوان جوليت 1938 م ٠

ترجمة موجزة للشيخ
عبد الحميد بن باديس

مولده واسرته :

ولد عبد الحميد بن باديس ، بمدينة قسنطينة ، في يوم الاربعاء 10 ربيع الثاني 1307 هـ ، الموافق لـ 4 ديسمبر 1889 م • ونشأ في أسرة عريقة معروفة بالعلم والجاه واليسار ، فكان من اجداده الاولين (المعز ابن باديس) مؤسس الدولة الصنهاجية الاولى التي خلفت دولة الاغالبة على مملكة القيروان ، ومن أسلافه المتأخرين (المكي بن باديس) الذي تولى منصب القضاء بقسنطينة . ووالده (محمد المصطفى بن مكي بن باديس) صاحب مكانة مرموقة وشهرة واسعة ، جعلته موضع التقدير والاحترام بقسنطينة ، وأمه كريمة من كرام عائلة ابن عبد الجليل (ابن جلول) ، تدعى زهيرة بنت علي الاكحل •

نشأته وثقافته : لقي الشيخ عبد الحميد بن باديس في كنف والده ، ما يلقاه ، عادة ، أول الابناء من رعاية واهتمام في الاسر الكريمة ، فقدمه أبوه الى الشيخ (محمد بن المداسي) أشهر مقرئي قسنطينة ، فلقنه القرآن الكريم وأتقن حفظه ، ولما يتجاوز ثلاثة عشر عاما • وفي عام 1903 ، بدا مرحلة جديدة في التعلم على العالم الجليل ، المربي النصوح : الشيخ حمدان ابن لونيسي ، فاخذ عنه مبادىء العلوم العربية والدينية ، وكان له أثره البالغ في مجرى حياته كثيرا ما نوه به في مجال الاعتراف بمن لهم عليه فضل •

وفي عام 1908 م ، سافر الى تونس لاتمام دراسته في جامعة الزيتونة ، وتتلمذ على مشاهيرها الاعلام ، أمثال الشيخين : محمد النخلي القيرواني

ومحمد الطاهر بن عاشور ، ونال شهادة العالمية من الجامعة الزيتونية عام 1911 م ، وبقى بتونس عاما بعد تخرجه ، يشتغل بالتدريس فى جامع الزيتونة ٠

رحلته الى الحجاز : وفى عام 1912 م ، عاد عبد الحميد بن باديس من تونس الى وطنه ، ليبدأ جهاده فى سبيل نشر العلم واللغة والدين ، وفى الجامع الكبير بقسنطينة ، بدأ يلقى دروسه ، ولكنه قطع عمله فى العام نفسه الذى بدأ فيه ، وسافر الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، وهناك التقى بأستاذه : الشيخ حمدان الونيسى ، وتعرف على الاستاذ : محمد البشير الابراهيمى ونشأت بينهما صداقة ، وتلاقت أفكارهما فى وجوب انشاء حركة اصلاحية بالجزائر ، ورسما لها منهاجها بحكمة ومهارة ٠

وعند رجوعه ، عرج على مصر ، فالتقى ببعض علمائها من أمثال مفتى الديار المصرية الشيخ محمد بخيت المطيعى وشيخ علماء الاسكندرية ، أبى الفضل الجيزاوى ، فأجازه كل منهما ٠

نشاطه فى الاصلاح الدينى والعلمى والاجتماعى :

تعددت الميادين التى ناضل فيها الشيخ عبد الحميد بن باديس ، بتفان واستماتة ، ويمكن ايجاز القول عن أهمها فيما يلى :

1) **التعليم :** اتخذ الشيخ عبد الحميد بن باديس من الجامع الاخضر معهدا لنشاطه العلمى والتعليمى والتربوى ، فكان يدرس للطلاب كامل النهار ، ويلقى دروس الوعظ والارشاد فى المساء للكبار ٠ وفى هذا المسجد ، كان يلقى دروس تفسير للقرآن الكريم الذى أتم ختمه تدريسا ، فى مدة خمس وعشرين سنة ، بالجامع الاخضر ، فى قسنطينة ٠ وفى خلال أيام 12 ـ 13 ـ 14 ربيع الثانى 1357 هـ (11 ـ 12 ـ 13 يونيو 1938 م) أقامت قسنطينة ، حفلا تاريخيا جليلا ، أشرفت على اعداد برنامجه جمعية التربية والتعليم ، وشعبة جمعية العلماء بقسنطينة . وبعد سنة واحدة بالضبط ـ بعد اقامة حفل ختم التفسير ، أقيم حفل ثان بمناسبة ختم الشيخ تدريس كتاب « الموطأ » فى الحديث ، وذلك لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الثانى 1358 هـ الموافق لفاتح جوان 1939 م ٠

2) **الصحافة** : راى الشيخ عبد الحميـد أن حركـة الاصلاح الدينى والاجتماعى يجب الا تقتصر على العملية التربوية والتعليمية ، فانشـا صحافة عربية كانت منبرا رحبا يعلن فى عزم وثقة أن الحركة الاصلاحية الجزائرية ، حركة شعبية أصيلة تعمـل لاحياء التراث الثقافى لـسلامة ، وتنقيته من الشوائب التى علقت بـه ، وتنشر الوعى الدينى والاجتماعى والوطنى ، وهكذا أصدر جريدة (المنتقد) عام 1925 ، ثم صحيفة (الشهاب الاسبوعى) التى حولها الى (مجلة الشهاب) الشهرية منذ فبراير 1939 م، ومجلات أخرى ، منها (الشريعة) و (السنة) و (الصراط) و (البصائر) ٠

وقد قامت هذه الصحافة بعمل ايجابى ضخم ، فى مجال اليقظة الفكرية والوعى الوطنى ، والاصلاح الدينى واحياء اللغة العربية ، محبطا بـذلك كله ، مخططات الاستعمار الرامية الى تشويه الشخصية الجزائرية فى كل الميـادين ٠

تاسيس جمعية العلماء المسلمين : فكر ابن باديس ، بـدءا من سنـة 1924 م فى تاسيس جمعية تتولى تنظيم الجهود ، وتقوم بالاعمال المختلفة المتعددة الجوانب ، من أجل النهوض بالجزائر فى جميع المجالات ، فتحقق له ذلك عام 1931 م ، وانتخب رئيسا لها فى غيابه ، وضم مجلسها الادارى مجموعة من العلماء والادباء ، واقترن تأسيسها بالاحتفال المئوى لاحتلال الجزائر ، بعد أن تأكدت السلطة الاستعمارية أنها قضت على الشخصية الجـزائـريـة ٠

عوامل نبـوغه : اجتمعت عوامـل متعددة أثرت فى تكوين شخصية ابن باديس ، العلمية والثقافية ، وأهمها :

1 ـ ذكاؤه واستعداده الفطرى ، وقوة عزيمته الصلبة ، وقدرته على المواجهة وتخطى الصعاب ٠

2 ـ أسرته التى عرفت بالعلم والمجد واليسار ، فقد هيأت له فرص التفرغ للدراسة والتعليم ، وأمدته بمعـونة ماليـة ، جعلته حرا لا يتقيد بوظيفة أو عمل ، كما كانت درعا واقية له من بطش المستعمرين ٠

3 ـ ثقافته الدينية والعربية ، وأعظمها تأثيرا فى فكره وأسلوبه ، هو القرآن الكريم ·

4 ـ حركة الاصلاح فى العالم الاسلامى والعربى ، التى عاصرها ابن باديس ، وكان لجريدة العروة الوثقى ومجلة « المنار » أثر بارز فى حياته الثقافية واتجاهه الاصلاحى والاجتماعى ·

5 ـ أحداث عصره ، وظروف مجتمعه التى عاشها ابن باديس وخاض غمارها ، بالفكر والقلم واللسان ·

آثاره العلمية : من آثاره الهامة ، تفسيره للقرآن الكريم الذى دام القاؤه بجامع الاخضر خمسا وعشرين سنة ، وكان منه آيات من سور مختلفة ، كتبها ونشرها فى مجلة الشهاب ، وهى التى تقرأها فى هذا السفر الجليل ·

وفاته : ظل الاستاذ الامام عبد الحميد بن باديس يواصل جهاده فى جميع الميادين ، من أجل العلم والوطن والعروبة والاسلام ـ بالرغم من نحالة جسمه ـ ، بايمان وعزم ، الى ان انتقلت روحه الطاهرة الى الرفيق الاعلى ، مساء يوم الثلاثاء ، 8 ربيع الاول سنة 1359 هـ (16 افريل 1940 م) ، وقد شيعت جنازة الشيخ فى موكب عظيم حضرته مختلف الطبقات والهيئات التى عدت بعشرات آلاف ، جاؤوا من جميع أطراف الوطن · وقام بتأبينه ، قبل مواراته التراب ، رفيقاه فى الجهاد العلمى : الشيخ مبارك الميلى والشهيد الشيخ العربى التبسى ، ثم الدكتور بن جلول · وقد دفن جثمانه فى روضة أسرته بحى الشهداء بقسنطينة ، رضى الله عنه فى الخالدين ·

رحمك الله يا ابن باديس ، عشت ومت مجاهدا من أجل الجزائر والعروبة والاسلام ، فربطت الجزائر العربية المسلمة ذكرى وفاتك بيوم العلم الذى تحتفل به كل سنة تقديرا وتخليدا لجهادك وعلمك من أجل تكريم الانسان وتحرير الاوطان ·

---

(1) عن المختار فى الادب والنصوص والتراجم الادبية (المعهد التربوى) · بزيادة وتصرف ·

رسالة شكر وتصريح

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف خلق الله ..

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ »

قسنطينة في 18 رجب 1402 هـ الموافق 12 ماي 1982م

حضرة الأخ الشيخ عبد الرحمن شيبان

وزير الشؤون الدينية .. سلاما عاطرا وتحية مباركة .

اما بعد ، فنظرا لعزم وزارة الشؤون الدينية على طبع تفسير القرآن الكريم، الذي كان ينشره أخي الإمام عبد الحميد بن باديس في افتتاحيات مجلة " الشهاب " الغراء - تحت اشراف حضرتكم - فانه لا يسعني إلا أن أشكركم على هذا العمل العظيم ، الذي يعود - ان شاء الله - بالخير الجزيل على الجميع ؛ ويسجل صفحة من صفحات تاريخ الجزائر المجيد .

ثم إني ، باسمي الخاص ونيابة عن أسرة الإمام عبد الحميد بن باديس ، أصرح لكم بموافقتنا على هذا الطبع المبارك ، داعيا لكم بالتوفيق . كما أذكركم - سيدي الوزير - أني مستعد دائما لمدكم يد المساعدة ، بكل ما في وسعي ، على كل مبادرة ترون فيها خيرا ومنفعة للصالح العام ..

وأخيرا تقبلوا - سيدي الوزير - تشكراتي الخالصة ، مع كل احترام .

من أخيكم في الله : عبد الحق بن باديس

المحتـــوى

ســـورة النمـــل

ملك النبوة : مجمع الحق والخير ، ومظهر الجمال والقوة :

ســـورة يس

ســـورة الذاريـــات

خلاصة تفسير المعوذتين

ســـورة الفلـــق

ســـورة النـــاس

لـــواحـــــق

ردمك: ISBN : 978-9947-24-119-6
الإيداع القانوني: 2007-494

سحب الطباعة الشعبية للجيش
الجزائر - 2007





ISBN 978-9947-24-119-6
